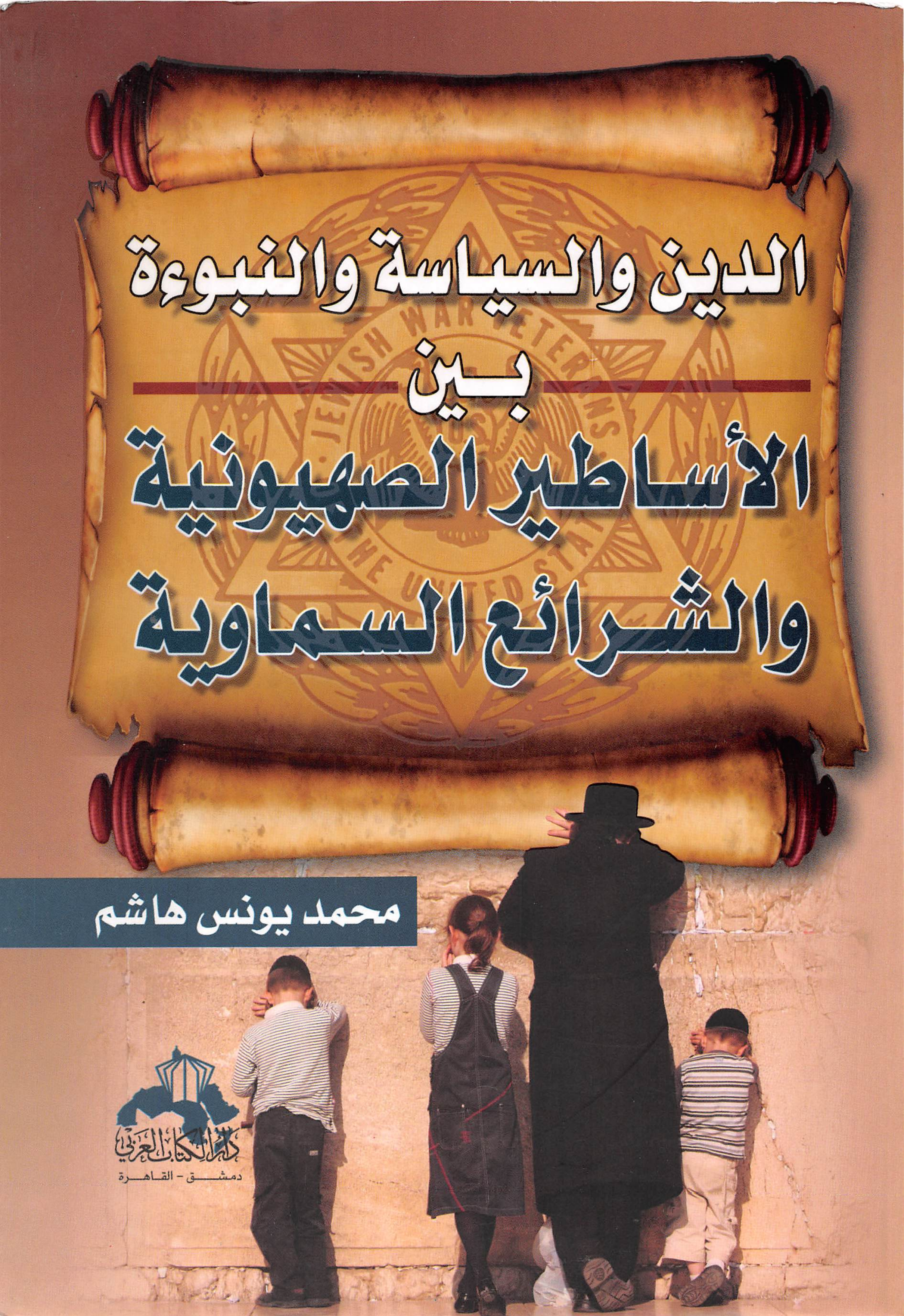


الدين والسياسة والنبوءة
بين
الأساطير الصهيونية
والشرائع السماوية
محمد يونس هاشم
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

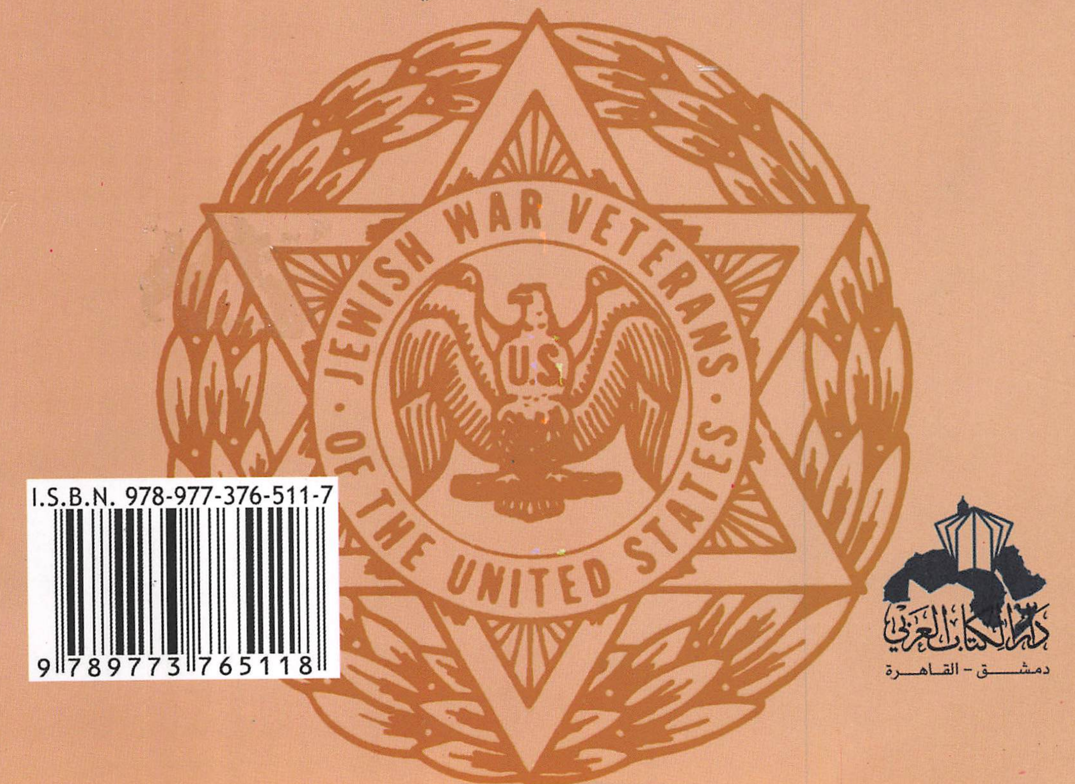
■ إن تفكير زعماء الصهيونية مبني على عدة أساطير يؤسسون عليها سياستهم، وعلى أساس هذه الأساطير قام الكيان الإسرائيلي.. والتفكير العنصري الذي تبنته الصهيونية الحديثة إنما يعود بأصوله إلى فهم انتقائي جزئي لتوراة اليهود، فقد طورت الصهيونية كثيرا من المفاهيم القومية ذات الطابع العنصري، ومن هذه المفاهيم ما استمدته من توراة اليهود مثل أساطير: شعب الله المختار، وأرض الميعاد، وقصر السامية على اليهود وحدهم، والخلاص الإلهي لليهود في آخر الزمان.

ومنها أساطير سياسية أضافتها الصهيونية وجعلتها من المقدسات يحرم المساس بها وهي: أساطير: البقاء والاستمرار اليهوديين، عداء الأغيار الأزلي لليهود، أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وإبادة النازيين ستة ملايين من اليهود (الهولوكوست)، عداء الصهيونية للنازية والفاشية، المعجزة الإسرائيلية، بناء اليهود لأهرام مصر.

وهذه الأساطير سواء أكانت دينية أم سياسية لم تتجلَّ في أقوال الصهاينة فحسب بل تجلت في ممارستهم العملية التي لاقت - ليس فقط - مباركة الغرب بل وتأييده ودعمه.

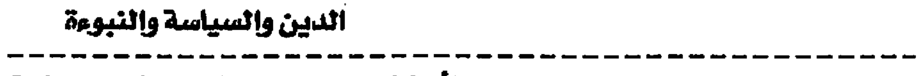
وهذا الكتاب يحاول أن يكشف أساطير الصهيونية التي تسعى إلى جعل الدين أداة للسياسة بإضفاء القداسة عليها عن طريق قراءة حرفية وانتقائية للتوراة، ويبين موقف الشرائع السماوية منها.

وسارت خطة البحث في هذا الكتاب على عرض كل أسطورة مؤيدة بمصادرها التي تؤكدها، والرد عليها ردا علميا مؤيدا بالأدلة الدينية والتاريخية والمنطقية.



I.S.B.N. 978-977-376-511-7
9 789773 765118

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة


الدين والسياسة والنبوءة
بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية

اسم الكتاب: الدين والسياسة والنبوءة بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية

إعداد: محمد يونس هاشم

المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبد الرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٠٩/٢٢٨٦٧

الترقيم الدولي: 7 - 511- 376 - 977 -978

التنفيذ الفني: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفني: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. اسعد بكري كوسا

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النوري - امام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثانى - ت: ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى

٢٠١٠

سوريا- دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥

مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٣٩١٦١٢٢/٢٣٩٣٣٦٧١

لبنان - تلفاكس: ٠٥/٤٣٤١٨٦ تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات

darkitab2003@yahoo - com - darkitab - nassif@hotmail - com

عنوان الموقع: www-darketab-com - عنوان البريد الألكتروني التابع للموقع: info@darketab-com

الدين والسياسة والنبوءة

بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية

◆

محمد يونس هاشم

الطبعة الأولى

الناشر

دار الكتاب العربي

٢٠١٠

مقدمة

لم تكتف الصهيونية باستخدام الآلة العسكرية الجبارة في اغتصاب ما ليس لها بحق بل راحت تروج لأساطير دينية وسياسية لتضفي الشرعية على أعمالها الإجرامية وراحت آلتها الإعلامية الجبارة تؤكد هذه الأساطير وتخلع عليها ثوب القداسة، وهرولت الشعوب الغربية إلى تصديق هذه الأساطير بل والعمل على تحقيقها، متهمة من يعارض هذه الأساطير بالقول أو الفعل بالتطرف والإرهاب، وكانت النتيجة أن عُدَّ يهودُ الشتاتِ شعبَ اللهِ المختار المستحقَّ للوعود الإلهية بتملك أرض فلسطين بعد تشتيت أهلها !! وأن أي مقاومة لهذه الأفكار والممارسات يعد جريمة في حق اليهود الذين عانوا من اضطهاد الأغيار لهم على طول الزمان !!

والذي ساعد على رواج هذه الأساطير والإسراع في تحويلها إلى وقائع على الأرض ليس فقط تربص أعداء العرب والمسلمين بهم الدوائر لكن تقاعس العرب أنفسهم عن نصرة دينهم وحماية حقوقهم، وميلهم لمالأة أعدائهم بدلا من الاتحاد والتعاون مع بني جنسهم مما جعل بأسهم بينهم شديدا بدلا من أن يكونوا يدا على أعدائهم.

يشهد بهذا من رأى بعينه ضياع فلسطين وقيام إسرائيل.

" إن ما أخضع فلسطين للقوة اليهودية الغاشمة، وما جعلنا نخسر فلسطين ليس فقط قوة الباطل الصهيوني، وعبقرية السلام الغربي، وحسن تنظيم العدو اليهودي بل أيضا وأساساً بسبب تخلفنا نحن، وبسبب الفوضى القومية والوطنية

التي نتخبط بها، وبسبب الجهل الكامل لتاريخنا أولا وللنظام والانضباط ثانيا، وبسبب الأنانية التي كان بعض زعمائنا ولا يزالون يتخبطون بها - (١)

ولا ريب أن لكل بلد عربي مشكلاتِه الخاصةَ التي تطفو على السطح، وتتقدم على فلسطين في قائمة اهتماماته، ولكن النظرةَ الفاحصةَ تَكْشِف عن أن جميع ما تُواجهه الأوطان العربية من مشكلات ناشئ عن مشكلة فلسطين أساسًا، فالتشاغُل بالقضايا المحليّة عنها، هو في أدني حالاته سذَاجة وغفلة، وهو في أعدل حالاته تآمُر وخيانة، ولا شيء فوق هذا سوى الانتحار المادي، بعد الانتحار الخِيَاني الأخلاقي.. ومن الخطأ أن يَتَصَوَّر أحدٌ أن الشعب الفلسطيني هو المُسْتَهْدَف وحده من هذه الغارة الاستيطانية على فلسطين؛ لأن فلسطين لا تُمَثِّل في الواقع سوى موطئ قدَم للزحف القادم على ما حولها من بلاد الإسلام، على امتداد الهلال الخصيب، مِنْ الفرات إلى النيل.. أن كل ما وقع من أحداث الغزو الصهيوني لفلسطين وما حولها كان من عناصر الحُلْم الكبير، الذي راوَد خيال مُؤَسِّس الحركة الصهيونية، تيودور هرتزل خلال التسعينيات من القرن التاسع عشر، وما زالت بقية عناصر الحُلْم تَنْتَظِر أن تُوضَع مَوْضِع التنفيذ، ولا سيما مشروع قناة تَصِل البحر الأبيض بالبحر الميت، لتوليد الطاقة الكهربية من مساقطه، وإغراق شرقي الأردن، وربما كان من عناصره - أيضًا - شق قناة بين البحر الأبيض وميناء إيلات، تُنَافِس قناة السويس، وتُنْهِي أهميتها، تمهيدًا لتخريب اقتصاد مصر، والإجهاز عليها، واقتطاع أجزاء لازمة من جَسَدِها لترقيع الكيان الصهيوني، وليست سيناء إلا جزءًا من حُلْم هرتزل الكبير.

أما لبنان وسورية والأردن والعراق فأمرُها أهونُ بكثير، وفي جُعْبَة الصهيونية ومَن يُساندها من القُوَى الغربية العديد من المشروعات التقسيمية؛ لإعادة توزيع المنطقة سياسيّاً وطائفيّاً، وإيجاد كيانات يحكُمها ملوك طوائف، تُمَكِّن إسرائيل من التهام ما تُرِيد من جسد الوطن العربي.

وأما الجزيرة العربية فليست بعيدةً عن مُتَناول هذا الأخطبوط؛ فإن بينها وبين الدولة الإسرائيلية حدودًا مشتركة في البحر، وهي في الوقت ذاته مدخل

(١) فيصل أبو خضرا "تاريخ المسألة الفلسطينية" صـ ٧.

إلى الخليج الذي تَتقاسَمه - أيضًا - دُوَيْلات، ولكن الأمر يحتاج إلى ترتيب على مراحل مُتَقارِبة أو مُتَباعدة.

باختصار: إن التخطيط يمضي إلى أوضاع يَعْجَز تَصَوُّر القادة في العالَم العربي والإسلامي الآن عن استيعابها، وهم غارِقون في بِحار التخبط والانحراف عاجزون عن حلِّ مشكلاتهم اليومية والجزئية.

لقد قضت مشيئة الله تعالى أن يدمر على كل ظالم طغى في البلاد وأكثر فيها الفساد.

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر: ١١-١٤)

والأمة العربية في القرون الأخيرة طغت في البلاد وأكثرت فيها الفساد فابتلاهم الله تعالى بمن قهرهم وأذلهم واغتصب بلادهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويعودون إلى نهج سلفهم الصالح الذين صدق إيمانهم وحسنت أخلاقهم وصلحت أعمالهم فنصرهم الله تعالى ودحر أعداءهم فأورثهم الله أرضهم فعمروها، وأموالهم فلم سيتأثروا بها بل في الخير أنفقوها.

وإذا كان العرب اليوم في حربهم ضد أعدائهم يكتفون بالتغني بأمجادهم القديمة والدعاء على أعدائهم الساعات الطويلة دون الأخذ في أسباب النصر، فإن أعداءهم اليهود الصهاينة والصليبيين الجدد لا يكتفون باحتلال أرضنا عسكريا بل يروجون لأساطير دينية لتبرير عدوانهم السافر وتجعل لهم حقا دينيا في أرضنا المقدسة !!

"كان بن جوريون بعد انسحاب مصر من سيناء ١٩٥٦ قد وقف في الكنيست يعلن ضم سيناء إلى إسرائيل ويستشهد بآيات من التوراة حاول أن يُحَمِّلها فوق ما تحتمل ليجعل منها شهادة زور تخدع التاريخ، وتُسخر المقدسات لتبرير الجرائم!"[(١)]

وأوضاع المسلمين والعرب الراهنة تَحْمِي الوجود الإسرائيلي في فلسطين والقدس، وتؤمِّن استمراره بأفضل مما يُؤَمِّنه السلاح والجنود، بل والأسلحة

(١) محمد حسنين هيكل من مقالة نشرت في مجلة "آخر ساعة" بتاريخ ١٩٥٧/١/٩.

النووية؛ فهم لا يَقْدِرون إلا بعَجْزِنا، ولا يَأْمَنُون إلا بتَشَرْذُمِنا وتنازُعنا، ونحن ضاحكون هازلون.[1]

ولما كانت نهضة أي أمة لابد أن تقوم على إيمان عميق بالحق وأساس صحيح من الفكر شرعت في كتابة هذه السلسلة " نحو فهم صحيح لحقيقة الصراع العربي الصهيوني " واستهللت هذه السلسلة بهذا الكتاب " الدين والسياسة والنبوءة بين الأساطير الصهيونية والشرائع السماوية " .

فقد وجدت أن تفكير زعماء الصهيونية مبني على عدة أساطير يؤسسون عليها سياستهم، وعلى أساس هذه الأساطير قام الكيان الإسرائيلي.

والتفكير العنصري الذي تبنته الصهيونية الحديثة إنما يعود بأصوله إلى فهم انتقائي جزئي لتوراة اليهود ولهذا فالتفكير العنصري الصهيوني ما هو إلا نتيجة من نتائج التحريف والتبديل الذي تعرضت له التوراة التي تعد بحق المنبع الأول للتفكير العنصري في اليهودية ومنه استمدت الصهيونية الحديثة أيديولوجيتها العنصرية.

فقد طورت الصهيونية كثيرا من المفاهيم القومية ذات الطابع العنصري، ومن هذه المفاهيم ما استمدته من توراة اليهود مثل: أسطورة شعب الله المختار، وأسطورة أرض الميعاد، وأسطورة الخلاص الإلهي لليهود في آخر الزمان...

ومنها أساطير سياسية أضافتها الصهيونية وجعلتها من المقدسات يحرم المساس بها وهي: أساطير: البقاء والاستمرار اليهوديين، وعداء الأغيار الأزلي لليهود، وأرض بلا شعب لشعب بلا أرض...

وهذه الأساطير سواء أكانت دينية أم سياسية لم تتجلَّ في أقوال الصهاينة فحسب بل تجلت في ممارستهم العملية.

ويمكن تقسيم الأساطير الصهيونية إلى قسمين:

أ- أساطير دينية توراتية.

---

(١) د. عبد الصبور شاهين مقدمة كتاب "فلسطين أرض الرسالات الإلهية".
تأليف رجاء جارودي ترجمة وتقديم د. عبد الصبور شاهين. الهندسية لتطوير نظم الحاسبات R D I.

ب- أساطير تاريخية سياسية.

أولا: الأساطير التوراتية تشمل:-

١- أسطورة الأرض الموعودة.

٢- أسطورة شعب الله المختار.

٣- أسطورة قَصْر السامية على اليهود وحدهم.

٤- أسطورة الخلاص الإلهي لبني إسرائيل على يد الماشيخ.

الأساطير التاريخية السياسية:-

١- أسطورة عداء الأغيار الأزلي لليهود (معاداة السامية).

٢- أسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

٣- أسطورة الملايين الستة (الهولوكوست).

٤- أسطورة عداء الصهيونية للنازية.

٥- أسطورة المعجزة الإسرائيلية.

٦- أسطورة بناء اليهود لأهرام مصر.

وهذا الكتاب يحاول أن يكشف أساطير الصهيونية التي تسعى إلى جعل الدين أداة للسياسة بإضفاء القداسة عليها عن طريق قراءة حرفية وانتقائية للتوراة، ويبين الكتاب موقف الشرائع السماوية من هذه الأساطير.

وسارت خطة البحث في هذا الكتاب على النحو التالي: عرض كل أسطورة مؤيدة بمصادرها التي تؤكدها من توراة اليهود أو كتابات علمائهم أو كتابات وتصريحات زعمائهم وساستهم أو الموقف الرسمي للدولة الصهيونية، ثم نقوم بالرد علي كل ذلك ردا علميا مؤيدا بالأدلة الدينية والتاريخية والمنطقية، بعيدا

عن الانفعال أو إطلاق الكلام على عواهنه، ثم نذكر موقف الشرائع السماوية من هذه الأسطورة، غير منحازين لأي جماعة دينية على حساب جماعة أخرى إنما هدفنا الذي نرمي إليه تحري الحق ودفع التهم عن الشرائع السماوية الغراء التي أساء إليها كثير من المنتسبين إليها إما بسوء الفهم أو خطأ التطبيق أو بهما جميعا.

وجاء الكتاب في بابين:

الباب الأول: يتضمن الأساطير الدينية ويتكون من أربعة فصول هي:

الفصل لأول: يناقش المرجعية النصية لأسطورة الأرض الموعودة، ويبين مسلسل التحريف الذي جعل وعود الله لإبراهيم بملك أرض كنعان تؤول لإسرائيل دون سائر أبناء إبراهيم، ويبين أن البقاء والاستمرار اليهوديين هما محض افتراء، فأكثر يهود اليوم ليسوا أحفادا لبني إسرائيل إلا في الاسم والإثم. ويؤكد على أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وفقا لسننه في خلقه. ويختتم الفصل ببيان أسباب انتصار اليهود على العرب في العصر الحديث، وموقف المسلمين المعاصرين من خلافة الأرض.

والفصل الثاني: يناقش نصوص التوراة التي تثبت اختيار " يهوه " بني إسرائيل شعبا منتسبا إليه من دون سائر الأمم. ويرد على كل الأساطير التي يستند إليها اليهود لإثبات أنهم شعب الله المختار، ومنها أسطورة أن بني إسرائيل أولُ المُوَحِّدين ! وينتهي الفصل بإثبات بطلان ادعاء وجود شعب مختار لجنسه، وإنما هناك مؤمنون صالحون، وهناك كفار مفسدون، وخلق بينهم كثيرون.

الفصل الثالث: يناقش النصوص التي يستند إليها اليهود لإثبات نقاء عنصرهم وصحة نسبهم لسام بن نوح ويثبت بالأدلة القاطعة الدينية والتاريخية أن العرب يعدون أصل السامية بعكس اليهود الذين اختلطت أعراقهم بأجناس

شتى فلا تكاد تميز منهم ساميا واحدا. وأكد الفصل على أن أحقية العرب في فلسطين ثابتة تاريخيا وتوراتيا.

الفصل الرابع: ويناقش النصوص الخاصة بخلاص الله لليهود آخر الزمان وإبادة أعدائهم ويبين أن النصوص التي يستشهد بها اليهود على خلاصهم على يد الماشيخ في نهاية الزمان ليست خاصة بنهاية الزمان كما يحاول حاخامات اليهود إفهامنا أو كما يحاول حكام إسرائيل فرضها علينا. إنما خاصة بوعود "يهوه" ليهود السبي الآشوري والبابلي بالعودة إلى أورشليم وقد انتهت هذه الوعود بعودتهم على يد "قورش الأكبر" ويختتم الفصل ببيان موقف الديانات السماوية من نبوءة الخلاص على يد المسيح في آخر الزمان.

أما الباب الثاني فيناقش الأساطير السياسية ويتكون من ستة فصول:

الفصل الأول: يثبت بالأدلة القاطعة: دينية، وتاريخية أن اليهود لم يكونوا أبدا ضحية عبر التاريخ بل أن مفسديهم هم وراء كل ما حل بهم من اضطهاد، وأن سماتهم الخسيسة هي التي جعلتهم شعبا؟ منبوذا من كل شعوب الأرض، وهي التي حولتهم إلى جزار يفتك بالضعفاء والأبرياء، وأن ما حاق بهم من اضطهاد كان جزاءً وفاقا.

الفصل الثاني: يثبت أن أسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض من اختراع المستعمرين الغربيين الذين أرادوا أن يتخلصوا من اليهود ومشاكلهم الاقتصادية والقومية والسياسية، وفي نفس الوقت يستفيدون منهم لرعاية مصالحهم في الوطن العربي فاختلقوا هذه الأسطورة العلمانية السياسية وأضفوا عليها بعدا دينيا توراتيا. وفي سبيل تحقيق هذه الأسطورة يتم استبدال يهود الغرب بالفلسطينيين العرب، فيُشَتَّت الفلسطينيون المواطنون الأصليون من بلادهم فلسطين، ويستوطن اليهود المواطنون الغربيون هذه البلاد! كل هذا يتم تحت

رعاية الغرب خدمة لمصالحه، وهذا هو المشروع الصهيوني.

الفصل الثالث: يناقش أسطورة الملايين الستة بالتفصيل، ويحرر المصطلحات الثلاثة التي يستخدمها الصهاينة للتعبير عما فعله بهم النازيون وهي: الهولوكوست، والإبادة الجماعية، والحل النهائي، كما يتناول الفصل تضارب عدد القتلى من اليهود على يد النازيين، وتضارب الآراء حول طريقة قتلهم، والأسباب الحقيقية لاختفاء الملايين الستة من اليهود، ودوافع عداء هتلر لليهود، وموقف العرب والمسلمين من الإبادة النازية ليهود أوروبا.

الفصل الرابع: يناقش أسطورة عداء الصهيونية للنازية والفاشية، ويثبت مدى التطابق الفكري بين الصهيونية والنازية حول إقامة دولة يهودية في فلسطين وتهجير يهود أوربا إليها، وإبادة المخالفين لهذا المشروع، ويثبت أن الهدف الأساسي للصهاينة لم يكن إنقاذ حياة اليهود ولكن إنشاء دولة يهودية في فلسطين ثم يثبت بالأدلة القاطعة تعاون اليهود الصهاينة مع النازيين، ويكشف أهم أشكال التعاون بينهما. وأهم الشخصيات الصهيونية المتعاونة مع النازيين.

الفصل الخامس: يناقش أسطورة المعجزة الإسرائيلية التي تحاول ماكينة الدعاية الصهيونية الترويج لها مستدلة بنجاح اليهود في إقامة دولة إسرائيل عصرية ديمقراطية على جزء من أرض الميعاد رغم العداء العربي الشديد لها، ونجاحهم في هزيمة كل الجيوش العربية قاطبة ذات العدد والعتاد. ويثبت أن نجاح اليهود في إقامة دولة صهيونية على الأراضي العربية ليس بمعجزة إسرائيلية إنما هو خيبة عربية، ومؤامرة غربية. ويبيِّنُ الفصل نوع وحجم المساعدات الغربية المقدمة لإسرائيل.

الفصل السادس: يناقش أسطورة بناء اليهود لأهرام مصر، ويثبت بالأدلة الدينية، والتاريخية، والمنطقية، واللغوية كذب هذه الأسطورة وتهافتها.

والله أسال أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم فقد بذلت طاقة جهدي في كشف حقيقة الأساطير الصهيونية بكل دليل ممكن، وكشف بعض المفاهيم الخاطئة التي استقرت في عقول وأفهام كثير من العرب والمسلمين والتي ورثوها من عصور التخلف والضعف وأورثتهم الذل والهوان.

محمد يونس هاشم

القاهرة

٢٠٠٨/٨/١٨



أما قبل

قبل أن نبدأ في ذكر المرجعية النصية للأساطير الصهيونية والرد عليها لابد أن نذكر - إحقاقا للحق - أن هذه الأفكار لا يتبناها كل اليهود، ولا كل الغرب، فهناك من الجماعات اليهودية من يناهض هذه الأساطير، ويناصبها العداء ويتظاهر ضد من ينادي بها(١).

فاليهودية ديانة سماوية كغيرها من سائر الديانات السماوية الأخرى، أما الصهيونية فحركة سياسية عنصرية متطرفة ومن حسن الحظ أن كثيرا من اليهود ليسوا صهاينة.

وعندما دعا تيودور هرتزل إلى إقامة دولة قومية لليهود عارضه معظم الحاخامات، لأنهم وجدوا أن الصهيونية قراءة مغلوطة ومتعصبة للديانة اليهودية، فإذا كانت الديانة اليهودية تدعو إلى العمل بشريعة الرب وهدّي الأنبياء لاستحقاق اختياره وتحقيق وعوده والخلاص على يد الماشيخ، فإن الصهيونية ما هي إلا تلك البدعة المتشددة التي استبدلت بالرسالة الإلهية قومية عنصرية، وبإله إسرائيل دولة إسرائيل، وبهداية الأنبياء العظام ضلال السياسيين اللئام، وبانتظار الماشيخ المخلص السعي للحصول على الخلاص بالعنف والإرهاب.

---

(١) مثل حركة "ناطوري كارتا" اليهودية الذي يتزعمها موشي هيرش، الذي كان يعمل مستشارًا لرئيس السلطة الفلسطينية الراحل ياسر عرفات والذي يعتبر إقامة الدولة العبرية خطأ وتدنيسًا لاسم الله. وذلك لأنه يحظر على اليهود إقامة سلطة يهودية في أرض إسرائيل قبل قدوم المسيح المخلص.

إن حركة "ناطوري كارتا" أيدت في الأعوام الأخيرة المنظمات "اللاسامية" والمناهضة لإسرائيل في الولايات المتحدة وأوروبا ويشارك أعضاؤها في مظاهراتهم، وكذلك في المظاهرات التي ينظمها فلسطينيون ومسلمون ضد الدولة العبرية.

إن المطلب الوارد في التوراة عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات هو أساس قائم على قراءة متطرفة للتوراة أي قراءة تحريفية تحوّل الأقوال العظيمة التي قالها الرسل العظام لتجعل منها تاريخا قوميا وحتى قَبَلِياً.

إن هذا المطلب هو بدعة تُدعِّم السياسة الصهيونية. وهي تؤدي إلى المفارقة التالية، فَحَسَب إحصاءات الحكومة الإسرائيلية فإن ١٥٪ فقط من الإسرائيليين متدينون وبالرغم من ذلك فإنها تحاول أن تجعل الغالبية العظمى من الشعب يؤمن بأن هذه الأرض - الممتدة من النيل إلى الفرات - ملك لشعب إسرائيل لأن الله قد وعده بها، هذا الإله الذي لا يؤمن به الشعب أصلا !!

إن بن جوريون الكافر هو الذي أطلق شعار " الأرض الممتدة من النيل إلى الفرات " هي ملك أبدي لشعب إسرائيل. ونهجت السياسة الإسرائيلية نهجه ففي إسرائيل عندما يستدعون الشباب للجندية يقدمون لهم التوراة وفيها خريطة عن إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، ويقولون إن تفكك المستوطنات خيانة كبرى لليهودية[(١)].

فالصهيونية إذن عقيدة قومية لم تولد من الديانة اليهودية بل من القومية الأوربية في القرن التاسع عشر، ولم يحرك مؤسس الصهيونية هرتزل دافعٌ ديني بل عقيدة سياسية قومية استعمارية فهو يقول في يومياته:

" إنني لا أنقاد لأي دافع ديني.. فأنا لا غنوصي (أي أنه من اللا أدرية)[(٢)].

فهو لا تهمه الأرض المقدسة بوجه خاص فهو يقبل أيضا ومن أجل أهدافه القومية الاستعمارية بأوغندا أو طرابلس أو قبرص أو الأرجنتين أو موزمبيق أو الكونغو.. ولكن أمام معارضة أصدقائه من اليهود فإنه يعي أهمية الأسطورة القوية التي " تمثل صيحة للمِّ الشعث ذات قوة لا تقهر "[(١)].

فالصهيونية عقيدة سياسية، وقومية عنصرية، وأيديولوجيا استعمارية تلك

(١) رجاء جارودي "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" دار الغد العربي ص ٢٨٦.

(٢) تيودور هرتزل "اليوميات" طبعة فيكتور جولانسز نقلا عن "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" مرجع سابق ص ١٨.

هي الخصائص التي تشرح السياسة الصهيونية التي انتصرت في مؤتمر بازل في أغسطس ١٨٩٧ م.

ولكن هذه العملية السياسية والقومية والاستعمارية لم تكن بأي حال تمثل روحانية الديانة اليهودية، ففي نفس وقت انعقاد مؤتمر بازل انعقد مؤتمر في مونتريال في أمريكا جاء في بيانه الختامي:

" إننا نشجب تماما أي مبادرة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية، وإن أي محاولات من هذا القبيل تكشف عن مفهوم خاطئ لرسالة إسرائيل.. التي كان الأنبياء اليهود هم أول من نادى بها.. ونؤكد أن هدف اليهودية ليس بهدف سياسي ولا قومي، ولكن روحي.."(٢).

في هذا المؤتمر تمسك اليهود بروحانية اليهودية، واعترضوا على المنحى الذي سلكه هرتزل في مؤتمر بازل الذي انتقى من الديانتين اليهودية والمسيحية ما يبرر أهدافه السياسية الاستعمارية " فهو يشير إلى عصر مسيحي حيث يعترف كل الناس بأنهم ينتمون إلى طائفة واحدة كبرى لإنشاء مملكة الرب على الأرض"(٣).

وهكذا كان رد الفعل الأول للمنظمات اليهودية ابتداء من " رابطة حاخامات ألمانيا " وحتى " الاتحاد الإسرائيلي العالمي لفرنسا " و " الاتحاد الإسرائيلي في النمسا " وكذلك الرابطات اليهودية في لندن.

وهذه المعارضة حيال الصهيونية السياسية المستوحاة من التمسك بروحانيات الديانة اليهودية، ما فتئت تعبر عن نفسها حتى في أعقاب الحرب العالمية الثانية، عندما استغلت الصهيونية الإسرائيلية مرة أخرى المخاصمات والمشاحنات التي دارت بين الدول في الأمم المتحدة، ولا سيما التأييد غير

---

(١) المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكية الكتاب السابع ١٨٩٧ ص ١٢ نقلا عن "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" مرجع سابق ص ٢١.

(٢) نفسه ص ٢١.

المشروط من الولايات المتحدة لكي تفرض نفسها كقوة مهيمنة، وتمكنت بفضل مختلف أنواع اللوبي من عكس الاتجاه وإنجاح سياسة القوة الإسرائيلية الصهيونية على عكس ما كان متوقعا ولكنها مع ذلك لم تفلح في تكميم نقد كبار الروحانيين.

نقول هذا لأن كثيرا من الكتابات العربية والإسلامية تخلط خلطا فاضحا بين اليهودية كديانة والصهيونية كسياسة. فالصهيونية قراءة مغلوطة ومتعصبة لليهودية ومن الخطأ الفاضح وَسْم الجماعات اليهودية كافة بميسم واحد، ووصفها جميعا بصفات واحدة تميزهم عن سائر البشر " وغني عن القول أن هذا المفهوم يُفسِّر الواقع كله بصيغة واحدة بسيطة جاهزة، ومن ثَم فهو يتجاهل واقع أعضاء الجماعات اليهودية المُركَّب غير المتجانس، وهو واقع لا يخضع لقانون عام ولا ينضوي تحت نمط متكرر واحد. "(١).

إن اليهود ليسوا سواء عبر الزمان والمكان، فهناك سمات مميزة عرقيا وثقافيا ودينيا لكل جماعة، فبنو إسرائيل العبرانيون غير يهود السبي البابلي، غير يهود السبي الروماني، غير يهود المدينة على عهد النبي ﷺ غير اليهود الصهيونية في العصر الحديث فاليهود على اختلاف الزمان لم يمثلوا جماعة واحدة موحدة دينيا، وثقافيا وعرقيا " ونحن نذهب إلى أن العبرانيين أي اليهود القُدَامَى، كانوا يشكلون وحدة ثقافية وإثنية تتسم بقدر من التماسك والتجانس والوحدة. ولكن مع انتشار اليهود في أرجاء العالم في مجتمعات مختلفة، لكلٍّ تقاليدها الحضارية والدينية، وتواريخها، تَفاعَل اليهود مع هذه التقاليد والتواريخ وخضعوا لمؤثراتها، شأنهم شأن كل الأقليات والبشر.

وقد بدأت عملية الانتشار مع التهجير البابلي، ولكن وتيرتها تصاعدت مع ظهور الحضارة الهيلينية والرومانية.

وقد اكتملت عملية الانتشار والتَفرُّق مع هدم الهيكل في عام ٧٠م على يد تيتوس، وكذلك سقوط العبادة القربانية المركزية وأية سلطة دينية مركزية يهودية.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" م٢ ج١ "طبيعة اليهود" بيت العرب للتوثيق العصري والنظم.

وقد تَحوَّل اليهود نتيجة هذه العملية إلى جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة. ونحن نفضل استخدام مصطلح «جماعات يهودية» على مصطلح «يهود» لأن المصطلح الأخير يؤكد التَماسُك والتَجانُس والوحدة حيث لا تَماسُك ولا تَجانُس ولا وحدة.[1]

فهناك جماعات يهودية مُلْحِدة لا دين لها ولولا خوفهم من الطرد من إسرائيل لتنصروا أو أسلموا، وهناك جماعات يهودية غربية تؤمن بالعلمانية الغربية الشاملة، وهناك جماعات يهودية شرقية رجعية متخلفة، وجماعات يهودية دينية متطرفة تريد أن تبيد كل الأغيار من غير اليهود، وجماعات صهيونية تنادي بعودة اليهود إلى أرض الميعاد تحت لواء القوى الإمبريالية أو الصهيونية العالمية... وشأن اليهود شأن كل المجتمعات البشرية ليس كل أفرادها على قلب رجل واحد فالعالم العربي فيه من التنوع والاختلاف ما لا يقل عن الجماعات اليهودية فمن سلفية إلى علمانية إلى صوفية إلى جهادية إلى رجعية إلى انحلالية إلى نفعية استغلالية...

كذلك ليس كل الغرب صهيونيا معاديا للعرب ومناصرا لدولة إسرائيل بل هناك كثير من الغرب المحب للسلام الداعي للحق والعدل يرفض الأساطير الصهيونية، وإذا كانت هناك مباركة من كثير من الدول الغربية للممارسات الصهيونية فإن هذا يرجع لأسباب كثيرة: منها الدعاية الصهيونية الجبارة التي تزيف الحقائق وتبرر الجرائم، ومنها حجب المعلومات الصحيحة عن الشعوب، وتضخيم الممارسات غير المسئولة من بعض المسلمين التي لا يستبعد أن تكون الصهيونية ضالعة فيها، ومن المؤكد أن كثيرا من هذه الممارسات كان لها أثرها البالغ في تغاضي المجتمع الغربي عن جرائم الحكومات الإسرائيلية في حق الشعوب العربية، ومن هذه الممارسات غير المسئولة ذبح المدنيين الأجانب، وقتل المدنين العزل، وخطف الأبرياء والتهديد بقتلهم، واحتجاز الرهائن...

---

(١) نفسه م٢ ج٢ "الجماعات اليهودية".

تلك الجرائم التي ترتكب باسم الإسلام والإسلام منها براء فالله تعالى لا يحب المعتدين ولا يجيز العدوان إلا على الظالمين.

﴿فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٩٣)



1

الباب الأول

الفصل الأول

أسطورة الأرض الموعودة

الباب الأول

الفصل الأول

أسطورة الأرض الموعودة

□□

المرجعية النصية لأسطورة الأرض الموعودة

إن مفهوم " أرض الميعاد " مفهوم روحي المعنى، رمزي الدلالة عند أحبار اليهود وعلماء اللاهوت وقد ظل هكذا طوال التاريخ اليهودي ولكن مع ظهور الصهيونية في القرن العشرين، قد فُسِّر هذا المفهوم تفسيرا سياسيا مشوَّها لا يَمُت للأصل بصلة.

فقد ادعى اليهود الصهاينة أن " يهوه " إلههم قد وعدهم بتملك أرض العرب التي تمتد من نهر مصر - النيل - إلى الفرات - العراق - وأن عليهم أن يعملوا على تحقيق هذا الوعد بأنفسهم، وألا ينتظروا الماشيخ المخلص لكي يحقق لهم هذا الوعد، وقد قام الصهاينة بالفعل بإقامة دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وأرغموا يهود الشتات - بالتحالف مع النازية - على الهجرة إلى فلسطين، غير عابئين باعتراض اليهود الروحانيين على ذلك.

وهاك هي النصوص التوراتية التي اعتمد عليها الصهاينة في إثبات هذه المزاعم الباطلة.

" ٢٠ وَاشْتَغَلَ نُوحٌ بِالْفَلاحَةِ وَغَرَسَ كَرْماً، ٢١وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى دَاخِلَ خَيْمَتِهِ، ٢٢فَشَاهَدَ حَامٌ أَبُو الْكَنْعَانِيِّينَ عُرْيَ أَبِيهِ، فَخَرَجَ وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ اللَّذَيْنِ كَانَا خَارِجاً. ٢٣فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ رِدَاءً وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا الْقَهْقَرَى إِلَى دَاخِلِ الْخَيْمَةِ، وَسَتَرَا عُرْيَ أَبِيهِمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَدِيرَا بِوَجْهَيْهِمَا نَحْوَهُ فَيُبْصِرَا

عُرْيَهُ. ٢٤وَعِنْدَمَا أَفَاقَ نُوحٌ مِنْ سُكْرِهِ وَعَلِمَ مَا فَعَلَهُ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ ٢٥قَالَ: «لِيَكُنْ كَنْعَانُ مَلْعُوناً، وَلْيَكُنْ عَبْدَ الْعَبِيدِ لإِخْوَتِهِ». ٢٦ثُمَّ قَالَ: «تَبَارَكَ اللهُ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُ. ٢٧لِيُوَسِّعِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي خِيَامِ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْداً لَهُ». (التكوين : ٩)

وبهذا اختصت التوراة " سام " من ولد نوح بتعبيد كنعان له، و باستيطان أرضه.

وماذا فعل حام أبو كنعان حتى يستحق هو ونسله هذه العقوبة الأبدية ؟!

أليس الخطأ خطأ نوح – حسب رواية التوراة – ؟ فهو الذي عَبَّ من الخمر حتى غاب عن الوعي، ونام وانكشفت عورته وعندما رآه ابنه الصغير " حام " على هذه الحال المذرية خجل منه وأخبر أخويه الكبيرين حتى يسترا أباهم .

فلماذا حُكِمَ عليه بهذا الحكم الأبدي هو ونسله إلى يوم القيامة ؟!

وإن كان " حام " قد أخطأ – فرضا – فما ذنب نسله ؟!

وكيف تزر وازرة وزر أخرى ؟!

وكيف يُأخذ شخص بجريرة أبيه ؟!

بل كيف يأخذ ما لا يحصى من البشر – من لدن حام إلى يوم القيامة – بجريرة جد رأى أباه السكير عاريا ؟!!

إن أكثر الناس ظلما لا يحكم بهذا، لكنهم جماعة اليهود الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ؛ ليستولوا على ما ليس لهم .

وتستمر الرواية التوراتية لتخص إبراهيم من ولد سام بالبركة، وتعبيد كنعان – ابن حام – ونسله له، وإعطائه أرض كنعان ملكا أبديا له ولنسله من بعده .

عهد يهوه لإبراهيم

يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود : " تعرف الأرض الواقعة بين وادي الأردن والبحر الأبيض المتوسط في التقليد اليهودي بأرض إسرائيل، ويردد العهد القديم كثيراً العهد الإلهي على أن الأرض قد أعطيت لإسرائيل. وقد أتت لفظة "أرض

الميعاد" من هذا الوعد الإلهي المتضمن في أول قول الرب لإبراهيم في سفر (التكوين: ١٢) " اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ، ٢فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً لِكَثِيرِينَ "

ولقد صرح بالوعد بشكل مختصر في سفر (التكوين : ١٥) " ١٨في ذَلِكَ الْيَوْمِ عَقَدَ اللهُ مِيثَاقاً مَعْ أَبْرَامَ قَائِلاً: «سَأُعْطِي نَسْلَكَ هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ وَادِي الْعَرِيشِ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ.."

وتعتبر هذه الحدود أوسع الحدود التي نص عليه العهد القديم وتحدد قطعة أرضية ممتدة تقريبا من غزة في الجنوب الغربي إلى نهر الفرات. ولكن في بعض مقاطع العهد القديم الأخرى، فإن الأرض التي حددها الميثاق تعتبر صغيرة جدا.

ففي سفر (التكوين : ١٧) مثلا فإن حدود أرض الميعاد مقتصرة على منطقة الكنعانيين الذين تجول إبراهيم في وسطهم "٧وَأُقِيمُ عَهْدِي الأَبَدِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ جِيلاً بَعْدَ جِيل، فَأَكُونُ إِلَهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً»"(١).

وكنعان المذكور في الإصحاح السابق هو جد من جدود العرب، والعرب أول من سكن فلسطين وهذا ثابت تاريخيا لا ينازع فيه إلا جاحد لكن الصهاينة يريدون أن يثبتوا أحقيتهم في أرض العرب – وخاصة فلسطين – أحقية توراتية لا أحقيقة تاريخية.

و بعد ذلك يقول الله لإبراهيم :

"٢٩ تَخْدِمُكَ الشُّعُوبُ، وَتَسْجُدُ لَكَ الْقَبَائِلُ، لِتَكُنْ سَيِّداً عَلَى إِخْوَتِكَ. وَبَنُو أُمِّكَ لَكَ يَنْحَنُونَ. وَلْيَكُنْ لاَعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ»." (التكوين : ٢٧)

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين. وآخرون "ذرية إبراهيم" ترجمة عبد الغني بن إبراهيم من منشورات: معهد هاريت وروبرت للتفاهم الدولي بين الأديان اللجنة اليهودية الأمريكية نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية ص ١٠٤.

كيف آل العهد الإلهي من إبراهيم إلى بني إسرائيل وحدهم ؟

كان لإبراهيم ثمانية أولاد : إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، وزمران ويقشان ومدان ومديان ويشباق وشوحا من زوجته قطورة بنت يقطن الكنعانية، فكيف آل العهد الإلهي لبني إسرائيل من دون أبناء إبراهيم الآخرين ؟

ولكي يَقْصُر اليهود العهود على بني إسرائيل وحدهم جعلوا زوجتي إبراهيم الأخريين : هاجر، وقطورة جاريتين حتى يحرموا أولادهما من ميراث أبيهم إبراهيم ووعوده، وعلى الرغم من اعتراف التوراة نفسها أن إسماعيل هو بكر أبيه إبراهيم وأنه من ذريته إلا أنها تحرمه ميراثه ووعوده ؛ لأن العرب من نسل إسماعيل وبالتالي يعدون شركاء لبني إسرائيل في هذا الوعد.

وزيادة في الحيطة تجعل توراة اليهود إبراهيم يُوَرِّث إسحاق ملكه، ووعود الله له فهو ابنه الحقيقي لأنه من سارة الحرة ولأنه هو الذبيح - كما يدعون - أما إسماعيل فبرغم أنهم يعترفون أنه ابن إبراهيم البكر إلا أنه ابن الجارية المصرية هاجر فلا حق له في ميراث أبيه ولا وعد الله له !!

"٥ وَرَّثَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحقَ كُلَّ مَالَهُ. ٦أَمَّا أَبْنَاؤُهُ مِنْ سَرَارِيهِ (أي جواريه : هاجر وقطورة) فَأَعْطَاهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِهِ نَحْوَ أَرْضِ الْمَشْرِقِ بَعِيداً عَنْ إِسْحقَ ابْنِهِ". (تكوين : ٢٥).

والتوراة تؤكد - بالباطل - ميراث إبراهيم لإسحاق حتى لا يشاركه أحد من إخوته فيه فتقول توراة اليهود:

" فَارْتَحَلَ إِسْحقُ إِلَى مَدِينَةِ جَرَارَ حَيْثُ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ. ٢فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ قَائِلاً: "لاَ تَمْضِ إِلَى مِصْرَ، بَلِ امْكُثْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أُعَيِّنُهَا لَكَ. ٣أَقِمْ فِي هَذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنَّنِي أُعْطِي لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعَ هَذِهِ الأَرْضِ وَفَاءً بِقَسَمِي الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. ٤وَأُكَثِّرُ ذُرِّيَّتَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَأَهِبُهَا جَمِيعَ هَذِهِ الْبِلاَدِ. وَتَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ". (التكوين: ٢٦).

يقول علماء اللجنة اليهودية الأمريكية " : لم يتم في العهد القديم، أبدا، تفسير السبب الذي استبعد إسماعيل من الميثاق. ويميل علماء اليهود للاعتقاد

أن هدف القصة، كما ورد من أمثاله في سفر التكوين، هو تفسير العلاقات الإثنية واللغوية القريبة بين الإسرائيليين والشعوب التي يعيشون في أوساطهم.

ورد ذكر إسماعيل في العهد القديم كجد أعلى للشعوب العربية[1].

والعبارة الأخيرة تبين لماذا استبعد إسماعيل من الميثاق ؛ لأنه هو جد العرب أصحاب الأرض الأصليين.

ولكن إسحاق الوريث الوحيد لملك أبيه ووعوده - بحسب الرواية التوراتية - أنجب من زوجته " رفقة " توأمين : عيسو البكر لأنه ولد أولا، ويعقوب الذي خرج ويده قابضة على عقب عيسو لذا سمّوه يعقوب، وكان عيسو رجلا صالحا يعمل ويطعم أهله من ثمرة جهده لذا أحبه أبوه إسحاق بعكس يعقوب الذي لا يفارق حضن أمه رفقة.

«٢٨ وأَحَبَّ إِسْحقُ عِيسُو لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ صَيْدِهِ، أَمَّا رِفْقَةُ فَقَدْ أَحَبَّتْ يَعْقُوب»". (التكوين :٢٥).

وتستمر الدراما التوراتية، جاعلة يعقوب يتمكن من شراء بكورية عيسو مستغلا حاجة أخيه إلى الطعام والخبز وهاك القصة كما جاءت في توراة اليهود.

«٢٩ وَذَاتَ مَرَّةٍ عَادَ عِيسُو مِنَ الْحَقْلِ مُرْهَقاً فَوَجَدَ يَعْقُوبَ قَدْ طَبَخَ طَعَاماً، ٣٠فَقَالَ عِيسُو لِيَعْقُوبَ: «أَطْعِمْنِي مِنْ هَذَا الطَّبِيخِ الأَحْمَرِ لأَنَّنِي جَائِعٌ جِداً». لِهَذَا دُعِيَ عِيسُو بِأَدُومَ. ٣١فَقَالَ يَعْقُوبُ: «بِعْنِي أَوَّلاً امْتِيَازَاتِ بَكُورِيَّتِكَ». ٣٢فَقَالَ عِيسُو: «أَنَا لاَبُدَّ مَائِتٌ، فَأَيُّ نَفْعٍ لِي مِنْ بَكُورِيَّتِي؟» ٣٣فَأَجَابَهُ يَعْقُوبُ: «احْلِفْ لِي أَوَّلا». فَحَلَفَ لَهُ، وَبَاعَ امْتِيَازَاتِ بَكُورِيَّتِهِ لِيَعْقُوبَ. ٣٤عِنْدَئِذٍ أَعْطَى يَعْقُوبُ عِيسُو خُبْزاً وَطَبِيخَ عَدَسٍ، فَأَكَلَ وَشَرِبَ ثُمَّ قَامَ وَمَضَى فِي سَبِيلِهِ. وَهَكَذَا احْتَقَرَ عِيسُو امْتِيَازَاتِ الْبَكُورِيَّةِ»". (التكوين : ٢٥).

ولم يكتفِ يعقوبُ - التوراتي - بهذا بل قام بتدبير من أمّه " رفقة " بسرقة النبوة من عيسو التي كان ينوي إسحاق منحه إياها وبالفعل تم لهما ما أرادا

(١) الحاخام روين فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين. وآخرون "ذرية إبراهيم" مرجع سابق. ص ٢٢.

مستغلين ضعف بصر إسحاق وغياب عيسو وغياب الإله " يهوه " بالطبع إذ كيف يسمح الإله " يهوه " للص بأن يكون نبيا، والمستحق للنبوة عبدا له، ودونك القصة كما ترويها التوراة.

" وَلَمَّا شَاخَ إِسْحقُ وَضَعُفَ بَصَرُهُ اسْتَدْعَى ابْنَهُ الأَكْبَرَ عِيسُو وَقَالَ لَهُ: «يَابُنَيَّ، ٢هَا أَنَا قَدْ شِخْتُ وَلَسْتُ أَعْرِفُ مَتَى يَحِينُ يَوْمُ وَفَاتِي. ٣فَالآنَ خُذْ عُدَّتَكَ: جُعْبَتَكَ وَقَوْسَكَ، وَامْضِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَاقْتَنِصْ لِي صَيْداً. ٤وَجَهِّزْ لِي طَعَاماً شَهِيّاً كَمَا أُحِبُّ وَائْتِنِي بِهِ لآكُلَ، لِتُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ»٥ ,وَسَمِعَتْ رِفْقَةُ حَدِيثَ إِسْحقَ لابْنِهِ عِيسُو. فَعِنْدَمَا انْطَلَقَ عِيسُو إِلَى الْبَرِّيَّةِ لِيَصْطَادَ صَيْداً وَيَأْتِيَ بِهِ. ٦قَالَتْ رِفْقَةُ لابْنِهَا يَعْقُوبَ: «سَمِعْتُ أَبَاكَ يَقُولُ لِعِيسُو أَخِيكَ ٧اقْتَنِصْ لِي صَيْداً، وَجَهِّزْ لِي أَطْعِمَةً شَهِيَّةً لآكُلَ وَأُبَارِكَكَ أَمَامَ الرَّبِّ قَبْلَ مَوْتِي». ٨وَالآنَ يَابُنَيَّ أَطِعْ قَوْلِي فِي مَا آمُرُكَ بِهِ، ٩وَاذْهَبْ إِلَى قَطِيعِ الْمَاشِيَةِ، وَاخْتَرْ جَدْيَيْنِ لأُجَهِّزَ لأَبِيكَ أَطْعِمَةً شَهِيَّةً كَمَا يُحِبُّ، ١٠تُقَدِّمُهَا لأَبِيكَ لِيَأْكُلَ، فَيُبَارِكَكَ قَبْلَ وَفَاتِهِ»". (التكوين:٢٧).

وتنطلي الخدعة على إسحاق ويبارك يعقوب وهو يحسبه عيسو، وعندما يعود عيسو ويجهز الطعام لأبيه قائلا :

"«لِيَقُمْ أَبِي وَيَأْكُلْ مِنْ صَيْدِ ابْنِهِ فَتُبَارِكَنِي نَفْسُكَ». ٣٢فَقَالَ إِسْحقُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَأَجَابَهُ: «أَنَا ابْنُكَ بِكْرُكَ عِيسُو». ٣٣فَارْتَعَدَ إِسْحقُ بِعُنْفٍ وَقَالَ: «مَنْ هُوَ إِذاً الَّذِي اصْطَادَ صَيْداً وَأَحْضَرَهُ إِلَيَّ فَأَكَلْتُ مِنَ الْكُلِّ قَبْلَ أَنْ تَجِيءَ، وَبَارَكْتُهُ؟ وَحَقّاً يَكُونُ مُبَارَكاً». ٣٤فَمَا إِنْ سَمِعَ عِيسُو كَلامَ أَبِيهِ حَتَّى أَطْلَقَ صَرْخَةً هَائِلَةً وَمُرَّةً جِداً وَقَالَ: «بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَاأَبِي». ٣٥فَأَجَابَ: «لَقَدْ مَكَرَ بِي أَخُوكَ وَسَلَبَ بَرَكَتَكَ». ٣٦فَقَالَ: «أَلَمْ يُدْعَ اسْمُهُ يَعْقُوبَ؟ لَقَدْ تَعَقَّبَنِي مَرَّتَيْنِ: أَخَذَ بَكُورِيَّتِي، وَهَا هُوَ يَسْلُبُنِي الآنَ بَرَكَتِي». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا احْتَفَظْتَ لِي بِبَرَكَةٍ؟» ٣٧فَأَجَابَ إِسْحقُ: «لَقَدْ جَعَلْتُهُ سَيِّداً لَكَ، وَصَيَّرْتُ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ لَهُ خُدَّاماً، وَبِالْحِنْطَةِ وَالْخَمْرِ أَمْدَدْتُهُ. فَمَاذَا أَفْعَلُ لَكَ الآنَ يَاوَلَدِي؟». ٣٨فَقَالَ عِيسُو: «أَلَكَ بَرَكَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ يَاأَبِي؟ بَارِكْنِي أَنَا أَيْضاً يَاأَبِي». وَأَجْهَشَ عِيسُو بِالْبُكَاءِ بِصَوْتٍ عَالٍ. ٣٩فَأَجَابَهُ أَبُوهُ: «هَا

مَسكَنُكَ يَكُونُ فِي أَرْضٍ جَدْبَاءَ لاَ يَهْطِلُ عَلَيْهَا نَدَى السَّمَاءِ. ٤٠بِسَيْفِكَ تَعِيشُ وَلأَخِيكَ تَكُونُ عَبْداً" (التكوين : ٢٧).

هل هذا كلام الله ؟!

هل يمكن أن تسرق نبوة ؟!

هل يمكن أن يصنع ذلك رجل صالح فضلا عن نبي مرسل ؟!

لكنها جماعة اليهود التي عادت الله، وقتلت فريقا من الأنبياء والمرسلين، وعبدت الشيطان والطاغوت.

ولكي تتم الخطة التي وضعها اليهود لجعل يعقوب - جدهم الذي ينتسبون إليه بزعمهم - هو المستحق لوعد الله بميراث أرض الغربة - أرض العرب - لابد الا يتزوج يعقوب من بنات كنعان [1] - جد العرب - حتى يكون الوعد لهم خالصا من دون العرب.

" فَاسْتَدْعَى إِسْحقُ يَعْقُوبَ وَبَارَكَهُ وَأَوْصَاهُ قَائِلاً: «لاَ تَتَزَوَّجْ مِنْ بَنَاتِ كَنْعَانَ. ٢قُمِ انْطَلِقْ إِلَى سَهْلِ أَرَامَ، إِلَى بَيْتِ بَتُوئِيلَ أَبِي أُمِّكَ، وَتَزَوَّجْ إِحْدَى بَنَاتِ خَالِكَ لاَبَانَ. ٣وَلْيُبَارِكْكَ اللهُ الْقَدِيرُ وَيُنَمِّكَ وَيُكَثِّرْكَ لِتَكُونَ أُمَّةً تَتَفَرَّعُ مِنْهَا شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ، ٤وَلْيُعْطِكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مَعَكَ بَرَكَةَ إِبْرَاهِيمَ لِتَرِثَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ الَّتِي تُقِيمُ فِيهَا الآنَ؛ هَذِهِ الأَرْضَ الَّتِي وَهَبَهَا اللهُ لإِبْرَاهِيمَ». (التكوين : ٢٨)

كيف حصل يعقوب على لقب إسرائيل ؟

تذكر توراة اليهود أن يعقوب بن إسحاق نام بين بئر سبع وحران في أرض فلسطين فرأى الله فقال له :

" أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحقَ. إِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تَرْقُدُ عَلَيْهَا الآنَ

---

(١) التوراة تجعل عيسو هو الذي يتزوج من بنتين من بنات كنعان وتجعلهما يسيئان معاملة رفقة لدرجة أنها كرهت حياتها بسببهما "قالت رفقة لإسحاق قد كرهت حياتي من جراء البنات الحيثيات فإن تزوج يعقوب من الحيثيات بنات هذه الأرض المماثلات لزوجتي عيسو فإن موتي خير من حياتي فاستدعى إسحاق يعقوب وباركه وأوصاه قائلا لا تتزوج من بنات كنعان" (التكوين:٢٨).

أُعْطِيهَا لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ، ١٤الَّتِي سَتَكُونُ كَتُرَابِ الأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْباً وَشَرْقاً، وَشِمَالاً وَجَنُوباً، وَتَتَبَارَكُ بِكَ وَبِذُرِّيَّتِكَ جَمِيعُ شُعُوبِ الأَرْضِ." (التكوين : ٢٨).

وبعد أن سرق يعقوب النبوة من أخيه صارع الإله " يهوه " وهزمه وحصل منه على لقب إسرائيل وإليك هذه القصة التي هي أغرب من الخيال.

" صَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ. ٢٥وَعِنْدَمَا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتَغَلَّبْ عَلَى يَعْقُوبَ، ضَرَبَهُ عَلَى حُقِّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ مِفْصَلُ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. ٢٦وَقَالَ لَهُ: «أَطْلِقْنِي، فَقَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَأَجَابَهُ يَعْقُوبُ: «لاَ أُطْلِقُكَ حَتَّى تُبَارِكَنِي». ٢٧فَسَأَلَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَأَجَابَ: «يَعْقُوبُ». ٢٨فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ، بَلْ إِسْرَائِيلَ (وَمَعْنَاهُ: يُجَاهِدُ مَعَ اللهِ)، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ». ٢٩فَسَأَلَهُ يَعْقُوبُ: «أَخْبِرْنِي مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. ٣٠وَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ فَنِيئِيلَ (وَمَعْنَاهُ: وَجْهُ اللهِ) إِذْ قَالَ: «لأَنِّي شَاهَدْتُ اللهَ وَجْهاً لِوَجْهٍ وَبَقِيتُ حَيّاً». " (التكوين : ٣٢)

والهدف من هذه المصارعة العجيبة تعليل التسمية الجديدة ليعقوب وهي "إسرائيل " والتي تتكون من مقطعين " إسرا " أي تغلب وهزم، " إيل " الله فهي تعني هازم الإله " وهدفت اليهود بالتسمية الجديدة إلى الفصل بين نسل إسحاق ونسل إسماعيل المشتركين في أبوة إبراهيم جد يعقوب بن إسحاق فهذه الأسطورة إذن هدفها عنصري بحت ألا وهو تخصيص نسل يعقوب وتسميتهم بالإسرائيليين والحط من شأن نسل إسماعيل، وجعل النبوة والوحي محصورين في نسل إسحاق فقط.

وهذه الأسطورة واحدة من عدة أساطير تَمَّ خَلْقُها وإضافتها إلى مادة التوراة لكي تؤكد على النزعة العنصرية التي أدت إلى تبلور عدد من المفاهيم الدينية العنصرية مثل : مفهوم الاختيار الإلهي لبني إسرائيل، وإطلاق لقب شعب الله المختار عليهم، وقصر الوعود والمواثيق الإلهية على هذا الشعب وهناك مفهوم الخلاص الذي جعل الخلاص الإلهي قاصرا على بني إسرائيل دون البشر

أجمعين كما تم تغيير اسم الأرض من أرض فلسطين أو أرض كنعان إلى أرض إسرائيل"[1].

وبهذه الأساطير التوراتية بينة الوضع، مفضوحة الغرض، متهرئة الحبكة صار بنو إسرائيل شعب الله المختار وصار إسرائيل - يعقوب - ابن يهوه البكر " هَذَا مَا يَقُولُهُ الرَّبُّ : إِسْرَائِيلُ هُوَ ابْنِي الْبِكْرُ " (الخروج : ٤).

تجديد العهد في سيناء

يمثل خروج بني إسرائيل من مصر عند اليهود بداية تكوين شعب إسرائيل، لكن هذا التكوين لم يكتمل إلا عندما أنزل الله التوراة على جبل سيناء. وتمثل التوراة تأكيدا للعهد فالتوراة تسمى بـ "كتاب العهد" " ٧وَتَنَاوَلَ كِتَابَ الْعَهْدِ وَتَلاَهُ عَلَى مَسَامِعِ الشَّعْبِ، فَقَالُوا: «كُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ نَفْعَلُهُ وَنُطِيعُهُ». ٨ثُمَّ أَخَذَ مُوسَى الدَّمَ الَّذِي فِي الطُّسُوسِ وَرَشَّهُ عَلَى الشَّعْبِ قَائِلاً: «هُوَ ذَا دَمُ الْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ الرَّبُّ مَعَكُمْ بِنَاءً عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الأَقْوَالِ». (الخروج : ٢٤).

فالعهد بتملك أرض كنعان مشروط حسب نص التوراة بطاعة الله والالتزام بتعاليم التوراة وعدم عصيان الله.

فمن بين الميثاق المبرم بين " يهوه " وشعبه عقوبات العصيان التي يقول الرب فيها لبني إسرائيل :

" إن عصيتموني ولم تعملوا بكل هذه الوصايا، وإن تنكرتم لفرائضي وكرهتم أحكامي ولم تعملوا بكل وصاياي، بل نكثتم ميثاقي، فإني أبتليكم بالرعب المفاجئ وداء السل والحُمَّى التي تُفْني العينين وتتلف النفس، وتزرعون على غير طائل، وينهب أعداؤكم زرعكم. وأنقلب عليكم فتنهزمون أمام أعدائكم، ويتحكم بكم مبغضوكم وتهربون من غير طارد لكم.

وإن أمعنتم في عصيانكم أزيد من عقابكم سبع مرات وفقاً لخطاياكم. أُذِلُّ غطرستكم، وأجعل سماءكم كالحديد لا تمطر وأرضكم كالنحاس لا تُغِلُّ فيذهب جهدكم باطلا ... وإن لم تتعظوا، وتماديتم في عصيانكم أنقلب عليكم وأزيد في

(١) د. محمد خليفة "دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة" ص١٧.

بلائكم سبع مرات وفقا لخطاياكم. أسلط عليكم سيف العدو. فينتقم منكم لنقضكم ميثاقي.. وأجعل الأرض قفرا فيرتاع من وحشتها أعداؤكم الساكنون فيها، وأشتتكم بين الشعوب، وأجرد عليكم سيف، والاحقكم، وأحول أرضكم إلى قفر ومدنكم إلى خرائب. عندئذ تستوفي الأرض راحة سبتها طوال سنين وحشتها وأنتم مشتتون في ديار أعدائكم. حينئذ ترتاح الأرض وتستوفي سنين سُبُوتِها فتُعَوّض في أيام وحشتها عن راحتها التي لم تنعم بها في سنوات سُبُوتكم عندما كنتم تقيمون عليها. أما الباقون منكم في أرض أعدائكم، فإني ألقي الرعب في قلوبهم فيهربون من حفيف ورقة تسوقها الريح، وكأنهم يهربون من السيف. ويسقطون وليس ثمة مطارد لهم. ويعثر بعضهم ببعض كمن يفر من أمام سيف من غير مطارد لهم، ولا تثبتون أمام أعدائكم فتهلكون بين الشعوب وتبتلعكم أرض أعدائكم. أما بقيتكم فتفنى بذنوبها وذنوب آبائها في أرض أعدائكم كما فني آباؤهم من قبلهم "(اللاويين: ٢٦).

في العهد الذي أبرمه الله مع إبراهيم كان الختان والامتثال بعمله آية حية للعلاقة الإلهية مع ذرية إبراهيم، وفي تأكيد العهد في سيناء كانت التوراة بأكملها والالتزام بأوامرها هي التي أصبحت الآية الحية للعلاقة الإلهية مع كل اللاجئين من مصر الذين أصبحوا أمة إسرائيل.

ولكن اليهود الصهاينة كان لهم رأي آخر في العهد يخالفون فيه ليس فقط أسلافهم إنما يخالفون صراحة نصوص التوراة التي يدّعون التمسك بها فالعهد بالعودة إلى أرض الميعاد ليس مشروطا بطاعة أو التزام بتعاليم التوراة.

" من وجهة نظر الديانة اليهودية، فبالرغم من أن عدم الالتزام غير مقبول، إلا أنه لم يلغ العهد، نفسه، أبدا. يعني هذا أن العهد القائم بين الله واليهود أزلي ولا يمكن إلغاؤه والتراجع عنه أبدا. إن الذين سوف لا يستطيعون أو أنهم غير قادرين على طاعة أوامر وأحكام العهد فإنهم سيعاقبون، لكن العهد نفسه لن

يزول أبدا " ٣١ لأن الرب إلهك إله رحيم لا يتركك و لا يهلكك و لا ينسى عهد آبائك الذي أقسم لهم عليه (التثنية : ٤)[١].

وبهذا يتضح جليا أن العهد عند اليهود الصهاينة غير مشروط بالطاعة والالتزام بتعاليم التوراة إنما هو منحة من يهوه إله إسرائيل إلى شعبه المختار !!

الرد على أسطورة الأرض الموعودة

إن نزعة " العودة اليهودية إلى فلسطين " لبناء " الوطن اليهودي " فيها لا أساس لها ولا أثر في تاريخ اليهودية، وهي اختراع صهيوني حديث لم يتضح لدى الحركة الصهيونية نفسها إلا في مطلع القرن العشرين. هذه هي الحقيقة التاريخية التي لا شك فيها ولا مجال لنفيها.

وإن كل ما تضفيه الدعاية الفكرية الصهيونية على حركتها ودولتها من صفات " القدم التاريخي " و " الوجود الطبيعي " هو تزوير للحقيقة وضلال في ضلال لا يخفى إلا على الجاهلين.

أكثر من ذلك أيضا أن الحركة الصهيونية حركة الدعوة إلى تجميع يهود العالم في مكان مًّا وإقامة دولة لهم، لم تكن مُصِرَّة على فلسطين في البداية. كانت تريد أي مكان في العالم يمكنها فيه بناء دولة يهودية وكانت فلسطين احتمالا ليس أكثر. كانت فكرة الذهاب إلى أوغندا التي راودت الحركة الصهيونية، وكانت هناك فكرة الذهاب إلى موزامبيق، وفكرة الذهاب إلى الأرجنتين أو أية أرض أخرى في أمريكا اللاتينية، كما طرحت فكرة الذهاب إلى بلاد مابين النهرين، وفكرة الذهاب إلى العريش المصرية، وفكرة الذهاب إلى قبرص.

وكان هرتزل مستعدا لتنفيذ أي من هذه الاحتمالات لو تيسرت له سبل تنفيذها قبل سواها. لم يكن هدفه الأساسي إقامة دولة يهودية في فلسطين بل كان هدفه الأساسي إقامة دولة يهودية في أي مكان في العالم.

واليهود مثل أبناء سائر الديانات يتألفون من جميع الأعراق التي وصلت إليهم

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين. وآخرون "ذرية إبراهيم" مرجع سابق. ص٢٥.

دعوتهم عبر الأجيال من الصين إلى بولونيا، وأي أساس يرجى لمفهوم " أرض الميعاد " وهو روحي المعنى، رمزي المدلول مثله مثل كل ما هو وارد في التوراة، وقد فسرته الحركة الصهيونية تفسيرا سياسيا مشوَّها لا يَمُت للأصل بصلة.

لقد كان هذا التشويه موضع استنكار اللاهوتيين اليهود أيضا ممن رفضوا في حينه التحريف السياسي للتوراة الذي حملته الصهيونية، كما رفضوا تحويل الديانة اليهودية إلى مشروع دولة، وتاريخ الحركة الصهيونية في الثلث الأول من القرن العشرين هو أيضا تاريخ صراعها مع هذا التيار اليهودي الذي يرى في اليهودية " دينًا روحي الهدف إنساني الدعوة " لا يمكن تحويله إلى دولة مغلقة، ولم تلق الصهيونية قبولا يهوديا إلا بعد تحالف الصهيونية مع النازية لتهجير يهود أوروبا إلى فلسطين وإبادة الراغبين في الاندماج في المجتمعات الأوربية أو عديمي النفع للدولة اليهودية من الفقراء والمعاقين والعجائز، وقبل هذا التحالف الصهيوني / النازي كان غالبية يهود أوروبا الغربية، والعدد الأكبر من يهود أمريكا يرون في الصهيونية خطرا على اندماجهم في مجتمعاتهم، وأداة تحريض دائمة عليهم [١].

وقبل أن نحلل النصوص التوراتية حول الوعد الإلهي لبني إسرائيل نذكر موجزا لآراء بعض كبار علماء اللاهوت والباحثين في العهد القديم حول أسطورة الأرض الموعودة.

ونبدأ برأي عميدة كلية اللاهوت البروتستانتية في باريس، والذي يشاركها كثير من علماء اللاهوت فيه " إن معظم المفسرين قد أخذوا الوعد المعطى للآباء بمعناه الكلاسيكي على أنه إضفاء للشرعية بعد الأحداث على الغزو الإسرائيلي لفلسطين، أو على أنه امتداد لسيادة الإسرائيلية في عهد داود. بعبارة أخرى فقد أُدْخِل الوعد ضمن أحاديث الآباء بغية اتخاذ هذه الملحمة السلفية كتمهيد وكإعلان عن العصر الذهبي الداودي والسليماني.

أما الرأي الثاني فللبروفسور " غليوم " أستاذ العهد القديم في جامعة لندن

(١) فيصل ابو خضرا "تاريخ المسألة الفلسطينية" ص ٣١، ٣٢.

وأستاذ اللغات الشرقية في جامعة برمنجهام سابقا وواضع العديد من المؤلفات عن العهد القديم، يقول غليوم :

" إن النصوص الواردة في العهد القديم تعطي تفسيرا غامضا لرقعة هذه الأرض إنها تبتدئ من شجام (نابلس) وتمتد لتشمل كل المنطقة من النيل إلى الفرات، و ينص أحد الوعود على أن نسل إبراهيم سينتشر في الجهات الأربع، وهنا أيضا من المهم أن ننتبه أن الوعد بالسيطرة على المنطقة من النيل إلى الفرات قد أُعْطِيَ قبل مولد إسحاق وإسماعيل لذا فإن الوعد لا يعني أن هذه المنطقة تكون إسرائيلية (إي لنسل إسحاق) خالصة "[١].

ونختتم هذه الآراء بذكر موقف المفكر الفرنسي الأشهر رجاء جارودي من النصوص التوراتية الخاصة بأصول الوعد المعطى للآباء والتي يمكن أن نوجزه في النقاط الآتية:

١- الوعد بالأرض بمعنى الوعد بالاستقرار قد وجه أولا إلى قبائل البدو الرُّحَّل التي كانت تطمح إلى الاستقرار في مكان مَّا بالمناطق الصالحة للسكنى، وبمقتضى هذا فإن الوعد كان جزءا من الإرث الديني والروائي لعدة قبائل بدوية متباينة.

٢- أما وعد الرُّحَّل فقد كان الغرض منه ليس الغزو السياسي أو العسكري لمنطقة أو لبلد بأكمله بل الاستقرار في منطقة محددة.

٣- في الأصل فإن الوعد المعطى للآباء والذي تحدث عنه سفر التكوين لم يقطعه " يهوه " (الرب الذي دخل فلسطين مع مجموعة الخروج) ولكن الرب الكنعاني " إيل " في إحدى أقانيمه المحلية والرب المحلي - مالك الأرض - هو وحده الذي يستطيع أن يمنح للرُّحَّل حق الاستقرار في أراضيه.

٤- عندما تجمعت القبائل الرُّحل التي استقرت مع قبائل أخرى لتشكل "شعب إسرائيل " فإن الوعود القديمة كانت بمثابة أهداف قد تحققت، ومن ثَم بدأ الوعد يتخذ أبعادا سياسية وعسكرية وقومية وعلى ذلك فإن الوعد

---

(١) نقلا عن حسين الطنطاوي "الصهيونية والعنف" دار الشعب ص ٦٦.

بعد إعادة تفسيره على هذا النحو فُهم على أنه التجسيد المسبق للغزو النهائي لفلسطين وكإعلان وإضفاء للشرعية على مملكة داود.

٥- يرجع وعد " الرُّحَّل " الذي يهدف إلى توطين عشيرة موحدة إلى أصل يسبق الأحداث دون شك فإن الأمر يختلف بالنسبة للوعد الموسع ذي الأبعاد القومية ونظرا لأن القبائل الإسرائيلية لم تتوحد إلا بعد استيطانها في فلسطين فإن إعادة تفسير وعد الرُّحل ليصبح وعدا بالسيادة السياسية قد تمت بعد الأحداث وعلى ذلك فإن سفر التكوين (١٥: ١٦-٢١) الذي يتوخى سيادة الشعب المختار على جميع المناطق الواقعة بين نهر مصر والنهر الكبير نهر الفرات، وعلى جميع الشعوب التي تقطن هناك هو بجلاء نبوءة ما قبل الأحداث مستوحاة من غزوات داود.

وقد أتاحت البحوث التفسيرية التأكد على أن توسيع وعد الرُّحل وجعله وعدا قوميا قد حدث قبل تحرير أقاويل الأوائل خطيا.

ولقد عاش القَصَّاص يهويا الذي يعتبر أول قَصَّاص كبير (أو بالأحرى : محرر الأحاديث) للعهد القديم في عصر سليمان ومن ثَمَّ فقد كان معاصرا وشاهدا على العقود التي تحقق فيها وعد الآباء الذي أُعيد تفسيره في ضوء داود بما يفوق كل الآمال.

ونص سفر التكوين : ١٢ " وَقَالَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ: «اتْرُكْ أَرْضَكَ وَعَشِيرَتَكَ وَبَيْتَ أَبِيكَ وَاذْهَبْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ، ٢فَأَجْعَلَ مِنْكَ أُمَّةً كَبِيرَةً وَأُبَارِكَكَ وَأُعَظِّمَ اسْمَكَ، وَتَكُونَ بَرَكَةً (لِكَثِيرِينَ). ٣وَأُبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَأَلْعَنُ لاَعِنِيكَ، وَتَتَبَارَكُ فِيكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ». ٤فَارْتَحَلَ أَبْرَامُ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ ".

هو نص من تلك النصوص الأساسية لفهم أعمال يهويا ووفقا لهذا النص فإن بركة إسرائيل قد رافقتها بركة جميع " قبائل الأرض " وقبائل الأرض هم أولا كل الشعوب التي تتقاسم مع إسرائيل فلسطين والضفة الغربية.

وهكذا فإننا لسنا في حلٍّ من التأكيد على أنه في فترة ما من فترات التاريخ ظهر الرب أمام شخصية تاريخية تسمى إبراهيم وأنه قد منحه الصكوك

الشرعية لامتلاك أرض كنعان ومن الناحية القانونية فإننا لا نملك صك للهبة موقعة من الله بل لدينا من الأسباب القوية ما يجعلنا نفكر في أن المنظر الوارد في سفر التكوين (١٢ : ١-٨ / ٨ -١٣ /١٤: ١٨) على سبيل المثال لا يعكس حادثة تاريخية.

فهل من الممكن والحال هذه تفعيل وعد الآباء ؟ فإذا كان معنى تفعيل الوعد هو استخدامه كصك من صكوك الملكية أو لوضعه في خدمة المطالبات السياسية فهو قطعا ليس كذلك.

فليس هناك أي سياسة لها حق ادعاء كفالة الوعد وضمانه، ولا نتفق بأي شكل من الأشكال مع أي من المسيحيين الذين يعتبرون وعود العهد القديم بمثابة إضفاء الشرعية على المطالبة بالأراضي الحالية لدولة إسرائيل[1].

هل الوعود الإلهية بتملك الأرض قاصرة على بني إسرائيل وحدهم ؟

ويجيب جارودي عن هذا السؤال قائلا: " إن قِراءة النصوص المقدسة فِي الشرق الأوسط تُرينا أن جميع الشعوب قد لمست فيها وعودا متشابهة، من ربِّها، تَعِدها بالأرض، من العِراق إلى مِصر، مرورا بالحثيين.

ففِي مِصر أقام تحتمس الثالث معبد الكرنك "بين ١٤٨٠ و١٤٧٥ ق.م" حتى يحتفِل بانتصاراته التِي حققها على طريق غزة، مجدو، قادش، إلى الكَرَك، وقد قال له الإله: "لقد حددت لك بامري الأرض، بِالطول والعرض، جئت لأمكنك من أن تستحق أرض الغرب".

وعلى الطرف الآخر من الهلال الخصيب، بالعِراق فِي اللوحة السادسة من "قِصة الخلق البابلية" نجد الإله مردوخ، "يعين لِكلٍّ حظّه" "العِبارة :٦"، ولِكي يختم العهد يأمر ببناء بابل ومعبدها[2].

وبين الاثنين نجد الحثيين يغنون لأرينا، إلهة الشمس:

---

(١) رجاء جارودي "الأساطير المؤسسة للسياسة الأسرائيلية" دار الغد العربي ص ٣٧-٤٠.

(٢) رينيه لابت "أديان الشرق الأدنى" ط آيارد ١٩٧٠ ص ٦٠. نقلا عن "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" مرجع سابق.

"إنك تسهرين على أمان السماوات والأرض وأنت تحرسين حدود البلاد" [1].

فلو لم يتلَقَّ العبرانيون وعدا كهذا لاعتُبروا في الحقيقة شذوذا واستثناءً.

وعليه، فإن ما يُعَدُّ استثناء وشذوذًا هو استخدام الوعد، بعد ثلاثة آلاف عام، على نحو ما حدث: أن يتخيلوا العراق أساسا من أسس مزاعمهم حول الأرض، طبقا لوعد مردوخ، أو الأرض السورية طبقا لوعد أرّينَا "لأجدادهم" الحثيين، أو مصر، طبقا لوعد آمون لتحتمس !! لقد كان العالَم كله على صواب أن يأخذ هذه الوعود جميعا مأخذ السخرية والاستهزاء.

إن التاريخ المقارن للأديان يُرينا، بصفة أكثر عموما، كيف أن قبائل جميع الشعوب، من إفريقيا إلى بولينيزيا قد أنشأت قصصا مُعَبِّرَة عن أنسابها، تَصِلُها بأجداد أسطوريين، هم أبطال رمزيون، منحوا أسماءهم للقبيلة، وضمنوا لها أرضها، هذا النوع من الأسطوريَّة، نما ـ أيضًا ـ في الغرب: فكانت الإلياذة والأوديسا لدى اليونانيين "سفر التكوين"، وعندما أصبح أوغسطس إمبراطورًا لروما، كانت أشعار فيرجيل هي الَّتي تروي ملحمة البطل، مؤسس "المدينة الخالدة"، إينيه أحد الناجين من حصار طروادة، وهو يتلقى النصوص القديمة للإلياذة والأوديسا، والتقاليد الشفهية التي يحكي كثير منها أحداثًا تاريخية واقعيَّة، على الطريقة اليونانية، ولقد رأينا كيف أن القوميات المختلفة في القرن التاسع عشر ـ عمدت إلى إحياء هذه الأساطير.

إن أية قومية تحتاج إلى أن تُضفي صفة القداسة على دعاواها، فبعد تفسُّخ المسيحيَّة عمدت كل دولة ـ قومية إلى ادِّعاء أنها جمعت التراث المقدس، وأنها تلقت من الله تنصيبًا، ابتداءً من روسيا المقدسة، إلى الملوك الكاثوليك بأسبانيا، وفرنسا، الابنة الكبرى للكنيسة، التي تم بها عمل الرب، إلى ألمانيا، "فوق الجميع"؛ لأن الرب معها، وأعلنت إيفا بيرون "أن رسالة الأرجنتين هي أن تأتيَ بالرب إلى العالَم"، وَفي عام ١٩٧٢ أشهر رئيس وزراء جنوب إفريقيا، فورستر بعنصريته المتوحشة، سياسة التمييز العنصري، وتكهن بدوره قائلا: "يجب ألا ننسى أننا شعب الرب، مختارون لرسالة"

(١) السَّابق ص ٥٥٧.

جاء في صحيفة فيفان يونيفر عدد ٢٩٠ ـ يناير ـ فبراير ١٩٧٤، عبارة "أنتم جُند المسيح" وذلك في كلمة الكاردنيال سبيلمان إلى قوات الحملة الأمريكية في فيتنام، دون أن يستنكر البابا قولته هذه.

ولسوف يكون غريبًا ألا تتقاسم القومية الصهيونية مع سائر القوميات هذه النشوة، ولاسيما أن الصهيونية السياسية ترفض من الناحية المنهجية فكرة أن اليهودية دين فقط، وترى أن اليهودية أُمَّة ـ قَوْمِيَّة.

فهذه هي المسلمة الأساسية للصهيونية: أن اليهودية ليست دينا أساسا، ولكنها قومية أولاً.

ولقد كتب ماكس نوردو، وهو من أقرب زملاء هرتزل إليه ـ كتب عام ١٩٠٢ يقول: "إن النقطة الوحيدة التي تنفي إلى الأبد احتمال أن يتفق اليهود الصهيونيون واليهود غير الصهيونيين هي مسألة القومية اليهودية، فالذي يعتقد ويؤيد أن اليهود ليسوا قومية لا يمكن ـ في الواقع أن يكون صهيونيا"[1].

إن فكرة الأماكن المقدسة المرتبطة بفكرة الجنس هي الخيط الذي قاد جميع حوادث اغتصاب الأراضي التي ارتكبتها القوميات في القرن التاسع عشر.

لقد ربط تيودور هرتزل، الذي تَشَرَّبَ الثقافة الألمانية بعمق، بين الأرض والجنس، فهو في كتابه: "الدولة اليهودية" يُلِحُّ ابتداء من المدخل، على فكرة "الجنس اليهودي"، فيقول: "إن اليهود، وهم الأعلون ماديا وأدبيا، قد فقدوا فقدانا كاملا شعورهم بالترابط الجنسي... إن اليهود الأقوياء يعودون فخورين إلى جنسهم عندما يتفجر الاضطهاد[2].

ثم يضيف قوله: فليعطونا السيادة على جزء من الأرض ذي علاقة بحاجاتنا

---

(١) "دراسة أنثروبولوجية للنصوص الصهيونية نشرة رابين آرثر هيرتزبرج بعنوان "الفكرة الصهيونية" نقلا عن "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" ص ٢٤٣ مرجع سابق.

(٢) تيودور هرتزل "الدولة اليهودية" نقلا عن "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" ص – ٢٢. مرجع سابق.

المشـروعـة... فلسطين هي وطننا التـاريخي الذي لا يُنْسَى، وهذا الاسم وحـده سوف يكون صرخة التجمع القوية لِشعبنا "[1].

والحقيقة أن حديث هرتزل عن أسطورة الجنس اليهودي وأرض فلسطين لم يكن له أساس من الموضوعية ولا حتى من الإيمان اليهودي، إنما الذي اضطر هرتزل إلى التركيز على هذه الأسطورة هو ما لها من قدرة كبيرة على حشد المؤيدين لمشروعه الصهيوني الاستعماري.

فهرتزل الذي روج لهذه الأسطورة قد كتب فيما يتعلق بالجنس يقول: "إننا - والحق يقال - لا نرى أنفسنا منتمين إلى نفس الجنس إلا في إيمان أجدادنا" [2].

فهرتزل عندما صاغ الشعارات: "نحن شعب"، "وفلسطين وطننا التاريخي الذي لا يُنْسَى" فإنه لم يفعل سوى أن تناول ما أطلق عليه هو نفسه: "الأسطورة العظيمة"[3].

وقد كان هرتزل معجباً بالنظرية العِرْقية، ولكنه كان صديقاً لإسرائيل زانجويل الروائي الإنجليزي والزعيم الصهيوني اليهودي ذي الأنف الطويل والشبيه بأنوف الزنوج والشعر الكث الحالك السواد، وكانت نظرة واحدة إليه تكفي- على حدّ قول هرتزل نفسه - لدحض أي تصور عرْقي لليهود[4].

إنه يعرف جيدا أن أسطورة الجنس اليهودي محض خيال، ليس لها أساس علمي، وهو يصف السمات الفيزيقية في مناقشة مع إسرائيل زنجويل، وكأنها معارضة لِسماته معارضة تامة، فيقول: "إنه يستمسك بفكرة الجنس، وهو شيء لا أستطيع أن أقبله، وليس أمامي سوى أن أنظر إليه وأنظر إلى نفسي، فكل

(١) تيودور هرتزل "الدولة اليهودية" مرجع سابق ص - ٤٥.

(٢) تيودور هرتزل "الدولة اليهودية" مرجع سابق ص - ١١٢.

(٣) نفسه ص ٤٥.

(٤) د. عبد الوهاب المسيري "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" م٢ ج١ - إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية. بيت العرب للتوثيق العصري والنظم.

ما أقوله هو: نحن وحدة تاريخية وقومية ذات تنوع أنثروبولوجي، وهذا يكفي لقيام دولة يهودية؛ إذ ليس لأية قومية جنس منسجم"[1].

ولقد كان هرتزل على استعداد أن يقبل بدولة يهودية في أي مكان في العالم ولقد تصور على التوالي أن تكون في الأرجنتين أو شبه جزيرة سيناء أو قبرص أو أوغندا أو...

وبعد أن عرفنا رأي علماء اللاهوت والباحثين في الوعد الإلهي نبدأ الآن بتحليل النصوص التوراتية التي يستند إليها اليهود الصهاينة في إثبات أحقيتهم في استيطان الأرض الموعودة أرض كنعان التي تمتد من النيل للفرات.

إسماعيل ابن إبراهيم البكر

تنص توراة اليهود على أن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم " ١٥ثُمَّ وَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْناً، فَدَعَا أَبْرَامُ ابْنَهُ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لَهُ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ. ١٦وَكَانَ أَبْرَامُ فِي السَّادِسَةِ وَالثَّمَانِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا وَلَدَتْ لَهُ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ." (التكوين:١٦).

ثم تنص توراة اليهود على أنه بعد مولد إسماعيل بثلاث عشرة سنة بشَّر الله إبراهيم بميلاد إسحق من سارة، وتعجب إبراهيم أن يولد له ابن آخر وقد بلغ المئة عاما " «أَيُولَدُ ابْنٌ لِمَنْ بَلَغَ الْمِئَةَ مِنْ عُمْرِهِ؟ وَهَلْ تُنْجِبُ سَارَةُ وَهِيَ فِي التِّسْعِينَ مِنْ عُمْرِهَا؟ » " (التكوين : ١٧).

لكن الله قضت مشيئته " ٢فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ فِي شَيْخُوخَتِهِ ابْناً، فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَيَّنَهُ اللهُ لَهُ. ٣فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ ابْنَهُ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لَهُ سَارَةُ «إِسْحقَ»." (التكوين : ٢١).

ويَعِد الرب سارة أن تكون أماً لشعوب ومنها ينحدر ملوك أمم " ١٥وَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «أَمَّا سَارَايُ زَوْجَتُكَ فَلاَ تَدْعُوهَا سَارَايَ بَعْدَ الآنَ، بَلْ يَكُونُ اسْمُهَا سَارَةَ (وَمَعْنَاهُ أَمِيرةٌ). ١٦وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ ابْناً مِنْهَا. سَأُبَارِكُهَا وَأَجْعَلُهَا أماً لِشُعُوبٍ، وَمِنْهَا يَتَحَدَّرُ مُلُوكُ أُمَمٍ» " (التكوين : ١٧).

(١) يَوْمِيَّات تيودور هرتزل. نقلا عن "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية" مرجع سابق ص ٧٨.

ثم يؤكد الرب لإبراهيم أنه سيكون له نسل من إسحق :

" لأنه بإسحق يدعى لك نسل " (التكوين : ٢١)

والعجيب أن تنص التوراة بعد ذلك على أن إسحق هو الابن الوحيد لإبراهيم لتنسب له شرف الفداء من الذبح وهي التي ذكرت أن إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم، كما ذكرت أن إبراهيم سيكون له نسل من إسحق فكيف يعده الله بالنسل من إسحق ثم يطلب منه أن يقدم ابنه للمحرقة وهو بَعْدُ صغير لم يتزوج وليس له ولد !!

" وَبَعْدَ هَذَا امْتَحَنَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ، فَنَادَاهُ: «يَاإِبْرَاهِيمُ» فَأَجَابَهُ: «لَبَّيْكَ». ٢فَقَالَ لَهُ: خُذِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ، إِسْحقَ الَّذِي تُحِبُّهُ، وَانْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَّا وَقَدِّمْهُ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَهْدِيكَ إِلَيْهِ. " (التكوين : ٢٢).

ومن الواضح الجلي - كما أشار إلى ذلك الباحثون قديما وحديثا - أن اسم إسحق قد أُقْحِم على النص السابق فيما بعد إذ كيف يكون إسحق هو الابن الوحيد وقد وُلِدَ إسماعيل قبله بأربع عشرة سنة بنص توراة اليهود نفسها !!

وتؤكد التوراة على أن الذاهب إلى المحرقة هو ابن إبراهيم الوحيد " فناداه ملاك الرب من السماء قائلا :

" إبراهيم، إبراهيم فأجاب " نعم " فقال : " «لاَ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى الصَّبِيِّ وَلاَ تُوْقِعْ بِهِ ضُرّاً لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّكَ تَخَافُ اللهَ وَلَمْ تَمْنَعِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي»... ١٥وَنَادَى مَلاَكُ الرَّبِّ إِبْرَاهِيمَ مِنَ السَّمَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً: ١٦وَقَالَ: «هَا أَنَا أُقْسِمُ بِذَاتِي يَقُولُ الرَّبُّ: لأَنَّكَ صَنَعْتَ هَذَا الأَمْرَ، وَلَمْ تَمْنَعِ ابْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي، ١٧لأُبَارِكَنَّكَ وَأُكَثِّرَنَّ ذُرِّيَّتَكَ فَتَكُونُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ وَكَرَمْلِ شَاطِيءِ الْبَحْرِ، وَتَرِثُ ذُرِّيَّتُكَ مُدُنَ أَعْدَائِهَا. ١٨وَبِذُرِّيَّتِكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، لأَنَّكَ أَطَعْتَنِي» "(التكوين : ٢٢).

وعليه فإنه من المؤكد أن أمر التضحية والفداء قد جاء في وقت لم يكن فيه لإبراهيم سوى ولد وحيد هو إسماعيل. وبالتالي لا تنطبق على إسحق صفة «الوحيد». وقد نصت توراة اليهود على أن إسماعيل كان الابن الوحيد لإبراهيم لمدة أربعة عشر عاما.

«٢١غَيْرَ أَنَّ عَهْدِي أُبْرِمُهُ مَعَ إِسْحقَ الَّذِي تُنْجِبُهُ لَكَ سَارَةُ فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ». ٢٢وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ مُحَادَثَتِهِ فَارَقَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ٢٣. وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ إِسْمَاعِيلَ وَجَمِيعَ الْمَوْلُودِينَ فِي بَيْتِهِ وَكُلَّ مَنِ اشْتَرِيَ بِمَالٍ، كُلَّ ذَكَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَخَتَنَ لَحْمَ غُرْلَتِهِمْ كَمَا أَمَرَهُ الرَّبُّ. ٢٤وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ فِي التَّاسِعَةِ وَالتِّسْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ عِنْدَمَا خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ، ٢٥أَمَّا إِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ فَقَدْ كَانَ ابْنَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً حِينَ خُتِنَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِهِ. ٢٦وَهَكَذَا خُتِنَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُهُ فِي الْيَوْمِ نَفْسِهِ. " (التكوين : ١٧) .

واليهود إذ ينفون عن إسماعيل صفة الذبيح المُفتدَى وينسبونها لإسحق فإنهم يرمون من وراء ذلك اتصاف إسحق بكل مكرمة فهو أولا ابن سارة الحرة وليس ابن هاجر الجارية كإسماعيل، وهو صاحب العهد الأبدي هو وذريته قبل أن يولد، وهو الذبيح المفدى لذا فهو الحقيق بأن يدعى الابن الوحيد لإبراهيم من دون إسماعيل تجهيزا له ليرث عهد الله لإبراهيم بامتلاك أرض كنعان !!

يقول البروفسور (غليوم) :

" يُعْتَقَد حاليا أن هذه الوعود قد أعطت لليهود وحدهم، ولكن التوراة لا تنص على ذلك إن عبارة " نسلكم " تشمل بدون شك العرب مسلمين ومسيحيين الذين يملكون حق القول أنهم من نسل إبراهيم عن طريق ابنه إسماعيل إنه من المعتقد أن إسماعيل هو جد عدد كبير من القبائل العربية، ونص سفر التكوين على أن إبراهيم هو جد العديد من قبائل شمال شبه الجزيرة العربية من نسل إحدى سراياه، وعلاوة على ذلك فإنه لما أعطي عهد الطهور لإبراهيم (سفر التكوين١٥،٢) ووعد هو وأهله بأرض كنعان كملك أبدي قد عني إسماعيل آنذاك خصوصا وقد كان إسحق لم يولد بعد " (١).

ويركز العهد القديم على عدم نقاء دم إسماعيل، فهو أولاً من أم مصرية، ثم إنه تزوج هو نفسه من مصرية، واندمج نسله مع المَدْيَنيين والمؤابيين، الأمر الذي جعلهم خصوماً للعبرانيين على الدوام. وقد تم استبعاده من الميثاق الذي عُقد بين إبراهيم والخالق والذي ورث بموجبه نسل إبراهيم أرض كنعان.

(١) نقلا عن حسين الطنطاوي "الصهيونية والعنف" مرجع سابق ص ٦٦.

وتصف توراة اليهود إسماعيل بأبشع الصفات.

"أَضَافَ مَلاَكُ الرَّبِّ: «هُوَ ذَا أَنْتِ حَامِلٌ، وَسَتَلِدِينَ ابْناً تَدْعِينَهُ إِسْمَاعِيلَ (وَمَعْنَاهُ: اللهُ يَسْمَعُ) لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ شَقَائِكِ. وَيَكُونُ إِنْسَاناً وَحْشِيّاً يُعَادِي الْجَمِيعَ وَالْجَمِيعُ يُعَادُونَهُ، وَيَعِيشُ مُسْتَوْحِشاً مُتَحَدِّياً كُلَّ إِخْوَتِهِ" (التكوين:١٦) أي أن إسماعيل سيعادي كل الناس ويعاديه الناس جميعا ! .

وتُصوِّر الأجاداه إسماعيل شخصيةً شريرة فشل إبراهيم في تربيته، فهو يفسد النساء ويعبد الأوثان ويحاول قتل إسحق، ولكنه ماهر في استخدام السهم والقوس. تزوج من امرأة مؤابية، وحينما زارهما إبراهيم كان إسماعيل غائباً. ولم تكرم الزوجة المؤابية وفادته، فترك إبراهيم له رسالة بأن عليه – أي إسماعيل – أن يُغيِّر وتد خيمته. ففهم إسماعيل مضمون الرسالة، وطلق زوجته وتزوج كنعانية تُسمَّى فاطمة (!). وقد ندم إسماعيل في نهاية حياته على كل المعاصي والآثام، وتنحَّى جانباً في جنازة إبراهيم احتراماً لأخيه إسحق. ويُعتبَر إسماعيل أبا للعرب وقد كان يُشار إلى العرب في الكتب الدينية اليهودية في العصور الوسطى باسم الإسماعيليين. والآن يُطلق سكان الكيبوتسات على العاملات العربيات اللائي يعملن فيها اسم كومبينة فاطمة "[(١)].

هل إسحاق هو الابن الوحيد لإبراهيم المستحق لميراثه ؟

نصت التوراة على أن هاجر كانت جارية سارة ولمَّا كانت سارة عاقراً فقد طلبت من إبراهيم أن يتزوج بهاجر فينجب منها حتى لا ينقطع نسله.

" وَأَمَّا سَارَايُ زَوْجَةُ أَبْرَامَ فَقَدْ كَانَتْ عَاقِراً، وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ تُدْعَى هَاجَرَ. ٢فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَ ذَا الرَّبُّ قَدْ حَرَمَنِي مِنَ الْوِلاَدَةِ، فَادْخُلْ عَلَيْهَا لَعَلَّنِي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ. فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِكَلاَمِ زَوْجَتِهِ. ٣وَهَكَذَا بَعْدَ إِقَامَةِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، أَخَذَتْ سَارَايُ جَارِيَتَهَا الْمِصْرِيَّةَ هَاجَرَ وَأَعْطَتْهَا لِرَجُلِهَا أَبْرَامَ لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ " (التكوين : ١٦).

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" م ٤/ ج١/ الباب الثامن "إسماعيل" مرجع سابق.

وتؤكد التوراة في مواضع كثيرة على أن هاجر جارية، وابنها إسماعيل ابن الجارية، وتكرر هذا بشكل ملفت " فأنا قد زوجتك من جاريتي " " ها هي جاريتك تحت تصرفك " " يا هاجر جارية ساراى " " إنني هاربة من وجه سيدتي سارة " ٩وَرَأَتْ سَارَةُ أَنَّ ابْنَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ الَّذِي أَنْجَبَتْهُ لإِبْرَاهِيمَ يَسْخَرُ مِنِ ابْنِهَا إِسْحقَ، ١٠فَقَالَتْ لإِبْرَاهِيمَ: «اطْرُدْ هَذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، فَإِنَّ ابْنَ الْجَارِيَةِ لَنْ يَرِثَ مَعَ ابْنِي إِسْحقَ». ١١فَقَبُحَ هَذَا الْقَوْلُ فِي نَفْسِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ أَجْلِ ابْنِهِ. ١٢فَقَالَ اللهُ لَهُ: «لاَ يَسُوءُ فِي نَفْسِكَ أَمْرُ الصَّبِيِّ أَوْ أَمْرُ جَارِيَتِكَ، وَاسْمَعْ لِكَلاَمِ سَارَةَ فِي كُلِّ مَا تُشِيرُ بِهِ عَلَيْكَ لأَنَّهُ بِإِسْحقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ. ١٣وَسَأُقِيمُ مِنِ ابْنِ الْجَارِيَةِ أُمَّةً أَيْضاً لأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ»." (التكوين : ٢١).

أرأيتم كم مرة وُصِفت فيها هاجر بأنها جارية، وإسماعيل بأنه ابن الجارية !!

لما هذا التكرار الممل ؟

أنا أقول لكم هذا التكرار - بَيِّن الوضع - أضيف إلى التوراة لاحقا ليئول ميراث إبراهيم لإسحاق دون إسماعيل لأن ابن الجارية لا ينبغي له - في منطق اليهود - أن يرث من أبيه هذا بالإضافة لسوء طبعه وفساد خلقه !

لكن ليس هناك جريمة كاملة كما يُقال فإن توراة اليهود نسيت أن تحذف جملة " ١٣وَسَأُقِيمُ مِنِ ابْنِ الْجَارِيَةِ أُمَّةً أَيْضاً لأَنَّهُ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ." فتوراة اليهود تنص على أن إسماعيل من ذرية إبراهيم، و كانت قد نصت على أن الله قد وهب لإبراهيم وذريته جميع أرض كنعان " ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً». " (التكوين : ١٧) .

وتؤكد التوراة هذا العهد:

«٩وَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «أَمَّا أَنْتَ فَاحْفَظْ عَهْدِي، أَنْتَ وَذُرِّيَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ مَدَى أَجْيَالِهِمْ. ١٠هَذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ ذُرِّيَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ " (التكوين:١٧).

يقول المثل : " إن كنتَ كذوباً فكن ذَكُوراً "، لأن الكاذب ينسى كذبه ويصرح بما يناقضه وهذا ما حدث مع كَتَبَة التوراة فقد نسوا - أو أُنسوا - أن يحذفوا

ما يناقض ما يدّعونه فالتوراة نصت على أن إسماعيل من ذرية إبراهيم المستحقة لميراثه، كما نسى كَتَبَة التوراة أن إسحق لم يكن يوما ابنا وحيدا لإبراهيم لذا فالذبيح هو إسماعيل الذي ظل وحيد إبراهيم لمدة أربع عشرة سنة.

ويعترف علماء اليهود المحققون بأن استبعاد إسماعيل من العهد ليس له ما يبرره وأن التوراة نفسها لم تقدم أي تفسير لهذا " لم يتم في العهد القديم، أبدا، تفسير السبب الذي استبعد إسماعيل من الميثاق[1] .

إسماعيل هو الذبيح

القرآن الكريم - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - يقص علينا قصة ذرية إبراهيم بالحق في وضوح مبين فقد دعا إبراهيم ربه أن يرزقه ابنا صالحا فبشره الله تعالى بغلام حليم ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات : ١٠٠- ١١٣).

والغلام الحليم هو إسماعيل فهو بكر أبيه وهو أول أبنائه الصالحين، وهو الذي أسكنه إبراهيم عند بيت الله المحرم.

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(إبراهيم : ٣٧).

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين. وآخرون "ذرية إبراهيم" مرجع سابق. ص٢٣.

وهو الذي أمره الله تعالى مع أبيه إبراهيم أن يطهرا بيت الله الحرام للطائفين والعاكفين والركع السجود.

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾(البقرة: ١٢٥).

وهو الذي رفع القواعد من البيت الحرام مع أبيه إبراهيم.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة : ١٢٧).

وهو الذي دعا مع أبيه أن يجعلهما الله مسلمين له ويريهما المناسك ويتوب عليهما.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة : ١٢٨).

وهو الذي أدى مع أبيه إبراهيم المناسك من طواف وسَعْي حتى إذا أتم السعي أخبره أبوه أنه يرى في المنام أنه يذبحه.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات : ١٠٢-١٠٧).

ولا ذكر هنا لإسحاق على الإطلاق في سكن البيت الحرام ولا تطهيره ولا بنائه ولا أداء المناسك والسعي، لا ذكر إلا لإبراهيم وإسماعيل، وبعد أن ابتلى الله تعالى إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل، وتم الفداء بالذبح العظيم بشَّر الله تعالى إبراهيم بإسحق نبيا.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾(الصافات : ١١٢- ١١٣).

وإن المرء ليأخُذُه العجبُ، كيف التبس الأمر على بعض المفسرين فزعموا أن الذبيح هو إسحاق مع أن النص القرآني واضح غاية الوضوح في أن البشارة بإسحاق كانت بعد عملية الذبح والفداء ؟! وكيف جيء بإسحاق من الشام ليُذبَح في مكة التي هي مسكن إسماعيل وأمه !!

فيزعم أصحاب رأي إسحاق هو الذبيح أن " إبراهيم ذبح إسحاق في المنام، فسار به مسيرة شهر في غداة واحدة، حتى أتى به المنحر من منى ؛ فلما صرف الله عنه الذبح وأمره أن يذبح الكبش فذبحه، وسار به مسيرة شهر في روحة واحدة طويت له الأودية والجبال ".

ولا دليل على هذا الكلام العجيب. وكثير من علماء السلف والخلف من فنّده.

" عن الأصمعي قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ! ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة. وروي عن النبي ﷺ أن الذبيح إسماعيل"[1].

وذكر القرطبي حجج من قال إن الذبيح هو إسماعيل فقال :

" احتج من قال إنه إسماعيل: بأن الله تعالى وصفه بالصبر دون إسحاق في قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٥).

وهو صبره على الذبح، ووصفه بصدق الوعد في قوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ (مريم : ٥٤)؛ لأنه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به ؛ ولأن الله تعالى قال :﴿وبشرناه بإسحاق نبيا﴾ فكيف يأمره بذبحه وقد وعده أن يكون نبيا، وأيضا فإن الله تعالى قال :

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود : ٧١).

فكيف يؤمر بذبح إسحاق قبل إنجاز الوعد في يعقوب. وأيضا ورد في

(١) تفسير القرطبي لقوله تعالى ﴿ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني اذبحك﴾ (البقرة: ١٠٢).

الأخبار تعليق قرني الكبش في الكعبة، فدل على أن الذبيح إسماعيل، ولو كان إسحاق لكان الذبح يقع ببيت المقدس "[1].

وأكد العلماء المحققون وعلى رأسهم الحافظ ابن كثير - في كتابه الماتع البداية والنهاية - أن الذبيح هو إسماعيل وأن من قال بغير ذلك من المسلمين فلا برهان له على ذلك إنما تلقاه من اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه.

" وقد كان للخليل بنون كما ذكرنا، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان أسنهما وأجلهما الذي هو الذبيح على الصحيح : إسماعيل بكر إبراهيم الخليل، من هاجر القبطية المصرية عليها السلام من العظيم الجليل، ومن قال: إن الذبيح هو إسحاق فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل، الذين بدلوا وحرفوا وأولوا التوراة والإنجيل، وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل.

فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البِكْر، وفي رواية الوحيد، وأيّاً ما كان فهو إسماعيل بنص الدليل، ففي نص كتابهم : إن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة، وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل، فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة "[2].

هل هاجر جارية سارة أم أميرة مصرية ؟

إن توراة اليهود تصرح بأن هاجر جارية، وإسماعيل ابن الجارية - كما سبق ذكره - وللأسف أخذ المسلمون هذا الادعاء التوراتي قضية مُسَلَّمَة ووصفوا هاجر بأنها جارية سارة دون دليل إنما تلقوا هذا الأمر من التوراة دون تمحيص.

والحقيقة أن هاجر ليست جارية كما ادعت التوراة إنما هي أميرة مصرية هذا ما يؤكده علماء الآثار المصرية القديمة " والبرديات الفرعونية تؤكد على أن هاجر

---

(١) نفسه.

(٢) ابن كثير "البداية والنهاية" ج١ ص٢٢١.

ليست جارية سارة إنما هي أميرة مصرية وهي شقيقة الملك المصري سنوسرت الذي آمن بدعوة إبراهيم وزوجه من أخته هاجر "[1].

تحقق الوعد الإلهي بدخول بني إسرائيل أرض كنعان

إن سلمنا جدلا - لا حقيقة - بأن حام بن نوح قد أخطأ، وأن الرب قد أقام عهدا بينه وبين سام ونسله من بعده أن يعطي له كل أرض كنعان، وإن سلمنا جدلا أن إسحاق هو الذبيح - وهو ليس كذلك - وأنه هو الوريث الشرعي للعهد الإلهي، وإن غضضنا الطرف والعقل عن الطريقة التي حصل بها يعقوب على النبوة، وعلى لقب إسرائيل، وإن كذبنا توراة اليهود والتاريخ وصدقنا أن بني إسرائيل هم أول من سكن أرض كنعان، وأنهم استطاعوا أن يحافظوا على نقائهم العرقي.

إن سلمنا بكل هذا الأساطير فإن الوعد الإلهي بتملك بني إسرائيل أرض كنعان قد تحقق بالفعل في عهد يشوع، وتوراة اليهود نفسها تنص على هذا وتؤكده.

" وهكذا وهب الرب إسرائيل جميع الأراضي التي حلف أن يعطيَها لآبائهم فورثوها وأقاموا فيها، فأراحهم الرب من كل ناحية كما أقسم لآبائهم، ولم يستطع أحد من جميع أعدائهم أن يقاوموا، بل أسلمهم الرب لهم جميعا فتحقق كل ما وعد الرب به بني إسرائيل من وعود صالحة (يشوع : ٢١).

فعلى الرغم مما فعله بنو إسرائيل مع الرب ونقضهم لعهده وعبادتهم سواه إلا أنه وفَّى لهم بوعده لآبائهم بدخول أرض كنعان تفضلا منه لا جزاءَ لهم، فما فعلوه يستحق العقاب لا المكافأة.

" استمعوا يا بني إسرائيل : أنتم على وشك عبور نهر الأردن لتدخلوا لطرد شعوب أكبر وأعظم منكم وللاستيلاء على مدن عظيمة محصنة بأسوار تبلغ عنان السماء يقيم فيها الجبابرة والعمالقة الذين عرفتم عنهم وسمعتم من يقول : " من يستطيع أن يتحدى العناقيين ؟ " اعلموا اليوم أن الرب إلهكم يتقدمكم كنار آكلة

(١) هذا الرأي سمعته كثيرًا من عالم المصريات المعماري الأشهر د. سيد كُرَيِّم رحمه الله وذكر هذا الرأي في موسوعته عن تاريخ مصر القديم" وفي حديث لرئيس تحرير جريدة حديث المدينة نشر في تاريخ ٢٣ فبراير ٢٠٠٠م.

وهو الذي يستأصلهم ويذلهم أمامكم، فتطردونهم وتبيدونهم سريعا كما كلمكم الرب. لا تقولوا لأنفسكم بعد أن ينفيهم الرب من أمامكم : " لقد أَدخَلَنَا الرب لامتلاك هذه الأرض بفضل صلاحنا ". إنما من أجل كثرة إثمهم يطردهم الرب إلهكم من أمامكم. إذ ليس بفضل صلاحكم واستقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم، إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب من أمامكم وفاء بوعده الذي أقسم عليه لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب. فاعلموا انه ليس بفضل صلاحكم يهبكم الرب إلهكم هذه الأرض الخصيبة لامتلاكها، لأنكم شعب عنيد "(التثنية : ٩).

فتَغَلُّب الإسرائيليين على الكنعانيين العرب وقهرهم لهم لم يكن بسبب صلاحهم وإقامتهم للتوراة إنما كان بسبب فساد العرب وتخليهم عن دينهم وعن السعي المخلص لدنياهم فابتلاهم الله تعالى باليهود عبدة العجل، كما سيبتلي أحفادهم باليهود الصهاينة الذين أحسنوا الأخذ في أسباب التقدم، والاستفادة من المشروع الغربي.

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيّها اليهود والعرب جميعا، وهي أن انتصار اليهود لم يكن مرجعه طاعة الله وإنما أخذهم في أسباب التقدم، وتخلي العرب - أكثرهم - عن الدين الصحيح، وإهمالهم لأسباب التقدم والعدل والحرية[1].

تحقق الوعد بالعودة

إن كل النصوص الخاصة بعودة اليهود من الشتات وتمكين " يهوه " لهم في أرض كنعان - على فرض صحتها - فهي خاصة بوعود " يهوه " ليهود السبي الآشوري والبابلي بالعودة إلى أورشليم وقد انتهت هذه الوعود بعودتهم على يد "قورش الأكبر " الإمبراطور الفارسي الذي أصدر عام ٥٣٨ ق. م مرسوماً بإعادة اليهود الذين وُطِّنوا في بابل إلى فلسطين.

وهذا نص المرسوم كما جاء في كتاب عزرا.

" هذا ما يقوله قورش ملك فارس لقد وهبني الرب إله السماء جميع ممالك

---

(١) لمزيد من التفصيل حول تاريخ اليهود، الرجوع إلى كتاب "حقيقة اليهود والصهيونية، وأوهام الأمة العربية" للمؤلف.

الأرض وأوصاني أن أشيد له هيكلا في مملكة يهوذا فعلى كل واحد من أبناء شعبه أن يصعد إلى أورشليم في أرض يهوذا فيبني هيكل الرب إله إسرائيل وعلى أهل المواضع التي يقيم فيها المسبيون المغتربون أن يمدوهم بالذهب والفضة والدواب فضلا عما يتبرع به أبناء هيكل الرب الذي في أورشليم " (عزرا : ١).

وعلى ذلك فقد تحقق لبني إسرائيل دخول أرض كنعان في زمن يشوع، وإقامة مملكة يهودية في زمن داود، وسليمان، لما كفروا بالله وعبدوا آلهة أخرى حكم عليهم بالشتات فكان السبي البابلي والآشوري ووعدهم إن استقاموا على شرعه يعيدهم مرة أخرى لأرض الميعاد، وقد تم هذا أيضا في القرن السادس قبل الميلاد على يد قورش الأكبر وبهذا تحققت جميع العهود لهم [(١)].

لله ملك السموات والأرض

إن من العقائد الإيمانية المؤكدة في كل الأديان السماوية أن الله تعالى هو خالق السموات والأرض وما فيهن من مخلوقات وعوالم وكائنات ما علمنا منها وما جهلنا، وأنه تعالى المتصرف في ملكه لا سلطان لأحد عليه، ولا يشاركه في ملكه أحد.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران : ١٨٩)

أي : هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع مِلْكُه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عديل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، فلا إله غيره ولا رب سواه[(٢)].

قال الله تعالى : ﴿للَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا فِيهِنَّ ﴾ ولم يقل ومن فيهن فغلب غير العقلاء على العقلاء، والسبب فيه التنبيه على أن كل المخلوقات مسخرون في قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره، وهم في ذلك التسخير

(١) لمزيد من التفصيل حول أسطورة العودة راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب "أسطورة الخلاص الإلهي لبني إسرائيل".

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٢٣٦.

كالجمادات التي لا قدرة لها وكالبهائم التي لا عقل لها، فعلم الكل بالنسبة إلى علمه كلا علم، وقدرة الكل بالنسبة إلى قدرته كلا قدرة[1].

إذن الأرض أرض الله وليس لجنس أو لقوم أو لشعب أو لأي كائن من كان شيء فيها. والله تعالى كتب في كتبه المقدسة التي أنزلها للناس أن الأرض يورثها لمن يشاء من عباده الصالحين تفضلا منه جل وعلا.

ذكر الله تعالى هذا في كتبه المقدسة جميعها : التوراة المُنَزَّلة على موسى، الزبور المُنَزَّل على داود، والإنجيل المُنَزَّل على عيسى، والقرآن الكريم المُنَزَّل على محمد صلى الله عليهم أجمعين.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٥-١٠٧).

واختلف المفسرون في تفسير المراد بالزبور، والذكر. فمن المفسرين من جعل الزبور لفظ عام يشمل الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه جميعاً. ومنهم من جعله لفظ خاص بكتاب داود فحسب.

أما الذكر فقد وسَّع بعض المفسرين معناه فجعله أم الكتاب عند الله، ومنهم من قصره على التوراة كتاب موسى.

وسواء أكان المقصود بالزبور والذكر بمعناهما الخاص كتابي (داود، وموسى) أو بمعناهما العام الذي يشمل كل الكتب المنزلة على جميع الأنبياء فإنه من المؤكد أن وحي الله تعالى واحد في أصله لكل الأنبياء والمرسلين، وليس هناك تناقض قط فيه، فالمُرسِل واحد جل في علاه.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (النساء : ١٦٣).

---

(١) فخر الدين الرازي التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" ج٦ ص٢٠٦.

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء : ١٠٥) .

فما هي هذه الوراثة ؟ ومن هم الصالحون المستحقون ميراث الأرض ؟

المستحقون لميراث الأرض

إن موسى عليه السلام أكد لبني إسرائيل أن الله تعالى يورث الأرض لمن يشاء من عباده الصالحين لعمارتها.

يقول تعالى : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (الأعراف : ١٢٨).

فليس هناك عهد إلهي خاص بجنس دون جنس أو أمة دون أمة كما ادعت اليهود إنما الأرض لله يورثها من يشاء من عباده وفقا لسننه في خلقه.

ولقد أكد الله تعالى لبني إسرائيل هذا مرة ثانية بعد موسى في الزبور المنزل على داود صاحب أول مملكة لبني إسرائيل في الأرض المقدسة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء : ١٠٥).

فالصالحون لعمارة الأرض هم ورثتها، هذه هي سنة الله في خلقه التي لا استثناء فيها ولا محاباة.

فعندما آمن المسلمون بالله تعالى وأعدوا ما استطاعوا من قوة نصرهم الله تعالى في مواطن كثيرة، وعندما خالفوا أوامر النبي هزموا في أحد، وكذلك عندما أُعْجب كثير من المسلمين بكثرتهم كادوا يهزمون في غزوة حنين.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (التوبة: ٢٥).

إذن ليس هناك عهد أبدي بتملك أرض مقدسة أو غير مقدسة لشعب بسبب جنسه لا بسبب عمله وصلاحه كما قالت توراة اليهود.

"٧ أُقِيمُ عَهْدِيَ الأَبَدِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، فَأَكُونُ إِلَهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً»." .(التكوين : ١٧).

فهذا الكلام بيِّن الوضع مخالف لميزان الحق الذي أنزله الله تعالى في كتبه المقدسة، ومخالف لميزان الحق الذي به قامت السموات والأرض.

يقول تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد : ٢٥).

المقصود بالكتاب : الكتب المنزلة من عند الله تعالى على رسله.

" والميزان " أي العدل، قاله ابن عباس وأكثر المفسرين. والعدل يُسَمَّى ميزانا، لأن الميزان آلة الإنصاف والعدل. وقيل: الميزان ما بين في الكتب مما يجب على الإنسان أن يعمل به. وقال قتادة : الميزان العدل فيما أمر به ونهى عنه.

وهذه الأقوال متقاربة المعنى[1].

وقوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ (الرحمن:٧-٩).

فشريعة الله هي ميزان العدل الإلهي الذي يجب على كل إنسان أن يزن به عمله : قولا أو فعلا فإن فعل ذلك فقد استقام أمر دينه و دنياه واستحق ميراث الأرض والسماء ورضوان من الله أكبر.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد : ٢٥).

وشريعة الله تعالى هي القانون الذي يجب أن نحتكم إليه في تعاملنا مع الناس كل الناس.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۝ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الشعراء : ١٨٢).

(١) تفسير القرطبي ج١٦ ص ١٥.

كما أمر الله تعالى أن يكون ميزان العدل مطلقا لا يشمل اليهود دون الأميين ولا الأقرباء دون الغرباء، ولا الأغنياء دون الفقراء، ولا الضعفاء دون الشرفاء، إنما الكل متساوون أمام ميزان العدل الإلهى سواء بسواء .

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" (المائدة : ٨)(١).

لماذا وضع الله الميزان ؟

جعل الله تعالى الحواس الخمس وسيلة ليدرك بها الإنسان حقائق الأشياء الظاهره لكن الحواس تخدع الإنسان أحيانا فالعين ترى النجوم صغيرة، والأرض ثابتة، والبذور ميتة، لذا جعل الله تعالى العقل مُصَحِّحًا لخداع الحواس فعن طريق العقل توصل الإنسان إلى أن النجوم أكبر من حجمها الذي تراه العين ملايين المرات، وأن الأرض تدور حول نفسها مرة كل أربع وعشرين ساعة، وحول الشمس مرة كل ثلاثمائة وخمسة وستين يوما وربع، والبذور تحتوي على أجنة حية، وهكذا جعل الله تعالى العقل مقوما للحواس، ولكن العقل رغم أنه أداة من أدوات المعرفة والهداية للإنسان إلا إنه محدود القدرة، مقيد بالزمان والمكان، متأثر بما حوله من مؤثرات شتَّى : معارف متباينة، وأفكار متضاربة، وعقائد متفاوتة، ومصالح متعارضة، وأهواء متفرقة.

إن للعقل البشري وزنَه وقيمته هذا حق.. ولكن هذا العقل البشري هو عقل الأفراد والجماعات في بيئة من البيئات، متأثراً بشتى المؤثرات. . وليس هناك ما يسمى «العقل البشري» كمدلول مطلق! إنما هناك عقلي وعقلك، وعقل فلان وعلان، وعقول هذه المجموعة من البشر، في مكان مًّا وفي زمان مًّا.. وهذه كلها واقعة تحت مؤثرات شتى؛ تميل بها من هنا، وتميل بها من هناك.

ولما كان العقل البشري يتسم بآفتين: القصور، والهوى فلا بد من ميزان ثابت، ترجع إليه هذه العقول الكثيرة؛ فتعرف عنده مدى الخطأ والصواب في أحكامها وتصوراتها. ومدى الشطط والغلو، أو التقصير والقصور في هذه الأحكام

(١) انظر كتاب "هذه استراتيجية فماذا نحن فاعلون؟ "للمؤلف دار الإبداع للصحافة والنشر ص١٢٤.

والتصورات. وقيمة العقل البشري هنا هو أنه الأداة المهيأة للإنسان، ليعرف بها وزن أحكامه في هذا الميزان.. الميزان الثابت، الذي لا يميل مع الهوى، ولا يتأثر بشتى المؤثرات..

ولا عبرة بما يضعه البشر أنفسهم من موازين.. فقد يكون الخلل في هذه الموازين ذاتها. فتختل جميع القيم.. ما لم يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت القويم.

والله يضع هذا الميزان للبشر، للأمانة والعدل، ولسائر القِيَم، وسائر الأحكام، وسائر أوجه النشاط، في كل حقل من حقول الحياة[1].

لذا فقد جعل الله تعالى شريعته هي المقومة للعقل والحواس جميعا والهادي الناس سواء السبيل في الدنيا والآخرة، وشريعة الله تعالى تتسم بالكمال والإحاطة، ومنزهة عن الهوى وسائر المؤثرات.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٦ – ٥٩).

والنفوس تأبى الغبن ولا يرضى أحد بأن يغلبه الآخر ولو في الشيء اليسير، ويرى أن ذلك استهانة به فلا يتركه لخصمه لغلبة ، فلا أحد يذهب إلى أن خصمه يغلبه فلولا التبيين ثم التساوي لأوقع الشيطان بين الناس البغضاء كما وقع عند الجهل وزوال العقل والسكر، فكما أن العقل والعلم صارا سبباً لبقاء عمارة العالم، فكذلك العدل في الحكمة سبب، وأخص الأسباب الميزان فهو نعمة كاملة ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمته لكثرته وسهولة الوصول إليه كالهواء والماء اللذين لا يتبين فضلهما إلا عند فقدهما[2].

(١) سيد قطب «في ظلال القرآن الكريم» ج٢ صـ١٢٦.

(٢) فخر الدين الرازي "مفاتيح الغيب" ج١٥ صـ٥٧.

ميراث الأرض مرهون بالصلاح

وفي توراة اليهود ما يفيد أن نصر الله مشروط بطاعته، وأن ميراث الأرض مرهون بالصلاح. فمن بين الميثاق المبرم بين " يهوه " وشعبه عقوبات العصيان التي يقول الرب فيها لبني إسرائيل :

" إن عصيتموني ولم تعملوا بكل هذه الوصايا، وإن تنكرتم لفرائضي وكرهتم أحكامي ولم تعملوا بكل وصاياي، بل نكثتم ميثاقي، فإني أبتليكم بالرعب المفاجئ وداء السل والحُمَّى التي تُفْنِي العينين وتتلف النفس، وتزرعون على غير طائل، وينهب أعداؤكم زرعكم. وأنقلب عليكم فتنهزمون أمام أعدائكم، ويتحكم بكم مبغضوكم وتهربون من غير طارد لكم... " (اللاويين : ٢٦)

الصهيونية والديانة اليهودية

إن الصهيونية تعد انتهاكا صارخا لوصايا الرب لشعب إسرائيل، فإذا كانت وصايا إله إسرائيل تدعو إلى العمل بشريعته وهدي أنبيائه لاستحقاق اختياره وتحقيق وعوده والخلاص على يد الماشيخ، فإن الصهيونية استبدلت بالوصايا الإلهية قومية عنصرية، وبإله إسرائيل دولة إسرائيل، وبهداية الأنبياء العظام ضلال السياسيين اللئام، وبانتظار الماشيخ المخلص السعي للحصول على الخلاص بأنفسهم.

وإليك طائفة من أقوال اليهود التي تؤكد تعارض الصهيونية مع الديانة اليهودية وخروجها على تعاليم أنبياء بني إسرائيل العظماء، واستخدامها العنف في إنشاء قومية لليهود.

يقول مارتن بوبر (أحد الأصوات اليهودية الكبرى في القرن العشرين) في بيانه أمام المؤتمر الصهيوني الثاني عشر المعقود في كارلسباد في ٥ سبتمبر ١٩٢١ : " لقد اُقتلِعَت الديانة اليهودية من جذورها، وهذا هو جوهر المرض الذي كانت أعراضه هي ولادة القومية اليهودية في منتصف القرن التاسع عشر. وهذا الشكل الجديد للرغبة في الأرض هي الخَلْفِيَّة التي آذنت بما استعارته اليهودية القومية الحديثة من القومية الحديثة في الغرب.

وما هو دور فكرة " اختيار إسرائيل " في كل ذلك !؟

فالاختيار لا يعني شعورا بالسمو، ولكنه يشير إلى معنى المصير،وهذا الشعور لا يولد من مقارنة مع الآخرين، ولكن من رسالة ومن منطق مسئولية إنجاز مهمة لم يفتأ الأنبياء يذكِّرون بها : " إنكم إذا ما تفاخرتم بأنكم مختارون بدلا من أن تعيشوا في طاعة الله، فإن هذا ضرب من الغدر والخيانة ".

وختم حديثه بذكر تلك " الأزمة القومية " للصهيونية السياسية التي تعتبر تحريفا لروحانية الديانة اليهودية قائلا :. وكنا نأمل في أن ننقذ القومية اليهودية من خطأ تحويل شعب إلى صنم معبود ولكننا قد أخفقنا ".[1]

ويقول جواس ماجنيس رئيس الجامعة العبرية في القدس عند افتتاح هذه الجامعة في عام ١٩٤٦ والتي رأسها منذ عشرين سنة " إن الصوت اليهودي الجديد يتكلم عبر فوهة البنادق.. وهذه التوراة الجديدة لأرض إسرائيل. لقد تكبل العالم بقيود جنون القوة المادية. وليحفظنا الرب الآن من اقتياد اليهودية وشعب إسرائيل إلى هذا الجنون. إنها يهودية ملحدة تلك التي طعنت على جزء كبير من الشتات القوي. وكنا نعتقد زمن الصهيونية الرومانتيكية، أن صهيون ينبغي افتداؤه بالاستقامة والنزاهة. ويتحمل يهود أمريكا مسئولية هذه الغلطة وهذا التحول.. حتى من لم يوافقوا على تصرفات الإدارة الملحدة ولكنهم ظلوا قاعدين مكتوفي الأيدي. إن تخدير المعنى الأخلاقي يؤدي إلى الضمور والهزال[2]

والواقع أنه منذ إعلان " برنامج بلتيمور " عام ١٩٤٢ والذي قضى بإنشاء دولة يهودية في فلسطين قد حصل القادة الصهاينة في أمريكا على أكبر حامٍ لهم وهو الولايات المتحدة الأمريكية، وقضت المنظمة الصهيونية العالمية على معارضة اليهود الأمناء على التقاليد الروحية لأنبياء إسرائيل، وطالبت بإنشاء ليس فحسب " وطن قومي يهودي في فلسطين " طبقا لنصوص (بل وروح) إعلان بلفور، ولكن بإنشاء دولة يهودية في فلسطين.

---

(١) مارتن بوبر «إسرائيل والعالم» نيويورك ص ٢٦٣ نقلا عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» ص ٢٤

(٢) نورمان بتويش «من أجل صهيون» منشورات الجمعية اليهودية في أمريكا ١٩٥٤ ص ١٣١ نقلا عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق. ص ٢٥.

وقد سبق لألبرت أينشتاين (ومن المعروف أن أينشتاين رَفَض قبول منصب رئيس الدولة الصهيونية حينما عُرض عليه) أن أدان في عام ١٩٣٨ توجه الصهاينة إلى إنشاء دولة يهودية، والتخلي عن الروحانية اليهودية التي نادى بها أنبياء بني إسرائيل حيث قال : " إني أود أن يتم اتفاق مقبول مع العرب على أساس العيش المشترك، وأفضل ذلك على خلق دولة يهودية. إذا وضعنا الاعتبارات العملية جانبا فإن إدراكي للطبيعة الأساسية لليهودية يمنعني من القبول بدولة يهودية لها حدودها وجيشها ووسائل سلطتها الزمنية مهما كانت هذه السلطة ضئيلة.

إني أخشى الضرر الجوهري الذي سيلحقه ذلك بالديانة اليهودية " (١)

لقد كان انتصار القومية الصهيونية التي تقوم على تقديس الذات ورفض الآخر هزيمة لليهودية الروحانية التي تدعو إلى إقامة مملكة صهيون بالاستقامة على وصايا الرب والتحلي بنزاهة النفس.

لقد احتكرت القوميةُ الصهيونيةُ اليهوديةَ من دون بقية اليهود، وحاولت أن تثبت لهم أن العنصرية والعدوانية وجميع الأساطير التي تنادي بها وتسعى لتحقيقها هي من جوهر اليهودية !! وهكذا تفعل كل قومية عنصرية، فبعد تفكك المسيحية ادعت كل دولة أنها قد تلقت الإرث المقدس، وأنها حازت على الولاية من الرب : ففرنسا هي " البنت البكر للكنيسة "، والتي بها تتم أفعال الرب، وألمانيا هي " فوق الجميع " لأن الله معها، وأعلنت إيفا بيرون " أن رسالة الأرجنتين هي تقديم الله إلى العالم " وفي عام ١٩٧٢ تكهّن رئيس وزراء جنوب إفريقيا فورستر المشهور بعنصريته الوحشية المتمثلة في الفصل العنصري، وأخذ يهذي بعبارات مثل " لا تنسوا أننا شعب الله بعثنا برسالة " وتشاطر القومية الصهيونية هذه النشوة مع كل القوميات.

ويقول الأستاذ أندريه نهير في كتابه " جوهر النبوءة " إن إسرائيل هي وبامتياز

(١) البرت اينشتين «من سنواتي الأخيرة» نقلا عن فيصل أبو خضرا «تاريخ المسألة الفلسطينية» ص ٥٠.

علامة التاريخ الإلهي في العالم، فإسرائيل هي محور العالم، وهي العصب والمركز والقلب ".

ومثل هذه العبارات توحي وبشكل فاضح " بالأسطورة الآرية " التي أسست أيديولوجيتها الجرمانية والهتلرية على هذا الفكر العنصري الذي يقف على نقيض تعاليم الأنبياء.

والاستبداد بالرأي يلغي الحوار ويحول دونه : فلا يمكن التحاور مع هتلر ولا مع بيجين، لأن سموهما الجنسي أو تحالفهما القَسْري مع الإله، لا يترك أي مجال للآخر.

ولأننا نعي أنه في عصرنا هذا لا بديل عن الحوار أو الحرب، وأن الحوار يقتضي - وهو ما لا نملّ من ترديده - أن يعي كل إنسان منذ البداية ما ينقصه من إيمان، وأنه في حاجة إلى الآخر لسد هذا الفراغ لديه، وهو شرط كل تفوق على الذات وكل رغبة في الكمال (وهو روح كل إيمان حي).

فإن مختاراتنا هذه عن الجريمة الصهيونية يسير في امتداد جهود هؤلاء اليهود الذين حاولوا الدفاع عن اليهودية الروحانية ومناصرتها ضد الصهيونية القومية العنصرية.

وما يغذي معاداة الصهيونية ليس نقد سياسة العدوان والإفك والدم التي تمارسها الصهيونية الإسرائيلية بل التأييد غير المشروط لهذه السياسة التي أضحت لا تحتفظ من التقاليد العظيمة لليهودية سوى ما يبرر هذه السياسة عن طريق التفسير الحرفي، وما يضعها فوق كل قانون دولي بإضفاء القداسة عليها بواسطة أساطير الغد واليوم[1]

سبب تَغَلُّب الإسرائيليين على العرب

يدعي اليهود الصهاينة أن نجاحهم في إقامة دولة إسرائيل وهزيمة أعدائهم من العرب يعد دليلا دامغا على صلاحهم فها هو الرب ينصرهم ويطرد أعداءهم

(١) نورمان بتويش «من أجل صهيون» منشورات الجمعية اليهودية في أمريكا ١٩٥٤ ص ١٣١ نقلا عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق. ص ٢٥.

من أمامهم، والحقيقة بخلاف هذا فتغلب الإسرائيليين على العرب وقهرهم لهم في التاريخ المعاصر، وتمكنهم من إقامة دولة إسرائيل لم يكن بسبب صلاح اليهود وإقامتهم للتوراة إنما كان بسبب فساد العرب وتخليهم عن دينهم وعن السعي المخلص لدنياهم.

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها اليهود والعرب جميعا، وهي أن انتصار اليهود الصهاينة لم يكن مرجعه صدق أساطيرهم، ولا صحة اعتقادهم إنما نجاحهم في التحالف مع الدول الغربية الاستعمارية ابتداء بانجلترا وانتهاء بأمريكا، وقبولهم أن يكونوا أداة لتنفيذ المشروع الصهيوني الذي تتعهد بمقتضاه الحضارة الغربية بأن تقوم بنقل اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة وظيفية لهم فيها، ورعايتها وحمايتها وضمان بقائها واستمرارها نظير أن يقوم اليهود على خدمة مصالح الغرب.

وفي المقابل تخلى العرب - أكثرهم - عن الدين الصحيح، وأهملوا أسباب التقدم والعدل والحرية والإصلاح. واتصفوا بالتخلف والظلم، والفساد.

وتوراة اليهود نفسها تصرح بهذا.

" لا تقولوا لأنفسكم بعد أن ينفيهم الرب من أمامكم : " لقد أدخلنا الرب لامتلاك هذه الأرض بفضل صلاحنا ". إنما من أجل كثرة إثمهم يطردهم الرب إلهكم من أمامكم. إذ ليس بفضل صلاحكم واستقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم، إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب من أمامكم " (التثنية : ٩)

والقرآن الكريم يصرح بهذا في مواضع كثيرة منها قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (النور:٥٥).

فيبين الله تعالى في هذه الآية المباركة أن الله وعد - ومن أصدق من الله قيلا- الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقاموا بما فرضه

الله عليهم من عبادة له جل وعلا وتعمير لأرضه وعدهم بأن يجعلهم خلفاء الأرض ويمكن لهم دين الإسلام ويفضلهم على العالمين، كما حدث لبني إسرائيل، وللمسلمين من قبل، بشرط أن يعبدوا الله كما أمر في كتابه وسنة نبيه.

﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ أي فمن خرج عن طاعة الله بعد ذلك، وارتكب ما نهى الله عنه فأولئك لا نصر لهم من الله "فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بأوامر الله عزَّ وجلَّ، وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا سائر العباد والبلاد، ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم"(١).

فبإثمنا لا بصلاحهم عاقبنا الله بهم فهم جبناء تؤثر فيهم أدنى مقاومة، وتفزعهم أية قوة، وتاريخهم يشهد بذلك، وحرب السادس من أكتوبر ليست منّا ببعيد.



(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٨٠.

2

الفصل الثاني

أسطورة شعب الله المختار

الفصل الثاني

أسطورة شعب الله المختار

□□

المرجعية النصية لأسطورة شعب الله المختار:

يتيه اليهود بأنفسهم فخرا، ويرون أنهم أفضل البشر، بل إن تلمودهم ينص على أن الله ما خلق بقية الخلق إلا لخدمة يهود، فهم شعب الله المختار، وهم الوحيدون من دون الناس من نطفة بشرية، أما غيرهم فهم من نطفة حصان.

ودونك بعض نصوص توراة اليهود التي تنص على اختيار يهوه بني إسرائيل شعبا منتسبا إليه من دون سائر الأمم.

" قَدْ شَهِدْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ... فَهَلُمَّ الآنَ لأُرْسِلَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَتُخْرِجَ شَعْبِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ".(الخروج : ٣)

" ذَهَبَ مُوسَى وَهَرُونُ وَقَالاَ لِفِرْعَوْنَ: "هَذَا مَا يُعْلِنُهُ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَحْتَفِلَ لِي فِي الْبَرِّيَّةِ" (الخروج : ٥)

"فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: «لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى شَعْبِكَ يَارَبُّ ؟"(الخروج : ٥)

" قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي أَنَا الرَّبُّ وَأَنَا أُحَرِّرُكُمْ مِنْ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ، وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَأَحْكَامٍ قَوِيَّةٍ. ٧وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْباً وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهاً، فَتَعْرِفُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مُحَرِّرُكُمْ مِنْ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ. ٨وَأَقُودُكُمْ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَقْسَمْتُ أَنْ أَهَبَهَا لإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ لأُعْطِيَهَا لَكُمْ مِلْكاً. أَنَا هُوَ الرَّبُّ». (الخروج : ٦).

" وَأُخْرِجُ شَعْبِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّاتٍ أَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ"(الخروج : ٧).

" إِنَّ الرَّبَّ إِلَهَ الْعِبْرَانِيِّينَ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ قَائِلاً: أَطْلِقْ سَرَاحَ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي فِي الصَّحْرَاءِ") الخروج : ٧).

" هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ : أَطْلِقْ شَعْبِي لِيَعْبُدُونِي. وَإِنْ لَمْ تُطْلِقْ شَعْبِي فَهَا أَنَا أُرْسِلُ أَسْرَابَ الذُّبَابِ عَلَيْكَ وَعَلَى حَاشِيَتِكَ وَعَلَى شَعْبِكَ"(الخروج : ٨).

«لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض»، (التثنية : ٧)

«لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض»، (التثنية : ١٤)

وكثيرة تلك النصوص التوراتية التي تنص على اتخاذ"يهوه"بني إسرائيل شعبا مختارا من دون بقية الشعوب، لكن ما هو المبرر الذي يسوقه علماء اليهود لتبرير هذا الاختيار ؟

المبرر –حسب الرؤية اليهودية– هو وفاء"يهوه"لعهده مع إبراهيم"٧وَأُقِيمُ عَهْدِي الأَبَدِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ جِيلاً بَعْدَ جِيل، فَأَكُونُ إِلَهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً"(التكوين : ١٧).

" يصف الكتاب المقدس إسرائيل كشعب مختار (الشعب الكنز)، الأمة الوحيدة التي تحظى بعقد مع الله عبر الميثاق. ويشار إلى هذه العلاقة الخاصة "كانتخاب" لإسرائيل التي تحمل في طياتها مسؤولية كبيرة جدا مع ما يتناسب معها من العقوبات والجزاءات :"إياكم وحدكم اخترت من بين جميع قبائل الأرض لهذا أعاقبكم على جميع آثامكم" (عاموس ٣: ٢) لم تكن مكانة إسرائيل الخاصة نتيجة لقوة خاصة أو حتى نتيجة جدارة أصيلة، بل إنها من فعل المحبة الإلهية والوفاء بالعهد الذي أعطى لإبراهيم والأجداد البطاركة ويعبر سفر التثنية عن هذه النقطة بشكل واضح.

لأنكم شعب مقدس للرب. فإياكم قد اختار الرب من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص. ولم يفضلكم الرب ويتخيركم لأنكم أكثر عدداً من سائر الشعوب. فأنتم أقل الأمم عددا. بل من محبته وحفاظا على القسم الذي أقسم به لآبائكم" (سفر التثنية ٧: ٦.٨)(١).

ولكن السؤال مازال قائما. لماذا خصّ"يهوه"إبراهيم ونسله بهذا العهد دون سائر البشر ؟ ولماذا يختار"يهوه"بني إسرائيل شعبا مختارا ؟

ودونك رد علماء اليهود عن هذا السؤال" تمثل دائما عبارات العهد القديم حول ماهية الله الحقيقة التاريخية للعالم القديم الذي كان بنو إسرائيل الشعب الوحيد الذي اعترف فيه بالتوحيد والوحدانية الإلهية. ولربما يعتبر بنو إسرائيل الوحيدين الذين اعترفوا بالتوحيد الإلهي الحقيقي في كل الفترة التوراتية الممتدة أكثر من ألف سنة مع احتمال استثناء قصير لإخناتون فرعون مصر. لا يوجد شعب آخر على الأرض قد توصل إلى حقيقة وحدانية الله، وظل مخلصا لتلك الحقيقة. فلهذا السبب وجّه العهد القديم رسالته تقريبا لبني إسرائيل على الخصوص، لعدم وجود شعب آخر يستطيع فهمها والاستجابة لها بشكل فاعل.

يُنظر إلى هذا أحيانا كأنه يعني الخصوصية حيث ورد في العهد القديم أن الله قد عين بني إسرائيل كشعبه المتميز وهذا التوجه ليس غريبا، ولا يجب الاستغراب من هذا التوجه إذا أُخِذ تاريخ الفترة في عين الاعتبار. وبسبب الإطار التاريخي، فإن الوثنية لا تعتبر بالضرورة خطيئة لغير بني إسرائيل لأنها تعبير لحقيقة الوجود البشري باستثناء إسرائيل. لكنْ نَذَر بنو إسرائيل أن لا يقعوا أبدا فريسة لإغرائها(٢).

إذن كان اختيار "يهوه" لبني إسرائيل شعبا مختارا- حسب الرؤية اليهودية - لأنهم أول شعب آمن بالله الواحد الأحد، والتزم بأوامر التوراة. لكن التوراة لا تفتأ تصف بني إسرائيل بالكفر والشرك والخروج على شريعة الرب مما يؤكد أن

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين. وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص٩٨ .

(٢) نفسه ص ٧٦ ، ٧٧ .

اختيار "يهوه" لبني إسرائيل كان لجنسهم لا لإيمانهم فإيمان بني إسرائيل بالله وحده يمثل الاستثناء على مدى تاريخهم، إنما القاعدة التي تؤكدها توراة اليهود هي كفر بني إسرائيل بالله وعبادتهم لآلهة أخرى وعصيانهم له وارتكابهم الموبقات في عينه !!

" واقترف بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البَعْلِيم، ونبذوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من ديار مصر وغووا وراء آلهة أخرى من أوثان الشعوب المحيطة بهم، وسجدوا لها، فأغاظوا الرب. وتركوا الرب وعبدوا البَعْل وعَشْتَارُوث. فاحتدم غضب الرب على إسرائيل"(القضاة : ٢)[1].

ولما وجد اليهود أن فكرة التوحيد كسبب للاختيار تتناقض مع نصوص التوراة التي تؤكد خروجهم الدائم عليه، عادوا إلى فكرة العهد مرة ثانية، ولكن فكرة اختيارهم وفاء لعهد يهوه لإبراهيم أوقعهم في مأزق آخر وهو أن التوراة أكدت أن بني إسرائيل لم يعرفوا التوحيد إلا بعد تلقي موسى التوراة، ولم يعد التوحيد خالصا إلا في منتصف القرن السادس قبل الميلاد وأن قبل ذلك كانت البشرية بما فيها آباء بني إسرائيل : إبراهيم،وإسحق، ويعقوب، وموسى، وداود، وسليمان وغيرهم كانوا مشركين. فكيف يعطي الله عهدا لمشرك بتملك الأرض المقدسة، وكيف يصطفي نسله المشركين شعبا مختارا !!

يقول جارودي :"أضافت ترجمة مجمع الكنائس حاشية جاء فيها :"منذ زمن بعيد، كان الاعتقاد سائدا في إسرائيل بوجود آلهة أجانب وقوتهم".

ولم يحدث إلا بعد المنفى ولا سيما لدى الأنبياء أن ثبتت الوحدانية أما ثبوت الوحدانية الخالصة لله، أي الانتقال من صيغ مثل صيغ سفر الخروج :"لا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ» (الخروج: ٢٠) صيغ تكتفي بفرض الطاعة ليهوه وليس لآلهة الآخرين، مثلما جاء في سفر التثنية.

" فالرب إلهكم تتقون، وإياه تعبدون، وباسمه تحلفون. لا تسيروا خلف آلهة أخرى من آلهة الأمم المحيطة بكم" (التثنية : ٦).

---

(١) لمعرفة رأي التوراة في اليهود راجع كتاب «حقيقة اليهود والصهيونية، وأوهام الأمة العربية» للمؤلف. الفصل الأول: بنو إسرائيل في توراة اليهود، دار الإبداع للصحافة والنشر.

وتكرر في سفر إشعياء "ألست أنا الرب ولا إله غيري ؟ بار ومخلص وليس هناك آخر"(إشعياء: ٤٦).

وهذا التأكيد الذي لا يقبل الجدل بشأن الوحدانية يرجع تاريخه إلى النصف الثاني من القرن السادس ق.م (بين ٥٥٠ و ٥٣٩)[1].

ويؤكد جارودي هذا المعنى فيقول :"ولا مجال للرَّيب في وجود آثار للشرك العِبْراني في نُقولهم الشفوية والمكتوبة، بدءًا من القرن التاسع، وسفر يشوع (٢/٢٤) ينُصُّ صراحةً "آباؤكم.. عبدوا آلهة أخرى"، ويورد الأب دوفو على هذه النقطة أدلة مُستَقاة من الكتاب المقدَّس ذاته، يقول: "إذا كانت كلمة "المُوحِّد" تعني ـ كما يقول أولبرايت ـ مَن يُعَلِّم الناس وجود إله واحد "فإن موسى (التوراتي) لم يكن موحدًا، ولا شيء يدلنا (توراتيا) على أنه جاهَر بالاعتقاد في إله واحد"، بل إن لدينا فضلاً عن إشارات إيجابية على أن موضوع اعتقاده لم يكن نظرية "اليهوية" البُدائية. إن ترنيمة الخروج (١١/١٥) تتساءل: "مَن مثلك بين الآلهة يايهوه"؟

وبعد أن استمع يثرون، حمو موسى، قصة النجاة من مصر. صاح وهو يذبح لله قائلاً: "الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة"(الخروج ١١/١٨).

ولقد كان وجود آلهة أخرى معتَرَفًا به مثلا في "سفر القضاة (٤٣/١١) في قوله: "أليس ما يملكك إياه كموش إلهك تمتلك؟ وجميع الذين طردهم يهوه إلهنا من أمامنا فإياهم نمتلك"، وهو ما يقوله إسرائيل لأهل موآب الذين يسمونهم في "سفر العدد (٢٩/٢١): "أمة كموش".

وينعَى داود (التوراتي) في "صموئيل الأول (١٩/٢٦) على حاشية شاول أن موقفهم منه يُوشِك أن يقول له: "اذهب اعبد آلهة أخرى"، ولقد كانت بَقايا عبادة الآلهة الآخرين مُتأصِّلة في بني إسرائيل لدرجة أن منسَّى ملك يهوذا "٦٨٧-٦٤٢" أقام مذابح للبعل، "الملوك الثاني (٣/٢١) على الرغم من اعتبار ذلك "أرجاساً"، وكذلك فعل مَن قبله أخاب ملك إسرائيل الذي سار وعبد البعل،

(١) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٤٧ ، ٤٨ .

وسجد له، وأقام مذبحًا للبعل في بيت البعل الذي بناه السامرة"،"الملوك الأول (١٦/٣١-٣٢٢)، وذلك بعد أن"اتخذ إيزايل ابنة أثبعل ملك الصيدونيين امرأة"،"ومعنى أثبعل: بعل معه"[1].

إذن لم يعرف بنو إسرائيل- حسب نصوص التوراة - التوحيد الخالص إلا بعد النفي أما قبل ذلك فقد كان الناس كلهم مشركين بما فيهم أنبياء الله ورسله !!

لكن كيف يتخلص بنو اليهود من مأزق اختيار يهوه لهم لأنهم أول الموحدين وتوراتهم تؤكد تأخر معرفتهم للتوحيد الخالص، كما تؤكد خروجهم الدائم عليه لكن علماء اليهود عمدوا إلى طريقة ذكية للتخلص من هذا المأزق فقالوا : إن"يهوه"قد اختارهم بموجب عهده لإبراهيم، وأن هذا الاختيار اختيار أبدي لا يمكن الرجوع فيه، ولكي يجبر"يهوه"شعبه على الإيمان به وعدم الخروج على شريعته فإنه قرر أن يعاقب كل من يعبد غيره بألوان شتى من المصائب[2] حتى يعود إلى عبادته، يعصوه فيغضب عليهم ويعاقبهم ثم يتوب عليهم لكن العهد والاختيار ثابت لا يتحول عنهم ويظل الحال هكذا دواليك طوال التاريخ حتى يعود اليهود إلى إيمانهم الكامل آخر الزمان، وهنا يأتي خلاصهم على يد المسيح المخلص الذي هو من نسل داود.

هذا ليس كلامي، ولا حتى كلام اليهود العاديين إنما هو كلام كبار علماء اليهود كما فهموه من نصوص التوراة.

«إن العلاقة بين الله والبشرية متمثلة في الميثاق بين الله وإسرائيل. وبالرغم من أن إسرائيل لا تستطيع دوما أن تعيش كما تقتضيه الأوامر الإلهية ويقع عليها العقاب المناسب، فإن الميثاق أو العلاقة لا تنقطع أبدا. إن فضل الله ولطفه ورحمته هي التي تشرف على الجانب الإلهي في العلاقة، بينما تطغى المحبة والإخلاص لله على الجانب الإنساني»[3].

---

(١) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية»، مرجع سابق، الباب الأول، الفصل الأول، الحضارة الكنعانية.

(٢) راجع عقوبات العصيان في «اللاويين: ٢٦».

(٣) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين وآخرون ذرية إبراهيم مرجع سابق ص ٨٠ .

ويزيد علماء اليهود الأمر إيضاحا فيقولون :"فكما أن العهد القديم يصف بني إسرائيل باختيار الله لهم بإعطائهم التوراة، فإنه أيضا يجب على بني إسرائيل أن يكونوا إلى الأبد "الشعب الذي يُختار"ويظل مخلصا للأوامر الإلهية رغم الإغراءات الكثيرة التي تمثلها الحضارات الإنسانية المحيطة. لكن اليهود، مثل بقية البشر، ضعفاء فيقعون فريسة الإغراء. ويصف العهد القديم الأمر الذي تسبب دائما في عقابهم. لم تعاقب الأمم الأخرى على ذات المخالفات. لكن بما أن التوراة نزلت على بني إسرائيل فإنهم ملزمون باتباعها بالتمام والكمال.

لكن كبقية كل البشر فإن اليهود بشر معرضون للخطيئة. فلهذا استعرض العهد القديم تاريخا طويلا ومتكررا لفشل اليهود في الامتثال للأمر الإلهي. يأتي الفشل بالعقاب الإلهي الذي تتبعه توبة إسرائيل التي يجيب الله عليها بالمحبة والرحمة. لكن كون بني إسرائيل بشر، فإنهم يعصون الله مرة أخرى، وهذه فكرة رئيسة في التاريخ الديني للشعب اليهودي. ومع ذلك فإن تحقيق الغاية الإلهية لم يكن محل شك أبدا. إن شعب إسرائيل لن يهلك (أرميا ٣١:٢٦-٢٧). إنه سيعود إلى إيمانه الكامل، بحسب اللاهوت اليهودي، وسيأتي بالنجاة إلى كل الأرض بقيادة كل واحد إلى الله في الخلاص النهائي في آخر الساعة (أرميا ٣: ١٧-١٨) لكن، إلى أن يحين ذلك الوقت فإن شعب إسرائيل سيظل شاهدا لله (أشعياء ٤٤ : ٨) وسيستمر في العذاب عندما يعصي"[١].

الأمر أصبح الآن واضحا إن"يهوه"قد اختار اليهود ليكونوا شعبه اختيارا أبديا لا تبديل فيه ولا تحويل، فاليهود شعبه المختار أبدا وإن كفروا به وعصوه لأنه يحبهم، وغيرهم من الأمم الأخرى مطرودون من رحمة الله ومحرومون من حبه وإن آمنوا بالله الواحد الأحد ولم يشركوا به شيئا !!

رأي اليهود في أنفسهم:

١- أنهم أبناء الله وأحباؤه.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ (المائدة : ١٨).

---

(١) نفسه ص ٧٦ .

٢- أنهم المستحقون لدخول الجنة من دون العالمين.

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. (البقرة : ١١١)

٣- أنه لا حساب عليهم فيما يفعلونه في الأمّيين (غير اليهود).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران : ٧٥).

٤- أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة :

﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً﴾ (البقرة : ٨٠)

وغير ذلك من تُرَّهَات كثيرة تدل على مدى صلف من يؤمن بهذه العقائد وتكبرهم، واحتقارهم لغيرهم، وهذه النظرة النرجسية إلى الذات أثرت عليهم في سلوكهم مع الغير، فهم يتعاملون مع أنفسهم وفق شريعتهم، أو ضمن حدود أخلاقية معينة، أما إذا كان التعامل مع غيرهم ممن يسمونهم الأمميين فلا مانع من ظلمهم، والاعتداء على أموالهم، وأعراضهم، وهم لا يشعرون بأدنى حرج ديني أو نفسي تجاه أفعالهم تلك، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الصفة فيهم صفة الاعتداد بالذات واحتقار الآخر، ولتأصل هذه النظرة عند من يؤمن بهذه العقائد من اليهود، فقد ملئوا التلمود (تفسير علماء اليهود للتوراة) بكلمات الفخر والاستعلاء بأنفسهم، والازدراء والاحتقار لغيرهم، فمما جاء في التلمود:

١- اليهود أحب إلى الله من الملائكة، وهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه، فمن يصفع اليهودي كمن يصفع الله.

٢- إذا ضرب أممي إسرائيلياً يستحق الموت وليس العكس.

٣- ولو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش.

٤- الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو الفرق بين اليهود وبين باقي الأمميين.

٥- إن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان."

٦- إن الكلب أفضل من الأجنبي لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم الأجنبي أو يعطيه لحماً بل يعطيه للكلب."

٧- الشعب المختار فقط هو الذي يستحق فقط الحياة الأبدية وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير. "

٨- إن الخارجين عن دين اليهود خنازير نجسة، وإذا كان الأجنبي غير اليهودي - قد خلق على هيئة الإنسان فما ذلك إلا ليكون لائقاً لخدمة اليهود التي خلق لأجلهم".[(١)]

هذه هي آراؤهم في أنفسهم،التي سجلها حاخامات اليهود في التلمود الذي يعد أشد قداسة من التوراة نفسها عندهم.

ويتساءل الأديب الصهيوني"حييم برينر"وحق على كل دارس لتاريخ اليهود أن يتساءل معه: " من أين أتى هذا الاحتقار من جانب اليهود للأغيار والشعور بالسمو عليهم ؟ هل كان اليهودي عديم الشعور حقا وميتا إلى درجة لم يشعر معها أن حياة الأغيار أكثر غنى وأكثر جمالا من حياته ؟ كلا إن هذا مستحيل ونحن لا نستطيع أن نصدق هذا.

فإذا كان هناك احتقار للأغيار فلم يكن ذلك سوى حسد طبيعي يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء والرهبان تجاه الفرسان والعاجز تجاه القادر.

إن هذا الاحتقار لم يكن سوى استسلام لنصيبنا- نحن اليهود - في الدنيا، وأحيانا نوع من العزاء لآمالنا في العالم الآخر يتلوه صرير أسنان وغضب داخلي عن وعي أو غير وعي".[(٢)]

---

(١) الشيخ سيد سابق «اليهود في القرآن».

(٢) هرتزبرج، أفراهام «الفكرة الصهيونية» ص٢١٢ نقلاً عن «الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، د. رشاد الشامي دار الهلال ص ٤٩ .

الرد على أسطورة شعب الله المختار:

بيّنا في الفصل الأول عهد يهوه لإبراهيم بامتلاك أرض كنعان، وكيف آل هذا العهد لإسحاق من دون إسماعيل، وإلى يعقوب (إسرائيل) من دون عيسو، وفنّدنا هذه الأسطورة التي يحتج بها اليهود على اختيار يهوه لهم ليكون شعبه المختار، والآن نأتي إلى حجة أخرى يسوقها اليهود لتبرير اختيار يهوه لهم شعبا مختارا من دون العالمين.

هل بنو إسرائيل أول الموحدين ؟

لقد ادعى اليهود أن سبب اختيار يهوه لهم ليس فقط أن يعقوب أباهم قد صارع الرب وحصل منه على لقب إسرائيل، وأنه دعاه ابنه البكر بل لأنهم هم أول الموحدين، وأن"يهوه"لم يُعْبَد وحده إلا بنزول التوراة على موسى. فقد كانت جميع الأمم السابقة عليهم أمماً مشركة تؤمن بتعدد الآلهة، وتنحت لها التماثيل، وترسم لها الصور. وأن سائر الأنبياء والمرسلين السابقين على موسى مشركين يدعون مع الله آلهة أخرى !! (وفي بعض نصوص التوراة ما يفيد تأخر التوحيد الخالص إلى منتصف القرن السادس قبل الميلاد).

فقد تلقى موسى الوصايا العشر التي تكونت من قسمين رئيسيين : قسم خاص بالعقيدة ينص على عبادة الله الإله الواحد، وعدم تجسيد الإله أو تشبيهه بشيء من خلقه، وهي الوصية التي فصلت بين التفكير الطبيعي والتفكير التاريخي فيما يتعلق بفكرة الإلوهية وهي الخطوط الفاصلة بين الإلوهية عند الساميين القدماء وتبلور فكرة التوحيد في اليهودية فهي دعوة إلى عدم تصوير الإله في صور طبيعية مأخوذة من الطبيعة وبداية التفكير في الإله تفكيرا نظريا مجردا من خلال أعمال الإله في الطبيعة والتاريخ، ولأول مرة يتم الفصل التام بين الإله وبين الطبيعة والتاريخ ويصبح الإله خالقا للاثنين، ومستقلا بوجوده عنهما، والوحي لم يأخذ شكله الأساسي في الدين السامي القديم إلا بعد أن أصبح أساسيا في العقيدة اليهودية.

والجزء الثاني من الوصايا خاص بالبناء الاجتماعي، وتعتبر الديانة اليهودية أول ديانة سامية تحاول وضع قانون دائم ينظم المجتمع وعلاقات أفراده ولهذا نسمع لأول مرة عن نظام الشريعة[1].

إذن اليهود يزعمون أن أول دعوة إلهية للتوحيد هي الوصية الأولى من الوصايا العشر لموسى"ثُمَّ نَطَقَ اللهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الأَقْوَالِ : «أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ دِيَارِ عُبُودِيَّتِكَ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ. لاَ تَنْحَتْ لَكَ تِمْثَالاً، وَلاَ تَصْنَعْ صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ.لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلَهَكَ، إِلَهٌ غَيُورٌ" » (الخروج : ٢٠).

فتوحيد الله تعالى- في زعمهم - لم يحدث إلا بعد نزول التوراة أما قبل ذلك فقد كانت الناس كلهم مشركين- بما فيهم أنبياء الله ورسله- وبهذا وصم اليهود جميع البشر قبل تلقي موسى التوراة بالشرك ولم يستثنوا حتى أنبياء الله تعالى من لدن آدم إلى موسى عليهم جميعا صلوات الله تعالى.

والحقيقة أنه لا يؤمن بهذا الهراء إلا من سفه نفسه، وألغى عقله، وجعل إلهه هواه فكيف يجوز شرعا وعقلا أن نحكم على جميع خلق الله -بما فيهم أنبياء الله ورسله- قبل موسى بالشرك دون دليل إلا هذه الترّهات؟!

والحقيقة التي لا يجادل فيها إلا جاحد ولا يعترض عليها إلا معاند ولا ينكرها إلا كافر بكتب الله تعالى جميعا، أن البشرية قد عرفت التوحيد مع أبي البشر وأول الأنبياء آدم عليه السلام.

والتوراة نفسها تؤكد هذا"وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِيَ بِهَا. وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلا: «كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، لَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْماً تَمُوتُ». (التكوين : ٢).

---

(١) د. محمد خليفة حسن «دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة دار الثقافة ص ٥٨ .

أكان آدم حينئذ مشركاً بالرب الإله وقد خلقه وأسكنه الجنة يأكل ما يشاء من جميع أشجارها ؟!.

"وَكَانَ الرَّبُّ الإِلَهُ قَدْ جَبَلَ مِنَ التُّرَابِ كُلَّ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ وَطُيُورِ الْفَضَاءِ وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى بِأَيِّ أَسْمَاءٍ يَدْعُوهَا، فَصَارَ كُلُّ اسْمٍ أَطْلَقَهُ آدَمُ عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ حَيٍّ اسْماً لَهُ. وَهَكَذَا أَطْلَقَ آدَمُ أَسْمَاءً عَلَى كُلِّ الطُّيُورِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْبَهَائِمِ" (التكوين : ٢)

أكان آدم مشركاً بالرب الإله شيئا من مخلوقاته التي أحضرها الرب الإله ليطلق آدم عليها الأسماء؟!

" وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَمْكَرَ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي صَنَعَهَا الرَّبُّ الإِلَهُ، فَسَأَلَتِ الْمَرْأَةَ (حواء) : «أَحَقّاً أَمَرَكُمَا اللهُ أَلاَّ تَأْكُلاَ مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟»، فَأَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ كُلِّهَا، مَاعَدَا ثَمَرَ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسَطِهَا، فَقَدْ قَالَ اللهُ : لاَ تَأْكُلاَ مِنْهُ وَلاَ تَلْمُسَاهُ لِكَيْ لاَ تَمُوتَا.» (التكوين : ٣).

أكانت حواء تعبد أحدا غير الرب الإله الذي خلقها من ضلع آدم وأسكنها الجنة تأكل من ثمرها كلها ما عدا الشجرة التي في وسطها ؟!

" وَعَاشَرَ آدَمُ حَوَّاءَ زَوْجَتَهُ فَحَبِلَتْ، وَوَلَدَتْ قَايِينَ إِذْ قَالَتْ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ». ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ، وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِياً لِلْغَنَمِ. أَمَّا قَايِينُ فَقَدْ عَمِلَ فِي فَلاَحَةِ الأَرْضِ. وَحَدَثَ بَعْدَ مُرُورِ أَيَّامٍ أَنْ قَدَّمَ قَايِينُ مِنْ ثِمَارِ الأَرْضِ قُرْبَاناً لِلرَّبِّ، وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضاً مِنْ خَيْرَةِ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَأَسْمَنِهَا. فَتَقَبَّلَ الرَّبُّ قُرْبَانَ هَابِيلَ وَرَضِيَ عَنْهُ. لَكِنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَانَ قَايِينَ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ." (التكوين:٤).

أكان آدم وحواء يعبدان أحدا غير الرب الإله الذي رزقهما قابين وهابيل ؟! أم كان قابين وهابيل يعبدان أحدا غير الرب الإله الذي قدما له القرابين ؟!

" وَعَاشَرَ آدَمُ زَوْجَتَهُ حَوَّاءَ مَرَّةً أُخْرَى فَأَنْجَبَتْ لَهُ ابْناً أَسْمَتْهُ «شيثاً» إِذْ قَالَتْ: «قَدْ عَوَّضَنِي اللهُ نَسْلاً آخَرَ عِوَضاً عَنْ هَابِيلَ الَّذِي قَتَلَهُ قَايِينُ». وَوُلِدَ لِشِيثٍ أَيْضاً ابْنٌ سَمَّاهُ أَنُوشَ وَعِنْدَئِذٍ ابْتَدَأَ النَّاسُ يَدْعُونَ بِاسْمِ الرَّبِّ".» (التكوين : ٤)

من هذا الرب الإله الذي بدأ الناس يدعون باسمه "أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ"؟!!

وجاء في توراة اليهود رضا الله تعالى عن نوح، أكان الله تعالى راضيا عن مشرك به عابد لغيره ؟!

وَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالزَّوَاحِفِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي خَلَقْتُهُ». أَمَّا نُوحُ فَقَدْ حَظِيَ بِرِضَا الرَّبِّ". (التكوين : ٦)

فهل كان نوح مشركا بالله الذي أنقذه هو وأهله وأغرق الكافرين ؟!

" «هَيَّا ادْخُلْ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ جَمِيعاً إِلَى الْفُلْكِ لأَنِّي وَجَدْتُكَ وَحْدَكَ صَالِحاً أَمَامِي فِي هَذَا الْجِيلِ"(التكوين : ٧)

" وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ ثُمَّ اخْتَارَ بَعْضاً مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَالطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَقَرَّبَهَا مُحْرَقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ. فَتَقَبَّلَهَا الرَّبُّ بِرِضًا"(التكوين : ٨).

من هذا الرب الذي بَنَى له نوحٌ مذبحاً وقرب إليه القرابين ؟ أإله غير الذي أنقذه من الطوفان ؟!

وكثيرة تلك المواضع التي تتحدث عن هذا الرب الإله في التوراة من لدن آدم حتى موسى الذي يريد اليهود أن ينسبوا له وحده تعليم البشرية جمعاء التوحيد!!!

بداية التوحيد

إن الأصل في عقائد البشرية من لدن آدم هو التوحيد، وما الشرك إلا خروجا عليه وهذا ثابت كما بينا في توراة اليهود، وهو واضح لا ريب فيه في القرآن الكريم. يقول تعالى :

﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة : ٣٧).

عن ابن عباس: فتلقى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم، عليه السلام: يا رب، ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له : بلى. ونفخت في من روحك ؟ قيل له : بلى.

وعَطستُ فقلتَ : يرحمك الله، وسبقت رحمتُك غَضبَك؟ قيل له: بلى، وكتبت عليَّ أن أعمل هذا ؟ قيل له : بلى. قال : أفرأيت إن تبتُ هل أنت راجعي إلى الجنة ؟ قال : نعم". (رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح الإسناد).

وعن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ قال: الكلمات : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني، إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي، إنك أنت التواب الرحيم[1].

أبعد هذا الدعاء يوصف آدم وذريته بالشرك ؟! وإن كان آدم مشركا- فرضا- فهلا أخبرنا اليهود ما الآلهة التي أشرك بها آدم مع الله تعالى!

كيف يكون آدم مشركا وهو مُصْطَفَى من الله تعالى وكثير من ذريته يقول تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، (آل عمران : ٣٣، ٣٤).

والأمر ليس قاصرا على ثبوت التوحيد لآدم فحسب فالقرآن الكريم يثبت التوحيد لابنيه : هابيل وقابيل أيضا.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾، (المائدة : ٢٧-٣١).

---

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٢٩.

يقول تعالى مبينا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه في قول الجمهور وهما هابيل وقابيل كيف عدا أحدهما على الآخر، فقتله بغيا عليه وحسدا له، فيما وهبه الله من النعمة وتَقَبّل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل.

وكان آدم، عليه السلام، قد غاب عنهما، أتى مكة ينظر إليها، قال الله عز وجل : هل تعلم أن لي بيتا في الأرض؟ قال: اللهم لا قال: إن لي بيتا في مكة فأته[1].

والقرآن الكريم يثبت بما لا يدع مجالا للشك تقوى هابيل ابن آدم وصلاحه وخوفه من الله رب العالمين.

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. يقول له أخوه الرجل الصالح، الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ أي: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: من أن أصنع كما تريد أن تصنع، بل أصبر وأحتسب.

قال عبد الله بن عمرو: وايم الله، إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج، يعني الورع[2].

فهل كان هابيل الذي نص القرآن على تقواه وورعه مشركا أم كان أبوه آدم عليه السلام الذي علمه هذه التقوى وذاك الورع مشركا كذلك !!

إن التوحيد الذي هو أساس الإسلام هو دين الله تعالى الذي ارتضى للبشرية ودعا كل أنبياء الله تعالى الناس إليه.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾

(١) نفسه ج٣ ص٨٥.

(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص٨٥.

وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة : ١٣٠- ١٣٢).

قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود؛ أحدثوا طريقًا ليست من عند الله وخالفوا ملَّة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى :

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، (آل عمران : ٦٧، ٦٨)[١].

فمن المشرك إذن إبراهيم عليه السلام أم اليهود الذين يقولون بشركه ؟!

المصريون القدماء والتوحيد

كثيرة تلك الأوهام والمغالطات التي أحاطت بالحضارة المصرية القديمة فهي من حيث الاعتقاد وثنية معدِّدة[٢]، ومن حيث الأخلاق متجبرة طاغية.

والحقيقة التي أكدتها البرديات القديمة أن القدماء المصريين موحدون، نعم موحدون يؤمنون بالله الواحد الأحد وبكل التشريعات الإلهية التي جاءت بها الكتب المقدسة بعد ذلك إن ما جاءت به هذه الكتب المقدسة من عقيدة وشريعة وعبادة"وجدت مفصلة في"كتاب الموتى"الذي يعتبره كثير من المؤرخين وعلماء الأديان أول دين سماوي عرفته البشرية خاصة وأن أقدم آثاره ترجع إلى ما قبل فجر الحضارة نفسها أي قبل الأسرات سنة ٤١٠٠ ق. م"[٣].

كان شعب مصر يؤمن بالله الواحد الأحد وذلك التوحيد هو الذي بنى حضارة مصر القديمة وفي كل مرة حاول المصريون إقامة الدولة كانت الفكرة الأساسية فيها توحيد العقيدة والإيمان بالإله الواحد وهذا ما يحل لنا اللغز الذي حير

(١) نفسه ج١ ص٤٤٥.

(٢) تعبد آلهة متعددة.

(٣) د. سيد كريم «لغز الحضارة» ص٥٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

المؤرخين وعلماء الآثار وهو ظهور الحضارة المصرية القديمة كاملة النمو بمعرفة متكاملة في مختلف العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والطب والفنون والآداب والعمارة والأعجب من ذلك - أو ربما ما يفسر ذلك - تكامل العقيدة "بتوحيد الإله "رع" رب الأرباب وخالق الكون ورمزوا لقدرته بقرص الشمس وعبروا عنه بالقوة الخفية الكامنة التي تهب الحياة وتسير الكون"(١).

لقد تم تحريف تاريخنا بواسطة مفاهيم خاطئة لليهود، والعلمانيين وفي هذا يقول د. سيد كريم " إن الفراعنة لم يعبدوا آلهة متعددة حيث عبدوا إلها واحدا فقط، ولكن الأجانب لم يفهموا أن المصريين كانوا يرمزون إلى صفات الله، فهذا هو إله الخلق أي الخالق، وهذا الذي عرفه الأجانب بإله الموت مجرد صفة للمُميت، والسبب بسيط أن الفراعنة كانوا يرمزون للأسماء بالصفات، وبالتالي كان للفراعنة إله واحد هو "رع" وهو رب الأرباب، وخالق الكون، ورمزوا إليه بالشمس ذات الأجنحة وأسفل منها ثمانية تحمل عرش الإله رع وهم حملة العرش(٢).

وتقول د. نعمات أحمد فؤاد "إن الديانة المصرية القديمة يظلمها من يسميها وثنية ويحكم عليها بعد خمود فورتها الحقيقية حين عاشوا إدراك وجود الله من وراء المعبود المحسوس.

هل من الوثنية أن تترنم مصر بهذا الدعاء المأثور عن عهد أمنحتب الثالث "أيها الموجد الذي لا موجد له. أيها الواحد الأحد الذي يطوي الأبد.." وعند الحساب يقول المصري كما جاء في كتاب الموتى :

"لم أرتكب ما يغضب الإله. لم أتسبب في بكاء أحد. ولم أتسبب في حرمان إنسان من حق له. لم أنقص المقياس، ولم أطفف في الميزان، لم أختطف اللبن من فم الرضيع، ولم أطرد الماشية من مراعيها.. ولم أعترض على إرادة الله".

إن الذين لم يروا في ديانة مصر إلا الوثنية إنما نظروا إليها في عصور

(١) نفسه ص٦٦.

(٢) وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم فيقول جل شأنه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة:١٧).

الضعف كما تنظر العين إلى المصباح الخابي لا ترى فيه إلا (الهباب).

إن الحضارة المصرية التي يقال عنها وثنية، كانت تبشر بالمسيحية والإسلام لأن مستشف دقائقها في الفن والتفكير، يدرك وحدة الخالق في الحياة، والإحساس الشامل بالكون. هذا أساس الإسلام الذي لا يكف عن الدعوة إلى التأمل والتفكير.

وكانت مصر القديمة تقول : (أطع الإله في قلبك) إذن الإله الحقيقي ليس آمون أو رع، إن هي إلا أسماء ترمز إلى الإله الحقيقي"[(١)].

ويقول د. مصطفى محمود

"إن الأنبياء (إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ويوسف) كلهم نزلوا مصر في عصر الهكسوس، وكانت دعوتهم إلى التوحيد إلى هؤلاء الهكسوس الوثنيين، وليس إلى المصريين : وإن الحضارة المصرية الموحدة كانت نبع الحكمة الذي استقى منه إبراهيم أبو الأنبياء وأبناؤه الديانة الإدريسية (الحنفية) الصافية، فقد درس إبراهيم وهو في مصر الحضارة المصرية، وقرأ صحف النبي إدريس ولم تنزل عليه رسالة إلا بعد ذلك وهو في سن الخامسة والثلاثين : وقد دخل التوحيد مصر على يد النبي إدريس، قبل أن يدخل الجزيرة العربية على يد النبي الخاتم محمد ﷺ بخمسة آلاف سنة، وما أسماء (آمون، ورع، بتاح، وأنوبيس إلخ) إلا أسماء لشخوص (ملائكة ولكائنات من الملأ الأعلى وكلهم يدين بالخضوع لرب واحد لا إله إلا هو"[(٢)].

لقد ذكرت البرديات المصرية القديمة توحيد المصريين القدماء، بل إن المزمور رقم ١٠٤ منقول حرفيا من نشيد إخناتون.

يقول د. أحمد فخري إن نشيد إخناتون هو"الأصل الذي نُقِل عنه جزء من المزمور رقم ١٠٤ من مزامير داوود في التوراة"[(٣)].

ولاحظ هذه الملاحظة كثير من الدارسين للحضارة المصرية القديمة من

(١) د. نعمات أحمد فؤاد «شخصية مصر» ص٨٦-٨٨ بتصرف الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الخامسة.

(٢) د. مصطفى محمود الأهرام ١٩٩٥/٦/١٠ نقلاً عن كتاب «ليسوا آلهة، ولكن ملائكة»، د. نديم السيار حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.

(٣) د. أحمد فخري «تاريخ الحضارة المصرية» ج١ ص٤١٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الأجانب والمصريين، ومنهم د. سليم حسن الذي قابل كل كلمة في المزمور بمثيلتها في نشيد إخناتون فوجد أن النصين يكادان أن يتطابقا(١).

وعن هذا التطابق يقول رجاء جارودي: "واعتبارا من القرن الثالث عشر قبل الميلاد أمر الفرعون إخناتون بإزالة كلمة "رب" من جميع المعابد، وقد نقلت أنشودته للشمس حرفيا تقريبا في المزمار ١٠٤" (٢).

ويُؤكد جارودي سَبْق التوحيد المصري التوحيد العبري فيقول : في نشيد الشمس لإخناتون يُعْبَد الله خلف كل صورة، باعتباره خالقًا متفردًا لعالَم الطبيعة، ولتاريخ البشر، وباعتباره إلهًا واحدًا، ليس معه إله آخر، وهذا تعبير عن التوحيد الحقيقي، إن الإضافة المصرية إلى ميلاد الوحدانية واضحة، حتى قبل إخناتون "في القرن الثالث عشر. ق.م" لدرجة أن المزمور الرابع بعد المائة في الكتاب المقدَّس يُعيد بصورة دقيقة "نشيد الشمس".

فكتاب الأبواب المصري، و"قصة الرياح الأربع"، والنصوص المنقوشة والمرسومة في مقابر وادي الملوك، ولا سيما مقبرة سيتي الأول، منذ ثلاثة وثلاثين قرنًا. يُرينا ذلك كله كيف كان اسم الإله يَرِد ذِكْره فيما يجرى من حوار بين كهنة أوزيريس ومُساعديهم، خلال احتفالات المسارَّة التي كانت تُقام في معبد أبيدوس(٣).

وقبل أن يسارع أحد بتكذيب توحيد المصريين القدماء باسم الإسلام نضع بين أيديكم هذه الحقائق :

إن الدين الإسلامي لا يكذب شيئا مما ذكر عن توحيد المصريين لله تعالى الواحد الأحد بل على العكس يؤكده وإليك الدليل على هذا:

إن القرآن الكريم قص علينا قصص الأنبياء الذين عاشوا في مصر فبها ولد

(١) راجع الموازنة التي أقامها سليم حسن بين نشيد إخناتون والمزمور ١٠٤ في موسوعة «مصر القديمة» الجزء الخامس ص٢٠٢-٢٠٥ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص٤٨.

(٣) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الأول: تاريخ أرض، الفصل الأول: الحضارة الكنعانية، مرجع سابق.

إدريس وموسى وهارون ولقمان، وعاش فيها الخليل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ويوسف وعيسى- عليهم السلام جميعا ممن جاء ذكرهم في القرآن الكريم وممن لم يأت ذكرهم ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء : ١٦٤).

إذن فهنالك "رسل عديدون لم يأت ذكرهم في القرآن الكريم. ولا شك أن منهم الكثير ممن أرسلهم الله سبحانه إلى الأمة المصرية على مدى آلاف السنين في تاريخنا الطويل الطويل"(١).

وبعد أن أورد د. نديم السيار عشرات النصوص الدالة على توحيد المصريين علق عليها قائلا:

إذن كان مفهوم المصريين القدماء عن الله صورة طبق الأصل من مفهومنا نحن عنه سبحانه.

وكل ما يعرفونه عنه وعن صفاته نفس ما نعرفه نحن تماما، صورة طبق الأصل،وبالحرف"(٢).

إذا لم يكن المصريون قد عرفوا التوحيد كما نعرفه نحن المسلمين، فماذا فعل هؤلاء الأنبياء- عليهم السلام- في مصر، ألم يبلغوا رسالة الله للمصريين؟ ألم يؤدوا الأمانة إليهم؟

بلى بلغوا الرسالة للمصريين، وأدوا إليهم الأمانة ودعوا إلى الله الواحد حتى في أحلك الظروف ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، (يوسف: ٣٩).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (النحل ٤٢، ٤٣).

---

(١) د. نديم السيار «ليسوا آلهة، ولكن ملائكة» مرجع سابق ص٤.

(٢) نفسه ص٣٦٩.

فلماذا العجب من معرفة المصريين للتوحيد الخالص، وما العجب من نزول كتب مقدسة على رسلهم وقد دلت الآية السابقة على ذلك ؟!

وربما قال أحدهم إن القرآن الكريم حدثنا عن تكذيب الفراعنة لرسل الله.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، (الأنفال : ٥٢).

نعم إن من الفراعنة من كَذَّب الرسل ولا نعلم منهم إلا فرعون موسى -رمسيس الثاني- لكن القرآن لم يحدثنا ولو لمرة واحدة أن الفراعنة- هكذا بصيغة الجمع- كلهم كذبوا الرسل.

كما أن القرآن الكريم لم يقل مرة واحدة إن المصريين كذبوا الرسل، وكيف يكذب كل المصريين على مدى تاريخهم القديم- كل الرسل على كثرتهم واختلاف أوقات نزولهم؟

ألم يؤمن مصري واحد برسول؟!

ألم يبق شيء من الكتب المقدسة فيه ما يدل على وحدانية الله؟!

والحقيقة التي لا يماري فيها عاقل أن مصر كغيرها من الأمم التي أرسل الله إليها رسلا منهم من آمن ومنهم من كفر، وأن الحضارة التي دونت كل حياتها أتبخل على كتب الله المقدسة بالتدوين؟

وما تلك الكتب المقدسة التي عُثر عليها مكتوبة على برديات مصرية قديمة؟ أهي من صنع بشر؟!!

إن كثيرا من نصوصها لا تملك أن تقول فيه إلا كما قال النجاشي عندما سمع القرآن"هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة".

خرافة تعدد الآلهة عند القدماء المصريين

نأتي بعد ذلك لأمر يستدل به القائلون بتعدد الآلهة عند الفراعنة ألا وهو تعدد أسماء الآلهة، وعبادتهم للكواكب والنجوم كالشمس، والطيور كالصقر حورس والحيوانات كالعجل أبيس.

والباحثون المؤمنون بقدم توحيد المصريين لله الواحد الأحد يفسرون الرسوم التي يزعم المؤرخون أنها آلهة متعددة عبدها المصريون بتفسيرات ثلاثة هي :

١- أن الخطأ في ترجمة كلمة "نيثر" الفرعونية فقد ترجمت بمعنى "إله" والحقيقة أن معناها " مَلَك" أو "كائن علوي" "ونفس مشكلة الخطأ في ترجمة لفظ "نيثر" بلفظ (إله).. قد تكررت أيضا في ترجمة الألفاظ التي عبر بها المصري القديم عن نوع علاقته بهذه (الكائنات)، ومشاعره نحوها.. فاللفظ الذي يعني عند المصريين (إجلال وتوقير) ترجموه (عبادة).إلخ

وبهذا امتلأت الكتب أيضا بتعبيرات مثل : (عبادة آمون).. و (عبادة رع).إلخ

وتكررت نفس المشكلة فكُتُب تنقل عن كُتُب، وما تكرر تقرر، وأصبح ذلك الأمر وكأنه قضية مُسلَّم بها.. فثبتت في الأذهان وترسَّخ أن هؤلاء "المصريين القدماء" كانوا يعبدون أكثر من كائن، أو (مشركين) !!" [1].

٢- إن الفراعنة لم يعبدوا آلهة متعددة حيث عبدوا إلها واحدا فقط، ولكن الأجانب لم يفهموا أن المصريين كانوا يرمزون إلى صفات الله، فهذا هو إله الخلق أي الخالق، وهذا الذي عرفه الأجانب بإله الموت مجرد صفة للمُمِيت، والسبب بسيط أن الفراعنة كانوا يرمزون للأسماء بالصفات، وبالتالي كان للفراعنة إله واحد هو "رع" وهو رب الأرباب، وخالق الكون، ورمزوا إليه بالشمس ذات الأجنحة وأسفل منها ثمانية تحمل عرش الإله رع وهم حملة العرش.

٣- صور الحيوانات والطير وغيرها التي تزخر بها المعابد لم تكن صورا لآلهة معبودة وإنما رسم المصري القديم صور الحيوانات والطيور وغيرها من الكائنات لخلق قوة تمكنه من التعامل معها وقهرها أو لتطويعها لحسابه "كان الإنسان القديم يرسم على جدران الكهوف ما يراه من حوله من حيوانات. ومن غير المعقول أن نعتقد أنه كان يرسم تلك الرسوم من باب الفن أو الرفاهية وهو الذي يعيش عيشة الكفاف والكفاح اليومي من أجل الحياة في أبسط صورها. كان الهدف من الرسم هو تسجيل العلاقة الذبذبية بين الأشياء والزوايا. لقد خلق

---

(١) نفسه ص٢٥٤.

الإنسان الأول لنفسه من رسم الأشياء قوة مكنته من التعامل معها وقهرها أو تطويعها لحسابه."[1].

إذن المصريون القدماء لم يكونوا وثنيين بل كانوا موحدين وما تلك الصور إلا رموزا إما لأسماء الله تعالى أو لملائكة أو لأنبياء، ونتيجة الخطأ في ترجمة كلمة (نيثر) التي ترجمت دائما بمعنى إله رغم أنها قد تعني : إلها، أو مَلَكا، أو نبيا، أو كائنا علويا، فإذا أطلقت مثلا على (رع)[2]، فإنها تعني رب الأرباب، وإذا أطلقت على (بتاح) فتعني اسم من أسماء الله الحسنى وهو الخالق، أما إذا أطلقت على حورس فإنها تعني المَلَك أو الرسول الموكل بحمل رسالة السماء إلى أهل الأرض.. وهكذا، وهذا موجود في كل لغات الدنيا، فعلماء اللغة يقولون إن الكلمة لا معنى لها خارج السياق فمثلا كلمة (الرب) في اللغة العربية تطلق على"الله تعالى، والملك، والسيد، و المُربي، والمقيم، والمُنعم، والمدبِّر، والمصلح"[3]. والسياق هو الذي يحدد المراد بكلمة رب.

.كذلك كلمة (دُوا) التي ترجمت عادة بمعنى العبادة رغم أنها قد تعني : العشق، أو الحمد، أو الدعاء، أو التعظيم، أو العبادة. ومعناها يحدده السياق فإذا أضيفت لـ"رع"فهي تعني العبادة، أما إذا أضيفت لحورس أو إيزيس أو أوزوريس، أمحوتب، أو مينا، أو إخناتون فتعني التعظيم، فإذا أضيفت إلى حيوان أو طائر فتعني الحب أو الثناء، ولا تعني العبادة. ومعاجم اللغة العربية لا تقصر كلمة عبادة على الله تعالى وحده إلا إذا أضيفت إلى اسمه جل شأنه، إنما في غير ذلك فتعني الطاعة"العَبْدِيَّةُ والعُبودِيَّةُ والعُبودَةُ والعِبادَةُ: الطَّاعَةُ "[4].

و لفظ"دُوا"في قواميس اللغة يعني (العشق.. العبادة) أي أن هذا اللفظ

---

(١) د. إبراهيم كريم في حوار معه أجرته مجلة اكتوبر ونشر في العدد ١١٦٨ الأحد ١٤ مارس ١٩٩٩ ص٥٠.

(٢) ينبغي الا يزعجنا أن اسم الإله الواحد عند الفراعنة اسمه (رع) فهو يعني في اللغة المصرية القديمة «رب الأرباب» أو باللغة العربية «الله» وعندما تختلف اللغة يكون العبرة بالمسميات لا بالأسماء.

(٣) مجمع اللغة العربية «المعجم الوسيط» مادة «رب».

(٤) القاموس المحيط مادة «عبد».

المصري- حسب ترجمته- يحتمل معنى (المحبة والعشق) للنيثر كما يحتمل أيضا معنى (العبادة)."[1].

يقول الباحثون في الدين، أو الأدب :"الترجمة خيانة"ويعنون بذلك أن الترجمة مهما كانت دقيقة فهي ليست النص الأصلي هذا بشأن اللغات الحية كالعربية، والإنجليزية.. فما بالك بلغة ميتة لا يتكلم بها أحد من آلاف السنين كاللغة المصرية القديمة ! قطعا فإن الاختلاف في الترجمة يكون كبيرا جدا، و الخطأ فيها أكثر من الصواب، والعاصم الوحيد لنا من هذا الزلل أن نضبط الترجمة عن اللغة المصرية القديمة بمفاهيم الدين الإسلامي الحنيف ومصطلحاته، فكلاهما يخرج من مشكاة واحدة.

إن المصريين القدماء كانوا مغرمين بالرسم والتصوير والنحت وسائر الفنون ولا عجب فقد كانت لغتهم عبارة عن صور ورسوم[2]. وهذه الرسوم ما هي إلا رمز لما يريدون قوله فهم يرمزون لقدرة الخالق جل وعلا بالشمس، فالشمس عندهم ليست معبودة إنما هي رمز لقدرة الله تعالى العليّ القدير، والصقر حورس هو رمز لرسول الإله وحامل رسالة التوحيد.

وربما في فترات ضعف العقيدة أو أثناء وجود غزاة وثنيين مثل الهكسوس، تُعْبد هذه الرموز على أنها هي الإله نفسه، ولكن ليس هذا هو حال عقيدة التوحيد عند المصريين دائما فهم كسائر الأمم عندما يأتيهم رسول وكتاب من عند الله منهم من يؤمن ومنهم من يكفر، وبعد موت الرسول أو قتله يزيد الكفر ويطغى، وتبدل الكتب السماوية وتحرف فيصطفي الله تعالى رسولا آخر ويُنزل كتابا آخر يذكرهم بالإيمان الصحيح فيؤمن به من يؤمن ويكفر من يكفر وهكذا دواليك[3].

---

(١) د. نديم السيار «ليسوا آلهه ولكن ملائكة» مرجع سابق ص٢٥٥.

(٢) استعمل قدماء المصريين الرسم أكثر مما استعمله أي قوم آخرين فحتى كتابتهم كانت على هيئة صور «معجم الحضارة المصرية القديمة الهيئة المصرية العامة للكتاب» ص ١٦٨.

(٣) لمزيد من التفصيل حول المصريين القدماء: عقائدهم وحضارتهم الرجوع إلى كتاب «هذه استراتيجيتهم، فماذا نحن فاعلون للمؤلف دار الإبداع الفصل الرابع: الحضارة المصرية القديمة.

لم يكن التوحيد قاصرا على المصريين القدماء فقط، فقد عرفت شعوب أخرى التوحيد قبل بني إسرائيل. ففي نشيد الخلْق البابلي تقول الآلهة عن مردوخ: "إذا كان الناس قد تقسَّموا بين الآلهة، فإنه إلهنا، مهما اختلفت تَسْمِيَاتُنا التي أطلقناها عليه".

ولقد كان"شمس"إله الشمس، ولكنه في الوقت نفسه الإله الأعلى الذي يُملِي على الملك حمورابي،"١٧٩٢- ١٧٥٠"ق. م،"شريعة العدل"، التي لا تختَلِف في شيء عن"شريعة العهد"التي أملاها يهوه على موسى بعد خمسمائة عام.

ومع ذلك فإن شهادة أولبرايت، المعروف بتعاطفه مع تقاليد بني إسرائيل - ذات مغزى، حيث يقول: "إن كتاب العهد،" الخروج ٢١- ٢٣ "هو ناموس شرعي ذو أجزاء من نَمَط شريعة حمورابي.

وإذا كانت القوانين الحثية"في القرن الرابع عشر ق.م"، والقوانين الأشورية"في القرن الثاني عشر ق.م"تَستَمِدُّ صياغاتها من الأحكام القضائية السومرية في الألف الثالث قبل الميلاد، فإن كتاب العهد ليس سوى الشكل المُنَقَّح بمجموعة من القوانين أكثر قدمًا، وهي تتفاوت في تعميمها، للتعبير عن الظروف المحلية التي كانت سائدة في كنعان، والتي قد تَكُون انتقلت إلى أيدي الإسرائيليين خلال عصر القُضاة.(١).

تاريخ اليهود مع التوحيد:

بعد خروج الناس على رسالة التوحيد التي جاء بها الأنبياء اختار الله تعالى أنبياء بني إسرائيل لتبليغ رسالته إليهم وفضل المؤمنين بهؤلاء الرسل من بني إسرائيل على سائر العالمين من الكفار والمشركين.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة : ٤٧).

يُذَكِّر الله تعالى اليهود سَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به

(١) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الأول، الفصل الأول، الحضارة الكنعانية، مرجع سابق.

من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الدخان:٣٢)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة:٢٠)[١].

وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم، فأما بعدما عتوا عن أمر ربهم، وعصوا أنبياءهم، وجحدوا نعمة الله عليهم، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد[٢].

وهذا مصير كل أمة بدَّلت نعمة الله كفرا، لأن الميزان عند الله للتقوى والفعل الصالح، وليس للجنس أو اللون أو النسب[٣].

فالاختيار الإلهي لبني إسرائيل كان مشروطا بالإيمان بالله تعالى وحده والعمل بالشرائع السماوية، والاختيار لم يكن قاصرا عليهم وحدهم إنما كان شاملا لكل من آمن بالله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين .

لكن الذي حدث أن عملية الاختيار الإلهي لبني إسرائيل انتهت إلى نتيجة غير طبيعية وهي الدخول مع الإله في علاقة خاصة يصبح فيها الإله إلهاً للشعب الإسرائيلي، ويصبح الشعب الإسرائيلي عبدا للإله الإسرائيلي، ولم ينته الأمر عند الاستئثار بالإله والرسالة ولكنه يتعدى ذلك إلى فكرة الاختيار للأفضلية العنصرية والتي كانت منطلقا لاغتراب الإسرائيلي في العالم القديم والوسيط، ولا نزال نجد لها مبررات في عالمنا الحديث والمعاصر.

وهكذا اعتقد الإسرائيلي القديم أنه أفضل خلق الله، وأنه مختار الرب، وانتهجت اليهودية سياسة عدم التبشير بالتوحيد، واعتباره شأنا دينيا يهوديا لا يخص بقية البشرية، وهذا التخصيص للتوحيد أدى إلى ما يمكن أن تسميته بالغربة الدينية فللإسرائيليين إلههم، وللشعوب الأخرى آلهتها، وأصبحت الرابطة

(١) تفسير ابن كثير ج١ ص٢٥٥.

(٢) سيد قطب «في ظلال القرآن الكريم» ج١ ص٤١.

(٣) د/ محمد سيد طنطاوي «التفسير الوسيط» ص٣٨٤٤.

بين الإله والشعب رابطة عصبية دموية لا يسمح لغير الإسرائيلي باتخاذ الإله الإسرائيلي إلهاً له، ووضعت شروطا عنصرية عِرقية للتحول إلى اليهودية.

وكنتيجة لهذه العلاقة الخاصة بين الإله والشعب أصبحت وظيفة الإله -فيما يختص بالخلاص- مرتبطةً بشعبه، ولا تمتد لغيره. فالإله مسئول عن خلاص شعبه، وتحقيق هلاك أعداء شعبه.

وقد أدت هذه الأصول الثلاثة: الاختيار، والتوحيد الخاص، والخلاص الخاص إلى ما أصبح معروفا باسم"العنصرية اليهودية"التي تعني في المقام الأول وضع سياج حول الشخصية اليهودية فيمنعها من الاختلاط والاندماج في غيرها، وتحاول تحقيق هذا من خلال مفاهيم دينية أعيد تفسيرها لكي تعطي هذا المعنى[1].

ولكن حتى هذا التوحيد الخاص بالإله الخاص فإن اليهود كثيرا ما خرجوا عليه وعبدوا آلهة أخرى. ودونك هذه الأمثلة من توراتهم.

" ولما رأى الشعب أن موسى قد طالت إقامته على الجبل، اجتمعوا حول هارون، وقالوا له:"هيا، اصنع لنا إلها يتقدمنا في مسيرنا، لأننا لا ندري ماذا أصاب موسى الذي أخرجنا من ديار مصر" (الخروج: ٣٢)

"وأقام الإسرائيليون في شطيم فشرع الرجال يرتكبون الزنا مع الموآبيات اللواتي أغوين الشعب لحضور ذبائح آلهتهن والأكل منها والسجود لها. فاشترك الإسرائيليون في عبادة بَعْل فغور. فاحتدم غضب الرب عليهم." (العدد: ٢٥)

"واقترف بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البَعْلِيم، ونبذوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من ديار مصر وغووا وراء آلهة أخرى من أوثان الشعوب المحيطة بهم، وسجدوا لها، فأغاظوا الرب. وتركوا الرب وعبدوا البَعْل وعَشْتَارُوث. فاحتدم غضب الرب على إسرائيل" (القضاة: ٢)

واستطاعت الألف امرأة اللاتي تزوجهن سليمان من غير الإسرائيليات"في

(١) انظر د. محمد خليفة حسن «دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة» دار الثقافة للنشر والتوزيع، مبحث «أصول الاغتراب في العهد القديم».

زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى، فلم يكن قلبه مستقيما مع الرب إلهه كقلب داود أبيه وما لبث أن عبد عشتاروث آلهة الصِّيدُونيِّين، ومَلْكُوم إله العَمُّونيين البغيض، وارتكب الشر في عين الرب، ولم يتبع سبل الرب بكمال كما فعل أبوه داود. وأقام على تل شرقي أورشليم مرتفعا لِكَمُوش إله المُوآبيين الفاسق، ولِمُولَك إله بني عَمُّون البغيض. وشيد مرتفعات لجميع نسائه الغَرِيبات، اللواتي رحن يوقدن البخور ويقربن المحرقات لآلهتهن" (ملوك الأول: ١١).

فإن قال اليهود إنما كان الشرك والكفر في عصور بائدة إنما نحن مؤمنون موحدون لذا فقد أعادنا الله إلى أرض الميعاد، نقول لهم أن الإحصاءات تثبت أن معظم يهود العالم بما فيهم سكان دولة إسرائيل، ومؤسسو الصهيونية غير متدينين.

فحَسَب إحصاءات الحكومة الإسرائيلية فإن ١٥٪ فقط من الإسرائيليين متدينون" [١].

والباقي لا يتمسكون باليهودية ولا يتقيدون بشريعتها ومن يؤد منهم طقسا دينيا إنما يؤديه أداء صوريا مجردا من الروحانية فهو بالنسبة له مناسبة وطنية ليس أكثر.

ودونك ما كتبه علماء اليهود المعاصرون:"إن معظم اليهود في الوقت الحالي يعيشون في الغالب خارج إطار التصورات اليهودية التقليدية للإله. فعلى الصعيد اليومي، إن كثيرا من اليهود يتصرفون أساسا كأنهم لا يعلمون شيئا ويتجنبون اتباع معظم الأوامر الشعائرية والثقافية التابعة للديانة اليهودية. إنهم يميلون إلى اختيار نوع أوامر الالتزام بناء على معايير شخصية في غاية الفردية. يؤم كثير منهم المعبد، ويصوم يوم الغفران الذي يعتبر أقدس يوم في التقويم اليهودي، ويحتفلون أيضا بذكرى الجلاء من مصر في عيد الفصح، لكنهم لا يختارون الانصياع لمعظم أوامر الشعائر الأخرى، ويوصف هذا النوع من السلوك

---

(١) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص٢٨٦.

بالازدواجية ليس فقط فيما يتعلق بالتقيد بالأوامر، لكن وكذلك فيما يتعلق بعدم التأكيد من دور الإله ومطالبه[1].

والعجيب أن الإسرائيليين الذين لا يختارون الانصياع لمعظم أوامر الشعائر اليهودية يعدون أنفسهم مؤمنين، فالإيمان المطلق بالله ليس شرطا لاحتلال وضع محترم في المجتمع اليهودي !!

" يعتبر معظم اليهود أنفسهم مؤمنين، بحسب استطلاع حديث، لكن إيمانهم بالله لا ينطبق بالضرورة على التصورات التقليدية التي قدمها التقليد اليهودي، فإن الإيمان المطلق بالله ليس شرطا لاحتلال وضع محترم في المجتمع اليهودي. وقد توصلت الديانة اليهودية إلى نتيجة مفادها أن الإيمان الشخصي لا يخضع للتشريع. فبالإمكان تشجيع الفرد، لكن لا يمكن إجباره على الإيمان، لأن الإيمان هو نوع من التجربة الشخصية ومن الأمور الخاصة بالفرد. ومن جهة أخرى فإن السلوك الصحيح يخضع للتوقع وللانتقاد. وتقف التقسيمات بين منابع الدين اليهودي وتفسيرات حول كيفية فهم واجبات اليهودي للتصرف استجابة لأوامر الله"[2].

إذن فاليهود ليسوا أول الموحدين ليستحقوا اختيار الله لهم، وليسوا آخر الموحدين ليستحقوا الخلاص في آخر الزمان.

الإسلام وحقيقة التوحيد

والحقيقة أن الله تعالى قد فطر بني آدم جميعا على الإيمان به وتوحيده، وعدم الإشراك به شيئا وأخذ عليهم العهد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾، (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣).

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص٨٦.

(٢) نفسه ص٨٦.

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم، من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم وإلههم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، (الروم: ٣٠).

وتناقش بعض الصحابة في الغزوات حول أبناء المشركين وذريتهم أيقتلون كآبائهم المقاتلين؟

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: "ما بال أقوام يتناولون الذرية"؟ فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين، فقال: "إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها" (رواه أحمد والنسائي).

فالأصل في الإنسان - أي إنسان - هو الإيمان أما الكفر والشرك فطارئان عليه بسبب الموروثات المختلفة والعقائد الباطلة"[1].

هل هناك شعب مختار لجنسه؟!

الحقيقة الإيمانية التي جاءت في الكتب المقدسة وعلى لسان جميع الأنبياء والرسل أنه ليس بين الله تعالى وشعب من الشعوب صلة نسب- تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا- كما أنه ليس هناك شعب مختار لجنسه، وإنما هناك مؤمنون صالحون، وهناك كفار مفسدون، وخلق بينهم كثيرون.

فجميع الشعوب والقبائل متساوية في الخلق، ولا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح. وهذه التقوى علمها عند الله فلا ينبغي أن يزكي إنسان أو شعب نفسه فالله تعالى هو أعلم بمن اتقى.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾، (النجم: ٣٢)

(١) كتاب «هذه استراتيجيتهم فماذا نحن فاعلون» للمؤلف مرجع سابق ص١٢٠.

والحقيقة أن هناك من المفكرين اليهود من لا يعترف بفكرة شعب الله المختار، وأن التوحيد كان من لدن آدم وأن كل ذلك ثابت في التوراة والتلمود وفي ذلك يقول علماء اللجنة اليهودية الأمريكية: " لقد خاض المفكرون اليهود معركة فكرية مع مسألة اختيار التوراة لبني إسرائيل كالمتسلمين الوحيدين للتوراة. هل هذه خصوصية وإبعاد؟ هل هذا يعني أن في طبيعة اليهود ما يجعلهم أفضل من أي أمة قومية أخرى؟ هل اليهود شعب أرفع مقاما لأن التوراة نزلت عليهم؟ إن التوراة نفسها لم تعطِ إجابات قاطعة. فمن جهة، تقول (التثنية ١٤:٢)."إنكم شعب مقدس للرب إلهكم، وقد اختاركم من بين شعوب الأرض كافة لتكونوا له شعبا خاصا. ومن جهة أخرى، تقول في عاموس (٩:٧) "ألستم لي يا بني إسرائيل مثل الكوشيين؟ ألم أخرج إسرائيل من ديار مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير؟"

"٧ ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل يقول الرب ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير"(عاموس: ٩)[(١)].

هذا يؤكد أن إله إسرائيل يسوي بين بني إسرائيل، والشعوب الأخرى فهم بالنسبة للرب كالكوشيين، وأن إنقاذ بني إسرائيل بإخراجهم من مصر لم يكن عملا قاصرا عليهم فقط فقد أنقذ الفلسطينيين بإخراجهم من كفتور، والآراميين بإخراجهم من قير.

إن الكهنة في التلمود – مثل العهد القديم نفسه – يشعرون بعدم الارتياح للتصور الخصوصي لليهود في الديانة اليهودية. يعطي التلمود، أحيانا، تفسيرات مباشرة لآيات العهد القديم كما جاء في الرسالة التلمودية للأب زارة ٢٦: ألم يرد في (التوراة) أن"أقبل الرب من سيناء، وأشرف عليهم من سعير، وتألق في جبل فاران"(التثنية ٢:٣٣). وورد فيها أيضا: "لقد أقبل الله من آدم" (حبقوق ٣: ٣). ماذا كان الرب يريده في سعير وفي جبل فاران؟ يقول الكاهن يوحنان: "يعلمنا هذا أن الرب المقدس تبارك وتعالى قد أعطى التوراة لكل

---

(١) الحاخام روبن فيرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص٣٦.

أمة ولسان، لكن لم يقبلها أحد حتى جاء إلى إسرائيل التي تقبلها". ونجد في مكان آخر من التلمود شبها ممتعا للنص القرآني، ٢:٦٣[١]، ٢:٩٣[٢]، و ٤:١٥٤[٣]، «فخرج موسى الشعب من المخيم للقاء الله، فوقفوا عند سفح الجبل" (التثنية ١٩:١٧). يقول حما بن حسا" إن هذا يعلمنا أن الرب المقدس قلب عليهم الجبل رأسا على عقب كبرميل مقلوب وقال لهم: "إذا تقبلتم التوراة، فذلك حسن، وإذا لم تقبلوها فإن هذا سيكون قبركم."(شبات ٨٨ أ).

يعترف هذان التفسيران ويؤكدان بأن الشعب الإسرائيلي ليس في طبيعته ما يجعله أفضل من أي أمة أو شعب آخر. والشيء الوحيد الذي يميز بني إسرائيل هو استعدادهم ليكونوا أول من تقبل الأوامر الإلهية والعيش بحسب القانون الرباني. ففي العهود القديمة، لا يوجد شعب بحسب علمنا، أخذ على عاتقه التخلي عن الوثنية والعيش في ظل القانون الإلهي. كان بنو إسرائيل دائما أمة صغيرة محاطة بشعوب وثنية، فلذلك ليس من الغريب ملاحظة أنهم يعيشون بمعزل عن الشعوب التي يعيشون في وسطها. إن هدف هذا السلوك كان الحفاظ على العقيدة الوحدانية لبني إسرائيل، لكن هذا الهدف فسر في الفترة اليونانية - الرومانية أنه نخبوي. لم تكن رغبة بني إسرائيل في العيش عن معزل من الشعوب الأخرى نابعة من شعور نخبوي، بقدر ما هي نابعة من سمة البقاء بعيداً عن الانغماس في الوثنية المتفشية التي يمارسها اليونان والرومان وشعوب الحضارات القديمة"[٤].

---

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة :٦٣).

(٢) ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (النساء : ١٥٤).

(٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (البقرة : ٩٣).

(٤) الحاخام روين فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٣٦-٣٧.

إذن لم يعدم اليهود من المفكرين الذين رأوا بأن الشعب الإسرائيلي ليس في طبيعته ما يجعله أفضل من إي أمة أو شعب آخر. ولا من كهنة التلمود الذين يشعرون بعدم الارتياح للتصور الخصوصي لليهود في الديانة اليهودية. ولا منصوص التوراة التي تثبت تجلي الله لشعوب أخرى غير بني إسرائيل مثل شعب"سعير"،"جبل فاران".

وهذا ما ينادي به الحاخامات اليهود المخلصين لإيمان أنبيائهم ومنهم الحاخام موشى مانوحين في كتابه"انهيار اليهود"الذي أكد فيه أنه على عكس شمولية الأنبياء فإن التفسير القَبَلي والقومي لتحالف الله مع الشعب المختار الذي وضعه الصهاينة مثل بن جوريون، وموشى ديان، وشيمون بيريز، والعصابة العسكرية بأكملها التي اجتاحت إسرائيل والذين جعلوا من الوكالة اليهودية والمنظمات الصهيونية في العالم أجمع أجهزة تابعة لحكومة إسرائيل لها نفس الأيديولوجية العنصرية الموجودة لدى المناهضين للسامية.

ويذكر موشى مانوحين في كتابه"انهيار اليهود"أن شعوب العالم اليوم تشعر بالاشمئزاز من عبارات الجنس المتفوق والشعب المختار وعبء الرجل الأبيض والأحلاف مع الله وأرض الميعاد كل تلك الادعاءات أصبحت اليوم مستهلكة بسبب ما ترتكبه ضد الشعوب الأضعف.

إن هذه الفكرة المحددة لدى الصهيونية هي أسوأ عدو لإسرائيل فسوف تقودها إلى الهزيمة مثل كافة الإمبراطوريات التي أسست على هذه الأيديولوجية من نابليون حتى هتلر[١].

ويقول جان جاك روسو في كتابه عن اليهود المتعصبين:"إن إلهكم ليس هو إلهنا إن الإله الذي يختار لنفسه شعبا واحدا وينكر بقية الجنس البشري ليس هو الأب المشترك لجميع الناس[٢].

---

(١) نقلاً عن رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) نفسه ص٣٤١.

ويقول جارودي: "العبرانيون وهم يخصون أنفسهم بميزة الوعد، والاختيار الإلهي، والإغريق باحتقارهم المألوف للبرابرة[1]، والرومان بعقدة تفوقهم وامتيازهم، "والكنيسة التي ستخلفهم، وهي تعبر الكون كله كاثوليكيًا"، وذلك الفريق من المسلمين الذين انزووا في فرديتهم، وفسروا آية القرآن عن (خَيْرَ أُمَّةٍ)، لا على أنها دعوة وتكليف، بل على أنها امتياز مُكتَسب، يتجلى في روح تُشعر بالكفاءة المزهوة ـ كل هؤلاء يعتبرونَ أنفسهم مركز العالَم "بنفس القدر من السذاجة الذي كان يدفع أباطرة الصين إلى الادعاء بأنهم يحكمونَ "الإمبراطورية المتوسِّطَة".

لقد ضخَّم الغربيون هذا الاتجاه حين أضفَوا صفة العلْمانية على الأشكال القديمة "للعناية الإلهيَّة" فوضعوها تحت إسم: "التقدم" [٢].

النهي عن تزكية الإنسان نفسه

ينهى الله تعالى عن أن يمدح الإنسان نفسه أو يُثْني عليها أو يَمن بعمل عمله على الناس، فالله تعالى عليم بالناس: صالحهم وطالحهم، وهو جل شأنه الذي يُزَكِّي من يشاء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (النساء: ٤٩).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ هذا اللفظ عام في ظاهره ولم يختلف أحد من المتأولين في أن المراد اليهود.

واختلفوا في المعنى الذي زكوا به أنفسهم، فقال قتادة والحسن: ذلك قولهم: (نحن أبناء الله وأحباؤه)، وقولهم: (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى)

وقال ابن عباس: ذلك قولهم آباؤنا الذين ماتوا يشفعون لنا ويزكوننا.

وقال عبد الله بن مسعود: ذلك ثناء بعضهم على بعض.

---

(١) يعني الإغريق بالبرابرة كل من ليس منهم.

(٢) نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق الباب الثاني، الفصل الأول: العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية.

وهذا أحسن ما قيل، فإنه الظاهر من معنى الآية، والتزكية: التطهير والتبرئة من الذنوب.

وقوله تعالى: ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾، يقتضي الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله وزكاه الله عز وجل فلا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له.[١].

لقد اختارهم الله فعلاً لحمل الأمانة وأداء الرسالة، وفضلهم على العالمين في ذلك الأوان؛ وأهلك لهم فرعون وملأه، وأورثهم الأرض المقدسة. ولكنهم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله؛ وعتوا في الأرض عتوّاً كبيرا، واجترحوا السيئات التي تضج منها الأرض، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحله لهم، واتبعوهم؛ ولم ينكروا عليهم حق الألوهية هذا الذي ادعوه عمليّاً - بهذا التحريم والتحليل - وقد بدل هؤلاء الأحبار في شريعة الله، ليرضوا ذوي السلطان والشرفاء؛ وليملقوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم. وبذلك اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله. وأكلوا الربا. ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابه الذي أنزله عليهم. وعلى الرغم من ذلك كله -وغيره كثير- فقد ظلوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه. وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة. وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هوداً! كأن المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله -تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً - فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب؛ إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح، والاستقامة على منهجه تعالى.

فمن أخلّ بهذا فقد غضب الله عليه. ويشتد غضبه إذا كان قد آتى الضالين الهدى فانحرفوا عنه! وما شأن هؤلاء اليهود إلا شأن من يزعمون الإسلام اليوم، ويحسبون أنهم من أمة محمد ﷺ وأن الله لا بد ناصرهم، ومخرج لهم اليهود من أرضهم. بينما هم ينسلخون انسلاخاً كاملاً من دين الله الذي هو منهجه للحياة؛ فينبذونه من حياتهم؛ ولا يتحاكمون إلى كتاب الله في معاملتهم. وكل ما لهم من

---

(١) تفسير القرطبي للآية الكريمة.

الإسلام أسماء المسلمين! وأنهم ولدوا في أرض كان المسلمون يسكنونها ذات يوم! ويقيمون فيها دين الله، ويحكمون منهجه في الحياة !

والله يُعَجِّبُ رسوله ﷺ من أمر أولئك اليهود الذين يزكون أنفسهم. وأمر «المسلمين» المعاصرين أعجب، وأشد إثارة للتعجيب والتعجب !!

إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم؛ ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله. إنما الله هو الذي يزكي من يشاء. فهو أعلم بالقلوب والأعمال. ولن يظلم الناس شيئاً، وإذا هم تركوا هذا التقدير لله -سبحانه- واتجهوا إلى العمل. لا إلى الادعاء. فلئن عملوا - وهم ساكتون متواضعون في حياء من الله، وبدون تزكية ولا ادعاء - فلن يُغْبَنوا عند الله؛ ولن يُنْسَى لهم عمل؛ ولن يُبْخَس لهم حق.

والله - سبحانه - يشهد على اليهود أنهم - إذ يزكون أنفسهم ويدعون أن الله راض عنهم - يفترون عليه الكذب. ويشنع بفعلتهم هذه، ويوجه الأنظار إلى بشاعتها:

ويمضي السياق في التعجيب من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم.. بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التي لا تستند إلى شرع الله، وليس لها ضابط منه يعصمها من الطغيان: «الجبت والطاغوت» وبينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته، ويحمل عليهم - بعد التعجيب من أمرهم، وذكر هذه المخازي عنهم - حملة عنيفة، ويرذلهم ترذيلاً شديداً؛ ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل؛ والأسباب الحقيقية التي تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم - الذي يفخرون بالانتساب إليه - وينهي هذه الحملة بتهديدهم بجهنم. ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا

(٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ (النساء: ٥١ - ٥٥) .

لقد كان الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، أَوْلَى الناس أن يتبعوا الكتاب؛ وأن يكفروا بالشرك الذي يعتنقه من لم يأتهم من الله هدى؛ وأن يحكموا كتاب الله في حياتهم، فلا يتبعوا الطاغوت - وهو كل شرع لم يأذن به الله، وكل حكم ليس له من شريعة الله سند ولكن اليهود الذين كانوا يزكون أنفسهم، ويتباهون بأنهم أحباء الله - كانوا في الوقت ذاته يتبعون الباطل والشرك باتباعهم للكهانة وتركهم الكهان والأحبار يشرعون لهم ما لم يأذن به الله. وكانوا يؤمنون بالطاغوت؛ وهو هذا الحكم الذي يقوم على غير شريعة الله. وهو طاغوت لما فيه من طغيان - بادعاء الإنسان إحدى خصائص الألوهية - وهي الحاكمية - وبعدم انضباطه بحدود من شرع الله، تلزمه العدل والحق. فهو طغيان، وهو طاغوت؛ والمؤمنون به والمتبعون له، مشركون أو كافرون.. يُعَجِّب الله من أمرهم، وقد أوتوا نصيباً من الكتاب، فلم يلتزموا بما أوتوه من الكتاب!

ولقد كانوا يضيفون إلى الإيمان بالجبت والطاغوت، موقفهم في صف المشركين الكفار، ضد المؤمنين الذين آتاهم الله الكتاب أيضاً:

(ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً)[١].

عن ابن عباس. قال: «كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة، حُيَي بن أخطَب، وسَلام بن الحقيق، وأبو رافع، والربيع بن الحقيق، وأبو عامر، ووحْوَح بن عامر، وهودة بن قيس، فأما وحوح وأبو عامر وهودة، فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير».

فلما قدموا على قريش قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول. فاسألوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم. فقالوا: دينكم خير من دينه،

(١) سيد قطب «في ظلال القرآن الكريم» ج٢ ص١٥٠-١٥٢.

وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. فأنزل الله - عز وجل -: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾. إلى قوله عز وجل: ﴿وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

وهذا لعن لهم، وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة. لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين. وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم. وقد أجابوهم، وجاءوا معهم يوم الأحزاب؛ حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، وكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(1).

لقد شهد بقبح اليهود في موقفهم هذا واحد منهم هو الدكتور إسرائيل ولفنسون. فقد قال فى كتابه"تاريخ اليهود فى جزيرة العرب"معلقا على هذه القصة: وكان من واجب هؤلاء اليهود الا يتورطوا فى هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأن بنى إسرائيل الذين كانوا لمدة قرون حاملي راية التوحيد فى العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد فى عصور شتى من الأدوار التاريخية. كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز عليهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين، هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأوثان، إنما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من عبدة الأصنام، والوقوف منهم موقف الخصومة(2).

إن هذا موقف جمهرة اليهود دائماً من الحق والباطل، ومن أهل الحق وأهل الباطل.. إنهم ذوو أطماع لا تنتهي، وذوو أهواء لا تعتدل، وذوو أحقاد لا تزول! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم إنما يجدون العون والنصرة -دائماً- عند الباطل وأهله. ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق، ولأهل الباطل ضد أهل الحق!

هذه حال دائمة، سببها كذلك قائم.. وكان طبيعيّاً منهم ومنطقيّاً أن يقولوا عن الذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً!

(1) تفسير ابن كثير ج2 ص336.

(2) نقلاً عن د/محمد سيدطنطاوي «تفسير الوسيط» ج1 ص969، 970.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾.

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيراً لليهود. فنسأل: وأين وعد الله بأنه لعنهم، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيراً؟

ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس. ليس هو الدول. ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ. إنما الناصر الحق هو الله. القاهر فوق عباده: ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ!

والله ناصر من ينصره ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ والله معين من يؤمن به حق الإيمان، ويتبع منهجه حق الاتباع؛ ويتحاكم إلى منهجه في رضا وفي تسليم..

ولقد كان الله -سبحانه- يخاطب بهذا الكلام أمَّة مؤمنة به، متبعة لمنهجه، محتكمة إلى شريعته. وكان يهوّن من شأن عدوها - اليهود - وناصريهم. وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم -اليهود- لا نصير لهم. وقد حقق الله لهم وعده. وعده الذى لا يناله إلا المؤمنون حقّاً. والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم.

فلا يهولننا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود. فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين.. فليست هذه هي النصرة ولكن كذلك لا يخدعنًنا هذا. فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! ويوم يكونون مسلمين حقا!

وليحاول المسلمون أن يجربوا - مرة واحدة - أن يكونوا مسلمين حقا. ثم يروا بأعينهم إن كان يبقى لليهود نصير. أو أن ينفعهم هذا النصير!

وبعد التعجيب من أمرهم وموقفهم وقولهم؛ وإعلان اللعنة عليهم والخذلان.. يأخذ في استنكار موقفهم من الرسول ﷺ والمسلمين؛ وغيظهم من أن يمن الله عليهم هذه المنة.. منة الدين والنصر والتمكين. وحسدهم لهم على ما أعطاهم الله من فضله. وهم لم يعطوهم من عندهم شيئاً! ويكشف في الوقت ذاته عن كزازة طبيعتهم، واستكثار أي عطاء يناله غيرهم، مع أن الله قد أفاض عليهم وعلى آبائهم، فلم يعلمهم هذا الفيض السماحة؛ ولم يمنعهم من الحسد والكنود:

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾.

يا عجباً! إنهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشيء من عنده.. فهل هم شركاؤه - سبحانه! - هل لهم نصيب في ملكه، الذي يمنح منه ويفيض؟ ولو كان لهم نصيب لضنوا - بكزازتهم وشحهم - أن يعطوا الناس نقيراً.

والنقير النقرة تكون في ظهر النواة - وهذه لا تسمح كزازة يهود وأثرتها البغيضة أن تعطيها للناس، لو كان لها في الملك نصيب! والحمد لله أن ليس لها في الملك نصيب.. وإلا لهلك الناس جميعاً وهم لا يعطون حتى النقير !!

أم لعله الحسد.. حسد رسول الله ﷺ والمسلمين، على ما آتاهم الله من فضله.. من هذا الدين الذي أنشأهم نشأة أخرى ووهب لهم ميلاداً جديداً، وجعل لهم وجوداً إنسانيا متميزاً؛ ووهبهم النور والثقة والطمأنينة واليقين؛ كما وهبهم النظافة والطهر، مع العز والتمكين؟

وإنه فعلاً للحسد من يهود. مع تفويت أطماعها في السيادة الأدبية والاقتصادية على العرب الجاهلين المتفرقين المتخاصمين.. يوم أن لم يكن لهم دين..

ولكن لماذا يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين في الأرض؟ وهم غارقون في فضل الله من عهد إبراهيم.. الذي آتاه الله وآله الكتاب والحكمة - وهي النبوة - وآتاهم الملك كذلك والسيادة. وهم لم يرعوا الفضل ولم يحتفظوا بالنعمة، ولم يصونوا العهد القديم، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين. ومن يؤت هذا الفضل كله لا يليق أن يكون منهم جاحدون كافرون !

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾.

إنه لمن آلأم الحسد: أن يحسد ذو النعمة الموهوب! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة، فهذا هو الشر الأصيل العميق! شر يهود! المتميز الفريد !

ومن ثم يكون التهديد بالسعير، هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير:

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾..

وعندما يبلغ السياق هذا المقطع من ذكر الإيمان والصدود عن الإيمان في آل إبراهيم، يعقب بالقاعدة الشاملة للجزاء. جزاء المكذبين، وجزاء المؤمنين.. هؤلاء وهؤلاء أجمعين.. في كل دين وفي كل حين؛ ويعرض هذا الجزاء في صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرهيبة:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾(١).

والإعلان العالمي لحقوق الإنسان ساوى بين البشر جميعا دون تميز بسبب الجنس أو اللون أو الدين.

وإليك ما جاء في ديباجته، وأهم ما نص عليه في هذا الشأن.

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وأصدرته، وبعد هذا الحدث التاريخي، طلبت الجمعية العامة من البلدان الأعضاء كافة أن تدعو لنص الإعلان وأن تعمل على نشره وتوزيعه وقراءته وشرحه، ولاسيما في المدارس والمعاهد التعليمية الأخرى، دون أي تمييز بسبب المركز السياسي للبلدان أو الأقاليم».

الديباجة

لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم.

(١) راجع تفسير سيد قطب «في ظلال القرآن الكريم» لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُلْكاً عَظِيماً﴾، (النساء : ٥٤)

ولما كان تناسي حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال همجية آذت الضمير الإنساني، وكان غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة.

ولما كان من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الإنسان لكيلا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم.

ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أكدت في الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قُدماً وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح.

ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الأمم المتحدة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية واحترامها.

ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد.

فإن الجمعية العامة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية واتخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها.

المادة ١: يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء.

المادة ٢ : لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو

الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء. وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي لبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلا أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود .

المادة ٣ : لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة ٤ : لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما.

المادة ٥: لا يعرض أي إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.

المادة ٦ : لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف بشخصيته القانونية.

المادة ٧ : كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة عنه دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعا الحق في حماية متساوية ضد أي تميز يخل بهذا الإعلان وضد أي تحريض على تمييز كهذا.

المادة ١٢: لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات.

المادة ١٨ : لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة.

المادة ١٩ : لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.

المادة ٣٠ : ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه[1].

الإسلام وحقوق الإنسان

تعد المساواة بين الناس على اختلاف الأجناس والألوان واللغات، مبدأ أصيلا في الشرع الإسلامي، ولم يكن هذا المبدأ على أهميته وظهوره، قائما في الحضارات القديمة، كالفارسية أو الرومانية ؛ إذ كان سائدا تقسيم الناس إلى طبقات اجتماعية، لكل منها ميزاتها وأفضليتها، أو على العكس من ذلك، تبعا لوضعها الاجتماعي المتدني.

وكانت التفرقة بين البشر في المجتمعات القديمة، تستند إلى الجنس واللون، والغنى والفقر، والقوة والضعف، والحرية والعبودية، وكانت طبقة الحكام ورجال الدين من الطبقات المميزة، بل إن بعض المجتمعات، مثل المجتمع الهندي، كان يعرف طائفة المنبوذين، وكان محرما على أفراد الطبقة، أن ينتقلوا منها إلى طبقة أعلى، حتى ولو كانت ملكاتهم تتيح لهم ذلك.

وفي العصر الحديث، رفعت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م، شعار المساواة.

وصدر عن الأمم المتحدة الإعلان العام لحقوق الإنسان الذي ذكرنا أهم مبادئه آنفًا غير أن التجارب العملية، تعلم الإنسان أن المبادئ والشعارات وحدها لا تكفي، دون أن يكون هناك ما يحدد المضامين، ويفتح طريق التطبيق، ويفرض الجزاء عند المخالفة. وها نحن أولاء نرى ونسمع انتهاكات لحقوق الإنسان في جميع أنحاء المعمورة وبخاصة من الدول التي لا تفتأ تذكر هذه الحقوق وتنادي بها!!

وذلك ما نجده في التشريع الإسلامي في مبدأ المساواة بين الناس.

فهي تسوية أصلية بحكم الشرع، ومضمونها محدد، وأساليب تطبيقها واضحة، والجزاء عند مخالفتها قائم، وهو جزاء دنيوي وأخروي.

(١) نقلاً عن قسم موقع الأمم المتحدة في إدارة شئون الإعلام.

إن التسوية بين البشر، تعني التسوية بينهم في حقوق الكيان الإنساني، الذي يتساوى فيه كل الناس.

أما التسوية الحسابية في الحقوق الفرعية التي تؤدي إلى المساواة بين غير المتماثلين، فإنها معنى يختلف عن التسوية في الآدمية التي كرمها الله، والتي تستند إلى مبادئ ثابتة وأصل واضح، قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾.(النساء: ١).

فالناس كلهم من نفس واحدة. ويبين الحديث الشريف هذا الأصل في المساواة:

"إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من تراب، لينتهين أقوام عن فخرهم برجال أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن"، (أبو داود والترمذي وأحمد).

هذه قاعدة الإسلام الأصلية في المساواة، كما تحددت في آيات القرآن الكريم، وبينتها السنة المشرفة.

وبين النبي ﷺ معنى المساواة، حين شفع وجهاء من القوم، في إعفاء امرأة شريفة وجب عليها حد السرقة، حتى لا توقع عليها العقوبة، فأبى النبي ﷺ ذلك، ونبه إلى عدم جواز الشفاعة في حدود الله ؛ لأن ذلك يخل بمبدأ المساواة بين الناس، ويؤدي إلى إيثار ذوي الوجاهة بإعفائهم من العقاب، مع إقامة الحدود على ضعفاء الناس، وبين الرسول ﷺ أن ذلك الأمر إذا ساد في مجتمع أدى به إلى الزوال، فقال:

"إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد" (متفق عليه).

ويعيب الرسول ﷺ على أحد أصحابه الملازمين له على الحب والتلقي منه، أنه عيَّر صاحباً له بلونه، فحين عيَّر أبو ذر الغفاري بلالا بلونه الأسود، غضب النبي ﷺ وقال للصحابي الجليل:

«إنك امرؤ فيك جاهلية»، (رواه البخاري) .

وأقامت الشريعة الإسلامية أصل المساواة في أحكامها، على النحو الذي يجعل هذا المبدأ وسيلة لَرُقِيِّ الإنسان، وتحصيل مصالح الحياة.

والتعاون والتكامل بين الحاكم والمحكوم من القواعد الأساسية في الإسلام.

ويعلم النبي ﷺ أصحابه، وهو أفضل الخلق، مبدأ المساواة في أمثلة متعددة، منها أنه لما كان يصفُّ أصحابه للقتال، دفع بعصا صغيرة في يده رجلا خرج من الصف، فلما شكا الرجل إليه، كشف الرسول ﷺ عن بطنه الشريف؛ لكي يقتص منه الرجل، فإذا به يهوي ليقبل جسد النبي ﷺ وكان مبتغاه ومراده أن يمس جسد الرسول قبل أن يستشهد في القتال (رواه أبو داود).

ولقد تعلم أصحاب النبي ﷺ ذلك، يقول أبو بكر رضي الله عنه للناس: (إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فَقَوِّموني)[1].

وهي مساواة لا تخل بحق الطاعة لولي الأمر، الذي يرعى مصالح من اختاروه حكما عليهم.

فإذا كان من حق المحكومين التسوية في الحقوق والواجبات، فإن من حق الحاكم الطاعة له في المنشط والمكره.

وفي الإسلام تسوية بين البشر في الكيان الإنساني، فالكرامة الإنسانية هي للآدمي، يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، (الإسراء: ٧٠).

(١) البداية والنهاية للإمام ابن كثير ج٦ ص٣٤٠.

ومال المعاهد والذمي وسائر المدنيين غير المحاربين لا يحل للمسلم إلا برضاه، وعرضه مصون في المجتمع الإسلامي.

يقول توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام:

"إن المسيحية نعمت بتسامح ملحوظ في ظل الحكم الإسلامي، لم تعرفه منذ قرون طويلة" .

ويمكن للذمي أن يعيش في المجتمع الإسلامي آمنا على نفسه وماله وعرضه، بل ويتمتع بالبر والإحسان، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أعطى شيخا من شيوخ أهل الذمة من بيت المال، لما رأى حاجته، وعجزه عن الكسب.

وكل ذلك من آداب التسوية بين الناس وقواعدها العامة، وهي مستمدة من قول الله تعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، (الممتحنة: ٨) .

تلك من أهم صور المساواة التي جاءت في الإسلام أصولها ومفاهيمها، في قضايا مهمة من قضايا البشر: التفرقة العنصرية بسبب اللون أو الجنس، وقضية المرأة وحقوقها في المجتمع الإسلامي، وقضية التسوية بين الحاكم والمحكوم، والعدل والمساواة في التعامل مع الذميين.

ولم تكن قواعد المساواة تلك، معروفة في المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام.

ولم تصل إلى هذا الكمال في الأمم التي جاءت بعد الإسلام[(١)].

أساس التفاضل بين الناس

تختلف أحوال الناس، وأوضاعهم، وتختلف أزمنتهم وأمكنتهم، ويوجد التنوع

(١) لمزيد من التفصيل حول المساواة في الإسلام انظر عبد الله بن عبد المحسن التركي حقوق الإنسان في الإسلام وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية الفصل الخاص بالمساواة.

في الأجناس والألوان واللغات، والغنى والفقر، والقوة والضعف، والعلم والجهل، ويختلف الموقع الاجتماعي والاقتصادي بين الناس، حينذاك تفرض المجتمعات معايير للتفاضل بين الناس، إزاء هذا التنوع والاختلاف.

ولا بد من وضع معيار للتفاضل ؛ لأن المساواة المطلقة لا تكون إلا في الكيان الإنساني، والمشكلة تبدأ عند وضع هذا المعيار، بحيث لا يخل بمبدأ المساواة في ذاته، ويجعل التفاضل وسيلة نمو ورقيٍّ، وليس ذريعة للظلم والتفرقة بين الناس.

وهذا ما جاء في الشرع الإسلامي، فقد ترك كل المعايير السائدة للتفاضل، كالقوة والضعف، والموقع الاجتماعي، أو الاقتصادي، أو الطبقة التي ينتمي إليها الإنسان، أو الجنس واللون.

إن معيار التفاضل في الإسلام يستطيع الارتقاء إليه كل البشر، ولا يقسم الناس إلى طبقات يعلو بعضها بعضا، وهو معيار يدفع إلى الرقي والسمو بالإنسان.

إن التقوى معيار الكرامة الإنسانية عند الله عز وجل، ومع ذلك فهي معيار الصلاح في الدنيا، وهو معيار حقيقي وعملي ؛ إذ إن صلاح الإنسان في دنياه، يجعله أفضل لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه، من غيره الذي لا يفيد نفسه ولا مجتمعه بشيء.

وقد هدم الدين الإسلامي بهذا المعيار الحقيقي الذي يرتقي بحياة الإنسان والمجتمع، كل المعايير الزائفة، التي أشار القرآن الكريم إلى الكثير منها.

يقول الله تعالى في الإنكار على أصحاب المعايير الزائفة في التفاضل:

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾، (الشعراء: ١١١).

مما يدل على أنهم لم يؤمنوا ؛ لأن مَن هم أقل منهم قد آمنوا بالرسول ﷺ وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، (البقرة: ١٣).

ولما طلب وجهاء قريش ومن كانوا يحسبون أنفسهم سادة قومهم، من النبي ﷺ أن يطرد الفقراء والمساكين وضعاف الناس الذين التفوا حوله وآمنوا به، كعمار

ابن ياسر، وبلال، بحجة أنهم يريدون أن يستمعوا إلى النبي ﷺ ولكنهم لا يجلسون مجلسا يكون فيه هؤلاء محل الرعاية من الرسول الكريم، نزل قول الله تعالى:

﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.(الأنعام: ٥٢)[١].

لقد جعل الله تعالى التقوى مقياس التفاضل بين البشر جميعا فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، (الحجرات: ١٣).

يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوبا، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ .

وقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ:

منها قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"، (رواه مسلم).

وقوله: "يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية وتعظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله".

ولعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في هذا المعنى وهو مشهور من شعره:

النَّاسُ من جهة التمثيل أكفاء   أبوهم آدم و الأم حـواءُ

(١) نفسه.

نفسٌ كنفسٍ وأرواح مشاكلة ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء

فإن يكن لهم من أصلهم حسب ... يفاخرون به فالطين والماء

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء

وَقَدْرُ كل امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سيماء

والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرا ونهيا، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنزه عما نهاك عنه.

وقال علي بن أبي طالب: التقوى ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة.

وقال إبراهيم بن أدهم: التقوى أن لا يجد الخلق في لسانك عيباً، ولا الملائكة في أفعالك عيباً، ولا ملك العرش في سرك عيباً.

وقال الواقدي: التقوى أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق.

ويقال: التقوى أن لا يراك مولاك حيث نهاك.

وجاء في تفسير الظلال لقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، (الحجرات: ١٣).

يا أيها الناس. يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرقون شعوباً وقبائل. إنكم من أصل واحد. فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً.

يا أيها الناس. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر وأنثى.. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام. إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات. وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله. إنما هنالك

ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس:﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.. والكريم حقاً هو الكريم عند الله. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين: ﴿إن الله عليم خبير﴾.

وهكذا تسقط جميع الفوارق، وتسقط جميع القيم، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان.

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس. ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد. كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته: لواء التقوى في ظل الله.

وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت. وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء. وكلها جاهلية عارية من الإسلام!

قال رسول الله ﷺ "كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب. ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان".

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية: "دعوها فإنها منتنة".

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، المجتمع الإنساني العالمي، الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لوناً من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الله.. أن يستمد الناس قيمهم وموازينهم من السماء، طلقاء من قيم الأرض وموازينها المنبثقة من واقعهم كله.. وهذا هو الأمر العظيم.

إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل، ليقوّموا به القيم كلها، هو ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو

يشيل! وهي قيمة سماوية بحتة، لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقاً.

ولكن الناس يعيشون في الأرض، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى؛ كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم. وهم يتعاملون بقيم أخرى.. فيها النسب، وفيها القوة، وفيها المال، وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية.. اقتصادية وغير اقتصادية.. تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض. فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض..

ثم يجيء الإسلام ليقول: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ فيضرب صفحاً عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس، العنيفة الضغط على مشاعرهم، الشديدة الجاذبية إلى الأرض. ويبدل من هذا كله تلك القيمة الجديدة المستمدة مباشرة من السماء، المعترف بها وحدها في ميزان السماء!

ثم يجيء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة في مناسب واقعية محددة. وليقرر معها المبدأ الأساسي: وهو أن الميزان ميزان السماء، والقيمة قيمة السماء. وأن على الأمة المسلمة أن تدع كل ما تعارف عليه الناس، وكل ما ينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات، لتستمد القيم من السماء وحدها وتزنها بميزان السماء وحده!

فالأمم عندهم سواء، والناس عندهم سواء الناس كلهم من آدم، وآدم من تراب. لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر وقد ضرب ابنه مصريّاً وافتخر بآبائه قائلاً: خذها من ابن الأكرمين. فاقتص منه عمر قائلا: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم؟ فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد، وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحها.

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب حتى المضطهدة منها في القديم أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة، وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين[1].

هل اليهود هم الأتقى ليكونوا هم الأكرم عند الله؟

لا تزعم اليهودية أن لديها هداية تقدمها للبشر، فهي ديانة يغلب عليها الطابع العنصري، وبنو إسرائيل وحدهم دون الناس هم شعب الله المختار كما يزعمون !!

و"الله"في دين اليهود ليس رب العالمين، ولكنه رب إسرائيل. والآخرة عند اليهود ليست هي ملكوت السماء عند النصارى، ولا جنة الخلد عند المسلمين، إنما هي مُلك إسرائيل.

والعهد القديم"كتاب اليهود المقدس الذي يضم أسفار التوراة وملحقاتها يدور جلّه حول تاريخ إسرائيل، وأحلام إسرائيل.

التوحيد الذي دعا إليه موسى عليه السلام ضاع في هذا الكتاب الذي شوه صورة الألوهية، وأضفى على الإله من نقائص البشر، من الجهل والخوف والحسد، والضعف، يلحظه كل قارئ للتوراة.

والأنبياء الذين جعلهم الله هُداة ومعلمين، لُوّثت سيرتهم وأُلصقت بهم التهم، في هذا الكتاب، فلم يعودوا ليصلحوا أُسوة للناس.

و الشريعة فيه تُحل لبني إسرائيل ما تُحرمه على غيرهم، فالربا حرام إذا تعامل اليهودي مع مثله، أما مع غيره من الناس فهو حلال زلال.

أما تعاليم "التلمود" فتجعل من اليهود"عصابة" تستحل دماء البشر، أموالهم وحرماتهم، باسم الدين، فكل من عداهم من الأمم يجب أن يكونوا عبيداً لهم، أن يكون لهم السيادة على العالم، وكل من دونهم أحط من البهائم.على أن اليهود لو كانوا يملكون رسالة لهداية البشر، لكانوا أبعد الناس عن الصلاحية لحملها، فهم

---

(١) سيد قطب «في ظلال القرآن الكريم» ج٧ ص٣-٥.

- بأنانيتهم وعزلتهم، وحقدهم وطمعهم وشرهم - لا يصلحون لحمل رسالة عالمية.

وهم - بما نُشِر عنهم في بروتوكولات حكماء صهيون، وما ظهر على أيديهم في فلسطين ولبنان - أعداء البشرية لا منقذوها !

وهم - بتاريخهم الدموي مع أنبياء الله ورسله زكريا ويحيى والمسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام - لا يصلحون لحمل رسالة.

وهم - بتاريخهم في إيقاد الفتن، وتمزيق الجماعات، وبث الأفكار الهدامة، ونشر الفلسفات، والمذاهب الانحلالية - لا يصلحون للإنقاذ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، فإن فاقد الشيء لا يُعطيه![1].

هل المسلمون شعب الله المختار؟

إذا كان المسلون الأوائل لم يمنعهم اعتزازهم بالإسلام أن يخالطوا الشعوب الأخرى ويتعلموا منهم ما ينقصهم من شئون الدنيا والعلم فإن المسلمين في عصور التخلف والانحطاط سيطر علي كثير منهم الاستعلاء الديني العنصري فتوهموا أنه بسبب كونهم مسلمين -وإن كان بالاسم فقط- أصبحوا خير أمة أخرجت للناس، وأنهم هم المؤمنون حقا، وأن بلادهم بلاد الإسلام وما عداها فبلاد الكفر والشرك!! وأن الخير كل الخير في اعتزال هؤلاء الكفرة وعدم الاختلاط بهم والاستفادة من حضارتهم، وكأنهم شعب الله المختار، ميزهم بأفضل دين، وفضلهم بأعظم نبي، وخصهم وحدهم بشفاعته يوم القيامة، فَلِمَ العمل والسعي وقد فضلهم الله على العالمين ليس في الدنيا فقط بل وفي الآخرة أيضا؟! وهكذا استقر هذا الفهم المغلوط لدين الله الحنيف في عصور الضعف والانحطاط.

يقول تعالى في اليهود وفي كل من زكى نفسه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (النساء: ٤٩، ٥٠)

(١) د. يوسف القرضاوي الإسلام حضارة الغد نقلاً عن الشبكة الإسلامية ٢٠٠٢/١/١ .

وما أرى أننا – الذين ندعي الإسلام لأننا نحمل أسماء المسلمين، ونعيش في أرض كان يسكنها المسلمون! بينما نحن لا نجعل الإسلام في شيء من منهجنا في الحياة.. ما أحسبنا ونحن ندعي الإسلام، فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا؛ ونؤدي ضده شهادة منفرة منه ! ثم ونحن ندعي أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ﷺ بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طرداً. ما أحسبنا إلا في مثل هذا الموضع، الذي يُعَجِّبُ الله – سبحانه – منه رسوله ﷺ ويدمغ أصحابه بافتراء الكذب على الله، وارتكاب هذا الإثم المبين! والعياذ بالله!

إن دين الله منهج حياة. وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة. والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته.. فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه.. ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود، الذين يُعَجِّبُ الله من حالهم، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم! فالقاعدة هي القاعدة والحال هي الحال. وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة!!!.

إن فكرة تزكية النفس واحتقار الأغيار مرفوضة من كل من قال بها يهودا كانوا أو مسيحيين أو مسلمين أو من أي ملة أو دين فالعبرانيون وهم يخصون أنفسهم بميزة الوعد، والاختيار الإلهي، والإغريق باحتقارهم المألوف للبرابرة "ويعنون: كل من ليس منهم"، والرومان بعقدة تفوقهم وامتيازهم، "والكنيسة التي ستخلفهم، وهي تعبر الكون كله كاثوليكيا"، وذلك الفريق من المسلمين الذين انْزَوَوْا في فرديتهم، وفَسَّروا آيه القرآن عن (خَيْرَ أُمَّةٍ)، لا على أنها دعوة وتكليف، بل على أنها امتياز مكتسب، يتجلى في روح تشعر بالكفاءة المزهوة. كل هؤلاء يعتبرون أنفسهم مركز العالم "بنفس القدر من السذاجة الذي كان يدفع أباطرة الصين إلى الادّعاء بأنهم يحكمون "الإمبراطورية المتوَسِّطَة"[1].

---

(١) رجاء جاردوي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثاني، الفصل الأول: العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية، مرجع سابق.

3

الفصل الثالث

أسطورة النقاء العرقي لليهود

الفصل الثالث

أسطورة النقاء العرقي لليهود

□□

الصهيونية وأسطورة النقاء العرقي لليهود

الأسطورة الدينية الثالثة بعد أسطورتي: الأرض الموعودة، وشعب الله المختار هي أسطورة النقاء العرقي لليهود ، وقَصْر السامية عليهم وحدهم، بمعنى إذا أُطلقت كلمة سامية فإنها تعنى اليهود فقط، وأن معاداة السامية تعني معاداة اليهود دون غيرهم من الشعوب السامية الأخرى. وعليه فهم يفترضون:

١- أن اليهود المحدَثين هم ورثة العبرانيين القدامى.

٢- أن دولة إسرائيل هي الوريثة الشرعية الوحيدة لمملكة داود القديمة التي قامت على أرض فلسطين.!!

و لكي يحافظ اليهود على نقائهم العرقي فإنهم عمدوا إلى:

١- تحريم الزواج بغيرهم من الأمم الأخرى.

٢- فرض العزلة الاختيارية على الجماعات اليهودية في الشتات.

لقد حرص اليهود على إثبات نسبتهم إلى سام بن نوح، كما حرصوا على إثبات نقاء جنسهم السامي على مدى التاريخ. بأنهم لا يتزوجون ولا يزوجون إلا من كان يهوديا صحيح النسب إلى سام! وهذه هي أوامر "يهوه" إلههم حفاظا على جنسهم السامي من أن يدنس بأي من الأجناس الأخرى، وبذلك لا تختلط دماء شعب الله المختار بأية دماء أخرى، وليكونوا وحدهم -دون سائر الأمم-

المستحقين للوعود الإلهية بملك أبدي لأرض كنعان، والخلاص على يد الماشيخ في آخر الزمان.

المرجعية النصية لأسطورة النقاء العرقي لليهود

ودونك ما تستشهد به جماعة اليهود لتأكيد بقاء جنسهم ونقائه، وصحة نسبهم إلى سام دون غيرهم من الأمم.

"إن شعب إسرائيل لن يهلك" (أرميا ٣١: ٢٦-٢٧)

"فاعلموا أن الرب إلهكم هو الله الإله الأمين الوفي بالعهد والإحسان لمحبيه وحافظي وصاياه إلى ألف جيل"(التثنية: ٧)

هذان النصان هما أساس أسطورة بقاء واستمرار اليهود، فالنص الأول يبين أن شعب إسرائيل باق خالد لن يهلك، أما النص الثاني فيبين أن إله إسرائيل الأمين الوفي سوف يفي بعهده لشعبه المختار إلى ألف جيل.

أما النصوص التي يستشهدا بها اليهود على نقاء عنصرهم وعدم اختلاطه بدم الأغيار فهي:

" إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا إِلَهاً آخَرَ غَيْرِي، لأَنَّ الرَّبَّ اسْمُهُ غَيُورٌ جداً. إِيَّاكُمْ أَنْ تَعْقِدُوا مُعَاهَدَةً مَعَ سُكَّانِ الأَرْضِ، لأَنَّهُمْ حِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ مُشْرِكِينَ وَيَذْبَحُونَ لَهُمْ، يَدْعُونَكُمْ فَتَأْكُلُونَ مِنْ ذَبِيحَتِهِمْ. وَتُزَوِّجُونَ بَنِيكُمْ مِنْ بَنَاتِهِمْ، فَيَجْعَلْنَ بَنِيكُمْ يَغْوُونَ أَيْضاً بِعِبَادَةِ آلِهَتِهِنَّ.) " الخروج: ٣٤)

فيحذر"يهوه"إله إسرائيل شعبه المختار من الزواج من المشركين غير شعب إسرائيل.

"ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التي أنتم ماضون إليها لترثوها، وطَرَد من أمامكم سبع أمم، أكثر وأعظم منكم، وهم الحثيون والجرجاشيون والأموريون واليبوسيون. وأسلمهم الرب إليكم وهزمتموهم، فإنكم تحرِّمونهم. لا تقطعوا لهم عهدا، ولا ترفُقوا بهم، ولا تصاهروهم. فلا تُزَوِّجوا بناتكم من أبنائهم، ولا أبناءكم من بناتهم، إذ يغوون أبناءكم عن عبادتي ليعبدوا آلهة أخرى ، فيحتدم

غضب الرب عليكم ويهلككم سريعا . . لأنكم شعب مقدّس للرب إلهكم فإياكم قد اختار الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكنوا شعبه الخاص » (التثنية:٧)

وهذا الفصل العنصري هو الطريقة الوحيدة لمنع تدنيس العنصر المختار من الرب، والدين الذي يربطه به. وظل هذا الانفصال عن الآخر هو القانون.

ولم يتقاعس عزرا ونحميا عقب عودتهما من المنفى في تطبيق هذا الفصل العنصري فقد مزق عزرا ثيابه ونتف شعر رأسه وذقنه عندما علم أن شعب إسرائيل قد تزوجوا من غير بني إسرائيل مما ترتب عليه اختلاط النسل المقدس.

يقول عزرا: "١ جاءني رؤساء اليهود قائلين: "إن شعب إسرائيل والكهنة واللاويين ما برحوا منغمسين في رجاسات أمم الأرض كالكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعموريين. ٢ ولم ينفصلوا عنهم لأنهم تزوجوا هم وأبناؤهم من بناتهم، فاختلط النسل المقدس بأمم الأرض، وقد كان الرؤساء الولاة أول من ارتكب هذه الخيانة. ٣ وعندما سمعت ذلك مزقت ثيابي و ردائي، ونتفت شعر رأسي وذقني. . ٥ وجثوت على ركبتي وبسطت يدي إلى الرب إلهي قائلا: ٦"اللهم إني أخجل وأخزى من أن أرفع وجهي نحوك. . ١٠ فماذا نقول بعد كل ما حدث ؟ لقد نبذنا وصاياك. ١١ التي أمرتنا بها على لسان عبيدك الأنبياء قائلا: "إن الأرض التي تدخلون لترثوها هي أرض نجستها شعوبها برجاساتهم من أقصاها إلى أقصاها. ١٢ والآن فلا تعطوا بناتكم لبنيهم و لا تأخذوا بناتهم لبنيكم ولا تطلبوا سلامتهم و خيرهم إلى الأبد. . ١٤ والآن بعد كل ما جرى علينا من جرَّاء أعمالنا السيئة وآثامنا العظيمة نعود بعد ذلك ونتعدى على وصاياك ونصاهر الأمم الذين يرتكبون هذه الرجاسات» (عزرا: ٩).

وفيما كان عزرا يصلي ويعترف باكيا ومنطرحا أمام هيكل الرب اجتمع إليه حشد كبير من الرجال والنساء والأولاد وقال شكنيا بن يحيئيل من بني عيلام لعزرا: "٢ لقد خنا إلهنا وتزوجنا من نساء غريبات من أمم الأرض، ولكن على الرغم من هذا فلا يزال هناك رجاء لإسرائيل. ٣ لذلك نبرم عهدا مع إلهنا بأن نخرج كل النساء الغريبات، ومن أنجبن من أبناء. . ١٧ وتم الفصل بين قضايا كل الرجال الذين تزوجوا من نساء غريبات". (عزرا: ١٠).

ويقول نحميا عن اليهود"٣٠ فطهرتهم من كل غريب"(نحميا : ١٣)

ومرض الخوف من الاختلاط ورفض الآخر قد جاوز البعد الجنسي. فرفض دم الآخر بالزواج المختلط يعني رفض دينه كذلك وثقافته أو طريقة حياته.

وهكذا فإن: "يهوه"ينفجر غضبا في وجه من ينحرفون عن الحقيقة، والتي لا يوجد غيرها طبعا": فسوفونيا"يقاتل ويحارب كل أشكال الملابس الأجنبية، ونحميا كان ضد اللغات الأجنبية "٢٣ وفي ذلك الزمن شاهدت يهودا ممن تزوجوا من نساء أشدوديات وعمونيات وموآبيات. ٢٤ ولاحظت أن نصف كلام أولادهم بلغة أشدود أو بلغة بعض الشعوب الأخرى ويجهلون اللغة اليهودية. ٢٥ فأنَّبْتُهم ولعنتهم وضربت منهم قوما ونتفت شعورهم، واستحلفتهم باسم الله قائلا: " إياكم أن تزوجوا بناتكم من بنيهم، ولا تأخذوا بناتهم لأبنائكم ولا لكم. ٢٦ أليس بمثل هذا أخطأ سليمان ملك إسرائيل، مع أنه لم يكن له نظير بين ملوك شعوب كثيرة ؟ لقد كان محبوبا عند إلهه، وجعله الله ملكا على بني إسرائيل ومع ذلك أغوته النساء الأجنبيات على ارتكاب الإثم. ٢٧ فهل نتغاضى عما اقترفتموه من شر عظيم في حق إلهنا باتخاذ زوجات غريبات"(نحميا : ١٣).

ومن يخالف وصايا الرب ويتزوج بأجنبيات يتعرض للمحاكمة القاسية وتؤكد"رفقة"زوجة إسحاق وأم يعقوب هذا"٤٦ قَالَتْ رِفْقَةُ لإِسْحقَ: «قَدْ كَرِهْتُ حَيَاتِي مِنْ جَرَّاءِ الْبَنَاتِ الْحِثِّيَّاتِ، فَإِنْ تَزَوَّجَ يَعْقُوبُ مِن الْحِثِّيَّاتِ بَنَاتِ هَذِهِ الأَرْضِ الْمُمَاثِلاتِ لِزَوْجَتَيْ عِيسُو، فَإِنَّ مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي"(التكوين: ٢٧)

وصاح والدا شمشون فزعا من زواج ابنهما من فلسطينية"٣ فقال له أبوه وأمه أليس في بنات إخوتك وفي شعبي كله امرأة حتى تذهب وتأخذ امرأة من الفلسطينيين القُلْف فقال شمشون لأبيه بل إياها تأخذ لي لأنها حسنت في عيني" (القضاة: ١٤)

إذن تمَّ بقاء شعب إسرائيل بموجب تعهد من إله إسرائيل بعدم هلاكهم، ولكي يتم نقاء الجنس اليهودي فلا بد من تحريم الزواج من أجنبيات ؛ لذا فإن اليهود

فرضوا على أنفسهم العزلة والعيش في الجيتو منذ خروجهم من أرض فلسطين وتشتتهم في البلاد حتى يحافظوا على جنسهم السامي من دنس الأغيار.

وقد أخذ الوجود اليهودي داخل المجتمعات القديمة وفي العصور الوسطى أشكالا متعددة مثل: حارة اليهود في مصر، وقاعة اليهود أو المسبتة في اليمن والمِلاح في المغرب، ويعتبر الجيتو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية في العالم بحيث أصبح يطلق على سبيل التعميم على كل شكل من أشكال الحياة اليهودية الانعزالية وسط الشعوب التي عاشوا بين ظهرانيهم.

والجيتو عبارة عن حي أو عدد من الشوارع المخصصة لإقامة اليهود،وهو يمثل مسألة حيوية بالنسبة لليهودي لا ليضمن بقاءه وحسب وإنما مكانته وهويته أيضاً. ومما دعم الحاجة إلى الجيتو مجموعة الشعائر اليهودية الخاصة، مثل: قوانين الطعام، وتحريم الزواج المختلط، وعدم شرب خمر صنعها واحد من الأغيار، والختان، والنصاب اللازم لصلاة الجماعة، وعادات الدفن والمدافن، وشعائر السبت"[1].

إن بقاء الجنس اليهودي السامي نقيّاً لم يُدنس بدماء أخرى أسطورة تتواتر في التواريخ المتأثرة بالرؤية الصهيونية، بل نجدها دائماً مقرونة بكلمة «معجزة». ومصطلح «البقاء اليهودي» مرتبط بمصطلحات صهيونية أخرى مثل:"الاستمرار اليهودي"و"الشعب اليهودي" و"التاريخ اليهودي"و"الشخصية اليهودية"، وهي جميعاً تنبع من نموذج تفسيري واحد يفترض وجود جماعة متجانسة يُقال لها"اليهود" احتفظت بهويتها المستقلة، رغم انتقالها من مكان إلى آخر، ورغم تواجدها في أزمنة مختلفة. وعادةً ما يُقارَن هذا البقاء اليهودي باختفاء بعض الشعوب الأخرى مثل اختفاء الآراميين والبابليين، وحدوث بعض الشعوب الأخرى مثل العرب.

وهذا المفهوم، مثل غيره من المفاهيم الصهيونية، يفترض نوعاً من الاستمرار

---

(١) د. رشاد الشامي "الشخصية اليهودية الإسرائيلية" الفصل الأول: الشخصية اليهودية في إطار الانعزالية الجيتوية، مرجع سابق.

والوحدة والتجانس لا وجود له لا على مستوى النسق الديني أو على مستوى الجماعات اليهودية[1].

هناك اتجاه صهيوني -إذن- يؤمن بأن ثمة عرْقاً يهودياً مستقلاً، وأن أساس الهوية اليهودية والشخصية اليهودية هو الانتماء العرْقي. ولعل المفكر الصهيوني موسى هس هو أول من طرح تعريفاً لليهود على أساس بيولوجي أو عنصري حين ذكر أن العرْق اليهودي من الأعراق الرئيسة في الجنس البشري، وأن هذا العرْق حافظ على وحدته رغم التأثيرات المناخية فيه، فحافظت اليهودية على نقاوتها عبر العصور. وقد تنبأ هذا المفكر الصهيوني بأن الصراع بين الأجناس سيكون أهم الصراعات، وأسهم في المحاولة الرامية إلى التمييز بين العنصرين الآري والسامي، وهو التمييز الذي قُدِّر له أن يكون بعد عدة سنوات أحد المفاهيم الأساسية التي تبناها مُنظِّرو الفكر العنصري الأوربي.

وقد داعبت هرتزل فكرة الهوية العِرْقية، فترة من الزمن على الأقل فاستخدم عبارات مثل «الجنس اليهودي» أو «النهوض بالجنس اليهودي»، كما أنه كان يفكر في تمييز اليهود عن غيرهم على أساس بيولوجي.

كما يقول ماكس نوردو الذي يُعَدُّ واحداً من أهم مفكري العنصرية الغربية (حتى قبل تَحوُّله إلى الصهيونية) في لغة لا تقبل الشك وتخلو تماماً من الإبهام"إن اليهودية ليست مسألة دين وإنما هي مسألة عرْق وحسب"ولا يخرج مارتن بوبر (أحد الأصوات اليهودية الكبرى في القرن العشرين) في تعريفه لليهودي عن هذا الإطار، فقد تحدَّث عن:"أزلية الأجيال كجماعة يربطها الدم. فالدم قوة مُتجذِّرة في الفرد تغذيه، والدم هو الذي يحدد المستويات العميقة لوجودنا، ويصبغ صميم وجودنا وإرادتنا بلونه. والعالم من حوله إن هو إلا آثار وانطباعات، بينما الدم هو عالم الجوهر"ونظراً لأن الدم الذي يجري في عروق اليهود يربطهم بالتربة، فقد كان بوبر يشير إلى اليهود باعتبارهم آسيويين"لأنهم إذا كانوا قد طُردوا من فلسطين، فإن فلسطين لم تُطْرَد منهم".

(١) د. عبد الوهاب المسيري "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية" م٤ ج١ إشكالية التاريخ اليهودي مرجع سابق.

ومسألة الدم هذه لم تكن شائعة في صفوف الفلاسفة والصهاينة المتأثرين بالتراث الألماني وحسب، بل كانت شائعة في صفوف الصهاينة الأنجلو ساكسون أيضاً. فقد ادَّعى الزعيم الصهيوني نورمان بنتويتش، في حديث أدلى به في عام ١٩٠٩، أن اليهودي لا يمكن أن يكون مواطناً إنجليزياً كاملاً مثل هؤلاء الإنجليز الذين وُلدوا «لأبوين إنجليزيين وانحدروا من أسلاف خلطوا دماءهم بالإنجليز لأجيال كثيرة».

وعرَّف الأمريكي لويس براندیز اليهودية، في خطاب ألقاه في عام ١٩١٥، بأنها «مسألة تتعلق بالدم». وذكر أن هذه الحقيقة لقيت قبولاً من جانب غير اليهود الذين يضطهدون اليهود، ومن جانب اليهود الذين يُحسُّون بالفخر عندما يُبدي إخوانهم من ذوي الدم اليهودي تفوقاً أخلاقياً أو ثقافياً أو عبقرية أو موهبة خاصة، حتى إذا كان هؤلاء النابهون قد تخلوا عن الإيمان بالدين، مثل إسبينوزا أو ماركس أو دزرائيلي أو هايني.

ويبدو أن الصهاينة حاولوا، على طريقة المفكرين العنصريين في الغرب، أن يُثبتوا أنهم عرْق مستقل بطريقة «علمية» وليس فقط على طريقة بوبر الفلسفية. ولذا، فإننا نجد في صفوفهم كثيراً من «العلماء» المهتمين بهذه القضية. وقد أشار عالم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين إلى"الكتابات المتعلقة بقضية الجنس اليهودي"وأورد في كتابه اليهود في الوقت الحاضر أسماء كثير من «المراجع القيمة» في ذلك الموضوع. ومن بين الأسماء التي يذكرها اسم عالم صهيوني هو إغناتز زولتشان (١٨٧٧ ـ ١٩٤٨) الذي وصف اليهود بأنهم «أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف أو الانحلال الخلقي". وقدَّم روبين نفسه تعريفاً عرْقياً لليهود بيَّن فيه أنهم «استوعبوا عناصر عرْقية أجنبية بدرجة محدودة، ولكنهم في أغلبيتهم يمثلون جنساً متميِّزاً، على عكس ما هو سائد في دول وسط أوربا"».

وكان اللورد بلفور، الصهيوني غير اليهودي، يفكر في اليهود على أساس عرْقي، وربما كان من المهم هنا أن نتذكر أن إحدى المسودات الأولى لوعد بلفور

كانت تدعو إلى إقامة «وطن قومي للجنس اليهودي»، وهي جملة تحمل في طياتها تعريفاً بيولوجيّاً واضحاً للهوية اليهودية.

ثمة - إذن - إجماع صهيوني على التعريف العرْقي لليهودي. وهو أمر متوقع ومفهوم، فقد كانت الصهيونية تبحث عن الشرعية من أوروبا لا من اليهودية، ولذا كان عليها أن تصبح عرْقاً مستقلاً لأن العرْق المستقل وحده هو الذي من حقه أن تكون له دولة مستقلة (حسب الإطار المعرفي السائد في أوربا العلمانية)[1].

لقد حرص اليهود أشد الحرص على إثبات نقاء عنصرهم من أي دماء أخرى لكن أنَّى لهم إثبات ذلك فكل هذه التحريفات التوراتية المكشوفة والآراء الصهيونية المشنوعة لا تثبت نقاء عنصرهم ولا أسطورة قَصْر السامية عليهم إنما تثبت فقط عنصريتهم ومقتهم لغيرهم من الأمم والشعوب، ولقد استغلت الصهيونية هذه الأساطير التوراتية لتبرير مشروعها الاستعماري الرامي التخلص من اليهود بتوطينهم في فلسطين، ولتبرير عملية التطهير العرقي الذي تمارسه منذ وطئت أقدامهم الدنسة أرض فلسطين فلقد ارتكبت من المذابح والمجازر ما حدا بمنظمة الأمم المتحدة اعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية.

ففي ١٠ نوفمبر ١٩٧٥ وفي جلسة عامة، اعتبرت منظمة الأمم المتحدة أن الصهيونية شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، ومنذ انهيار الاتحاد السوفييتي وضعت الولايات المتحدة يدها على الأمم المتحدة وحصلت في ١٦ ديسمبر ١٩٩١ على قرار بإلغاء القرار العادل الصادر في سنة ١٩٧٥ مع أن الحقائق تثبت أن لا شيء قد تغير منذ ١٩٧٥ بل اتخذ بالأحرى قمع الشعب الفلسطيني واستعماره وإبادته الجماعية البطيئة أبعادا أوسع لم يسبق لها مثيل[2].

---

(١) لمزيد من التفصيل حول العرق اليهودي راجع «موسوعة اليهودي واليهودية والصهيونية» د. عبد الوهاب المسيري م٢ ج١: إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية. مرجع سابق.

(٢) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص٦٨.

الرد على أسطورة قَصْر السامية علي اليهود وحدَهم

إن أسطورة نقاء العرق اليهودي واتصال نسبه بسام أمر مغرق في الخيال والوهم فهناك تَنوُّع هائل بين أعضاء الجماعات اليهودية على المستوى العِرْقي، فهناك يهود بيض، ويهود سود، ويهود صفر، وتختلف أحجام الرأس باختلاف انتماء اليهودي كما يظهر الاختلاف والتباين على المستوى الثقافي وهكذا.

أسطورة الجنس والاستعمار الغربي

إن مفهوم"الجنْس"مِن مُستحدَثات القرن التاسع عشر الأوربي، وُضع اعتِسافًا لتبرير سيطرة الغرب الاستعمارية، وللفصل بين الفصائل اللغوية، بناءً على فكرة الاختلاف"البيولوجي"ولا سيما فكرة التدرُّج بين الأجناس الإنسانية الكبرى.

وقد توصل الكونت دي جوبينو في كتابه:"دراسة عن تفاوُت الأجناس الإنسانية" إلى نتيجة هي: أن الأجناس تَفْسَدُ حين تتهجَّن.

لقد جاء في سفر (التكوين ٩: ١٨. ١٩)"وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفُلْك سامًا وحامًا ويافثًا، وحام هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومِن هؤلاء تَشَعَّبَتْ كل الأرض". وقد عرفت القرون الوسطي الإقطاعية في حام أبا الرقيق، وفي يافث أبا السادة، وفي سام أبا الكهنة ورجال الدين.

إن مؤلفي التاريخ الطبيعي من أمثال دي جوبينو، وبوفون قد اصطلحوا على نموذج أَصْلِيّ للإنسانية، هو نموذج اَلْجِنْس الأبيض، الذي"يَفْسد"كلَّمَا ابتعد عن المنطقة المعتدلة، ثم إنهم باسم التطورية شديدة العرقية، وقُطبها دائمًا هو أوروبا. رأوا أن غير الغربيين هم البدائيون، وحُجتهم الأساسية"لتبرير"الغزوات الاستعمارية أن رسالة الإنسان الأبيض أن يحمل"التقدُّم"والفكرة الحالية عن"التخلُّف"تُكرِّر هذه الرؤية الطبقية التي بمُوجبها يُصبح المسار النموذجي للإنسانية هو مسار الغرب: فأيُّ شعب هو أكثر تقدُّمًا أو تخلُّفًا بحسب درجة اقترابه مِن هذا المثَل الأعلَى!!

ولقد نعَى ليفي شتروس في كتابه:"جنسٌ ودينٌ"بشدة على هذه العرقية، مُبيِّنًا إلى أيِّ مدًى كانت مُفقرة؛ لأنها تنفي حوار الثقافات، قال:"إنَّ المعيار الوحيد الذي

يُؤذي أيَّةَ مجموعة إنسانية، ويَمنعها من تحقيق ذاتها بصورة كاملة هو أن تكون وحدها" "ص:١٧".

لقد استُخدمت النظرية الكاذبة عن الجنس دائمًا لتبرير أعمال السيطرة والعُنْف، والمثال الذي بلغ الذُّرْوة في ذلك هو النازية، فهتلر يتَّهم في كتابه: "كفاحي" اليهود بأنهم يُريدون أن يدمروا بالغباء الناشئ عن التهجين هذا الجنس الأبيض الذي يَمْقُتونه ثم يقول: "إن اليهودي يُسمم دم الآخرين، ولكنه يَحتفظ بدمه".

أسطورة الجنس والعلم

إن العنصرية ليس لها أيُّ أساسٍ علمي، ولقد ظهر من الناحية البيولوجية أن النظرية القديمة التي كانت تَستخدم "دليل الجُمجمة" لتمييز مُستطيلي الرأس عن "عِرَاض الجُمجمة" هي نظرية يَستحيل التسليم بها، ذلك أن علْم الوراثة الحديث أثبت أن بعض "الجينات" تحكم الخواص المَصلية في الدم، وهو دليل يكشف بُطلان المفهوم البيولوجي عن الجنس.

وجاء أعظم المُتخصِّصين في الموضوع، وهو الأستاذ جان برنارد فهدم "أسطورة الدم" التي تفترض تفاوت الدماء، والقيمة المتفاوتة لدماء الناس المُختلفين، وكتب يقول: "إن هناك علاقةً مُقرَّرة، ومُسلَّمة، بين قيمة الدم من ناحية، وقيمة الإنسان من ناحية أخرى، ذكائه، وقوته، وشجاعته، وفضائله المادية والأخلاقية، وتلك نظرية قديمة جدًّا، ذاعت كثيرًا في القرن التاسع عشر، وفي القرن العشرين، من جالتون، وهو قريب من داروين، إلى هتْلر، مُرورًا بفاشر دي لبوج وجوبينو، وهي ما زالت تُلهم حديثًا بعض المُتمسكين بها من البيولوجيين الاجتماعيين الجُدد ولم تكفِ خواصُّ الدم، وصفات الذكاء عن أن تَتشابك على طول هذا التاريخ الخطِر، تارة يكون التركيز على خواص الدم، وتارة أخرى على صفات الذكاء.

والحق أن هذه الأحكام المؤكدة، الخادعة والمُهلكة في آن واحد - لا تقوم على شيء.

لقد كان الهدف من القوانين الهتلرية في نورمبرج "حماية الدم الألماني" بمُطاردة الدم اليهودي، وقد اصطدم تطبيقها بنفس المشكلات الزائفة التي هي اليوم مشكلات دولة إسرائيل فيما شرعته من "قانون العودة": مَن يكون اليهودي؟ إذ إنه لم يعُد يُوجد "جنس يهودي" كما لا يُوجَد "جنس آري"[(١)].

وبحلول الثلاثينيات من القرن العشرين كانت الحياة في الغرب قد تحولت عن العنصرية التي فقدت إلى حدٍّ كبير ما كانت تحظى به من قبول وتأييد في الأوساط العلمية. وكما يقول الزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف: بعد أن عشنا عصراً أصبحت فيه كلمة «عنصر» أو «عرْق» معادلة للقسوة والبربرية، فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح.

ويُضاف إلى هذا أن علم الأجناس قد أظهر أن هذا المصطلح لا يمكن أن يُطبَّق حقاً على اليهود، وذلك رغم أنه كان من المعتاد تماماً الإشارة إلى اليهود في عصر ما قبل هتلر على أنهم «جنس»، وكان الكثيرون يعتقدون أن يهودية المرء مسألة تتعلق بمولده وسماته.

ولذا، كان لابد من العدول عن استخدام كلمة «عرْق». وبدلاً من ذلك، بدأ تعريف اليهودي على أساس إثني، أي على أساس التراث والثقافة المشتركة، ومن ثم حلت الإثنية محل العرْقية كنقطة مرجعية وكأساس للهوية. لكن التعريف الإثني لا يختلف في جوهره عن التعريف العرْقي، فكلاهما يفرز نظرية في الحقوق (العرْقية أو الإثنية) تعطي صاحب الهوية العرْقية أو الإثنية مزايا معينة وقوة مطلقة تنكرها على غيره من البشر[(٢)].

لقد أسس الصهيونيون أسطورة "العودة" على أسطورة الاستمرار العرقي والتاريخي بين العبرانيين الكتابيين، وبين اليهود المعاصرين، وقد حاولوا حمْل الآخرين على الاعتقاد بأن كل "يهودي" أينما وُجد في العالم، عندما يَجيء إلى إسرائيل - إنما "يعود" إلى أرض أجداده، في حين يُقرِّر الواقع أن ٩٩٪ على الأقل

---

(١) رجاء جارودي من فلسطين أرض الرسالات الإلهية الباب الثاني الفصل الثاني: من اليهودية إلى القومية الصهيونية، مرجع سابق.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٢ ج١ إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية. مرجع سابق.

من اليهود المعاصرين ليس من أجدادهم أحد وطئت قدماه أرض فلسطين، بسبب التحوُّل من ناحية، وبسبب الزيجات المختلطة خلال القرون من ناحية أخرى.

لقد استنتج مَكسيم رودنسون بهدوء قوله: "إن من المُحتمل جدًا، على ما أثبته علْم الأنثروبولوجيا الفيزيقية . أن السُكَّان المَوصوفين بأنهم "عرب" في فلسطين، "وقد كانت الأغلبية مع ذلك "مُستعربة" كان فيهم من دم قدماء العبرانيين، أكثر ممَّا لدَى أغلبية اليهود في الشتات، الذين لم يَمنعهم التعصُّب الديني مُطلقًا من أن يَمتصُّوا من المُتحولين ذَوِي الأصول المختلفة[1].

وهكذا تنهار أسطورة "العودة" وقد لجَأ القادة الصهيونيون الإسرائيليون إلى هذه الأساطير كيْمَا يُخفوا غزوتهم الاستعمارية تحت قناع "عودة" اليهود، الذين ليْس لأغلبيتهم الساحقة أيُّ جَدٍّ أصليٍّ من هذا البلد، إن أوضح نتائج هذه الخديعة قد صاغها تُوماس كيمان في قوله: "إن الصهيونيين أوربيون، وليس هنالك مُطلقًا أيُّ رباط بَيولوجي، أو أنثروبولوجي بين أجداد اليهود في أوربا، وبين قدامى الأسباط العبرانيين"[2].

الصهيونية والأصل السامي لليهود

والأصل أن العبرانيين كانوا قبائلَ سامية، ضمْنَ قبائل أخرى، متبدية مُترحِّلة، من شبه الجزيرة العربية إلى العراق، وإلى سورية، وإلى فلسطين، وإلى مصر.

وقد استَمدت القصص الكتابية سَمْتَهَا من هذا المجتمع الأصلي، ومن هذا الخليط من الشعوب: فليس إبراهيم وحده هو الذي لم يكن عِبرانيًا، بل آراميًا (التثنية ٢٦:٥) [3] بل إن حِزْقِيال يقول عن أورشليم (٣) «وقل هكذا قال السيد الرب لأورشليم مخرجك ومولدك من أرض كنعان أبوك أموري وأمك حثية"». (حزقيال : ١٦).

---

(١) مكسيم رودنسون: شعب يهودي أم مشكلة يهودية ص:٢١٨ نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثاني، الفصل الثاني، مرجع سابق.

(٢) توماس كيمان «العرب» ص٢٥٣ نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثاني الفصل الثاني، مرجع سابق.

(٣) «٥ ثم تصرح وتقول أمام الرب إلهك أراميا تائهًا كان أبي فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة» (التثنية:٢٦).

وأبرز السمات في الصهيونية السياسية الراهنة، وفي استغلالها السياسي، لليهودية أنها تختار لهذا الاستغلال، من التقاليد اليهودية أبلاها وأقتلها، أبلاها، وهو"التقليد القبلَي"وأقتلها وهو "التعصُّب".

إن الرفْض الصهيوني للاندماج يعتمد على سُلَّم للقيم، ثبَّته الفريق الكهنوتي الذي حصَر التاريخ اليهودي في هذا المُخطَّط: العصر الذهبي هو عصر العُزْلة القبليَّة، مِن حيث هي نقاءٌ وطهارةٌ، والانحطاط هو الانفتاح على الآخرين، والحوار من أجل الخِصْب المتبادَل،"وتمثّل"كل ما هو سامٍ عند الآخرين.

ويؤكد علماء اللجنة اليهودية الأمريكية على عدم وجود جنس يهودي كما يدعي الصهاينة:"بالتأكيد فإن إسرائيل لا تمثل جنسا معينا، لأن اليهود يمكن أن يكونوا سودا أو بيضا ويمثلون صفات أجناسٍ مختلفِ الشعوبِ. وهي ليست ديانة فقط ولا هي مجرد ثقافة أو إثنية أو جنس، بل ربما خليط الكل ويمكن وصف الشعب الإسرائيلي بشكل أفضل كثقافة دينية كان لها وجود، ونمو، وتطور أكثر من ثلاثة آلاف سنة" (١)

وقد كان هرتزل معجباً بالنظرية العرْقية، ولكنه كان صديقاً لإسرائيل زانجويل الروائي الإنجليزي والزعيم الصهيوني اليهودي ذي الأنف الطويل والشبيه بأنوف الزنوج والشعر الكث الحالك السواد، وكانت نظرة واحدة إليه تكفي- على حدّ قول هرتزل نفسه- لدحض أي تصور عرْقي لليهود.

الشعوب السامية

السامية نسبة إلى سام الابن الأكبر لنوح. والمصطلح يُطلَق على مجموعة من الشعوب عاشت في رقعة كبيرة من الأرض (تضم شبه الجزيرة العربية والشام وبلاد الرافدين) وتحدثت بمجموعة من اللغات المتقاربة هي اللغات السامية. وتشمل التسمية شعوباً مثل الآشوريين والبابليين والآراميين والكنعانيين والفينيقيين والعموريين والمؤابيين والأدوميين والعمونيين والعبرانيين، كما تشمل جزءاً كبيراً من سكان إثيوبيا فيما بعد.

وفي الوقت الحاضر، يمثلهم العرب (من الناحية الأساسية). وينتمي

(١) الحاخام روبن فايرسذتون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين. وآخرون «ذرية إبراهيم" مرجع سابق ص١٠٠.

العبرانيون (أي اليهود القدامى) إلى الشعوب السامية وليس إلى مجموع اليهود بوجه عام، ذلك أن أعداداً كبيرة من الأفراد والقبائل غير السامية مثل الخزر قد تهوَّدت.

ويكاد يُجمع الباحثون على أن شبه جزيرة العرب هي الموطن الأصلي للساميين، فمنها خرجت هجرات متتالية إلى بلاد الرافدين حتى جبال إيران وإلى أرمينيا ومنطقة الهلال الخصيب. وكانت هجراتهم الجماعية على فترات متباعدة أولاها هجرة الأكاديين الذين عُرفوا بالبابليين نحو عام ٣٥٠٠ ق.م ثم هجرة الآراميين بين عامي ١٥٠٠ و١٢٠٠ ق.م وآخرها هجرة العرب مع الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

ويُعَدُّ العرب أكثر الجماعات السامية قرباً مما يمكن تسميته "الخطاب الحضاري السامي الأصلي". كما أن اللغة العربية أقرب اللغات الحية إلى السامية الأصلية. ومع هذا، ينصرف مصطلح "معاداة السامية" إلى اليهود دون سواهم.[١]

فالعرب إذن هم أصلُ الشعوب السامية وهذا ما أثبته المؤرخون القدامى والمحدثون.

قال ابن هشام: العرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان. وبعض أهل اليمن يقول: قحطان من ولد إسماعيل. ويقول: إسماعيل أبو العرب كلها.

قال ابن إسحاق: عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وثمود وجديس ابنا عابر بن إرم بن سام بن نوح، وطسم وعملاق وأميم بنو لاوذ بن سام بن نوح، عرب كلهم. فولد نابت بن إسماعيل: يشجب بن نابت، فولد يشجب: يعرب بن يشجب، فولد يعرب: تيرح بن يعرب، فولد تيرح: ناحور بن تيرح، فولد ناحور: مقوم بن ناحور، فولد مقوم: أدد بن مقوم، فولد أدد: عدنان بن أدد. فمن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.[٢]

(١) موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» عبد الوهاب المسيري م٤/ج١ «الساميون والشعوب السامية». مرجع سابق.

(٢)ابن هشام «السيرة النبوية» ١/١١٥ دار الجيل الطبعة الأولى بيروت.

أصل اليهود المعاصرين

نحن نطلق اليوم اسم اليهودي بشكل عام على كل شخص اعتنق يوما الدين اليهودي.. والواقع هو أن الكثيرين من هؤلاء ليسوا ساميين من حيث الأصل العِرْقي، ذلك أن عددا ضخما منهم منحدرون من سلالات الهيروديين أو الأيدوميين ذوي الدم التركي المنغولي.

شرعت الأعراق غير الساميَّة والتركية والفنلندية في القدوم إلى أوروبا، قادمة من آسيا منذ القرن الأول الميلادي، عبر الممر الأرضي الواقع شمالي بحر قزوين.. ويطلق علي هذه الشعوب الوثنية اسم "الخزر".. وقد استقروا في أقصي الشرق من أوروبا، حيث شكلوا مملكة الخزر القوية، ثم بسطوا سلطانهم شيئا فشيئا بواسطة الغزوات المتكررة، حتى سيطروا في نهاية القرن الثاني على معظم المناطق الواقعة في أوروبا الشرقية غربي جبال الأورال وشمالي البحر الأسود.

وقد اعتنق الخزر اليهودية آنئذ، مفضلين إياها علي المسيحية أو الإسلام، وبنوا الكنائس والمدارس لتعليم الدين اليهودي في سائر أنحاء مملكتهم.. وكان الخزر إبان ذروة قوتهم يجبون الجزية من خمسة وعشرين شعبا قهروهم.

وقد عاشت دولة الخزر ما يقارب الخمسمائة عام، حتى سقطت في نهاية القرن الثالث عشر في أيدي الروس الذين هاجموهم من الشمال.

وقد انتقلت الروح الثورية من الخزر اليهود إلى الإمبراطورية الروسية، واستمرت حتى الثورة الحمراء سنة: ١٩١٧.

إن غزو الخزر في القرن الثالث عشر يبيّن لنا أن الكثير من الناس الذين نطلق عليهم اسم اليهود قد بقوا في الواقع داخل الإمبراطورية الروسية[١]

وانتشر الخزر واستوطنوا المجر وهنغاريا وبولندا وأنحاء واسعة من أوروبا الشرقية ووسطها مصاحبين أو مستفيدين من التوسع التركي العثماني. ومن المؤكد أن الخزر لم يكونوا عرقا واحدا أو ينتمون إلى قبيلة معينة، ولكنهم تجمع سياسي وعسكري من الشعوب والقبائل، وكانت اليهودية التي تجمع دينيا بين

(١) وليم جاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» الفصل الثالث «اليهود».

قادتهم ونخبهم الحاكمة والمؤثرة، فكان اليهود الخزر ينتمون إلى أعراق وشعوب وقبائل متعددة، فقد كانوا هم أيضا تجمعا نخبويا يشمل قيادات ونخب الخزر أنفسهم ويغلب على الدراسات التاريخية أن تنسب يهود الإشكناز إلى الخزر، ولكن قد يكون أيضا كثير من الأشكناز من الأوروبيين الأصليين وليس فقط من الخزر، فالمعلومات والمصادر التاريخية المتاحة لا تكفي لتأكيد مقولة حصر انتساب الأشكناز إلى الخزر، ولكن المؤكد هو أنهم ليسوا من بني إسرائيل (١)

لا حق لليهود في استيطان أرض فلسطين

دأبت الصهيونية العالمية على مدى سنوات طويلة، على طمس حقيقة عروبة القدس، واختلاق الأكاذيب والادعاءات وتزوير الوثائق وتحريف النصوص بهدف طمس عروبة القدس، وطمس الوجود العربي في فلسطين.

ولقد نجحت آلة الضغط واللوبيات اليهودية والصهيونية العالمية في التأثير على مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة، حتى أصدر الكونغرس الأميركي قراره باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل، ضاربا عُرض الحائط بكل التراث التاريخي والقيم الإنسانية العقائدية للمسلمين وللمسيحيين أيضا في هذه المدينة العربية المقدسة.

إن القدس تستمد عروبتها من عروبة فلسطين نفسها، وتوراة اليهود تثبت ذلك إذ لم يكن هناك في التاريخ وجود حقيقي ومستقر ومتواصل لبني إسرائيل في فلسطين، فبنو إسرائيل في زمن يعقوب النبي ﷺ لم تكن تعيش في فلسطين، و سفر العدد من التوراة الذي يحدد عدد الخارجين من مصر في زمن النبي موسى ﷺ يدل على أن اليهود لم يكونوا مقيمين في فلسطين، بل خارجها، وبالتحديد في مصر قبل زمن الخروج، لم يكن لهم فيها صلة بفلسطين، كما أن نصوص التوراة لم تقل بأن اليهود خرجوا من مصر إلى أرض إسرائيل، بل إلى أرض فلسطين، وأن بهذه الأرض شعوبا أخرى ليس منها بنو إسرائيل.

وأن الفلسطينيين انتصروا على بني إسرائيل أكثر من مرة واستعبدوهم في

(١) لمزيد من التفصيل عن يهود الخزر راجع د.م. دنلوب «تاريخ يهود الخزر» دار قتيبة للنشر، دمشق.

عهد داود ﷺ، وان اليهود دخلوا في الشتات والتيه والتشرد لقرون طويلة قبل الميلاد ما بين مصر وبابل وآشور وغيرها، بينما بقي الفلسطينيون تاريخهم كله في فلسطين لم يخرجوا منها، وهو الأمر الذي تؤكد عليه التوراة، وينكره اليهود الصهاينة اليوم.

إن ظهور الإسلام أكد على الأصول العربية للشعوب السامية، وبفضل الإسلام عادت هذه الشعوب إلى حظيرة العروبة بعد دخولها في الإسلام، ووحد الإسلام الفكر واللغة لكل سكان الشرق الأدنى القديم، وعادت اللغة العربية لتحتل مكانتها القديمة حيث كانت أصلا لكل اللغات السامية قبل أن تستقل هذه اللغات عنها، وهكذا كانت فلسطين قبل الإسلام وبعده وحتى الآن عربية.

ومر الغزو الأجنبي لفلسطين بمراحل عديدة بداية بالغزو الآشوري والذي كان له بالغ الأثر على وجود الإسرائيليين وبنيتهم الاجتماعية في شمال فلسطين، وأدى إلى سبيهم وتشتتهم وإخلاء شمال فلسطين منهم تماما، ثم جاء بعد ذلك الغزو البابلي لفلسطين بقيادة نبوخذ نصر، وكان السبي البابلي الشهير لليهود إلى بلاد بابل وآشور، والذي كان بداية للشتات الطويل لليهود الذي استمر حتى عصرنا الحاضر، وجاء بعد الغزو البابلي الغزو الروماني والذي صحبه أكبر عمليات سبي وشتات لليهود أدت إلى تفرقهم في أماكن مختلفة من العالم، وقد وقع الغزو الروماني لفلسطين في القرن الأول للميلاد عام ٧٠ م، وراح ضحيته أكثر من مليون يهودي قتلوا في الحرب مع الرومان، وخرج باقي اليهود من فلسطين متوجهين شمالا وغربا إلى أوروبا، وفقدت فلسطين قيمتها تماما بعد ذلك بالنسبة لليهود.

إن فترة الوجود والاستقرار الوحيد في حياة الإسرائيليين في فلسطين هي فترة الدولة المتحدة التي نشأت في عصر شاؤول، وداود وسليمان عليهما السلام وتمتد من ١٠٣٠ إلى ٩٢٣ قبل الميلاد، أي نحو مائة عام تقريبا، وانقسمت الدولة بعد هذه الفترة إلى دولتين هما، إسرائيل الشمالية، ويهوذا الجنوبية، وسقطت الدولة الأولى على يد الآشوريين عام ٧٢١ ق. م، وسقطت الثانية عام ٥٨٦ ق . م على يد البابليين.

إن المدينة القديمة التي كانت تسمى يبوس تحولت إلى مدينة أورشاليم التي أنشأها العرب الكنعانيون القادمون من شبه الجزيرة العربية، وقد حكموها من عام ٢٠٠٠ وحتى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد، إن اسم «أورشاليم» هو اسم عربي وليس عبريا، وإن الكنعانيين أطلقوه على القدس نسبة إلى أحد الملوك الكنعانيين العرب واسمه ساليم، وان هذا كان قبل ظهور اللغة العبرية.

إن سفر القضاة في العهد القديم يؤكد على عروبة أورشليم، وأنها لم تشهد ملكا لبني إسرائيل حتى قيام مملكة شاؤول وداود وسليمان، وإن الفلسطينيين، حسب سفر القضاة، هم الذين كانت لهم السيادة على اليهود في هذه البلاد، حيث يؤكد العهد القديم على أن العرب الكنعانيين كانوا أصحاب حضارة بينما الإسرائيليون كانوا بدوا. إن عمليات تهويد القدس مستمرة من قِبَل الإسرائيليين، ومعالمها العربية والإسلامية تتساقط وتندثر تدريجيا، والقدس بالفعل أصبحت على وشك الضياع إن لم تكن قد ضاعت بالفعل، وتحتاج إلى معجزة لإنقاذها وإعادتها لهويتها العربية [(١)]

والعجيب أن توراة اليهود تذكر صراحة أن الفلسطينيين العرب هم أول من سكن وتملك أرض فلسطين.

" فَقَالَ الرَّبُّ: «قَدْ شَهِدْتُ مَذَلَّةَ شَعْبِي الَّذِي فِي مِصْرَ وَسَمِعْتُ صُرَاخَهُمْ مِنْ جَرَّاءِ عُتُوِّ مُسَخِّرِيهِمْ وَأَدْرَكْتُ مُعَانَاتَهُمْ، ٨فَنَزَلْتُ لأُنْقِذَهُمْ مِنْ يَدِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُخْرِجَهُمْ مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ إِلَى أَرْضٍ طَيِّبَةٍ رَحِيبَةٍ تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً، أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ. "(الخروج: ٣).

وأن إسحق رحل إلى مدينة جَرَار الفلسطينية الخاضعة لأبيمالك ملك الفلسطينيين للعيش في كنفه فاراً من الجوع الذي حل بأرضه "وَحَدَثَ فِي الأَرْضِ جُوعٌ غَيْرُ الْجُوعِ الأَوَّلِ الَّذِي كَانَ فِي أَيَّامِ إِبْرَاهِيمَ، فَارْتَحَلَ إِسْحقُ إِلَى مَدِينَةِ جَرَارَ حَيْثُ أَبِيمَالِكُ مَلِكُ الْفِلِسْطِينِيِّينَ»" (التكوين: ٢٦).

(١) «عروبة فلسطين والقدس في التاريخ» مركز زايد للتنسيق والمتابعة عرض ليلى يكن أبو ظبي.

فتوراة اليهود تنص على أن فلسطين كانت كنعانية قبل أن يرتحل إليها إسحق فارا من الجوع، وقبل أن يلجأ إليها بنو إسرائيل فارِّين من فرعون مصر، وبرغم هذا الاعتراف فإن توراة اليهود تذكر أن الرب قد وعد إسحق أن يعطيه أرض الفلسطينيين ملكا له وفاء لقسمه لإبراهيم أبيه"٢فَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ قَائِلاً: " «لاَ تَنْزِلْ إِلَى مِصْرَ. اسْكُنْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَقُولُ لَكَ. ٣تَغَرَّبْ فِي هذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنِّي لَكَ وَلِنَسْلِكَ أُعْطِي جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَأَفِي بِالْقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ " (التكوين: ٢٦).

لقد كان اليهود لا يشكلون إلا أقلية في المجتمعات التي يعيشون فيها حتى عندما كونوا مملكة يهودية فقد كانت مملكتهم صغيرة مقامة على جزء من أرض فلسطين التي كانت مكتظة بالعرب الكنعانيين، وهذا ما يؤكد علماء اليهود المعاصرون:"يشكل اليهود -منذ نحو ألفين سنة تقريبا- وعلى العموم، أقلية في الأماكن التي يعيشون فيها. وحتى في أرض إسرائيل في الأيام الغابرة التي كان فيها اليهود، بكل تأكيد، الأغلبية الساحقة لأن البلد كان صغيرا ومحاطا بعدد من الشعوب الأخرى غالبا أكبر من اليهود، وكلها وثنية[1]

إذن أحقية العرب في فلسطين ثابتة تاريخيا وتوراتيا فهم أصحاب الأرض الأصليين كما أنه لم يكن هناك في التاريخ وجود حقيقي ومستقر ومتواصل لبني إسرائيل في فلسطين، وإن الفلسطينيين العرب انتصروا على بني إسرائيل أكثر من مرة واستعبدوهم في عهد داود عليه السلام، وإن اليهود دخلوا في الشتات والتيه والتشرد لقرون طويلة قبل الميلاد ما بين مصر وبابل وآشور وغيرها، بينما بقي الفلسطينيون تاريخهم كله في فلسطين لم يخرجوا منها، وهو الأمر الذي أكد عليه كتاب العهد القديم، و ينكره اليهود الصهاينة الآن.

كما أن نصوص التوراة لم تقل بأن اليهود خرجوا من مصر إلى أرض إسرائيل، بل إلى أرض فلسطين، وأن بهذه الأرض شعوبا أخرى ليس منها اليهود

فاهو الرب يقول لموسى"١٦اذْهَبْ وَاجْمَعْ شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ الرَّبَّ إِلهَ

(١) الحاخام روين فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين. وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص١٠١.

آبَائِكُمْ، إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ وَيَعْقُوبَ قَدْ تَجَلَّى لِي قَائِلاً: إِنِّي حَقّاً قَدْ تَفَقَّدْتُكُمْ، وَشَهِدْتُ مَا أَصَابَكُمْ فِي مِصْرَ، ١٧وَهَا أَنَا قَدْ وَعَدْتُ أَنْ أُخْرِجَكُمْ مِنْ ضِيقَةِ مِصْرَ إِلَى أَرْضِ الْكَنْعَانِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْفِرِزِّيِّينَ وَالْحِوِّيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ، هَذِهِ الأَرْضِ الَّتِي تَفِيضُ لَبَناً وَعَسَلاً" (الخروج: ٣).

زواج بني إسرائيل بالأجانب

إن النهي عن الزواج من أجنبيات الذي بالَغ مؤلفو التوراة في إثبات تمسك العبرانيين به هو محض افتراء فقد نصت التوراة نفسها أنه لم يحدث أبدا ففي كل العصور كان هناك زواج من أجنبيات فأبناء يعقوب صهر"الأرامي لابان" ."التكوين (٢/٣١)، وهم أصول الأسباط الاثني عشر الذين كانوا أبناء امرأتيه:"ليئة وراحيل"وجاريتيه:"بلهة وزلفة" ، وسراياه . هؤلاء جميعًا لم يَحْتَرِموا هذه القاعدة، فيهوذا يتزوج كنعانية."التكوين، (٣٨/١-٥)" ، وإفرايم ومنسي هما ولدا يوسف، وهو زوج لمصرية،"التكوين (٤١/٤٥و٤٢/٤٨)" ، أما رجال سبط بنيامين الذين كان بنو إسرائيل يُقاطعونهم، وقد حلفوا لا يُعطونهم بناتهم نساء . فإنهم كثَّروا نسل سبطهم باختطاف أربعمائة فتاة عذارَى بقدْر ما عندهم من رجال محرومين في محلة شيلوه التي في أرض كنعان."القضاة (٢١/١٠- ٢٣)"بعد أن ضربوا السكَّان بحَدِّ السيف مع النساء والأطفال،"القضاة (٢١/١٠)"فلم يُبقُوا إلا على العذارَى،"القضاة (٢١/١٢)" .

ولقي موسى انتقادًا بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها"العدد (١٢/١)" ، وكان للملك داود جدة موآبية، هي راعوث،"راعوث (٤/٢٢)" ، وقد أنجب من زوجه الحثية بتشبُّع ابنة سليمان،"صموئيل الثاني (١١/٢٧)" .

واضح . إذن . بما قدمنا من سلوك رؤساء أسباط موسى وسِيَر الملوك، وكل ما يعكس التاريخ من تقاليد شفَهيَّة . أن الزواج المُختلَط، وانصهار الشعوب كان مُمارَسة دائمة.

وكون العبرانيين فرعًا من الهجرة الآرامية أمر يشهد له حتى ما يَجْهَر به

الإيمان اليهودي:"آراميا تائهًا كان أبي"."التثنية (٢٦/٥)"، وقد جعل سِفْر التكوين من"لابان الآرامي"عم يعقوب وحماه، "التكوين (١٥/٢٩)"وما بعدها".

كما يشهد النبي حزقيال، أوائل القرن السادس، على أن التلاقح الثقافي والعنصري كان أساس استمرار شخصية فلسطين، وأساسها هُويَّتها:"هكذا قال السيد الرب لأورشليم: مخرجك ومولدك من أرض كنعان، أبوكَ أموري، وأمك حثية""حزقيال (١٦/٣ و٤٥)".(١)

إن العبرانيين، منذ استقرارهم في كنعان قد اختلطوا بالدم وبالثقافة مع الشعوب المحلية، وذلك بشهادة الكتاب المقدس ذاته، كما سبق أن ذكرنا، فعندما كان عِزرا ونحميًا يُمليان القوانين الأولى لحماية الدم، كان هذا التهجين قد مضى عليه أكثر من خمسة قرون، يقول نِحميا في سفره (٣/٢٣-٢٥) مُحدِّدًا حالة اليهود يومئذ:"رأيت اليهود الذين ساكنوا نساء أشدوديات وعَمُّونيات ومُؤابيات، ونصف كلام بَنِيهِمْ باللسان الأشدودي".

إن توراة اليهود تصرح بأن بني إسرائيل لم يحافظوا على نقاء عرقهم بل اختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى وتزوجوا بناتهم وزوجوهم. وأن الزواج من الأغيار شمل معظم أنبياء بني إسرائيل.

فقد تزوج إبراهيم بهاجر المصرية"أَخَذَتْ سَارَايُ جَارِيَتَهَا الْمِصْرِيَّةَ هَاجَرَ وَأَعْطَتْهَا لِرَجُلِهَا أَبْرَامَ لِتَكُونَ زَوْجَةً لَهُ" ، (التكوين: ١٦).

" وتزوج عيسو بكر إسحق وأخو يعقوب بزوجتين حيثيتين . قَالَتْ رِفْقَةُ لإِسْحقَ: «قَدْ كَرِهْتُ حَيَاتِي مِنْ جَرَّاءِ الْبَنَاتِ الْحِثِّيَّاتِ، فَإِنْ تَزَوَّجَ يَعْقُوبُ مِنَ الْحِثِّيَّاتِ بَنَاتِ هذِهِ الأَرْضِ الْمُمَاثِلاتِ لِزَوْجَتَيْ عِيسُو، فَإِنَّ مَوْتِي خَيْرٌ مِنْ حَيَاتِي" ، (التكوين: ٢٧).

وتزوج يوسف من ابنة كاهن مصري وأنجب منها ولدين.

" وَدَعَا فِرْعَوْنُ اسْمَ يُوسُفَ صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ، وَزَوَّجَهُ مِنْ أَسْنَاتَ بِنْتِ فُوطِي فَارَعَ

(١) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الأول: تاريخ أرض، الفصل الأول: الحضارة الكنعانية. مرجع سابق.

كَاهِنِ أُونَ، فَذَاعَ اسْمُ يُوسُفَ فِي جَمِيعِ أَرْجَاءِ مِصْرَ. ٥٠وَأَنْجَبَتْ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنِ أُونَ لِيُوسُفَ ابْنَيْنِ قَبْلَ حُلُولِ سَنَوَاتِ الْجُوعِ" (التكوين: ٤١)

وبارك إسرائيل (يعقوب) ابني يوسف من السيدة المصرية واعتبرهما من نسله الذي يرث الأرض الموعودة بل يُعِدُّ ابني يوسف من أسنات المصرية المثل الأعلى لبني إسرائيل يدعون الله لكي يصيروا مباركين كابني يوسف.

" وَأَبْصَرَ إِسْرَائِيلُ ابْنَيْ يُوسُفَ فَسَأَلَ: «مَنْ هَذَانِ؟» ٩فَأَجَابَهُ يُوسُفُ: «هُمَا ابْنَايَ اللَّذَانِ رَزَقَنِي إِيَّاهُمَا اللهُ هُنَا». فَقَالَ: «أَدْنِهِمَا مِنِّي فَأُبَارِكَهُمَا». .. وَبَارَكَ يُوسُفَ قَائِلاً: «إِنَّ اللهَ الَّذِي سَلَكَ أَمَامَهُ أَبَوَايَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْحقُ، اللهَ الَّذِي رَعَانِي مُنْذُ وُجُودِي إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، ١٦الْمَلاَكَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ، يُبَارِكُ الْغُلاَمَيْنِ، وَلْيُدْعَ عَلَيْهِمَا اسْمِي وَاسْمَا أَبَوَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ، وَلْيَكْثُرَا كَثِيراً فِي الأَرْضِ».... ٢٠وَبَارَكَهُمَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَائِلاً: «بِكَ يُبَارِكُ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَائِلِينَ: «لِيَجْعَلْكَ اللهُ مِثْلَ أَفْرَايِمَ وَمِثْلَ مَنَسَّى.» (التكوين: ٤٨).

وتوراة اليهود تصرح أن يعقوب قد أعطى يوسف وذريته من زوجته المصرية سهما زيادة على إخوته في أرض الميعاد.

" ثُمَّ قَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: «إِنَّنِي مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ وَلَكِنَّ اللهَ سَيَكُونُ مَعَكُمْ وَيَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ. ٢٢وَهَا أَنَا قَدْ وَهَبْتُ لَكَ مِنَ الأَرْضِ سَهْماً وَاحِداً عَلاَوَةً عَلَى إِخْوَتِكَ، أَخَذْتُهُ مِنَ الأَمُورِيِّينَ بِسَيْفِي وَقَوْسِي.» (التكوين: ٤٨)

والسؤال هنا هل تُعَدُّ الأُمَّة العظيمة التي من نسل منسى، وجمهور الأمم التي من نسل أفرايم من بني إسرائيل، عِلْماً بأن أمهما مصرية لم تكن تَمُتُّ لبني إسرائيل بأية صلة قبل أن يتزوجها يوسف الصديق ؟

فإن كانت الإجابة بنعم كما تصرح التوراة بذلك فالمصريون إذن يكونون شركاء لليهود في العهود الإلهية بتملك الأرض المقدسة، والخلاص في آخر الزمان.

وإن كانت الإجابة بـ لا. حسب القانون اليهودي بأنه لا يُعَد يهوديا إلا من كانت أمه يهودية فإن على اليهود أن يتتبعوا ذرية يوسف إن استطاعوا

ويخرجوهم من إسرائيل فهم ليسوا من شعب الله المختار، ولا يستحقون العهود الإلهية!!

كذلك عليهم أن يفعلوا الشيء نفسه مع ذرية موسى فيتتبعون ذريته من ابنة كاهن مديان صفُّورة. فقد تزوج موسى من ابنة كاهن مِديان"صفُّورة"وأنجب منها"وقَبِل موسى أن يقيم مع الرجل (كاهن مِديان) الذي زوجه من ابنته صَفُّورة. فأنجبت له ابنا دعاه جِرشوم (ومعناه غَريب) إذ قال"كنت نزيلاً في أرض غريبة"، (الخروج:٢) .

" كانت قصة موسى الذي تزوج بنت كاهن عربي حكيم من مدين يسمى يثرو هي الاستثناء المهم في هذا الاتصال القليل نسبيا بين المجموعتين"[1].

كذلك عليهم أن يتتبعوا ذرية سليمان من زوجته المصرية ابنة فرعون مصر"تزوج سليمان ابنة فرعون ملك مصر وأحضرها إلى مدينة داود"،(ملوك الأول: ٣).

وأن يتتبعوا ذرية ملك مصر شيشنق الأول الذي تزوج ابنة سليمان"تزوج ملك مصر الليبي (شيشنق الأول)، من الأسرة الثانية والعشرين الليبية (٩٤٥ ـ ٧٤٥ ق.م)، ابنة سليمان".

وكذلك عليهم أيضا أن يتتبعوا ذرية سليمان من زوجاته الألف الأجنبيات"أولع سليمان بنساء غَريبات كثيرات، فضلا عن ابنة فرعون، فتزوج نساء موآبيات، وعمونيات، وأدوميات وصيدونيات وحثيات وكلهن من بنات الأمم التي نهى الرب بني إسرائيل عن الزواج منهم قائلا لهم"لا تتزوجوا منهم ولا هم منكم، لأنهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم"ولكن سليمان التصق بهن لفرط محبته لهن فكانت له سبعمائة زوجة، وثلاثمائة محظية" (ملوك أول: ١١).

كذلك عليهم أن يتتبعوا ذراري بني إسرائيل من أزواجهم وزوجاتهم الأجانب.

" وأقام بنو إسرائيل بين الكنعانيين والأَمُوريين والفِرِزِّيِّين والحِوِّيِّين

---

(١) الحاخام رون فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جميز أ. رودين. وآخرون «ذرية إبراهيم «مرجع سابق ص ٦٨.

واليَبُوسيين. وتزوجوا من بناتهم، وزوَّجوا بناتهم لأبنائهم وعبدوا آلهتهم" (القضاة:٣).

والحقيقة التي تؤكدها توراة اليهود أن التزوج من الأجنبيات لم يكن أمراً مُحرَّماً في معظم تاريخ بني إسرائيل بل أنه كان هو القاعدة.

ولقد بقي الزواج المُختلط كثيرًا في يهود الشتات كما تشهد بذلك جهود المجامع لإيقاف تيَّاره، فكان الخطر الذي أصدره مَجمع تُوليد"عام: ٥٨٩م"، والذي أصدره مجمع روما"عام: ٧٤٣م"والذي أصدره مجمع لتران، عام"١١٢٣، ١١٣٩م".

ولا ريب أن سياسة المُجتمعات المُغلقة - الجيتو". قد بطأت هذه الحركة، ولكنه بمُجرد أن سقطت الحوائط في أوربا الغربية، فإن معدل الاختلاط لم يكفَّ عن الارتفاع، في ألمانيا، ما بين عامي:"١٩٢١ و١٩٢٥"كان هناك من بين كل مائة زواج يهودي اثنتان وأربعون زيجة مختلطة [1]

ومن الظواهر الأخرى التي أدَّت إلى تَناقُص أعداد اليهود الزيجات المُختلَطة. فبعد الحرب العالمية الأولى، كان نحو ٥٠٪ من الزيجات اليهودية في ألمانيا (عام ١٩١٥) زيجات مُختلَطة زادت إلى ٦٠٪ في عام ,١٩٣٢ وفي عام: ١٩٢٦ عقدت في برلين ٥٥٤ زيجة مختلطة.

وفي كوبنهاجن، وصلت نسبة الزيجات المُختلَطة إلى نحو ٨٦٪ في الفترة بين عامي ١٨٨٠ و, ١٩٠٥ وفي أمستردام، وصلت النسبة إلى نحو ٧٠٪ (١٩٣٠). ومن المعروف أن معدلات الاندماج المرتفعة تؤدي إلى تَزايُد الزواج المُختلَط. وفي نهاية القرن التاسع عشر، كانت عملية الاندماج في أوربا تأخذ شكل التنصُّر. وكانت نسبة التنصُّر تتفاوت من بلد إلى آخر، ووصلت إلى حدِّها الأقصى في ألمانيا حيث حقق اليهود أعلى معدلات الاندماج، وهو ما أدَّى إلى انصهارهم[2].

(١) ج. كومارس «مسألة الجنس في العلم الحديث» اليونسكو، باريس ١٩٥٨ص ٣١ نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية «مرجع سابق».

(٢) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية «م٢ ج٢ الباب الخامس «إشكالية التعداد»، مرجع سابق.

وفي الولايات المتحدة لاحظت مجلة التايم - في العاشر من مارس ١٩٧٥ - أن اليهود الأمريكيين يَميلون إلى أن يتزوجوا مِن خارج مجتمعهم، فكان حوالي ثلث الزيجات مُختلطة .

فرية البقاء والاستمرار اليهوديين

ليس الزواج المختلط فقط هو الذي أفسد الجنس اليهودي بل ذوبان اليهود عبر التاريخ في الشعوب الأخرى واعتناقهم لدياناتهم ومعتقداتهم، وكذلك تهوُّد كثير من هذه الشعوب كل ذلك قضى على أسطورة بقاء واستمرار الجنس اليهودي.

فحوالي ثلاثة أرباع اليهود الذين كانوا يعيشون في المملكة العبرانية التي أسسها داود وسليمان قد فُقِدوا وذابوا في شعوب أخرى فمن المعروف تاريخيّاً أنه بعد انقسام المملكة العبرانية المتحدة إلى مملكتين متنازعتين (المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية)، انقسمت القبائل العبرانية الاثنتا عشرة إلى قسمين: عشر قبائل منها في المملكة الشمالية التي بلغ تعدادها ٨٠٠ ألف نسمة، وقبيلتا يهودا وبنيامين في المملكة الجنوبية التي بلغ تعدادها ٣٠٠ ألف. وحينما سقطت المملكة الشمالية في أيدي الآشوريين عام ٧٢١ ق.م، هجَّر الآشوريون سكانها إلى آشور، ولم يبق أحد في المملكة الشمالية إذ أن اليهود الذين هُجِّروا إلى آشور انصهروا وذابوا في سكانها، أما من تَبقَّوْا فقد انصهروا في السكان المحليين أو فقدوا هويتهم العبرانية حيث اندمجوا في المجتمع وانصهروا فيه بالانخراط في سلك الديانات الوثنية العديدة، وقد تمت هذه العملية بسرعة غير عادية. ولهذا، فإن يهود بابل الذين هجَّرهم البابليون عام ٥٨٧ ق.م إلى مناطق قريبة من مناطق التهجير الآشوري لا يشيرون إلى ذلك التهجير الآشوري مع أنه لم يكن قد مر سوى نحو مائة وثلاثين عاماً فقط. ولعل سرعة ذوبان المهجَّرين يعود إلى أن المملكة الشمالية كانت قد عقدت تحالفات كثيرة فدخلت على العبادة اليهودية فيها عناصر وثنية من الديانات المجاورة[١].

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٤ ج١ الباب الخامس عشر التهجير الآشوري والبابلي، مرجع سابق.

واليهود يعترفون أن معظم قبائلهم قد ضاعت"قضت الإمبراطورية الأشورية على المملكة الشمالية وسكانها ولم ينج من بطشها إلا المملكة الجنوبية وسكانها اليهود. ومنذ ذلك الوقت أصبح الناس يعرفون باليهود؛ ومنها جاءت الكلمة الإنجليزية المعروفة"كزين"ولكن، بالرغم من ضياع معظم القبائل، فإن التقليد اليهودي يميل حتى يومنا هذا، إلى تسمية الشعب اليهودي بإسرائيل(١).

فأين الـ ٨٠٠ ألف يهودي الذي ذابوا في بلاد آشور وقد كانوا يمثلون نحو ثلاثة أرباع اليهود آنذاك ؟

كما أن سكان المملكة الجنوبية الذين بلغ عددهم عند اقتسام المملكة العبرية المتحدة ٣٠٠ ألف نسمة، لم يبق منهم في المملكة الجنوبية إلا ١٥٠ ألفاً بعد السبي البابلي عام ٥٦٨ ق.م، ولم يعد من سبي بابل -بعد عفو قورش- سوى ٦٠-٧٠ ألفًا فقط وفَضَّل اليهود الباقون البقاء في بابل.

" دام السبي الإجباري في بابل قرابة خمسين عاما. وبدخول سنة ٥٣٩ ق.م هزم قورش ملك فارس البابليين. وسمح بعودة الراغبين من اليهود إلى أرض إسرائيل (كتاب عزرا ٢.١). عاد عشرات الآلاف في السنة التالية، لكن كثيرين آخرين اختاروا البقاء في بابل"(٢).

وقد شهد المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيف بأن اليهود فيما وراء الفرات كانوا"لا يُحْصَوْن عدَدًا ".

إن عدد سكان مقاطعة يهودا لم يتجاوز فيما بعد مرسوم قورش ما بين ٦٠و٧٠ ألفَ نسمة فقط. فأين باقي اليهود الذين كان عددهم إبان مملكة داود مليون وثمانمائة ألف نسمة!!

ومن الصعب أن نتصور أن بِضْع عشرات مِن ألوف الأشراف المَنفيين، والذين عاد عددٌ غير قليل منهم إلى فلسطين بعد عفْو قورش. كان مِن المُمكن أن يُوجدوا

(١) الحاخام روبن فايرستون ود. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق صـ١٧.

(٢) نفسه ص ١٨٢.

مجتمعًا بهذا القدْر من الأهمية، إلا أن يكون ذلك عن طريق تحوُّل عدد كبير من الناس إلى اليهودية.

ففي شمالي آشور القديمة اعْتنق ملك الأبيادين اليهوديةَ وتبَعه عددٌ كبير من أتباعه.

ولقد فَرضت الأسرة العصومية"مِن ١٣٥ ـ ٦٣ ق. م"خلال غزواتها ـ اليهودية على اَلسُكَّان المهزومين، وبخاصة الأُدوميون، الذين دخلوا بالإيمان في الأسرة اليهودية، ولقد بان أنهم مُخلصون، شَديدُو الإخلاص، حتى إنهم قدَّموا إلى إسرائيل آخر مُلوكها الكبار، ولعِبوا دورًا من الدرجة الأولى في الحرب ضد الرومان.

وخلال القرون الثلاثة الأولَى من المسيحية، وقبل أن تُصبح الكنيسة في نيقية مُضطهدة لليهود بالهرْطقة ـ حقَّق التبشير اليهودي نجاحًا كبيرًا، وقد كتَب فيلون اليهودي يقول:"إن أعرافنا تَكسب، وتَجذب إليها البرابرة والهلينيين، القارة والجُزر، الشرق والغرب، أوربا وآسيا، والأرض كلها مِن طرفٍ إلى آخر"[1].

ولقد تتابعت هذه الحركة من التحول إلى اليهودية في المقاطعات التي خلَتْ مِن رقابة الكنيسة الرومانية، وفي مطلع القرن السادس الميلادي كان ملك اليمن ذو نواس، وجزء كبير من الشعب العربي، قد تحوَّلوا إلى اليهودية.

وفي القرن السابع، كان شعب الخَزر، ذو الأصل التركي والروسي والماجيار، قد أنشأ مملكةً كبيرة على أرض أُوكرانيا الحالية، وحوالي عام ٧٤٠ اعتنق ملك الخزر بولان اليهودية؛ لأنه لم يكن يريد أن يتبع البيزنطيين النصارى، ولا الفرس المسلمين، وقد استهوَى معه قسْمًا كبيرًا من شعبه، يبلغ الثلث إذا ما استرشدنا بتكوين المحكمة العليا للمملكة، حيث كان يجلس فيها يَهوديانِ، ونصرانيان، ومسلمانِ، ومشرك واحد.

ومنذ القرن الحادي عشر، حتى الثالث عشر تشتَّتت هذه المَملكة تحت

(١) برنارد لازار «معاداة السامية» باريس ١٩٨٢ ص٢٧، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

هجَمات الروس والبيزنطيين، ولا سيَّمَا هجمات جنكيزخان، وبذلك طورد الخزر إلى بولندا، والمَجر، والترنسلفانيا، مع مُشاركيهم في الدين الذين قدِموا من ألمانيا والبَلْقان، فشكَّلوا المجتمعات اليهودية، الكبرى، في أوربا الوُسطى الشرقية.

والنتيجة بسيطة، لقد استهل روفائيل بتاي مقاله عن اليهود في دائرة المعارف البريطانية بهذه العبارة الثمينة:"لقد ثبت مِن كشوف الأنتروبولوجيا الفيزيقية أنه لا يُوجَد جنس يَهوديٌّ، خلافًا للفكرة الشائعة»[1]. ثم أشار، وهو يُلخِّص البحوث التي أُجريت على الفصائل الدموية إلى أن "مجموعات اليهودية تحمل في دمائها اختلافات ذات اعتبار فيما بينها، كما تحمل تَشابُهًا مُذهلاً مع غير اليهود في نفس البلد، ولمَّا رجع إلى السلم البيوكيمائي الذي وضعه هيرتزفيلد ذكر أن مؤشرات الدم على طرفي السلَّم بين يهودي ألماني، وألماني يهودي تُظهر أن الفرْق طفيف: فهو ٢,٧٤ بالنسبة إلى فريق، و٢,٦٣ بالنسبة إلى الآخر، وكذلك الأمر بَيْن يهودي تركي، وتركي غير يهودي: ٠,٩٧، بالنسبة إلى فريق، و ٠,٩٩، بالنسبة إلى فريق آخر، فالمعامل يتراوح إذنْ بين (٤,٢٪) بين اليهود ومواطنيهم في بلدهم الخاص، على حين أنه يَختلف من ٣٠٠٪ بين اليهود مِن بُلدان مُختلفة، وتركيب الدم بصفة عامة قريب إلى درجة التماثُل بين اليهود وغير اليهود في البلد الواحد: ١,٥٤ بالنسبة إلى اليهود الرومانيين، ١,٥٣ بالنسبة إلى غير اليهود، وهو في مراكش ١,٦٣ بالنسبة إلى الجميع[2].

ويذكر الكاتب الفرنسي المعروف"روجيه بيريفيت"في كتابه"اليهود"اعدادا ضخمة من اليهود الذين تنصروا من أواخر العصور الوسطى إلى عام ١٩٦٨(تاريخ تأليف كتابه: اليهود) وعماد علمه هو القوائم التي كانت الكنائس تصدرها بأسماء اليهود المتنصرين، وكتب أخرى صدرت في أوربا كثيرة وهي قوائم بأسماء اليهود المتنصرين في كل بلد ومن أشهر هذه الكتب -أو أدلة اليهود

---

(١) دائرة المعارف البريطانية ج٢ ص١٠٥٤، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

(٢) رفائيل بتاي دائرة المعارف البريطانية ج٢ ص٢٠٥٤، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

المتنصرين - هو الدليل المعروف بالسيمي جو، وهو دليل بأسماء اليهود والمتنصرين نشر في مدينة جوتا في ألمانيا في القرن السادس عشر، ولو صدقنا ما يقوله"روجيه بيريفيت"في كتابه"اليهود"فإن تسعين في المائة من الفرنسيين يرجعون إلى أصول يهودية[1].

وعليه فإن كثيرا من غير اليهود قد تهوَّدوا، وأصبحوا يشكلون نسبة كبيرة من اليهود، وهذا ما يؤكده العلماء اليهود:"لدينا العلم بأن بعض اليهود قاموا بالدعوة إلى الدين منذ العهود الإغريقية الرومانية - على الأقل - وقد تهود عدد كبير من الوثنيين الإغريق والرومان، لكنه يبدو أن آخرين من الأمة اليهودية لم يدعموا هذه الدعوة، وبالفعل قد طورت جماعات مختلفة من اليهود مواقف مختلفة تجاه التقاليد الدينية التي رأوها حولهم تتراوح بين عدم الانحياز إلى الإدانة"[2].

كما أن هناك عددا كبيرا من اليهود قد تنصر أو أسلم، " إن معظم المسيحيين والزاردشتيين واليهود الذين كانوا رعايا الإمبراطوريات الإسلامية اعتنقوا الإسلام خلال القرون القليلة الأولى بعد الفتح."[3].

ودونك أهم حالات تنصر، وإسلام اليهود كما ذكرها علماء اليهود:

" سنة ٦١٣م يأمر سبسبوت ملك القوط المسيحي في أسبانيا أن يتحوَّل اليهود إلى المسيحية أو المغادرة. يترك بعضهم، ويتحوَّل آخرون، ويظل غيرهم يهوديا في السر" [4].

" سنة ٨٧٣م يجبر باسل الإمبراطور البيزنطي عددا كبيرا من اليهود على اعتناق المسيحية"[5].

---

(١) د. حسين مؤنس «كيف نفهم اليهود» دار المعارف ص٢٣.

(٢) الحاخام روبن فايرستون ود. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ١٠٢.

(٣) نفسه ص ٣٩.

(٤) نفسه ص ١٨٢.

(٥) نفسه ص ١٨٣.

" سنة ١٦٢٢م يُجْبر يهود مدينة مشهد في إيران على اعتناق الإسلام ويعرفون بالمسلمين الجدد"(١).

" سنة ١٨٢٤م يُعَمَّد كارل ماركس في سن السادسة. لقد قام أبوه بتعميد أسرته وإدخالها في المسيحية لأنه لا يستطيع ممارسة مهنة المحاماة في بروسيا (ألمانيا)(٢).

كما أن اليهود الإسرائيليين على اختلاف جنسياتهم وأعراقهم - لا يؤمنون بالشريعة اليهودية كما جاءت في التوراة فنسبة ٨٥٪ منهم علمانيون لا دينيون"فَحَسَب إحصاءات الحكومة الإسرائيلية فإن ١٥٪ فقط من الإسرائيليين متدينون"(٣). وحتى القلة الإسرائيلية المتدينة فإن معظمهم لا يؤمن بكل تعاليم التوراة إنما يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ذلك لأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة .

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾، (البقرة: ٨٥).

يؤمنون بأنهم أول الموحدين، ويكفرون بتوحيد الأمم السابقة عليهم كما نصت التوراة. يؤمنون باختيار الرب لهم ويكفرون بتجلي الرب لشعوب أخرى غيرهم. يؤمنون بعهد الرب لهم بتملكهم أرض كنعان، ويكفرون بتحقق هذا العهد أيام يشوع بنص التوراة. يؤمنون بعهد الرب لهم بالخلاص من السبي البابلي والآشوري والعودة إلى أرض الميعاد، ويكفرون بنصوص التوراة التي تؤكد على تحقق هذا الخلاص وحدوث العودة إبان قورش الأكبر. يؤمنون بحرص اليهود على عدم الزواج المختلط، ويكفرون بنصوص التوراة التي أكدت على الزواج المختلط..

إذن فالزعم بأن يهود اليوم يمثلون تجانسًا على مستوى العالم،وأن هناك

(١) نفسه ص ١٨٩.

(٢) نفسه ص ١٩١.

(٣) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٢٨٦.

استمرارية تاريخية وثقافية بل عرْقية لليهود على مدار تاريخهم كله زعم باطل ولا أساس له من الصحة، والتاريخ الإنساني يشهد بكذب هذا الادعاء المفترى وإليك هذه الحقائق التي تؤكد كذب هذه الأسطورة:

١- إذا كان عدد اليهود في القرن الأول الميلادي يصل إلى ما يقرب من سبعة ملايين، فإن عددهم في القرن السابع الميلادي لم يتجاوز المليون الواحد فأين الستةُ ملايين يهودي الباقون في عالم اليوم؟!

٢- بعد موت سليمان انقسمت دولة إسرائيل إلى مملكتين: شمالية، وجنوبية، ولقد اختفت المملكة الشمالية إلى الأبد باستيلاء (شلمانصر الخامس) ملك أشور عليها وترحيل زعمائها ورؤوس قبائلها إلى آشور وميديا (شرقي العراق) وإحلال آراميين (من سوريا) وبابليين محلهم بحسب المدونات الآشورية (٧٢١ ق.م). وهذا ما يُسمَّى «السبي الآشوري» الذي اختفت على أثره القبائل اليهودية العشر «المفقودة»[١].

وتوراة اليهود تصرح بسبي بني إسرائيل إلى آشور، وتوطين أقوامٍ من بابل وكورث وعوًّا وحماة وسفروايم في مدن فلسطين.

"فاحتدم غضب الرب على إسرائيل، وطرهم من حضرته، ولم يبق سوى سبط يهوذا. ولكن حتى سبط يهوذا لم يحفظ وصايا الرب إلهه بل نهج في طُرُق إسرائيل التي سلكتها. فنبذ الرب كل ذرية إسرائيل وأذلهم وأسلمهم ليد آسريهم وطرهم من حضرته. . فَسُبِيَ الإسرائيليون من أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم. ونقل ملك أشور أقواما من بابل وكوث وعوًّا وحماة وسفروايم، وأسكنهم مدن السامرة محل بني إسرائيل، فاستولوا على السامرة وأقاموا في مدنها"، (ملوك الثاني:١٧).

وعندما اقتحم نبوختنصر المملكة الجنوبية ساق اليهود أسرى إلى بابل. وبهذا فإن الوجود العبراني قد انتهى حينما وقفت المملكة الجنوبية في وجه القوة البابلية العظمى وتم القضاء عليها وتشتيتها.

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهودي واليهودية والصهيونية» م٤ ج٣ «الآشوريين»، مرجع سابق.

وتوراة اليهود نفسها تعترف بهذا "يقول الرب إله إسرائيل: "ها أنا أجلب شراً على أورشليم ويهوذا فَتَطِنُّ أُذنا كل من يسمع به. وسأوقع على أورشليم العِقاب الذي أوقعته بالسامرة وبأخآب ونسله. وامسح أورشليم من الوجود كما يمسح الطبق من بقايا الطعام ثم يقلب على وجهه ليجف. وانبذ بقية شعبي وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم فيصبحوا غنيمة وأسرى لهم، لأنهم ارتكبوا الشر في عينيَّ وأثاروا غضبي منذ خروج آبائهم من مصر إلى هذا اليوم. وزاد منسى فسفك دم أبرياء كثيرين حتى ملأ أورشليم من قصاها إلى أقصاها"، (ملوك الثاني: ٢١).

وتوراة اليهود تعترف بخلو أرض كنعان من اليهود تماما.

"وهكذا سبي شعب يهوذا من أرضه أما بقية الشعب الذين تركهم نبوخذناصر ملك بابل في أرض يهوذا.. فهب جميع الشعب، صغيرهم وكبيرهم، ورؤساء الجيوش، وهربوا إلى مصر خوفا من انتقام الكلدانيين"، (ملوك الثاني: ٢٥)

٣- وعندما أعاد قورش كثيرا من المسبيين إلى فلسطين مرة ثانية كان هؤلاء العائدون قد نسوا العبرية - المصدر الأساسي لهويتهم الدينية - كما كانوا قد تأثروا تأثراً عميقاً بالتراث الديني في بابل. وتغيرت الهوية لليهود من هوية ذات طابع ديني قومي تعبِّر عن نفسها من خلال الدولة إلى هوية دينية ثقافية تعبِّر عن نفسها من خلال مؤسسات مختلفة خاضعة للقوة الإمبراطورية.

٤- إن معظم اليهود المعاصرين إنما هم من يهود الخزر الذين ينتمون إلى أعراق وشعوب وقبائل متعددة، ويغلب على الدراسات التاريخية أن تنسب يهود الإشكناز إلى الخزر، ولكن قد يكون أيضا كثير من الإشكناز من الأوروبيين الأصليين وليس فقط من الخزر، فالمعلومات والمصادر التاريخية المتاحة لا تكفي لتأكيد مقولة حصر انتساب الأشكناز إلى الخزر ولكن المؤكد هو أنهم ليسوا من بني إسرائيل[1].

---

(١) لمزيد من التفصيل عن يهود الخزر راجع د.م دنلوب «تاريخ يهود الخزر» دار قتيبة للنشر، دمشق.

وعليه فإننا نقول مطمئنين:

١- لا يوجد يهودي خالصٌ ولا يهودي عالميٌّ بل هناك يهود أمريكيون ويهود صينيون ويهود عرب. ..

٢- أن هناك تَنوُّعا هائلا بين أعضاء الجماعات اليهودية على المستوى العِرْقي، فهناك يهود بيض، ويهود سود، ويهود صفر، وتختلف أحجام الرأس باختلاف انتماء اليهودي كما يظهر الاختلاف والتباين على المستوى الثقافي وهكذا.

٣- أن كلمة «يهودية» التي كانت تشير إلى نسق ديني يتسم بحد أدنى من الوحدة أصبحت تشير إلى عدد هائل من الحركات الدينية التي لا يربطها رابط.

كل هذا يجعلنا نقول مطمئنين: إن يهود اليوم لا علاقة لهم عرقيا ببني إسرائيل أو الذين تحدثت عنهم التوراة لكن اليهود الصهاينة يفترضون ما يسمونه الاستمرار اليهودي، ليكملوا دجلهم الديني والسياسي.

وحتى لو كان البقاء اليهودي معجزة وحقيقة -فرضا- فهو لا يعطي صاحبه أية حقوق. فبقاء اليهود لا يعطي يهود العالم أية حقوق في الاستيطان في فلسطين، حتى إن أرادوا ذلك وأصروا عليه أو شعروا بحاجة نفسية جامحة إليه.

ولو أن كل شعب سكن في بلد ما في زمن ما طالب بأحقيته في هذا البلد لاشتعلت الحروب في كل بلاد العالم.

لقد لجَأ القادة الصهيونيون الإسرائيليون إلى هذه الأساطير كيْمَا يُخفوا غزوتهم الاستعمارية تحت قناع "عودة" اليهود، الذين ليْس لأغلبيتهم الساحقة أيُّ جَدٍّ أصليٍّ من هذا البلد، إن أوضح نتائج هذه الخديعة قد صاغها تُوماس كيمان في قوله: "إن الصهيونيين أوربيون، وليس هنالك مُطلقًا أيُّ رباط بَيولوجي، أو أنثروبولوجي بين أجداد اليهود في أوربا، وبين قدامى الأسباط العبرانيين"[1].

---

(١) توماس كيمان «العرب» ط لستيل بروان اندسي «بوسطون ١٩٧٥ ص ٢٥٣، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

والرجاء ممن يردد أساطير اليهود أن يقرأ أولا توراتهم فهي تُكَذِّب هذه المزاعم، فإن أصر على هذه المزاعم فعليه أن يعترف بتحريف التوراة، ووجب عليه أن يثبت لنا بالدليل القاطع بان هذه المزاعم ليست من النصوص المحرفة!!

الاستمرار اليهودي من منظور إسلامي:

إن كلمة «يهودي» ليست الكلمة الوحيدة التي تدل على اليهود في القرآن الكريم، فقد وردت عدة مصطلحات أخرى: بني إسرائيل (٤١ مرة)، واليهود (٨مرات)، وهود (٣ مرات)، والذين هادوا (٩ مرات)، وأوتوا الكتاب (١٢مرة)، وأهل الكتاب (٣١ مرة).

ومن الواضح أن القرآن الكريم لا يفترض وجود استمرارية بين يهود العالم، ولذا وردت هذه المصطلحات غير المترادفة ليعبِّر كل مصطلح عن وضع زماني ومكاني مختلف. فالقرآن يُفرِّق تفرقة واضحة بين اليهود الذين عاشوا في الجزيرة العربية وتعامل المسلمون معهم في فترة البعثة المحمدية من جهة وبين بني إسرائيل من جهة أخرى.

فمصطلح «بني إسرائيل» جاء مخصصاً للحديث عن يهود عصر موسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل، ولم يُستخدَم هذا اللفظ تخصيصاً ليهود عصر البعثة المحمدية إلا في موضعين (من المواضع الأحد والأربعين) وهما:

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، (البقرة: ٢١١).

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، (النمل:٧٦).

وواضح أن في هذين الموضعين إحالة إلى موروثات قديمة يمكن أن يتناقلها اليهود، أيّاً كانت أصولهم العرْقية.

التناقض بين مفهوم الاستمرار اليهودي ومفهوم الفطرة في الإسلام:

افتراض الاستمرار اليهودي، البيولوجي والثقافي، يتناقض مع إحدى القيم الحاكمة الكبرى في الإسلام، ونقصد به مفهوم الفطرة. فالإنسان - حسب

التصور الإسلامي - يُولَد على الفطرة، وإن كان ثمة صفة وراثية فهي الفطرة الإنسانية والاستعداد لعمل الخير، وهو مفهوم يضع على الفرد عبء المسئولية الخلقية ويطرح إمكانية التوبة الدائمة (من جانب المخلوق) وإمكانية المغفرة (إن شاء الخالق).

ومن ثم فإن فكرة الاستمرار اليهودي تُشكِّل سقوطاً في المنطق العنصري العلماني الشامل الذي يرى الإنسان محكوماً بموروثه البيولوجي أو الاقتصادي أو العرْقي أو مجموعة من الحتميات المادية الأخرى. ومن الواضح أن النص القرآني حذَّر من ذلك ففرَّق بين اليهود عموماً من ناحية وبين الصالحين والطالحين منهم من ناحية أخرى، وحكم على كل فريق منهم بما يستحقه من خير أو شر، مُلتزماً في ذلك طريقة العدالة والصدق. يقول تعالى:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾، (آل عمران: ١١٣-١١٥)[١].

يقول تعالى في حق أهل الكتاب: ليسوا متعادلين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد والخير والشر. وإنما قيل: ليسوا سواء، لأن فيه ذكر الفريقين من أهل الكتاب اللذيْن ذكرهما الله في قوله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، (آل عمران: ١١٠) ثم أخبر جل ثناؤه عن حال الفريقين عنده، المؤمنة منهما والكافرة، فقال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي ليس هؤلاء سواء، المؤمنون منهم والكافرون[٢].

والحقيقة أن أسطورة البقاء والاستمرار اليهوديين هما محض خرافة لا يصدق بها من آتاه الله ولو درهما من عقل أو مثقالا من فهم فبنو إسرائيل اختلطوا بشعوب العالم وذابوا فيهم تزوجوا منهم وزوجوهم، ومنهم من تنصر،

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، م٤ ج١ الباب الأول: إشكالية التاريخ اليهودي، مرجع سابق.

(٢) تفسير الطبري ج٧ ص١١٨.

ومنهم من أسلم، ومنهم من ألحد، وكثير من غير اليهود تهوَّد فقد كان اليهود في العصور القديمة يسعون جاهدين لتهويد غيرهم والقرآن الكريم ينص على هذا فيقول:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، (البقرة: ١٣٥).

ولقد نص القرآن الكريم صراحة على أن إبراهيم وإسحق ويعقوب (إسرائيل) والأسباط (بني إسرائيل) لم يكونوا يهودا كما يزعم يهود اليوم.

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٠).

فالخطاب القرآني يفرق بين بني إسرائيل (أبناء يعقوب) وبين يهود المدينة على عهد النبي ﷺ.

والإنجيل نص أيضا على هذا بل نص على حرص اليهود الشديد على تهويد غيرهم" الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين (علماء اليهود) المراءون فإنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا متهودا واحدا فإذا تهود جعلتموه أهلا لجهنم" (متى: ٢٣).

أحق الناس بميراث إبراهيم

وإذا كانت رابطة العقيدة والإيمان هي الأساس الذي يجتمع عليه المسلمون مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، فإن المسلمين هم أحق الناس بميراث الأنبياء -بما فيهم أنبياء بني إسرائيل- فهؤلاء الأنبياء هم مسلمون موحدون حسب الفهم القرآني، وانظر إلى قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، (آل عمران: ٦٧).

ومن الواضح أن الآية الكريمة تنفي نسبة إبراهيم عليه السلام إلى اليهود أو النصارى. فإبراهيم وغيره من الأنبياء -عليهم السلام- في نظر القرآن الكريم شخصيات إسلامية دعت إلى الإسلام ولم تدع إلى اليهودية أو النصرانية أو إلى غير ذلك من ديانات ولذلك نجد القرآن الكريم يستخدم كلمة "مسلما" في هذه الآية وكلمات "مسلمين" في آيات أخرى للإشارة إلى أن الإسلام هو دعوة ودين هؤلاء الأنبياء[1].

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾، (البقرة:١٢٧، ١٢٨).

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾. (البقرة: ١٣٠- ١٣٣).

إذن دين الله تعالى واحد به أرسل جميع الأنبياء والرسل وهو "الإسلام"، وما تم ابتداعه من مسميات أخرى إنما تبغي ربط بعض الأنبياء بشعب أو بعنصر معين وهذا مرفوض تماما في نصوص القرآن الكريم، فكلمة الإسلام تعبير عن جوهر الدين الذي دعا إليه الأنبياء وهو التعبير عن خضوع واستسلام الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية من خلال مبدأ الطاعة للإله الواحد الخالق، وهو جوهر لا تعبر عنه كلمة "يهودي" أو "نصراني"[2].

وبشكل عام فأمة التوحيد هي أمة واحدة من لدن آدم عليه السلام حتى يرث الله

(١) د. محمد خليفة حسن «دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة»، مرجع سابق ص ٣٧، ٣٨.

(٢) نفسه ص٣٨.

الأرض ومن عليها، وأنبياء الله ورسله وأتباعهم هم جزء من أمة التوحيد، ودعوة الإسلام هي امتداد لدعوتهم، والمسلمون هم أحق الناس بأنبياء الله ورسله وميراثهم.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، (آل عمران: ٦٨).

فرصيد الأنبياء هو رصيدنا، وتجربتهم هي تجربتنا، وتاريخهم هو تاريخنا، والشرعية التي أعطاها الله للأنبياء وأتباعهم في حكم الأرض المباركة المقدسة هي دلالة على شرعيتنا وحقنا هي هذه الأرض وحكمها.

نعم، لقد أعطى الله سبحانه هذه الأرض لبني إسرائيل عندما كانوا مستقيمين على أمر الله وعندما كانوا يمثلون أمة التوحيد في الأزمان الغابرة، ولسنا نخجل أو نتردد في ذكر هذه الحقيقة وإلا خالفنا صريح القرآن، ومن ذلك قول موسى عليه السلام لقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، (المائدة: ٢٠، ٢١).

غير أن هذه الشرعية ارتبطت بمدى التزامهم بالتوحيد والالتزام بمنهج الله، فلما كفروا بالله وعصوا رسله وقتلوا الأنبياء ونقضوا عهودهم وميثاقهم، ورفضوا اتباع الرسالة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ والذي بشّر به أنبياء بني إسرائيل قومهم ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾،(الأعراف:١٢٧).

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، (الصف:٦).

فلما فعلوا ذلك حلت عليهم لعنة الله وغضبه.

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، (النساء: ١٥٥- ١٥٧).

وقال تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، (المائدة: ٥٩، ٦٠).

أما الأرض فهي أرض الله تعالى يورثها من يشاء من عباده، وهذا ما أَخْبَرَتْهُم به رسلهم، ودونوه في كتبهم (قبل تحريفها).

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، (الأعراف: ١٢٨).

فعباد الله الصالحون هم ورثة الأرض، والعاقبة لهم في الأولى والآخرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾، (الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦).

يقول تعالى مخبرا عما حَتَّمَهُ وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى:

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، (الأعراف:١٢٨).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾، (غافر:٥١).

وقوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، (النور:٥٥).

وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾[1].

وكما أن العقيدة وثيقة الارتباط بنواميس الكون الكبرى، فكذلك ملابسات هذه العقيدة في الأرض. فالسنة التي لا تتخلَّف أن يغلب الحق في النهاية وأن يزهق الباطل، لأن الحق قاعدة كونية وغلبته سنة إلهية: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، (الأنبياء: ١٨).

وأن يحل الهـــلاك بالظالمين المكذبين، وينجي الله الرسل والمؤمنين: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾، (الأنبياء: ٩).



(١) تفسير ابن كثير ج ٥ صـ ٣٨٤.

4

الفصل الرابع

أسطورة الخلاص الإلهي لليهود في آخر الزمان

الفصل الرابع
أسطورة الخلاص الإلهي لليهود
في آخر الزمان

□□

مع اقتراب نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة ظهرت حُمَّى دينية غَرْبِية تؤكد اقتراب يوم القيامة ونزول المسيح المخلص لخلاص شعبه وإهلاك أعدائه، وتبارى الكتاب في تأليف الكتب لتأكيد ذلك وجعلوا مسرح أحداث نهاية العالم فلسطين، وفسروا جميع الأحداث التي جرت في حرب الخليج وما بعدها من حروب شنتها الحكومة الأمريكية على أفغانستان والعراق بأنها من علامات يوم القيامة، وهي مقدمات الهرمجدون إن لم تكن هي الهرمجدون نفسها التي جاء ذكرها في الإنجيل في سفر الرؤيا، وأن العالم أوشك على الفناء، وأن المسيح المخلص أوشك على الظهور.

في البداية كانت كتبا دينية مسيحية بروتستانتية غربية روَّج لها المبشرون ليؤكدوا أن نبوءات الإنجيل تتحقق ؛ وليجدوا مادة يخدعون بها المفرغون روحيا، والمهووسون بالغريب، وبأفلام الرعب التي كثرت في الآونة الأخيرة كثرة طاغية.

وتلقف الساسة الأمريكيون والإنجليز هذه النبوءات وأشاعوها في مجتمعاتهم؛ ليكسبوا تأييدها في مخططاتهم الاستعمارية، وليضفوا صفة الشرعية الدينية على أعمالهم الإجرامية مستغلين جهل شعوبهم بالدين أولا، وبالواقع الخارجي ثانيا.

فموَّهوا على شعوبهم ببعض النصوص المجتزأة المبتورة من سياقها ولووا أعناق

هذه النصوص قسرا لتتماشى مع مآربهم وأفكارهم الخبيثة فإن كان سفر زكريا(١٢: ١١) تحدث عن معركة (الهددرمون) التي وعد الله فيها يهود السبي البابلي بالعودة إلى أورشليم، و تحقق هذا الوعد على يد قورش الفارسي سنة ٥٣٨ ق. م، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بعلامات يوم القيامة -كما سنبين- فإن بعض رجال الدين المُحْدَثين -من اليهود والمسيحيين البروتستانت الغربيين وبعض من يزعمون أنهم مفكرون إسلاميون- يرون أن معركة الهددرمون آتية في غضون شهور وعلى أقصى تقدير في بضع سنين.

وإذا كان سفر الرؤيا -العهد الجديد- تحدث عن معركة (الهرمجدون) على أنها إحدى علامات الساعة الكبرى التي تُسْبَق باحتراق ثلث الأرض، وثلث الشجر، وبتَحَوُّل ثلث البحار إلى دم، وموت ثلث الكائنات الحية، وموت ثلث الناس بسبب تلوث مياه الأنهار، وحدوث ضربة لثلث الشمس، وثلث القمر، وثلث النجوم، وإظلام الكون.

إذا كان لا بد من وقوع مثل هذه الحوادث كمقدمة للهرمجدون -كما نص على ذلك سفر الرؤيا- فإن بعض رجال الدين أدعياء العلم بالغيب يؤكدون أن معركة الهرمجدون على الأبواب، وما هي إلا عشية أو ضحاها تفصلنا عنها!!

و العجيب أن الكتب التي تحدثت عن هذه النبوءات مر على إصدارها سنوات ولم يتحقق شيء مما تنبئوا به والأعجب أن جماعة شهود يهوه المسيحية تنبأت بمثل هذه النبوءات في مطلع القرن العشرين أي منذ نحو مائة عام ولم يتحقق من نبوءاتهم شيئا!![1].

المرجعية النصية لأسطورة الخلاص الإلهي لليهود آخر الزمان

ادعى اليهود أن هناك نصوصا من العهد القديم قد بشرت -خصوصا من أسفار الأنبياء- بالزمن الذي سيقضي فيه الله على كل الجور في هذا العالم. ويرد الله بني إسرائيل من كل شتاتهم إلى القدس، وإلى أرض إسرائيل، حيث يحكمون بالعدل والسلام ويباركون بمحبة الله (إشعياء ١١/١١-١٢)،

(١) انظر «اليهود الصليبيون الجدد الدجل الديني والسياسي» للمؤلف دار الإبداع للصحافة والنشر ص ٤٠٣ .

و(عاموس٩ /١٤. ١٥). ولقد ورد في نصوص أخرى أن الشخص الذي سيحكم إسرائيل ويؤدي إلى الاستقامة والخلاص في نهاية الزمن سيكون من سلالة داود الموحد الكبير لإسرائيل في قديم الزمان. لكن الله وحده هو الذي سيحقق معجزة الخلاص، علما بأنه لم يرد في التوراة ما يشير إلى أن شخصاً بطلاً منقذاً سيقوم بمعجزة تحقيق هذا الخلاص. وبالرغم من هذا فقد بدأ كثير من اليهود داخل الإمبراطورية الرومانية في الاعتقاد أن الشخصية التي سيكون على يدها الخلاص الإلهي هي شخصية تحظى بالتوجيه الرباني[١].

لكن لماذا يكون الخلاص قاصرا على اليهود فقط رغم عصيانهم الدائم للرب؟

والإجابة عن هذا السؤال حسب الرؤية اليهودية تتلخص في أن الرب قد اختارهم دون سواهم شعبا مقدسا ووعدهم بالأرض المقدسة والخلاص في آخر الزمان، أما عصيانهم الدائم للرب وارتكابهم الشر في عينه فإن الرب يطهرهم منه ببعض العقوبات، لكن لا يُخِل هذا بالميثاق الذي قطعه الرب على نفسه.

" كون بني إسرائيل بشر، فإنهم يعصون الله مرة أخرى، وهذه فكرة رئيسة في التاريخ الديني للشعب اليهودي. ومع ذلك فإن تحقيق الغاية الإلهية لم يكن محل شك أبدا. إن شعب إسرائيل لن يهلك (إرميا ٣١: ٢٧.٢٦). إنه سيعود إلى إيمانه الكامل، بحسب اللاهوت اليهودي، وسيأتي بالنجاة إلى كل الأرض بقيادة كل واحد إلى الله في الخلاص النهائي في آخر الساعة (إرميا ٣: ١٨.١٧) لكن، إلى أن يحين ذلك الوقت فإن شعب إسرائيل سيظل شاهدا لله (إشعياء ٤٤: ٨) وسيستمر في العذاب عندما يعصي[٢].

نصوص التوراة التي يستشهد بها اليهود على خلاص الرب لهم في آخر الزمان.

"١١ ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتني بقية شعبه التي بقيت من أشور ومن مصر ومن فتروس و من كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٢٥ .

(٢) نفسه ص ٧٧.

حماة ومن جزائر البحر ١٢ و يرفع راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل و يضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض " (إشعياء : ١١).

" ٨ لا ترتعبوا ولا ترتاعوا أما أعلمتك منذ القديم وأخبرتك فأنتم شهودي هل يوجد إله غيري ولا صخرة لا أعلم بها " (إشعياء : ٤٤).

"١٤ وأردُّ سبي شعبي إسرائيل فيبنون مدنا خربة و يسكنون و يغرسون كروما ويشربون خمرها ويصنعون جنات ويأكلون أثمارها ١٥ وأغرسهم في أرضهم ولن يُقلَعوا بَعْدُ من أرضهم التي أعطيتهم قال الرب إلهك " (عاموس:٩).

"١٧ في ذلك الزمان يسمون أورشليم كرسي الرب ويجتمع إليها كل الأمم إلى اسم الرب إلى أورشليم ولا يذهبون بعد وراء عناد قلبهم الشرير. ١٨ في تلك الأيام يذهب بيت يهوذا مع بيت إسرائيل ويأتيان معا من أرض الشمال إلى الأرض التي ملَّكت آباءكم إياها " (إرميا : ٣).

"٢٧ ها أيام تأتي يقول الرب و أزرع بيت إسرائيل وبيت يهوذا بزرع إنسان وزرع حيوان " (إرميا:٣١).

"٧ ها أنا أنقذ شعبي المنفي في أرض المشرق أو المغرب. ٨ وأردهم إلى أورشليم ليسكنوا فيها ويكنون لي شعبا وأكون لهم إلها بالحق والعدل.. ١٣ وكما كنتم لعنة يا أبناء يهوذا وإسرائيل فإنني أخلصكم فتصبحون بركة " (زكريا : ٨)

هذه هي النصوص التي يَدَّعي اليهود - غير الصهاينة - أنها خاصة بنهاية الزمان، وأن عليهم انتظار مجيء المسيح ليحققها لهم، وأن سعيهم بأنفسهم لتحقيق الخلاص يُعَدُّ اعتداء على إرادة إله إسرائيل، فالشتات الذي يعيشون فيه إنما هو عقوبة من إله إسرائيل لمخالفتهم وصاياه، وعندما تحين مشيئة إله إسرائيل فإنه يعيدهم إلى أرض الميعاد ليس لأجلهم يفعل هذا، بل غَيْرَةً منه على اسمه الذي دنسوه بين الأمم التي تفرقوا بينها.

وهذا ما أوحى به إله إسرائيل إلى رسوله حزقيال ليبلغه لبني إسرائيل :

" قل لشعب إسرائيل : ليس لأجلكم أنا موشك أن أعمل (عظائم) يا شعب إسرائيل، بل غيرة على اسمي الذي دنستموه بين الأمم التي تفرقتم بينها فأقدس

اسمي العظيم الذي صار بسببكم منجسا بين الأمم التي تفرقتم بينها فتدرك الأمم أني أنا الرب حين أتقدس فيكم أمام أعينهم يقول السيد الرب إذ آخذكم من بين الأمم وأجمعكم من كل البلدان وأحضركم إلى أرضكم وأرش عليكم ماءً نقيا فتطهرون من كل نجاساتكم ومن أصنامكم... ولهذا اعلموا أنه ليس من أجلكم أنا أفعل هذا، يقول السيد الرب فاخجلوا واخزوا من طرقكم يا شعب إسرائيل "، (حزقيال : ٣٦).

إذن عقيدة اليهود فيما يتعلق بالشتات والخلاص -وكما هو ظاهر من النصوص- تؤكد أن إله إسرائيل قد عاقب شعبه بالشتات بسبب فسادهم وتنجيسهم اسمه ولكنه في نهاية الزمان وحفاظا على اسمه فإنه سيجمعهم في أرض الميعاد (فلسطين) ويبيد أعداءهم وإلى أن يتم هذا فما على يهود الشتات إلا انتظار انتهاء فترة العقوبة في صبر، وأن يتحملوا اضطهاد الأغيار لهم في جَلَد، وألا يتعجلوا العودة إلى أرض الميعاد قبل مشيئة الرب، هذا هو حكم إله إسرائيل في شعبه المختار.

وظل هذا المفهوم للخلاص هو عقيدة اليهود طيلة زمن الشتات الذي يناهز ألفين من السنين حتى ظهرت الصهيونية في القرن التاسع عشر والتي يمكن تلخيص أهم ما نادت به مُخالِفةً فيه العقيدة اليهودية في الآتي :

١- مهاجمة فكرة انتظار المسيح الذي سيأتي بالخلاص، ونادوا بأن على اليهود الحصول على الخلاص بأنفسهم. إذ أصبحت العودة إلى فلسطين ممكنة دون انتظار مقدم المسيح.

٢- مهاجمة مفاهيم أخرى، مثل العودة والشعب المقدَّس، بحيث أسقطوا البعد الديني المجازي، وكان هذا تمهيداً لتحويلها إلى مفاهيم ذات طابع دنيوي وضعي حرفي فتحوَّلت صهيون إلى موقع للاستيطان وتحوَّل الشعب المقدَّس إلى شعب بالمعنى العرْقي أو الإثني.

٣- تطبيع اليهود أي أن تكون الشخصية اليهودية شخصية طبيعية، ويصبح اليهود أمة مثل كل الأمم، وتطوَّر هذا المفهوم ليصبح الدعوة إلى تأسيس الدولة

الصهيونية حتى يكون للشعب اليهودي دولته المستقلة شأنه في هذا شأن كل الشعوب.

٤- بعث البطولات العبرية القديمة مثل : شمشون وشاؤول، وهي بطولات تجسّد عناصر لا عقلانية خارقة وذلك لتنفض الشخصية اليهودية عن نفسها شيئا من خنوعها وتصبح شخصية تمتلئ بالحيوية.

٥- إزكاء نيران الحب لصهيون وفلسطين وتمجيد الأسلاف كانت بمثابة المدخل الحقيقي لانتشار المثل الأعلى القومي بين اليهود[١].

٦- التعجيل بالنهاية، ويقصد بهذا المصطلح الضغط على الإله لإجبار المسيح على المجيء، فاليهودية الحاخامية، في أحد جوانبها، تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الإله وبالطريقة التي يقررها، وأن العودة ليست فعلاً يحدث بمشيئة البشر. وقد جاء في التلمود (سفر الكتبوت): "لا تعودوا ولا تحاولوا أن تُرغموا الإله".

وقد اتهم الحاخاماتُ الصهيونيةَ بأنها تسْعَى إلى التعجيل بالنهاية وتَحدّي مشيئة الإله. والصهيونية ذاتها واعية بأن موقفها من العودة مختلف عن الموقف الديني التقليدي الذي انتقده بن جوريون ووصفه بالسلبية والاتكالية"[٢].

وقد استطاعت الصهيونية أن تستميل كثيرا من اليهود إلى مشروعها الاستعماري ويمكن حصر أسباب انضمام اليهود للصهيونية العالمية في سببين رئيسيين وهما :

١- **الاندماج اليهودي:** في المجتمعات الأوربية، الذي يهدد الهُوية اليهودية.

٢- **الاضطهاد:** من قِبَل المجتمعات الأوربية الذي يهدد الوجود اليهودي.

ولقد قام اليهود الصهاينة بتنفيذ ما جاء في توراة اليهود من نبوءات كان المفروض أن إلههم "يهوه " هو الذي يقوم بها لكن ليس هناك فرق بين "يهوه" وبين

---

(١) د. رشاد الشامي «الشخصية اليهودية» مرجع سابق ص ٧٢.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٢ ج١ الباب الخامس: التعجيل بالنهاية، مرجع سابق.

شعبه المختار "والموجود يسد"، كما يقول المصريون، وليقوموا هم نيابة عن "يهوه" بجعل غزة تتلوى ألماً، وباستئصال كبرياء الفلسطينيين، وإهلاك كل الأمم العربية الزاحفة على أورشليم، ويصبح الغرب المضطهد لليهود هو المسيخ المخلص لهم، ويتحول الأتان الذي تنبأت التوراة أن يأتي عليه إلى طائرات ودبابات وعربات مصفحة، وتُوَتّر أمريكا بن جوريون بدلا من تَوْتِير الرب ليهوذا، وتجعل موشى ديان وبيجين ورابين و شامير و شارون وأولمرت كأسهم بدلا من أفرايم، وتثير الإسرائيليين على الفلسطينيين بدلا من أبناء اليونان.

وهكذا توظف الصهيونية الأساطير التوراتية في تحقيق أهدافها العنصرية المقيتة.

الرد على أسطورة الخلاص الإلهي لبني إسرائيل على يد الماشيخ

إن النصوص التي يستشهد بها اليهود على خلاصهم في نهاية الزمان ليست خاصة بنهاية الزمان كما يحاول حاخامات اليهود إفهامنا أو كما يحاول حكام إسرائيل فرضها علينا .

إن كل النصوص الخاصة بعودة اليهود من الشتات وتمكين " يهوه " لهم في أرض كنعان - على فرض صحتها - فهي خاصة بوعود " يهوه " ليهود السبي البابلي بالعودة إلى أورشليم وكل أنبياء الذين تنبئوا بالعودة إلى الأرض المقدسة عاشوا زمن السبي ودونك ما جاء في الترجمة التفسيرية للعهد القديم عن هؤلاء الأنبياء :

جاء في مقدمة كتاب إشعياء : "أرسل الله إشعياء في الدرجة الأولى إلى مملكة يهوذا إلا أن رسالته شملت مملكة إسرائيل في الشمال أيضا. عاش إشعياء إبان الحرب الأهلية التي نشبت بين مملكتي : إسرائيل، ويهوذا، وشهد دمار مملكة إسرائيل على يد جيش آشور في سنة ٧٢٢ ق.م، تطلع إشعياء إلى ما وراء عصره إلى حقبة السبي والخلاص الذي أعده الله لشعبه"[(١)].

إذن نبوءات إشعياء كانت خاصة بحقبة السبي والخلاص الذي أعده الله

(١) الكتاب المقدس ترجمة تفسيرية ط٢ جي-سي سنتر مصر الجديدة القاهرة، ص ٨٢٤.

لشعبه المسبي، ولا علاقة لها على الإطلاق بعودة اليهود إلى أرض الميعاد وخلاصهم على يد المسيح في آخر الزمان.

وجاء في مقدمة كتاب إرميا : لقد عاش إرميا طوال الأربعين سنة الأخيرة من حياة مملكة يهوذا، وشاهد وعانى من هجوم الجيش الكلداني على أورشليم ومملكة يهوذا واستيلائه عليها، وسبي الشعب ودمار الهيكل. كان إرميا قد أنذر وحذر الناس مما سيجري عليهم، وتوسل إليهم أن يرجعوا إلى الرب ويتخلوا عن آثامهم من غير جدوى، بل تعرض للمهانة والاحتقار والاضطهاد.

لم يكن لدى إرميا في خضم الأحداث الرهيبة التي ألمت بمملكة يهوذا سوى رسالة واحدة يذيعها على مسامع الشعب : " توبوا وارجعوا إلى الله "، وكانت له رسالة أخرى هي رسالة الرجاء. فمع أن شعب يهوذا قد نبذ الله، فإن الله لم ينبذهم، وأنه لابد أن يظهر قوته من أجل إنقاذهم من أسْرهم "[1].

إذن كانت رسالة إرميا هي دعوة اليهود إلى التوبة لكي ينقذهم الرب من أسرهم في بابل.

وجاء في مقدمة كتاب حزقيال : " انتظم حزقيال في سلك الكهنوت، وكان أحد الذين سُبُوا إلى بابل مع بقية اليهود الذين أجلوا عن المدينة المجيدة في سنة ٥٩٧ ق.م وهناك اختاره الله ليكون له نبيا. أوحى إليه الروح القدس بهذه الرسالة لتكون تحذيرا من الدينونة القادمة على البقية الباقية في أورشليم. بيد أن إنذاراته لم تلق آذانا صاغية من اليهود المأسورين معه ؛ وعندما تحققت نبوءاته المحزنة بدمار أورشليم في عام ٥٨٦ ق.م أقبل عليه الناس ليستمعوا إلى أقواله بلهفة وصدق.

إن رسالة حزقيال قائمة على أساس قداسة الله غير المتحولة. وهي تشتمل على وعد وتحذير في آن واحد. هي تحذير لأن الله قد وعد بمعاقبة الخطيئة وهذا لابد أن يتم. وهي وعد لأن الله قد وعد أن يظل وفيا أمينا لمحبيه وهذا لا يمكن أن ينتقض ؛ فكتاب حزقيال يظهر تحقق كلام الله الثابت في الوعد

---

(١) نفسه ص٨٨٩.

والوعيد. لقد تم خراب أورشليم حسب وعيد الله عقابا لخطيئة أهل يهوذا. من هذا يظهر أن نوعية الحياة التي يعيشها شعب الله تقرر طريقة معاملة الله لهم"[1].

رسالة حزقيال لم تكن إلا وعيدا لليهود العُصَاة بتدمير بلادهم وشتاتهم، ووعدا بخلاصهم وإعادتهم إلى أرضهم إن استقاموا وأطاعوا وصايا الرب التي حملها لهم نبيهم حزقيال.

وجاء في مقدمة كتاب عاموس: "كان عاموس معاصرا للأنبياء هوشع وإشعياء وميخا. كانت رسالة عاموس مثل رسالة هوشع موجهة إلى مملكة إسرائيل الشمالية. استهل عاموس رسالته بإعلان قضاء الله على الأمم المحيطة، ثم خلص إلى التركيز على مصير إسرائيل نفسها، وأعقب ذلك بسلسلة من الاستنكارات القاسية لآثام بني إسرائيل، وعلى الأخص الآثام الاجتماعية التي شاعت في عهده، ومنها المظالم والرشوة والطمع وعبادة الأصنام. وتلاحقت الرؤى تحمل في ثناياها نذر تلك الرسالة المخيفة. ثم ينتهي الكتاب بأقل بارقة رجاء بتوبة إسرائيل.

تعتمد رسالة عاموس على الإيمان ببر الله الأبدي، لأن الله بار فإنه يطالب شعبه بالبر، فإن أخفقوا في إظهار إيمانهم وبرهم من جراء الحياة الخاطئة التي يمارسونها فإنهم لابد أن يقدموا الحساب لله. ومع ذلك يعرض الرب على شعبه الصفح"[2].

نأتي بعد ذلك إلى آخر الأنبياء وأهمهم فيما يتعلق بنبوءة الخلاص وهو زكريا.

جاء في مقدمة كتاب زكريا: "كان زكريا النبي معاصرا لحجي النبي وقد سجَّل هذا الكتاب بإرشاد من روح الله في مستهل سنة ٥٢٠ ق.م إذ أرسله الله للمسبيين العائدين من المنفى ليشجعهم على عبادة الله من غير خوف. يبدأ الكتاب بسلسلة من ثماني رؤى تصف بلغة تصويرية حية قوة الله، وتحكمه في

---

(١) نفسه ص ٩٧٢.

(٢) الكتاب المقدس ترجمة تفسيرية ط٣ جي.سي سنتر مصر الجديدة القاهرة، ص ١٠٧٧.

شئون الناس، وأهمية القوة الروحية ودينونة الله للخطيئة والوعد بأمور مستقبلية-[1].

وجميع النبوءات التي تنبأ بها هؤلاء الأنبياء بخلاص بني إسرائيل من السبي قد انتهت بعودة المسبيين على يد قورش الإمبراطور الفارسي الذي أصدر عام ٥٣٨ ق. م مرسوماً بإعادة اليهود الذين وُطّنوا في بابل إلى فلسطين. وهذا نص المرسوم كما جاء في كتاب عزرا.

" هذا ما يقوله قورش مَلِك فارس لقد وهبني الربُّ إلهُ السماء جميع ممالك الأرض وأوصاني أن أشيد له هيكلا في مملكة يهوذا فعلى كل واحد من أبناء شعبه أن يصعد إلى أورشليم في أرض يهوذا فيبني هيكل الرب إله إسرائيل وعلى أهل المواضع التي يقيم فيها المسبيون المغتربون أن يمدوهم بالذهب والفضة والدواب فضلا عما يتبرعون به أبناء هيكل الرب الذي في أورشليم" (عزرا ١ ٢:١-٦) .

والعجيب أن قورش هذا ليس يهوديا ولم يفعل ما فعل حبا في اليهود أو إيمانا بعقائدهم في الخلاص إنما ليستخدم اليهود في حربه ضد أعدائه، وتحقيقا لمصالحه الاستعمارية تماما كما ستفعل الصهيونية العالمية في استخدام اليهود لتحقيق مصالحها الاستعمارية.

إذن و كما هو واضح أن كل نبوءات أسفار: إشعياء، وإرميا، وحزقيال، وعاموس، وزكريا، وغيرهم تتحدث عن ذلك الخلاص الذي تم على يد قورش الفارسي غير اليهودي. لذا فلا عجب أن العهد القديم يعتبر قورش هو المسيح المخلص، وقورش هو غير اليهودي الوحيد الذي أُشير إليه في العهد القديم بأنه المسيح.

" هكذا يقول الرب لمسيحه قورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً، وأحل أحزمة ملوك، لأفتح أمامه المصراعين، فلا تغلق الأبواب، إنني أمشي أمامك، وأمهد الهضاب، وأحطم مصراعيْ النحاس، وأكسر مزاليج الحديد، وأعطيك مكنونات الكنوز وذخائر المخابئ، حتى تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك، لقبتك وأنت لا تعرفني". (إشعياء ٤٥ : ١-٤).

(١) نفسه ص ١١١٣.

هذه هي حقيقة نبوءة الخلاص على يد المسيخ المخلص، ولم يرد أي نص آخر بالخلاص بعد تحقق هذه النصوص، وعودة المسبيين لكن من اليهود من يحرفون الكلم عن مواضعه.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾، (النساء : ٤٦).

والسؤال لماذا يفعل قورش هذا مع اليهود رغم أنه ليس يهوديا؟!

إن قورش ليعد أول علماني عرفه التاريخ فقد فصل الدين عن الدولة وسمح بتعددية الأديان والآلهة، وهو أول صهيوني فقد استخدم اليهود كجماعة وظيفية لخدمة مصالحه الاستيطانية في فلسطين " وخطة قورش خطة صهيونية كاملة تعني أن يعود اليهود برموزهم القومية ليصبحوا قاعدة لدولة إمبراطورية وتكون عودتهم جزءاً من سياستها الإستراتيجية العامة.

أما بقية اليهود، فيقومون بتمويل عملية العودة، ويتحولون إلى عملاء للإمبراطورية الجديدة أو يتحولون إلى جنود مرتزقة"[1].

إن توراة اليهود لتؤكد ما ذهبنا إليه من أن نبوءات أنبياء اليهود كانت خاصة بالمسبيين ولا علاقة لها البتة بخلاص اليهود آخر الزمان، وإليك قصة السبي وعودته كما جاءت في التوراة حتى نؤكد أن من استشهد بنبوءات الأنبياء : إشعياء وإرميا وحزقيال وعاموس وزكريا على الخلاص في آخر الزمان قد افترى على هؤلاء الأنبياء الكذب باقتطاع النصوص من سياقيها وتحميلها من المعاني ما لا تحتمل.

السبي الآشوري (سنة ٧٢٢ ق.م)

إذا كان سليمان قد نجح في مراقبة وإبعاد قوى التمزيق عن مملكته فإن رحبعام ابنه قد فشل في إبقاء المملكة موحدة (الملوك الأول : ١٢) وفي النهاية تمردت القبائل الشمالية العشر وكونت مملكتها المستقلة بعاصمتها في السامرة.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» الباب الثامن فصل نهاية التاريخ، مرجع سابق.

وبهذا انقسمت مملكة سليمان إلى مملكتين : إسرائيل مملكة الشمال، ويهودا مملكة الجنوب.

حكم مملكة الشمال، التي تعد الأكبر والأقوى تسعة عشر ملكاً يمثلون عددا من الأسر الحاكمة. وإن كانت هذه المملكة قوية على الصعيد الخارجي، فإنها كانت ضعيفة داخليا بسبب كثرة الصراعات الداخلية والانحرافات الأخلاقية. وأدت زيادة الفروق بين الطبقات الاجتماعية إلى الظلم والفساد، وتخلى كثير من الناس عن واجباتهم الدينية بالتعبد في الأضرحة المحلية. وكانت هذه الفترة هي التي ظهر فيها كبار أنبياء إسرائيل ليطالبوا بالعبادة الصحيحة والعدالة الاجتماعية، ولكن بالرغم من استقامة عدد من الأفراد، فإن الأمة ككل وصفت في كتب التوراة (الملوك الأول والملوك الثاني) بأنها مستمرة في إصرارها على ارتكاب الشر.

إن شعب إسرائيل شعب عنيد كعجلة جامحة، فكيف يرعاهم الرب كحمل في مرج رحب ؟ إن أفرايم مكبل بعبادة الأصنام، فاتركوه وحيدا.

وحالما ينضب خمرهم ينغمسون في فسادهم مفضلين العار على الشرف، قد صرتم الريح في أجنحتها، وأنزلتْ بهم ذبائحُهُم الوثنيةُ العارَ.

اسمعوا هذا أيها الكهنة وأنصتوا يا شعب إسرائيل. وأصغوا يا أهل بيت الملك، لأن القضاء حالٌّ بكم إذ كنتم فخا في المصفاة وشبكة منصوبة على جبل تابور... أرض أفرايم ستصبح خرابا في يوم القضاء، وبين أسباط إسرائيل أظهرت ما هو يقين.

قد صار رؤساء يهوذا مُتَعَدِّين كالذين ينقلون تُخُومَ الأرض ليسلبوا سواهم لهذا سأصب عليهم سخطي كالماء لقد لحق الضيق بإسرائيل، وسحقه القضاء لأنه وطد العزم على الغواية وراء الأوثان لهذا سأكون كالعُثّ لإسرائيل وكالسوس الناخر لشعب يهوذا... إني سأكون كالأسد المفترس لإسرائيل، وكالشبل لأبناء يهوذا أفترس وأمضي. أخطف ولا من منقِذٍ" (هوشع : ٤، ٥)

ويعاقبهم الله على فسادهم، ورفضهم التوبة إليه فيرسل ملك أشور عليهم ليحكم فيهم السيف ومن بقي حيا سباه إلى مملكة أشور.

رفضوا أن يتحولوا إلى تائبين لذلك لن يرجعوا إلى مصر بل يصبح أشور ملكا عليهم يهجم السيف على مدنهم ويلتهم أرتاج بواباتها، ويهلكهم لمشوراتهم الخاطئة قد وطد شعبي العزم على الارتداد عني لهذا ولو استعانوا بالعليِّ فإنهم لا يجدون من يرفع النير عنهم "،(هوشع : ١١).

وينفذ الرب تهديده ويرسل إليهم من يفتك بالسامرة ومن فيها.

اعتلى هوشع بن أَيْلة عرش إسرائيل في السامرة تسع سنوات. وارتكب الشر في عيني الرب، إلا أنه كان أفضل قليلا من أسلافه ملوك إسرائيل. وزحف عليه شَلْمَنْأَسَر ملك أشور. فصار هوشع له تابعا يدفع له الجزية.

وما لبث أن اكتشف ملك آشور خيانة هوشع، الذي أرسل وفدا يستغيث بِسَوَا ملك مصر، ولم يؤد جزية لملك أشور كعهده في كل سنة فقبض عليه ملك أشور وزَجَّه موثقا في السجن. واجتاح ملك أشور أرض إسرائيل وحاصر السامرة ثلاث سنوات وفي السنة التاسعة من حكم هوشع سقطت السامرة، فسبى ملك أشور الإسرائيليين إلى أشور.. وقد حلت هذه النكبة ببني إسرائيل لأنهم أثموا في حق الرب إلههم الذي أخرجهم من ديار مصر من تحت نير فرعون وعبدوا آلهة أخرى.. وأقاموا لأنفسهم أنصابا وتماثيل لعشتاروث على كل مرتفع.. واقترفوا الموبقات لإغاظة الرب، عابدين الأصنام التي حذرهم ونهاهم الرب عنها.. ولكنهم أصموا أذانهم وأغلظوا قلوبهم كآبائهم الذين لم يثقوا بالرب إلههم وتنكروا لفرائضه وعهده الذي أبرمه مع آبائهم وتجاهلوا تحذيراته ونواهيه لهم وضلوا وراء أصنام باطلة فأصبحوا هم أنفسهم باطلين.

فاحتدم غضب الرب على إسرائيل، وطرهم من حضرته، ولم يبق سوى سبط يهوذا. ولكن حتى سبط يهوذا لم يحفظ وصايا الرب إلهه بل نهج في طُرُق إسرائيل التي سلكتها. فنبذ الرب كل ذرية إسرائيل وأذلهم وأسلمهم ليد آسريهم وطردهم من حضرته.. فَسُبِيَ الإسرائيليون من أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم.. ونقل ملك أشور أقواما مِن بابل وكوث وعوًّا وحماة وسفروايم، وأسكنهم مدن السامرة محل بني إسرائيل فاستولوا على السامرة وأقاموا مدنها" (ملوك الثاني:١٧).

السبي البابلي (سنة ٥٨٦ ق.م)

وبدلا من اتعاظ بقية مدن إسرائيل بما أحدثه ملك أشور بالسامرة وأهلها راحوا يتمادون في غيهم وفسادهم فأوحى الرب إلى نبيهم ميخا أن أنذر كل من مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل بخراب أورشليم بسبب فساد شعب إسرائيل.

" استمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة شعب إسرائيل الذين يكرهون العدل ويحرفون الحق. الذين يبنون صهيون بالدم وأورشليم بالظلم. إذ يحكم رؤساؤكم بالرشوة، وكهنتها يعلِّمون بالأجرة ويتعاطى أنبياؤهم العَرَافة لقاء المال، ومع ذلك يدعون الاتكال على الله قائلين : أليس الرب في وسطنا ؟ لذلك لن يصيبنا مكروه. لهذا من جرَّاء أعمالكم ستحرث صهيون كالحقل وتصبح أورشليم كومة من الخرائب، وجبل الهيكل مرتفعا تنمو عليه أشجار الغاب " (ميخا : ٣).

" ثم قال الرب على لسان عبيده الأنبياء : " لأن منسى ملك يهوذا اقترف جميع هذه الموبقات، وارتكب شرورا أشد من فظاعة شرور الأموريين الذين كانوا قبله، وأضل يهوذا فجعله يأثم بعبادة أصنامه، لذلك يقول الرب إله إسرائيل : "ها أنا أجلب شرّاً على أورشليم ويهوذا فَتَطِنُّ أُذنا كل من يسمع به. وسأوقع على أورشليم العِقاب الذي أوقعته بالسامرة وبأخآب ونسله. وأمسح أورشليم من الوجود كما يمسح الطبق من بقايا الطعام ثم يقلب على وجهه ليجف. وأنبذ بقية شعبي وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم فيصبحوا غنيمة وأسرى لهم، لأنهم ارتكبوا الشر في عينيَّ وأثاروا غضبي منذ خروج آبائهم من مصر إلى هذا اليوم. وزاد منسى فسفك دم أبرياء كثيرين حتى ملأ أورشليم من أقصاها إلى أقصاها " (ملوك الثاني : ٢١).

ونفذ رب إسرائيل تهديده لشعب إسرائيل ويهوذا فبعث عليهم رجلا ذا بأس شديد فاحتل أورشليم وأحرق الهيكل وقَصْر الملك وسائر بيوت أورشليم " وفي اليوم السابع من الشهر الخامس من السنة التاسعة عشرة من حكم الملك نَبُوخَذْنَاصَّر ملك بابل، قدم نُبوزرادان قائد الحرس الملكي من بابل إلى أورشليم، وأحرق الهيكل وقصر المَلك وسائر بيوت أورشليم، وكل منازل العظماء وهدمت جيوشُ الكلدانيين التي تحت إمرة رئيس الحرس الملكي جميعَ أسوار أورشليم،

وسبى نُبوزرادان بقية الشعب الذي بقي في المدينة، والهاربين الذين لجئوا إلى ملك بابل وسواهم من السكان ولكنه ترك فيها فقراء الأرض المساكين ليزرعوها ويفلحوها .. وسبى رئيس الحرس الملكي سريا رئيس الكهنة وصفنيا مساعده وحرَّاس الباب الثلاثة وقبض على خَصِيٍّ واحد من أهل المدينة، كان قائدا للجيش وعلى خمسة رجال من ندماء الملك الذين تم العثور عليهم في المدينة وكاتب قائد الجيش المسئول عن التجنيد وستين رجلا من الفلاحين أهل المدينة واقتادهم نُبوزرادان رئيس الحرس إلى ملك بابل المُعَسْكِر في رَبْلة فقتلهم ملك بابل في ربلة في أرض حماة وهكذا سبي شعب يهوذا من أرضه أما بقية الشعب الذين تركهم نبوخذناصر ملك بابل في أرض يهوذا .. فهب جميع الشعب، صغيرهم وكبيرهم، ورؤساء الجيوش، وهربوا إلى مصر خوفا من انتقام الكلدانيين» (ملوك الثاني: ٢٥).

وتصف لنا توراة اليهود في موضع آخر أسباب السبي البابلي فتذكر أن بني إسرائيل قبل السبي البابلي " ازدادوا تورطا في خيانة الرب، مقترفين كل رَجَاسات الأمم، حتى إنهم نجَّسوا بيت الرب الذي قدَّسه في أورشليم.

وأرسل الرب إله آبائهم إليهم رسلا بصورة متوالية محذرا إياهم لأنه أشفق على شعبه وعلى مسكنه.

فكانوا يهزئون برسل الله، ورفضوا كلامه واستهانوا بأنبيائه، حتى ثار الرب على شعبه وامتنع كل شفاء.فأرسل إليهم ملك الكلدانيين فقتل نُخْبَتَهم بالسيف في عُقْر الهيكل المقدس، ولم يرحم الرب فتى أو عذراء أو شيخا أو أشيب بل أسلمهم جميعا ليد الكلدانيين الذين استولوا على آنية بيت الله كبيرها وصغيرها، وخزائن قادته ونقلوها كلها إلى بابل.

وأحرقوا الهيكل وهدموا سور أورشليم وأشعلوا النار في جميع قصورها، ودمروا تحفها الثمينة.

وسبى نبوخذناصَّر الذين نجوا من السيف إلى بابل فأصبحوا عبيدا له ولأبنائه إلى أن قامت ملكة فارس " (أخبار الأيام الثاني : ٣٦).

عودة اليهود من السبي

عندما دُمرت مملكة الشمال شتت المنتصرون القبائل في كل أنحاء الإمبراطورية الآشورية بطريقة لم تستطع فيها تلك القبائل المحافظة على هويتها الدينية والثقافية. وكانت النتيجة إذابة وإبادة مملكة إسرائيل الشمالية. وتعرف هذه القبائل "بالقبائل العشر المفقودة" التي لم يعد لها وجود لأنها لم تحظ بالبقاء بعد غزو الآشوريين لملكتهم. أما قبيلتا يهودا وبنيامين اللتان بقيتا في المملكة الجنوبية لمدة مئة وخمسين سنة أخرى فقد كانتا تعرفان مجتمعتين باسم اليهود لأن القبيلة الكبيرة يهودا كانت هي المسيطرة إلى حد بعيد.

وقد عمل هؤلاء اليهود في خلال هذه الفترة بجد لغرس الديانة اليهودية وقيمها وأخلاقها في أعماق قلوب الناس. وعندما غزت بابل في النهاية يهودا سنة ٥٨٦ قبل الميلاد، ودمرت الهيكل، سبت عددا كبيرا من سكانها إلى العاصمة البابلية. استطاع اليهود أن يحافظوا على هويتهم الدينية والثقافية حتى وهم أقلية صغيرة في أرض أجنبية. يسجل المزمور المئة والسابع والثلاثون شعور اليهود المسبيين في بابل:

على ضفاف أنهار بابل جلسنا، وبكينا عندما تذكرنا أورشليم، هناك علقنا أعوادنا على أشجار الصفصاف، هناك طلب منا الذين سبونا أن نشدوا بترنيمة والذين عبّدونا أن نطربهم قائلين :

" أنشدوا لنا من ترانيم صهيون١٦ كيف نشدو بترنيمة الرب في أرض غريبة ؟ إن نسيتك يا أورشليم، فلتنس يميني مهارتها. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك ولم أفضلك على ذروة أفراحي. "

دام السبي الإجباري في بابل قرابة خمسين عاما وبدخول سنة ٥٣٩ قبل الميلاد. عفا الله عنهم وأعادهم إلى أورشليم لعلهم يشكرون نعم الله عليهم ولا يعودون إلى نبذ شريعته وحربه مرة ثانية[1].

"وفي السنة الأولى لحكم قورش ملك فارس، وتتميما لكلام الرب بفم إرميا،

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن يتاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٣٢.

حرَّك الرب قلب قورش فأطلق نداء في كل أنحاء مملكته قائلاً". هذا ما يقوله قورش ملك فارس : الرب إله السماء وهبني جميع ممالك الأرض، وأمرني أن أبني له هيكلا في أورشليم التي في يهوذا، وعلى كل واحد من شعب الرب أن يرجع إلى هناك، وليكن الرب معكم " (أخبار الأيام الثاني ٣٦ : ٢٢- ٢٣).

هزم قورش ملك فارس البابليين. وسمح بعودة الراغبين من اليهود إلى أرض إسرائيل (عزرا ١:).

عاد عشرات الآلاف في السنة التالية، لكن كثيرين آخرين اختاروا البقاء في بابل انضم العائدون في بناء الهيكل في القدس إلى اليهود الذين لم يغادروا الأرض. واكتملت إعادة الهيكل سنة ٥١٥ قبل الميلاد، إلا أن كل شيء لم يكن على ما يرام في يهودا، لأن البلد بقيت فقيرة والقدس كانت دون تحصينات ومعرضة للخطر، وكان الناس يعيشون في فوضى، ودون نظام ديني وحكومي قوي، وازداد التزاوج من الجيران الوثنيين وأصبح الالتزام الديني ضعيفا(١).

إن بني إسرائيل ما شكروا نعم الله عليهم بل عادوا يرتكبون نفس المعاصي التي عاقبهم الرب بالسبي عليها فور عودتهم إلى أورشليم ؛ لذا بعث لهم "ملاخي" نبيا لإصلاح فسادهم، وكان" ملاخي " آخر الأنبياء المدونة سيرتهم في التوراة، وكان كتابه آخر كتب أنبياء اليهود.

وجاء في مقدمة كتاب ملاخي : "في نحو النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد دوَّن لنا ملاخي بإيحاء من الله هذا الكتاب. كان "ملاخي" نبيا أرسله الله إلى المسبيين العائدين من المنفى ليوجه الشعب إلى الاهتمام الجدي بمشكلاتهم الروحية. كانت المشكلات الرئيسية التي هبَّ ملاخي لمعالجتها والتصدي لها هي المشكلات المتعلقة بفساد الكهنة وإهمال هيكل الله والخطايا الشخصية التي ترتكب في البيوت.

لم يكن الشعب قد تلقن حقا درسه من مأساة الأسر. كان الله قد كتب عليهم الذهاب إلى المنفى من جراء ما اقترفوا من آثام، وها هم الآن يرتكبون نفس هذه

---

(١) نفسه ص ٣٣.

المعاصي فقد شاع الطلاق في وسطهم، وطغت الأنانية عليهم، وانحرفوا نحو الغدر ؛ وأهملوا الهيكل والعبادة فيه، وران عليهم ذبول روحي بدت مظاهره في كل مكان"[1].

يشتمل كاتب " ملاخي" على موضوعين أساسيين أولهما، غضب الرب على اليهود ولاسيما كهنتهم بسبب تدنيسهم لاسم الرب وعدم الالتزام بوصاياه، لذا فقد توعدهم باللعن ومحق البركة:

"١ والآن إليكم هذه الوصية أيها الكهنة. ٢ إن كنتم لا تسمعون ولا تجعلون في القلب لتعطوا مجدا لاسمي قال رب الجنود فإني أرسل عليكم اللعن و ألعن بركاتكم بل قد لعنتها لأنكم لستم جاعلين في القلب... ٨ أما أنتم فحدتم عن الطريق وأعثرتم كثيرين بالشريعة أفسدتم عهد لاوي قال رب الجنود. ٩ فأنا أيضا صيرتكم محتقرين و دنيئين عند كل الشعب كما أنكم لم تحفظوا طرقي بل حابيتم في الشريعة. (ملاخي : ٢) " ١٣ أقوالكم اشتدت عليّ قال الرب وقلتم ماذا قلنا عليك ١٤ قلتم عبادة الله باطلة وما المنفعة من أننا حفظنا شعائره وأننا سلكنا بالحزن قدام رب الجنود. (ملاخي : ٣) " ١ فهو ذا يأتي اليوم المتقد كالتنور و كل المستكبرين وكل فاعلي الشر يكونون قشا ويحرقهم اليوم الآتي قال رب الجنود فلا يبقي لهم أصلا ولا فرعا. (ملاخي : ٤).

أما الموضوع الثاني الذي يشتمل عليه كتاب ملاخي فهو وصيته لليهود بالالتزام بشريعة موسى، وبشارته لهم بإرسال نبي اسمه إيليا يعطف قلب الآباء على أبنائهم وقلب الأبناء على آبائهم، وتوعدهم إن لم يؤمنوا بهذا النبي فسوف يصب عليهم اللعن في كل الأرض.

"٤ اذْكُروا شريعة موسى عبدي وسائر فرائضي وأحكامي التي أعطيتها في جبل حوريب لجميع شعب إسرائيل. ٥ ها أنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب اليوم العظيم والمخوف. ٦ فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على آبائهم لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن. " (ملاخي :٤).

ولكن اليهود كدأبهم لم يلتزموا بشريعة موسى، ولم يؤمنوا بعيسى نبيا فسلط

(١) الكتاب المقدس ترجمة تفسيرية مرجع سابق ص١١٢٥.

عليهم الرومان يسومونهم سوء العذاب يذبحونهم ويستعبدونهم ويهدمون معابدهم ويجعلون بيت إسرائيل خرابا.

اليهود تحت حكم الرومان

لقد وضعت روما سيطرتها المحكمة على أرض يهودا مع القرن الأول ق.م. وأصبح حكام روما وولاتها أكثر قساوة وظلما حتى ثار اليهود سنة ٦٦ تحت زعامة المتحمسين الذين يؤمنون بأن الله سيمدهم بعونه في حربهم ضد كفار الرومان ويأتي "بآخر الزمان" المتوقع. لكن اليهود لم يكونوا علي رأي واحد فيما يتعلق بهذه الحرب. اعتقد كثير منهم إما أن الوقت ليس هو الوقت الموعود، وإما أن الحرب ليست الوسيلة المناسبة لتحقيق الخلاص.

إن الثورة اليهودية ضد روما قد تسببت في تمزيق هائل في الإمبراطورية الرومانية، واستقدمت وحدات من الجيش الروماني من مناطق متعددة من أوروبا والشرق الأوسط لإخمادها والقضاء عليها. ونجحت روما في النهاية بإعادة السيطرة على القدس سنة ٧٠ م ودمرت الهيكل في أثناء العملية. وكانت آخر قلعة تسقط في أيدي الرومان هي مسّادا قرب البحر الميت وذلك سنة ٧٣ م.

لقد توقفت القرابين بعد تدمير الهيكل وانتهت الكهانة الوظيفية، ولم تعد القدس تلعب دور الموحد للأمة اليهودية المشتتة. ومع نهاية زعامة الكهانة اليهودية بدأ حكماء اليهود المتعلمين، أو الأحبار، يملئون الفراغ. ولعب السنهدرين أو مجلس العلماء دور المجلس التشريعي والقضائي المركزي وأصبح رئيسه السلطة اليهودية المركزية في العلاقات مع روما. ووضع تدمير الهيكل نهاية لليهودية التوراتية وبداية لظهور اليهودية الربانية (الحاخامية).

حدثت ثورة يهودية أخيرة في غاية التدمير ضد روما، وكان سببها أيضا الحكم الروماني الجائر، وقادتها شخصية عسكرية مهدية باسم شيمون باركوخبا ومساندة الحاخام عقيبا. انتزعا القدس من الرومان سنة ١٣٢ وحاولا إعادة بناء الهيكل. لكن فشلت "انتفاضة باركوخبا". ومحا الإمبراطور الروماني هدريان مدينة القدس بأكملها سنة ١٣٥م ومنع اليهود من الظهور حول القدس تحت تهديد الموت. وأصبحت المنطقة حول المدينة خرابا مهجورا.

غيَّر الرومان اسم يهودا إلى اسم "فلسطين" المأخوذ من اسم الشعب القديم البائد المعروف بالفلسطينيين. أصبحت يهودا خرابا، وفر الناجون شمالا إلى الجليل أو خارج المنطقة كليا. ومنع الرومان الوثنيون - وكذلك المسيحيون فيما بعد - اليهود من دخول القدس ما عدا يوما واحدا في السنة، اليوم التاسع من شهر آب الذي يصادف يوم حداد يهودي شامل[١].

المسيح المنتظر عند اليهود

لقد تطور مفهوم المشيحانية عبر العصور كما كان الأمر مع الأفكار اليهودية المعقدة. إن اللفظة العبرية "الماشيح" (بالعربية: المسيح) تشير في الأصل إلى ملك أو كاهن أدخل إلى المركز رسميا عن طريق مسح رأسه بالزيت (كتاب صموئيل الأول ١ : ١)، فلما أصبح داود ملك بني إسرائيل صار محبوبا كالملك الكبير وسمى بالذي " تمسَّح "، ولقد اعتقد أن حكم أسرته سيستمر إلى الأبد. فلما انهارت إمبراطوريته الكبيرة نشأ اعتقاد أن بيت داود سيعاد يوما من قبل ملك قوي من أسرة داود ماشيح آخر مثل داود نفسه. ولقد استمرت هذه الفكرة في التطور بعد الفترة التوراتية. فاعتقد اليهود في الفترة الرومانية أن الله سيبعث ملكا كبيرا من بيت داود لكسر أغلال عبودية الإمبراطورية الكافرة وسيحكم على مملكة مجددة سيعود إليها اليهود الذين يعيشون في المنفى والشتات.

إن الخلاص المشيحاني أُسقِط من أي سياق تاريخي مباشر مع دخول فترة التلمود[٢]. فالمسيح أصبح يعتبر الآن كملك سينقذ وسيحكم إسرائيل في ذروة

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٥١.

(٢) في أعقاب تخريب الهيكل المقدس في أورشليم القدس على يد الرومان عام ٧٠ ق.م، جمع علماء الديانة اليهودية في أرض إسرائيل مجلدات المشناة الستة لتسجيل وحفظ سنن الشريعة والقوانين والعادات الدينية اليهودية، وخلال القرون الخمسة التالية ألحقت بالمشناة، إلغمارا في فقه الشريعة، وهي عبارة عن شروح مسهبة وحواش ومناظرات وتفاسير دوّنها حاخامات في أرض إسرائيل وفي بابل، ويشكل هذان النصان التلمود الذي يظل مصدرًا حيًا للدراسة والفكر والتفسير اليهودي «نقلاً عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية».

التاريخ البشري، وسيكون الأداة التي ستؤسس المملكة الإلهية العادلة على الأرض في آخر الأيام. وسيعيد فترة السعادة الفيزيقية والروحية معا. يجب التنبيه هنا أن كل الآراء اليهودية عن المسيح تفهم بأن المسيح ليس إلا أداة إلهية، وليس المنقذ والمخلص كما ورد في المسيحية. ففي الديانة اليهودية الله وحده هو المنقذ والمخلص. فليس المسيح إلا عبارة عن أداة إلهية. وهكذا فإن المفهوم اليهودي عن المسيح الذي سبق الفكرة المسيحية كمنقذ إلهي، هو مشابه تماما للمفهوم الإسلامي الذي أصبح مرتبطا بالمهدي المنتظر الذي سيعيد الدين والحكم العادل إلى العالم"[1].

فكرة ظهور المسيح ظهرت إذن نتيجة إحساس اليهود بالهوان، والعجز عن الدفاع عن أنفسهم ومقدساتهم لذا بدأت فكرة المسيح المخلص تراودهم، وأحلام مملكة داود تساورهم، لكن ليس هناك من دليل توراتي على ظهور مسيح جديد بعد قورش. لكن هذا ليس مهما فبعد تدمير الهيكل انتهت اليهودية التوراتية وبدأت اليهودية الربانية (الحاخامية) فحلَّ الحاخامات اليهود محل الأنبياء، وحل التلمود محل التوراة، وأصبح من حق الحاخامات أن يشرعوا من دون الله، وأن يحرفوا كلام التوراة عن مواضعها،وأطاع اليهود كلام الحاخامات وإن خالف التوراة.

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، (التوبة : ٣١)

وفي المسند، والترمذي أن عَديّ بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: "بَلَى، إنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلالَ، فَاتَّبَعُوهُمْ، فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ"[2].

لذا فإن أحبار اليهود عادوا إلى نفس نبوءات الأنبياء التي تحققت على يد قورش يتأولونها لتبشر بمسيح جديد يأتي ليخلصهم مما فعله بهم الرومان، ويحقق لهم الوعود الإلهية ويأتي بيوم القيامة. وسيكون هذا دأبهم طوال التاريخ

---

(١) الحاخام روبن فايرستون د د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ١٦٧.

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٦٦.

فعند كل كارثة أو اضطهاد تظهر فكرة المسيح المنتظر الذي يشترط فيه شرطان :

١- أن يكون من نسل داود.

٢- أن يحقق لهم الوعود الإلهية (العودة، والاختيار، والخلاص)

وبالقطع لن يأتي رسول من عند الله ليحقق لهم ما تهوى أنفسهم ؛ لذا كفروا بكل الأنبياء والمرسلين الذين أتوا بعد ذلك بل وقتلوا فريقا منهم.

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾، (المائدة:٧٠).

" لقد كان شعور توقع المسيح المخلص عاليا خلال الفترة الرومانية واعتقد عدد من اليهود أن بعض الشخصيات النادرة هي فعلا المسيح المنتظر. كان أشهر هذه الشخصيات عيسى (يسوع) وإن كان بعض اليهود آمنوا بمقامه كمسيح مخلص، فإن معظمهم لم يؤمنوا به. وشكّل أولئك اليهود الذين آمنوا به مسيحا المسيحية التي قبلت وطالبت بالاعتقاد بمسيحية يسوع كحقيقة دينية. وبعد ذلك بوقت قصير تطلب المسيحية الاعتقاد بأن يسوع لم يكن فقط المسيح المنتظر، بل إنه أيضا ابن الله بعينه.

رفض معظم اليهود الاعتراف بمسيحية يسوع لأن المسيح الحقيقي بالنسبة للديانة اليهودية، سيأتي بالخلاص المباشر ولا يحتاج إلى "قدوم ثانٍ". ولقد انتقلت المسيحية إلى ما وراء الإيمان اليهودي المقبول عندما بدأ اتباعُ عيسى يطالبون أيضا بضرورة الاعتقاد بأن عيسى ابن الله. وتعتبر الديانة اليهودية أن فكرة الثالوث انتهاك لوحدانية الله[1].

لقد توصل بعض الحاخامات (الربانيين) اليهود إلى نتيجة مفادها أن الله كتب على الشعب اليهودي أن يظل في المنفى إلى حين قدوم المسيح إثر تدمير الهيكل الثاني وتشتيت الرومان لليهود عقب ذلك. لقد علموا أنه لم يعد بالإمكان، وليس مرغوبا لليهود أن يتحكموا في مصيرهم السياسي وسيظل الأمر كذلك إلى حين قدوم المسيح وقيامه بتخليص ليس فقط اليهود بل كل العالم ؛ فقد انتهت كل

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون«ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٧١.

ثورات اليهود بالفشل وبالتدمير لعدد كبير من أهالي اليهودية فيما بعد. وكان الدرس الذي استنتجه بعض زعماء الدين من هذه الكوارث هو أنه يجب على الناس أن ينتظروا حتى يأمر الله بموعد الخلاص. فالله وحده فقط هو الذي يملك القدرة لتحديد موعد الخلاص. فمحاولة "ليّ ذراع الله" !! في العمل عبر القنوات السياسية لإنشاء دولة يهودية لا تؤدي إلا إلى غضب الله وإلى تدمير بشع آخر[1].

ظلت هذه الرؤية للمسيح هي الحاكمة طوال التاريخ اليهودي حتى ظهرت الحركة الصهيونية التي بدأت ونظمت بالكامل تقريبا من قِبَل الأشخاص الذين لم ينتسبوا إلى المبادئ الدينية والعقائدية للديانة اليهودية التقليدية. فالصهاينة لم يتفقوا مع الحاخامات اليهود ولم يطلبوا مشورتهم، وبالعكس فإنهم نادوا بتأسيس دولة عَلمانية حديثة، يكون فيها اليهود في مأمن من الاضطهاد والظلم ومن الخوف الدائم من العنف.

وكنتيجة لهذا، فإن جماعة من زعماء الدين قد عارضوا الصهاينة منذ البداية. ولهذا بقي الصهاينة على وجهة الحصر تقريبا عَلمانيين.

لكن مع الثلاثينيات من القرن العشرين بدأ يظهر تفسير ديني جديد للصهيونية مع أفكار الحاخام أبراهام إسحاق كوك، أحد زعماء الطائفة اليهودية المؤثرين في فلسطين. فلقد اقترح أن الصهاينة العَلمانيين لم يقوموا بعملية ليّ الذراع مع الله، لكنهم كانوا في الحقيقة، يقومون بتنفيذ المخطط الإلهي، وإن كان ذلك عن غير قصد، بتأسيسهم دولة يهودية، وبذلك فإنهم بدئوا عملية الخلاص. ويرى كذلك أن إرادة الله، كانت وهي لا تزال لغزاً، لكن العلامات توحي بأن الخلاص النهائي قريب المنال. وهكذا فإن على اليهود المتدينين مساعدة الصهيونيين، أو على الأقل، فإن عليهم أن لا يحكموا عليهم بالإدانة بسبب عملهم في بناء أرض إسرائيل. لقد تم تفسير بشاعة الهولوكوست من قبل بعض مناهضي الصهيونية من اليهود الأرثوذكس كعقاب شديد على محاولة ليّ الذراع مع الله (استباق الأحداث). لكن بالنسبة لمعظم الآخرين، سواء من الأرثوذكس أو

(١) نفسه ص ٧١.

المحافظين، أو الإصلاحيين أو العلمانيين فإن الهولوكوست أثبتت إيمانهم أن دولة يهودية فقط هي التي تستطيع أن تحمي يهود العالم من أي كارثة مستقبلية.

لقد فسر كثير من اليهود الأرثوذكس انتصارات إسرائيل في حرب الاستقلال سنة ١٩٤٨، وأكثر من ذلك حرب ١٩٦٧، على أنها علامات إلهية تبين أن الخلاص أصبح في متناول اليد أخيرا. وكنتيجة لهذا أصبحت اليهودية الأرثوذكسية صهيونية أكثر فأكثر في خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بسبب وضع إسرائيل تماما داخل عملية وصول الخلاص النهائي قريب المنال. لكن الصهيونية نفسها قد أخضعت لعدة تغييرات وتطورات. ففي الوقت الذي يستمر بعض الصهاينة بالدعوة إلى السيطرة السياسية اليهودية على كل أرض التوراة الإسرائيلية، فإن الأغلبية الساحقة تتجه أكثر فأكثر نحو قبول دولة أقل حجما بكثير بحيث تحمي هويتها اليهودية والديمقراطية وتكون في علاقة تعاون وثيقة مع جيرانها العرب والمسلمين[١].

بعد أن عرفنا موقف اليهود من المسيح ومن المسيحية نذكر الآن موقف المذاهب المسيحية من اليهود واليهودية والصهيونية.

موقف الكنيسة الكاثوليكية من اليهود

كان الموقِف التقليدي للكنيسة الكاثوليكية، خِلال قريب مِن ألفي عام، تِجاه اليهود، يقوم على ثلاثِ نظرِيات، حتى مجمع الفاتيكان الثانِي، وقوانِين: ١٩٦٤ وهذِهِ النظرِيات هِي :

١. إن اليهود بِقَتْلِهِم يَسُوع، قد قتلوا الرب، فهم الشعب " قاتل الإِله ".

٢. والشعب المختار مِن الرب هو منذئذٍ الكنِيسة.

٣. والعهد القدِيم تجسِيد رمزي مسبق لِلعهدِ الجدِيد.

لقد أدّى التفسِير التقليدي . إذن . إِلى تصور أن اليهود حِين رفضوا الاعتِراف بيسوع رسولا لِلرب، فلم يهتدوا، قد قطعوا أَنفسهم مِن الأمة الإبراهيمية،

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٧١-٧٢.

وصاروا بصرف النظر عن كونهم الشعب المختار، محكوما عليهم باللعنة، جرَّاء آثامهم، لقد عاقبهم الله من قبل بأن طردهم من فلسطين، ودفعهم سبايا إلى بابل، ومع ذلك فقد تمَّ الوعد الذي أعطاه الرب لإبراهيم، رغم خطاياهم، فبعد أن عُوقبوا بالسبي في القرن السابع قبل الميلاد أعادهم "قورش" إلى فلسطين، وعندما عَصَوا مرة أخرى وكان عصيانهم كبيرًا برفضهم الاعتراف بيسوع، مسيحًا مكملاً للوعد - عاقبهم الرب بصورة أقسى، أيضًا، فقد قَطَّعَهُم في الأرض أُمَمًا، وَفَرَّقَهُم في كل أنحاء الدنيا، فلم يَعُد يجد السلام من بينهم - منذئذ - إلا بعض أفراد، يتحوَّلون إلى المسيحية.

وما لبثت أهمية أورشليم ذاتها أن تناقصت في نظر الكنيسة، ولا سيما بعد عام: ٥٩٠ م، ففي عهد البابا جريجوار الأكبر، والذي كان جالسا على كرسي البابوية، مركز السلطة المسيحية - منح الأولوية نهائيّاً لروما، وبذلك لم يَعُد لأورشليم دَوْر في القيادة الروحية، لم تَعُد سوي مكان للحج، ولم تَستَعِدْ قيمتها، باعتبارها مركزًا للاهتمام إلا عندما استولى عليها الأتراك السلاجقة، وحينئذ وُلدتْ فكرة الحروب الصليبية.

تلكمُ هي النظرية الرسمية للكنيسة الكاثوليكية، خلال ألفي عام، وكان لها نتيجتان عامتان:

١- أنها أدَّت إلى تولد مبدأ معاداة السامية، وهو مبدأ مسيحي من الناحية النوعية، فقد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية، حتى منتصف القرن العشرين، أن "اليهود" كانوا هم "الشعب القاتل"، قاتل الرب في يسوع المسيح، وهي فكرة بشعة، تجعل شعبا بأكمله، ولعدة قرون، مسئول عن جريمة ارتكبتها منذ ألفي عام هيئته الكهنوتية.

٢- ومن الناحية العقدية والتفسيرية - كانت النظرية الرسمية - ولا سيما منذ "مدينة الرب " للقديس أوغسطين أن تكون قراءة العهد القديم بطريقة رمزية تُرى في المشاهد التي قدمها باعتبارها أحداثا تاريخية، كما تُرى في نبواته - تَصَوُّرًا رمزيّاً مُسَبَّقًا للمسيحية.

أما فيما يتعلق بالحالة الخاصة للكنيسة المسيحية وعلاقتها بالتاريخ اليهودي السابق عليها فإنها قد فسرت "عودة صهيون" بأنها من الناحية الرمزية تشبه عودة المسيحي إلى نقاء إيمانه.

وهكذا مطّطوا في الحركة، التي كانت في الأناجيل، ولا سيما إنجيل متّى. تهدف إلى تبْيَان أن في حياة المسيح إنجازًا لتنبؤات العهد القديم.

يقول المؤرخون الأكاديميون اليهود: " تعتبر الديانة المسيحية نفسها الوريث الطبيعي للديانة اليهودية، ويولع المسيحيون باعتبار أنفسهم "إسرائيل الحقيقية مفترضين بذلك أن اليهود ليسوا أهلا للاسم. وبسبب اعتبار المسيحية نفسها ناسخة لليهودية فإن النظرة المسيحية الذاتية نفسها تتطلب أن يهان اليهود والديانة اليهودية ويصغروا علانية. وأصبح إذاً في غاية الأهمية لليهود الذين يعيشون بين المسيحيين أن يعيشوا في وضع منحط ومهين»[1].

لقد ظهرت نزعة معاداة السامية، المسيحية أصلا - مصحوبة بانفجار شرس جدا، أثناء الحروب الصليبية، وكانت أول المذابح الكبرى التي أقيمت لليهود على يد المحاربين المسيحيين، وهم في طريقهم إلى فلسطين، بل إن جودفروي دوبريون، بمجرد استيلائه على بيت المقدس لم يقنع هو وجيشه بإبادة المسلمين أو طردهم، فقد حبسوا الأمة اليهودية في المعابد، ثم أهلكوها إحْرَاقًا.

وفي أوربا كان الملوك الصليبيون هم الذين طردوا اليهود: إدوارد الأول في إنجلترا، وقد طردهم عام: ١٢٩٠م، وفيليب دي بل، ملك فرنسا، طردهم عام: ١٣٠٦م، وقد مضى ملوك إسبانيا إلى هذين الحدَّين من التطرف في أوربا "المسيحية"، فقد طرد اليهود أو ذبحوا بيد الملوك "الكوثوليك جداً"، وذلك إبَّان نجاحهم في هدم آخر الممالك الإسلامية عام: ١٤٩٢م، مملكة غرناطة.

أما روسيا المقدسة فقد كانت مسرحًا لمذابح كبرى لليهود[2].

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٥٥.

(١) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثاني، الفصل الأول: العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية مرجع سابق.

موقف المسيحيين البروتستانت من اليهود

عندما ظهر المذهب البروتستانتي على يد مارتن لوثر في القرن السادس عشر، قلب المسيحية رأساً على عقب، من خلال التغيرات اللاهوتية التي جاء بها والتي روجت لفكرة أن اليهود أمة مُفَضَّلَة وأكدت على ضرورة عودتهم إلى أرض فلسطين كمقدمة لعودة المسيح المنتظر وبزوغ فجر العصر الألفي السعيد.

وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه التغيرات اللاهوتية، هو ما دعا إليه لوثر من عدم الاعتراف بأن فهم الكتاب المقدس وقفا على رجال الكنيسة وحدهم. وهذا الوضع أدى إلى فتح الباب على مصراعيه أمام أصحاب البدع والأضاليل، مما أدى إلى تعدد الفرق البروتستانتية نفسها حتى وصل عددها الآن إلى أكثر من ٢٠٠ فرقة في مذهب لم يتعد وجوده أكثر من أربعة قرون!

كما أنه في ظل هذا المذهب ازداد الاهتمام بالعهد القديم (التوراة) تحت شعار العودة إلى الكتاب المقدس باعتباره مصدر العقيدة النقية، مع عدم الاعتراف بالإلهامات والتعاليم غير المكتوبة التي يتناقلها الباباوات الواحد عن الآخر والتي تعتبر مصدراً مهماً من مصادر العقيدة المسيحية.

وهكذا أصبح العهد القديم يشكل جزءاً مهماً من مصادر العقيدة البروتستانتية، فأصبح هو المرجع الأعلى للسلوك والاعتقاد ومصدراً للتعاليم الخلقية والمعلومات التاريخية أيضاً واحتلت فكرة عودة المسيح إلى الأرض، مكاناً رئيسياً في الفكر المسيحي البروتستانتي.

وتقوم هذه الفكرة على أساس الاعتقاد بأن السيد المسيح سيعود إلى الأرض ثانية (قبل بداية الألفية الثالثة للميلاد) ليقيم مملكة الله على الأرض والتي ستدوم ألف عام (العصر الألفي السعيد) حيث سيحكم العالم من مقره في مدينة القدس. ويعتقد المسيحيون البروتستانت أنه لابد من حدوث بعض الأمور كمقدمة لهذه العودة، وهي :

١- إقامة دولة إسرائيل بحدودها التوراتية من النيل إلى الفرات وعودة اليهود إليها.

٢- إقامة الهيكل اليهودي.

٣- وقوع معركة فاصلة بين قوى الخير وقوى الشر تسمى(هرمجدون)[(١)].

إذن كل من الكاثوليك والبروتستانت يرون أن الكنيسة هي التي ورثت الوعود من اليهود مع فارق رئيسي بينهما، ففي حين أن الكاثوليك يناصبون اليهود العداء جهارا، ويرمونهم بالكفر صراحة، ويتمنون فناءهم يقيناً، نجد أن البروتستانت لا يفعلون ذلك بل يرون أن الخلاص لا يتم إلا بتحقيق عودة اليهود إلى وطنهم وتنصيرهم، أي التخلص منهم عن طريق التهجير والتنصير وهم في ذلك يتفقون مع الصهيونية التي ترى " أن الأسطورة الاسترجاعية هي أسطورة صهيونية ومعادية لليهود في آن واحد. فهي ترى أن الخلاص لا يتم إلا بتحقيق عودة اليهود إلى وطنهم وتنصيرهم، أي التخلص منهم عن طريق التهجير والتنصير.

ومعنى هذا أن البروتستانت –وهي عقيدة معظم الأمريكان والإنجليز- ترى أن المسيح المخلص لن يأتي إلا بعد أن يتمكن اليهود من العودة إلى فلسطين ثم ينزل والمسيح ابن مريم –وليس ابن داود- لينصِّر اليهود ويحقق للمسيحيين الخلاص ويبيد أعداءهم من غير المسيحيين وهذا ما يحدث في معركة هرمجدون.

إن ممثلي الطوائف البروتستانتية الأمريكية والغربية تطرح نفس المقولات التي يرددها حاخامات اليهود حول القدس، بل إنها تغالي في أصوليتها المتزمتة وعدائها العنصري للعرب والمسلمين.

وهي التي تدفع باتجاه هدم الأقصى والإسراع ببناء ما يسمى الهيكل حتى يأتي المسيح الجديد.

وهذه الطوائف لها الصدارة في الشؤون السياسية والإعلامية في الولايات المتحدة وهي تمثل أكثر من مائة مليون بروتستانتي أمريكي من بينهم رؤساء للولايات المتحدة وزعامات الحزبين الجمهوري والديموقراطي[(٢)].

(١) الصليبيون الجدد WWW.alshaab.com.

(٢) حسن الباش WWW.qudsway.com.

المذهب البروتستانتي قراءة مغلوطة الإنجيل

كيف يستطيع مسيحي أن يؤيد النظرية "المادية" التي تقرر أن الوعد وعد بأرض لشعب معين، على حين أن الإنجيل ما فتئ يردد أن الوعد قد تم في يسوع - المسيح، ومن أجل الإنسانية كلها.

ومهما يكن أمر الاتصال أو الانفصال بين العهد القديم والجديد، فإن ما يبقى هو أن "الوعد" بالنسبة إلى أي مسيحي يتم في يسوع المسيح، ولا يمكن أن يكون وعدًا بأرض.

ويسوع يُبَشِّر " بمَلكوت الرب "، ولكن هذه البشارة ليست مُقَيَّدَة بالنسبة إليه بمُجَرَّد اِسترداد قومي لأرض.

ويسوع لا يعترف بأي حق إلهي للإمبراطور الروماني، ولا لهيرودس، وهو يرفض في ثلاثة مواضع من الأناجيل رفضًا قاطعًا أن يربط رسالته بتملك أرض أو سلطة، وعندما أراد الشيطان من أعلى جبل أن يُريه ممالك العالم، وأن يُقدمها إليه قال له يسوع: "اذهب يا شيطان". "متى (٤/١٠)".

إنه يرفض أن يدعى "المسيح"؛ لأن التقليد اليهودي يجعل لهذا الاسم مفهوما سياسيا، فهو يضرب - إذن - صفحا عن أولئك الذين أعطوه هذا اللقب، يضرب صفحًا - مثلاً - عن بطرس حين يقول له: أنت المسيح. "مرقص (٨/٣٠)" وحين يسأله رئيس الكهنة قيافا: "هل أنت المسيح ابن الله ؟ "، "مَتَّى (٢٦/٦٤)، ولُوقا (٢٢/٦٨)".

وعندما يسأله ببلاطس: أنت ملك اليهود؟ يتجنب يسوع هذا الشرك، وبدلا من أن يجيب بنعم أو لا - يقول: مملكتي ليست من هذا العالَم" - "يوحنا (١٨/١٣-٣٦).

إن مسيحيته تمضي على النقيض من مسيحية اليهود التقليدية، أولئك الذين كانوا ينتظرون مسيحًا يبعث مملكةَ داود[1].

---

(١) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثاني، الفصل الأول: العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية، مرجع سابق.

اختلاف مسيحيي العرب مع المذهب البروتستانتي

إن موقف المسيحيين العرب جد مختلف عن مسيحيي الغرب البروتستانت وذلك يرجع لاختلافات جوهرية بينهما :

١- إن المسيحيين العرب معظمهم أرثوذكس، وقليل منهم كاثوليك، وموقف الأرثوذكس والكاثوليك يختلف تماما عن موقف البروتستانت (عقيدة غالبية الأمريكان والإنجليز) فيما يتعلق بالوعد الإلهي لبني إسرائيل، وعقيدة شعب الله المختار، والعودة إلى أرض الميعاد.

فالأرثوذكس والكاثوليك يريان " أن مجيء المسيح قد نقض العهد الإلهي لإسرائيل وأنهاه.

فبعد المسيح لا وعد ولا اختيار إلا لمن آمن بالخلاص وسعى إليه.

وباب الخلاص مفتوح لكل الناس بلا استثناء، وعلى اليهود أن يؤمنوا بالمسيح مثلهم مثل غيرهم إذا أرادوا الخلاص. أما النبوءات الخاصة بعودة اليهود فكانت تُؤوّل على أنها تحققت حينما أعادهم قورش الفارسي إلى فلسطين.

أما الفقرات الأخرى التي تتنبأ بمستقبل مُشرق لإسرائيل فتقتصر على إسرائيل الجديدة وحسب، أي الكنيسة المسيحية. وبعد ظهور المسيح وإنكار اليهود له أصبح اليهود إسرائيل الجسدية الزائفة والشعب المختار للعنة الإله وأصبحت اليهودية اسما لا ديناً "[(١)].

وهذه طائفة من أقوال أبرز الرموز المسيحية العربية التي تؤكد موقفها العقائدي من المسيحية البروتستانتية الأمريكية

يقول د. ميلاد حنا المفكر المسيحي البارز (عضو المجلس الأعلى للثقافة في مصر).

" اليهود ركبوا موجة كبيرة جدًا في تفسير بعض نصوص دينية في أن يجعل المؤمن المسيحي - البروتستانتي - علشان يبقى مسيحي كويس لازم يؤمن بحق

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «اليهود واليهودية والصهيونية» م٢ ج١ الباب الأول: من التحديث إلى ما بعد الحداثة، مرجع سابق.

إسرائيل في الوجود وإنها تستنى، وإن دا يخلي المسيح يحيا يقوم دا يحقق القيامة"[1].

ويضيف الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك (عضو مجلس الشعب المصري الأسبق والمفكر المسيحي المعروف) قائلا : " الأخطر هو الاختراق الصهيوني للمسيحية من خلال إعمال بعض نصوص العهد القديم اللي هو كتاب اليهود لتبرير صفقات سياسية، يعني هو لما ما يقول حكاية الألفية دي، هو المقصود باختصار شديد، الألفية إنه لابد تنتهي ببناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، ومن هنا يبقى تبرير للوجود الإسرائيلي وإنهاء للقضية الفلسطينية من أساسها، وللأسف الشديد أن هناك بعض المسيحيين يغرر بهم باعتبار إن دي تحت مقولات ونصوص دينية، ومن هنا لا.. لا ينظرون إلى مجمل العقيدة وموقف المسيحية بشكل عام من اليهود، ومعروف إن إحنا كنائسنا التقليدية اللي هي الأرثوذكسية والكاثوليكية ضد الحكم الألفي باعتبار إن إحنا الآن يحكمنا المسيح حكما روحيا، ولا وجود لما يسمى بشعب الله المختار، ولا أرض الميعاد، ولا حكم (ألفي) ولا كل الكلام دا كله الهراء الكذب"[2].

إن المسيحيين العرب قاوموا الحملات التبشيرية البروتستانتية الغربية واعتبروها خارجة على نهج تعاليم المسيحية الصحيحة وحذروا أتباعهم منها.

وإليك هذا الحوار بين أحد القسيسين الأرثوذكس، وشاب مسيحي من نفس المذهب حول الجمعيات البروتستانتية التبشيرية :

مارك : شفت يا أبونا الإعلان عن هذه النهضة الروحية.

أبونا : آه ده نهضة في جمعية بروتستانتية - خلوا بالكم.

مارك : إحنا مش ممكن نحضرها، لكن عايزين نسمع رأيك في اللا طائفية المزعومة بهذه الجمعية فهي تدعو الناس للخلاص، ولا تتعرض إلى أي عقيدة - و ليه بنقول إنها بروتستانتية ؟

---

(١) د. ميلاد حنا في حوار معه قناة الجزيرة في برنامج «بلا حدود» ٢٠٠٢/٨/١٢ .

(٢) قناة الجزيرة في برنامج «بلا حدود» ٢٠٠٢/٨/١٢ .

أبونا": لأنها جميعة لا تنادى بالتعليم الصحيح وإنما تدعو الناس إلى الخلاص بمفهوم غير أرثوذكسي خالٍ من الروحانية الأرثوذكسية"[١].

وموجز القول إن من المستحيل بالنسبة إلى أي مسيحِي أن يقدم مغزًى لاهوتيا لدولة إسرائيل، فإن إحتِرام الإِيمان اليهودي لا يستتبِع مطلقا الاندماج بين اليهودية والصهيونية، الذِي يؤدي إلى إضفاء صفة القداسة على الأهداف التاريخية لحركة سياسية.

هذِهِ القِراءة الانتقائية والقبلية لِلكِتابِ المقدس ليست أكثر قبولاً بالنسبة إلى اليهودي الروحاني مِنها بالنسبة إلى النصراني الكاثوليكي والأرثوذكسي ؛ لأنها تستتبِع بالنسبة إلى اليهود أنفسهم نوعا مِن الردة: هو أن يستبدلوا "دولة إسرائيل بإِله إسرائيل".

أما بالنسبة لليهودي الصهيوني فإنه يتمسك بأساطير الشعب المختار والأرض الموعودة والخلاص ويكفر بما عداها من روحانيات الدين المُوسوي وفي مقدمتها إله إسرائيل الذي منحهم هذه العهود"[٢].

الصهيونية وأسطورة الخلاص

لقد ظلت عقيدة اليهود والنصارى طوال تاريخهما تؤمنان بانتظار الخلاص، والفردوس الأرضي على يد الماشيخ جزاءً لليهود على جنسهم السامي، وعلى يد المسيح المخلص جزاءً للمسيحيين على إيمانهم بأن يسوع ابن الله.

وبعد ظهور الصهيونية عمل كل من اليهود والمسيحيين الصهاينة على تحقيق الخلاص بأنفسهم دون انتظار المُخَلِّص زاعمين أن ما يقومون به من إعادة اليهود إلى فلسطين (أرض الميعاد) يمهد لظهور المُخَلِّص.

لذا عقد زعماء اليهود ثلاثة وعشرين مؤتمرا منذ سنة ١٨٩٧ حتى سنة ١٩٥١ وكان آخرها هو المؤتمر الذي انعقد في القدس لأول مرة في ١٤ أغسطس من

---

(١) عن موقع مطرانية الأقباط الأرثوذكس بالفيوم.

(٢) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثاني، الفصل الأول: العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية، مرجع سابق.

هذه السنة ليبحث في الظاهر مسألة الهجرة إلى إسرائيل وحدودها، وكان الغرض من هذه المؤتمرات جميعا دراسة الخطط التي تؤدي إلى تأسيس مملكة صهيون العالمية[١]، دون انتظار لظهور الماشيخ.

ويعتبر المؤرخون اليهود مملكة داوود التحقيق النهائي لعقيدة العهد بين الإله والشعب، وهو العهد المعطى للآباء الإسرائيليين بالأرض أولا، ثم بالخلاص ثانيا. وفي عصر داود يكتمل الوعد بالأرض والخلاص ودولته نموذجا للملكة في التفكير الإسرائيلي فبعد سقوط هذه المملكة أصبحت فكرة دينية غيبية حشرية نظرا لعدم إمكانية تحقيقها تاريخيا، وارتبطت بهذه المملكة الغيبية -مملكة الله- فكرة المسيح المخلص، وهي أيضا عقيدة غيبية حشرية تقوم على أساس أن الخلاص الإسرائيلي سيتم على يد مسيح منتظر من نسل داوود، وارتباط المسيح المنتظر بشخص داوود معناه تحقيق خلاصهم من العبودية، وجمع شتاتهم،وضعهم في مملكة الله وأن هذا المخلص له دور سياسي حيث يقوم بأعباء تحرير اليهود، وإلى هذا الحد كانت الفكرة دينية بحتة إلى أن استغلها الصهاينة في العصر الحديث، وحولوها إلى واقع سياسي، وربطوها أيضا تاريخيا بداود، ولا عجب إذن أن تكون نجمة داود رمزا لهذا الارتباط بالتاريخ القديم[٢].

وتعد النبوءة أحد أوراق اللعبة السياسية المهمة والفاصلة في التاريخ الإنساني كله، يوظفها السياسيون لمصلحتهم بل وربما اخترعوها إن لم تكن موجودة، وذلك من أجل تحقيق مصالحَ وأهدافٍ سياسية لما لها من تأثير واسع يماثل العقيدة، خاصة وأنها تستمد قوة إضافية من كونها تلعب على غريزة البحث عن المجهول والولع بمعرفة الغيب لدى النفس الإنسانية.

كما يرتبط ذلك بما يطرحه الدكتور "عبد الوهاب المسيري" في قراءته المقارنة لمناهج التفسير في الأديان السماوية الثلاثة من أن الخطاب الحتمي للنبوءة إنما

---

(١) محمد خليفة التونسي «الخطر اليهودي برتوكولات حكماء صهيون» دار التراث ص٤٥.

(٢) د. محمد خليفة حسن «دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة» مرجع سابق ص ٦٢، ٦٣.

يرتبط بالتفسير الحرفي للنص الديني، وأن صعود هذا الخطاب في اليهودية والمسيحية خاصة الإنجيلية منها هو صعود للتفسير الحرفي للنص، وعدم تجاوز الحرفية إلى تفسير يوضع في سياق أكبر وأوسع في إطار مقاصد العقيدة ؛ مما يحول هذه العقيدة من رؤية تسامح وعدل إلى فعل وحركة ظلم وعدوان باسم مساندة تحقق نبوءة مّا"(١).

الفرق بين نهاية التاريخ ويوم القيامة

هناك فرق جوهري بين نهاية التاريخ عند أهل الكتاب، و يوم القيامة عند المسلمين، فنهاية التاريخ عند أهل الكتاب تتحقّق داخل الزمان الإنساني وعلى الأرض، حين يؤسِّس الإنسان الفردوس (مملكة صهيون على يد الماشيخ الذي هو من نسل داود بالنسبة لليهود، ومملكة المسيح على يد المسيح ابن مريم بالنسبة للمسيحيين) داخل الزمان، فهو فردوس مادي أرضي. يتم على أرضنا هذه وليس في الدار الآخرة.

"لم يرد في التوراة ذكر الآخرة وأن الجنة للمتقين والعذاب للمذنبين. إن الجزاء والعقاب، بحسب المصادر التوراتية مثل سفر التثنية ١٢ أو المصادر النبوية مثل سفر إرميا ٣: ١٠، يهتمان فقط في هذا العالم وليس في الآخرة. إذاً، بحسب التوراة، فإن كل الموتى سواء أكانوا سعداء أم أشقياء يدخلون إلى عالم مظلم موجود في باطن الأرض يقال له شيؤول، الهاوية. حتى إن النبي الكبير والكاهن صموئيل دخل مجال هذه الهاوية (كتاب صموئيل الأول: ٢٨ :٨ وما بعدها).

وكما ذكر أعلاه، فإن التوراة ظلت صامتة تقريبا حول موضوع الآخرة. لم يكن حكماء التلمود على ذات الرأي فيما يتعلق بمصير الروح بعد الممات. وشعر بعضهم أن الروح تظل واعية تماما، ويرى آخرون أنها تكون ساكنة، وهناك عدد من المناقشات حول مواضيع مثل ماذا يعرف الموتى عن العالم الذي خرجوا منه، وهل يستطيع الموتى الاتصال بالأحياء وغير ذلك. وبالرغم من اعتقاد

(١) حسام تمام «نبوءة نهاية العالم» نقلاً عن موقع إسلام أون لاين.

الحاخامات في نوع الحياة الآخرة، إلا أنهم لم يهتموا كثيرا بتفاصيل ما يمكن توقع حدوثه هناك. لم يروا أي مشكل في اعتبار عدد من التأملات معتمدين في النهاية على ما ورد في المزمور ٦٤: ٣: "لا عين رأت يا رب إلا أنت"[1].

هذا اعتقاد اليهود في الآخرة أما المسيحيون فيعتقدون أن المسيح سيرجع بعد ألف سنة ثم يحكم العالم ألف سنة، وعلى هذه العقيدة اجتمعت آمالهم واتجهت أنظارهم سنة ١٠٠٠ ميلادية ولكن المسيح لم يظهر فهدأت المسألة وتلاشت في الواقع لكنها بقيت في الأحلام، ولما شارف القرن العشرون على البزوغ أي قرب سنة ١٩٠٠ بدأت الدعوات تظهر من جديد واعتقدوا أن المسيح إن لم يظهر في أول القرن العشرين فسيظهر في آخره أي عام ٢٠٠٠ ولم يظهر المسيح في أوله ولا في آخره إنما الذي ظهر في أوله واستمر إلى آخره هو المسيح الدجال المسمى الصهيونية العالمية.

وهذا خلاف ما يؤمن به المسلمون من أن الدنيا دار ابتلاء وفناء، والآخرة دار خلود وجزاء فالإيمان باليوم الآخر من القواعد المكينة في الإسلام، وهو حجر الأساس في كل دين نزل من عند رب العالمين، وشرط أساسي لرضا الله تعالى ودخول الجنة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.(البقرة:٦٢).

فالإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح هذه القاعدة بأركانها الثلاثة هي عماد كل دين. وهذا الدين الذي بُعث به محمد ﷺ يعتبر أن الحياة جسر إلى الآخرة، وأن الإنسان يمر بأطوار ومراحل، فمن رحم الأم إلى هذه الأرض إلى القبر، فالبعث فالحشر فالميزان فالصراط، ثم إلى جحيم أو إلى نعيم مستقر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ١٦٠، ١٦١.

والحق أن الإيمان بالآخرة هو صمام الأمان في هذه الأرض، وهو الضابط الوثيق الذي يحرس الأخلاق، والحارس الأمين الذي يضمن تنفيذ الشريعة في هذه الدنيا، فهو الذي يمنع لحظة العين أن تمتد إلى محرم، ويمنع النفس أن تهجس بهواجس الشر، ويردع الفم أن يهمس ولو بكلمة واحدة لا يرضاها ربه، لأنها كلها مسجلة معروضة محصية عليه أنفاسه وكلماته وحركاته[1].

والآيات القرآنية الدالة على البعث والنشور والحساب كثيرة كثيرة منها قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾،(آل عمران :١٠٦، ١٠٧).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، (عبس : ٣٨ -٤٢).

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ، (يونس : ٢٨-٣٠).

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن وبر وفاجر، كما قال: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾، (الكهف : ٤٧).

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم ﴾، أي: الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يس : ٥٩).

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخبارًا عما يأمر به المشركين وأوثانهم

(١) د. عبد الله عزام «العقيدة وأثرها في بناء الجيل» ص٣٠.

يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أنكروا عبادتهم، وتبرءوا منهم، كما قال تعالى: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مريم : ٨٢). وقال ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾، (الأحقاف : ٥:٦).

﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك. وفي هذا تبكيت غظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحي القيوم، السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمرا بعبادته وحده لا شريك له، ناهيًا عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، (النحل : ٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، (الأنبياء :٢٥)، وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾، (الزخرف : ٤٥).

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبَيّن أحوالهم وأقوالهم، ورَد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾، أي: في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من عملها من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾، (الطارق : ٩)، وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، (القيامة : ١٣)، وقال تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾، (الإسراء : ١٣، ١٤).

وقوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أي: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه(١).

وهناك علامات كبرى تسبق يوم القيامة عند المسلمين نوجزها.

علامات الساعة

مما يجب الإيمان به في عقيدة المسلمين، أن يؤمن المسلم بأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها، وأن موعدها لا يعلمه إلا الله، أخفاه عن الناس كلهم، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة في بيان علامات الساعة وأشراطها وأماراتها.

فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه ذكر للساعة علامات صغرى معظمها يدور حول فساد الناس، وظهور الفتن بينهم، وانحرافهم عن صراط الله المستقيم.

فمن العلامات الصغرى : «ما جاء في حديث جبريل أنه سأل الرسول ﷺ عن الساعة، فقال: "ما المسئول عنها بأعلم من السائل"، قال : فأخبرني عن أماراتها؟ قال: "أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة... »إلخ (رواه مسلم).

ومن علامات الساعة الصغرى «أن رجلا قال لرسول الله ﷺ متى الساعة؟ فقال: "إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظر الساعة". قال: وكيف إضاعتها ؟ قال: " إذا أُسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة» (رواه البخاري).

علامات الساعة الكبرى:

وهذه هي التي تدلُّ على قرب قيام الساعة، فإذا ظهرت كانت الساعة على إثرها، وأهل السُّنة يؤمنون بها كما جاءت عن النَّبيِّ ﷺ ومنها :

ظهور المهدي، وخروج المسيح الدجال، ونزول المسيح عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، والخُسوفات الثلاثة : خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْف بالمغرب، وخَسْف بجزيرة العرب، وخروج الدخان، وطُلوعُ الشمس من مغربِها، وخروج دابَّة الأَرض وتكليمها للناس، والنار التي تحشر الناس.

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٦٤، ٢٦٥.

والمسلمون يؤمنون بكل ما يكون من أُمور الغيب بعد الموت، مما أَخبر به الله ورسوله ﷺ من سكرات الموت، وحضور ملائكة الموت، وفرح المؤمن بلقاء ربِّه، وحضور الشيطان عند الموت، وعدم قبول إيمان الكافر عند الموت، وعالَم البَرْزَخ، ونعيم القبر وعذابه وفتنته، وسؤال الملكين وأَن الشهداءَ أحياء عند ربهم يُرزقون، وأَنَ أَرواح أَهل السعَادة مُنَعَّمَةٌ، وأَرواح أهل الشقاوة مُعَذبة.

ويؤمنون بيوم القيامة الكبرى الذي يحيي الله فيه الموتى، ببعث العباد من قبورهم، ثمَّ يحاسبهم. ويؤمنون بالنفخ في الصور، وهي ثلاث نفخات :

الأولى: نفخة الفزع.

الثانية: نفخة الصعق ؛ التي يتغير بها العالم المشاهد، ويختلف نظامه، وفيها الفناء والصعق، وفيها هلاك من قضى الله إهلاكه.

الثالثة: نفخة البعث والنشور والقيام لِرَبِّ العالمين.

ويؤمنون بالبَعْث والنُّشُور، وأَنَّ الله يَبْعثُ مَن في القبور ؛ فيقوم الناس لرَبِّ العالمين حفاة عراة غُرْلا، تدنو منهم الشمس، ومنهم مَن يلجمه العرق.

وفي ذلك اليوم العظيم يخرج النَّاس من الأَجداث كأَنَّهم جراد نشر، مسرعين مهطعين إلى الداعي، وقد خفتت كلُّ حركة، وخيم الصمت الرهيب، حيث تنشر صحف الأَعمال ؛ فيكشف المخبوء، ويظهر المستور، ويفتضح المكنون في الصدور، ويكلم الله عباده يوم القيامة ليس بينه وبينهم ترجمان، ويدعى النَّاس بأسمائهم وأسماء آبائهم. ويؤمنون بالميزان الذي له كفتان تُوزن به أَعمال العباد.

ويؤمنون بما يكون من نشر الدواوين، وهي صحائف الأَعمال، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، أَو من وراء ظهره.

والصراط منصوب على متن جهنم، يتجاوزه الأَبرار، ويزل عنه الفجَّار.

والجنة والنار مخلوقتان، وموجودتان الآن، لا تَفْنَيان أَبدا، وقد خلقهما الله تعالى قبل الخلق، والجنة دار المؤمنين الموحِّدين والمتقين، والنَّار دار الكافرين، والمشركين، والمنافقين، والملحدين، والوثنيين ؛ ودار المذنبين[1].

(١) عبد الله بن عبد الحميد الأثري «الوجيز في عقيدة السلف الصالح» وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية ٧٤-٧٦.

عقائد المسلمين حول الخلاص في آخر الزمان

يعتقد المسلمون أن هناك ثلاث شخصيات ستظهر آخر الزمان : كافر، ومؤمنان، الكافر هو المسيح الدجال، والمؤمنان هما : المهدي المنتظر، وعيسى عليه السلام.

وإليك خلاصة ما جاء بشأن : المسيح الدجال، والمهدي المنتظر، وعيسى عليه السلام.

المسيح الدجال:

هو رجل يهودي أعور فتنته أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة.

"ما بُعث نبي إلا قد أنذر أمته الدجال الأعور الكذاب ألا وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور وإن بين عينيه مكتوبا كافر "، (رواه أبو داود وغيره).

وفتنته أعظم الفتن بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول، وتحير الألباب. فقد ورد أن معه جنة ونارا، وجنته نار، وناره جنة، وأن معه أنهار الماء وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة، كسرعة الغيث استدبرته الريح... إلى غير ذلك من الخوارق.

وهاك بعض الأحاديث الصحيحة التي وردت في ذلك.

"ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال "، (رواه مسلم وأحمد).

"ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، وليس نقب من أنقابهما إلا عليه الملائكة صافين تحرسهما، فينزل بالسبخة فترجف المدينة ثلاث رجفات يخرج اللَّه منها كل كافر ومنافق "، (رَوَاهُ مسلم).

" أنذركم الدجال أنذركم الدجال أنذركم الدجال فإنه لم يكن نبي إلا وقد أنذره أمته وإنه فيكم أيتها الأمة وإنه جعد ادم ممسوح العين اليسرى وإن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نار وإن معه نهر ماء وجبل خبز وإنه يسلط على نفس فيقتلها ثم يحييها لا يسلط على غيرها وإنه لا يمطر السماء ولا تنبت الأرض

وإنه يلبث في الأرض أربعين صباحا حتى يبلغ منها كل منهل وإنه لا يقرب أربعة مساجد مسجد الحرام ومسجد الرسول ومسجد المقدس والطور وما شبه عليكم من الأشياء فإن الله ليس بأعور مرتين " (حديث صحيح رواه أحمد).

المهدي المنتظر:

هو محمد بن عبد الله من أهل بيت النبي ﷺ من ولد فاطمة.

" من أهل بيتي يواطئ (يوافق) اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي ". (حديث حسن صحيح رواه أبو داود)

وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جورا.

" المهدي مني أجلى (حسَن) الجبهة أقنى الأنف يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يملك سبع سنين "(حديث حسن صحيح رواه أبو داود والحاكم).

وأن عيسى عليه السلام يخرج فيساعده على قتل الدجال، وأنه يؤم هذه الأمة، ويصلي عيسى خلفه.

" كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ " (متفق عليه)

يقول ابن حجر في شرح الحديث " تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة وأن عيسى يصلي خلفه"(١).

وتنعم الأمة في عهد المهدي فتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويعطى المال بغير عد، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة.

"يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث وتخرج الأرض نباتها ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعا أو ثمانيا. يعني حجة ". (أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح ووافقه الذهبي)

و يخوض المهدي معارك آخر الزمان، ويقاتل اليهود وأميرهم الدجال ويهزمهم.

---

(١) ابن حجر العسقلاني «فتح الباري شرح صحيح البخاري» باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.

نزول عيسى عليه السلام

ومسيح المسلمين الذي ينتظرونه هو " عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول عيسى ابن مريم، أخو عبد الله ورسوله -في الإسلام والرسالة- محمد بن عبد الله، فيظهر دين الله وتوحيده، ويقتل أعداءه عُبَّاد الصليب الذين اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، وأعداءه اليهود الذين رموه وأمه بالعظائم فهذا هو الذي ينتظره المسلمون، وهو نازل على المنارة الشرقية بدمشق، واضعا يديه على منكبي ملكين، يراه الناس عيانا بأبصارهم نازلا من السماء. فيحكم بكتب الله وسنة رسول الله ﷺ وينفذ ما أضاعه الظلمة والفجرة والخونة من دين رسول الله ﷺ ويحيى ما أماتوه، وتعود الملل كلها في زمانه ملة واحدة وهي ملته وملة أخيه محمد وملة أبيهما إبراهيم وملة سائر الأنبياء، وهي الإسلام الذي من يبتغي غيره دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"[1].

ومن الأحاديث الصحيحة التي ذكرت نزوله عليه السلام ما يلي :

" لا تقوم الساعة حتى ينزل فيكم ابن مريم حكما، مقسطا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد " (متفق عليه)

ويلتف حول عيسى عليه السلام عباد الله المؤمنون، فيسير بهم قاصدا المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى متوجها إلى بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب (لُدٍّ)، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الملح، فيتداركه عيسى فيقتله بحربته.

"فإذا جاءوا الشام خرج. فبينما هم يعدون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة. فينزل عيسى ابن مريم عليهما السلام. فأمهم. فإذا رآه عدو الله، ذاب كما يذوب الملح في الماء. فلو تركه لانذاب حتى يهلك. ولكن يقتله الله بيده. فيريهم دمه في حربته " (رواه مسلم).

و ينهزم أتباع الدجال، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم! يا عبد الله ! هذا يهودي خلفي تعال فاقتله.

"لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود " (رواه مسلم).

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» ص ١١٢.

الحكمة من نزول عيسى ابن مريم

أولا: الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوا عيسى ابن مريم، فيبين الله تعالى كذبهم، وأن عيسى عليه السلام هو الذي يقتلهم ويقتل زعيمهم الدجال.

ثانيا: أنه ينزل مكذبا للنصارى فيظهر زيفهم في دعواهم الأباطيل، فإنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية.

هذه خلاصة ما جاء في المهدي وعيسى عليه السلام من أقوال أهل العلم.

الشيعة والمهدي المنتظر

ويشارك المسلمون الشيعة -الإمامية- أهل الكتاب في الاعتقاد في المُخَلِّص الذي يحقق لهم الفردوس الأرضي بعد قرون طويلة من الاضطهاد والغَبْن.

وكانت الشيعة تؤمن -كأهل الكتاب- بانتظار الإمام الغائب وأن أي عمل سياسي أو ثوري يعطل مجيئه.

فالفكرة الشيعية عن " الإمام الغائب " أو المهدي المنتظر تستدعي في الفقه الشيعي إقامة الحكومة الإسلامية تمهيدا لقدوم الإمام " حيث يعتقد الخميني، ويعتقد معه علماء الشيعة كافة بحتمية ظهور الحكومة العالمية للإسلام بزعامة إمام الزمان المهدي المنتظر، وأن هذه الحكومة سوف ترسم مستقبلا مشرقاً لمحرومي العالم، وأن إقامة إمام الزمان لهذه الحكومة وقيادته لها تأتي تتويجا لكل الجهود الشيعية في إقامة حكومة إسلامية تقوم على تنفيذ الأحكام الإلهية بل إن الخميني يتخذ من رجعة الإمام وتشكيله للحكومة الإسلامية الخاتمة دليلا على ضرورة تشكيل حكومة إسلامية تعمل خلال فترة الغيبة، وما هذه الحكومة إلا استدراكا لما فات الشيعة من ظاهرة " غياب الأحكام مع الإمام " ، وعليه فإن الخميني يطرح فكرة الحكومة " التمهيدية " من أجل الحكومة " النهائية ".

ومنذ أن بدأ الإمام آية الله الخميني في التحرك الثوري لإسقاط نظام الشاه وهو يصطدم بعدد من المراجع الدينية التقليدية التي كانت ترفض أي عمل سياسي أو ثوري بحجة أن هذا سيعطل مجيء الإمام الغائب ولكن الخميني لم يركن إلى هؤلاء وبدأ يجمع حوله العلماء الثوريين الذين اقتنعوا بمشروعه الثوري

واجتهاداته الفقهية فقاموا بتشكيل ما يسمى جامعة "روحانيت مبارز" أي رابطة علماء الدين المجاهدين واستطاعت هذه الرابطة أن تقود الثورة الإسلامية مع الإمام الخميني وتدشن معه معالم النظام الإسلامي والثوري ثم الانتقال معه من صيغة الدعوة إلى صيغة الثورة ثم الانتقال معه أيضا من صيغة الثورة إلى صيغة الدولة[1].

ونهاية التاريخ الإنساني هذه تسمى في الأدبيات الإسلامية " علامات الساعة الكبرى " أما يوم القيامة نفسه فيبدأ بعد هلاك البشر، وفناء الكون، يبدأ بالبعث والنشور والحساب وينتهي بدخول أهلِ الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ.

لماذا كثر الكلام عن علامات يوم القيامة في الآونة الأخيرة؟

لقد كثر الكلام عن علامات يوم القيامة وعن الفتن والملاحم في السنوات الأخيرة لعدة أسباب أهمها:

١- كلام صهاينة الغرب عن أرض الميعاد، والمسيح المخلص، وتأليفهم الكتب، وإلقائهم الخطب في ذلك.

٢- حرب الخليج وما ترتب عليها من هيمنة الصليبيين الجدد على المنطقة العربية.

٣- عجز كثير من المسلمين وضعفهم واستسلامهم لمستعمريهم.

٤- تأليف كثير من الكتاب المسلمين كتبا عن علامات الساعة ومنها ظهور المهدي، ونزول المسيح، وتطبيق بعض الكتّاب علامات يوم القيامة - الصحيح منها والضعيف بل والموضوع أيضا - على الأحداث الجارية، والأشخاص المعاصرين، بل شطح بعضهم فحدد ميعاد ظهور المهدي، و رتب الحوادث السابقة على يوم القيامة وما إلى ذلك من أمور غيبية لا يعلمها إلا الله، و إنزالها إلى واقع معين. كل هذا يعد ضربا من ضروب المجازفة غير المحسوبة، ولقد كذَّب الواقع خطأ الكثير من هذه التنبؤات.

---

(١) أحمد السيوفي «أوراق المحافظين والإصلاحيين» إسلام أون لاين نت ٢٠٠٤/٣/٦ .

والأدهى والأَمَرُّ أن بعض كتّاب مثل هذه الكتب يدعون الناس لعزلة المجتمع حتى ينجوا من هذه الفتن، وأحدهم حذر الأمريكيين من البقاء في بلادهم التي سيعمها الخراب ويبدو أن الأمريكان استجابوا لتحذيره فتركوا أمريكا وغزو العراق!!

كل هذه الأسباب أدت على انتشار الحديث عن القيامة وعلاماتها.

والسؤال هنا ماذا فعل المسلمون بعد انتشار الحديث عن المسيح الدجال، والمهدي المنتظر، وعيسى عليه السلام، وفتن و ملاحم آخر الزمان ؟

هل خططوا لطرد اليهود من فلسطين كما خطط اليهود للاستيلاء عليه ؟!

هل توحدوا حول عقيدتهم الصحيحة كما توحد اليهود والصهاينة حول عقيدتهم الباطلة ؟!

هل طبقوا تعاليم دينهم الصحيح كما طبق اليهود والصهاينة أساطيرهم المزيفة ؟!

إن المهدي عندما يجيء سيقاتل على سنة رسول الله، والمسيح عندما ينزل سيطبق شرع الله.

فهل طبقنا شرع الله في أعمالنا حتى نكون من جنوده تعالى ؟

وهل ألزمنا أنفسنا بتطبيق سنة رسول الله حتى نستحق أن نكون من أمته ؟

لقد كان النبي ﷺ قرآنا يمشي على الأرض.

فأين نحن من القرآن الكريم، ومن سنة النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ؟!

لقد آمن كثير من المسلمين بعقيدة المهدي والمسيح والملاحم فأين العمل الصالح ؟!

إن القرآن الكريم يقرن الإيمان بالعمل الصالح في أكثر من ستين آية، فأين العمل الصالح يا أمة الإسلام ؟

بل أين أركان الإسلام ؟

كم من المسلمين يقيم الصلاة ؟!

وكم من المصلين تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ؟!

كم من المسلمين لا يؤدي زكاة أمواله ؟!

بل قل كم من المسلمين يؤدي زكاة ماله ؟!

كم من المسلمين يتحرى الصدق في قوله وعمله ؟!

كم من المسلمين يأخذ على يد الظالم ؟!

بل كم من المسلمين من يعين الظالم على ظلمه ؟!

لقد أصبح الكذب والإهمال، والجهل - مع الأسف - من سمات كثير من المسلمين ، وقس على هذا في بقية أوامر الدين ونواهيه[1].

تأمل معي هذه الأحاديث التي يصف النبي ﷺ فيها حالنا، وما صارت الأمور إليه في زماننا .

" كيف بكم وبزمان أو يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة تبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابعه فقالوا وكيف بنا يا رسول الله قال تأخذون ما تعرفون وتذرون ما تنكرون وتقبلون على أمر خاصتكم وتذرون أمر عامتكم " (حديث صحيح رواه أبو داود).

"يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأَكَلَة إلى قصعتها فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل يا رسول الله وما الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت"، (حديث صحيح رواه أبو داود والبيهقي).

---

(١) لمزيد من التفصيل يرجى مراجعة فصل «معاصي القلوب ومعاصي الجوارح» في كتاب «ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللاأصولية» للمؤلف مكتبة مدبولي.

" يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، قال عن خالد وإنا سمعنا النبي ﷺ يقول إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب وقال عمرو عن هشيم وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب قال أبو داود ورواه كما قال خالد أبو أسامة وجماعة وقال شعبة فيه ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أكثر ممن يعمله " (حديث صحيح رواه أبو داود) .

إذن ما نحن فيه من البلاء بسبب معاصينا وآثامنا وضعف إيماننا.

هل هذه دعوة لليأس ؟

على العكس هذه دعوة للعمل الصالح وترك التواكل، دعوة للجهاد بكل صوره وترك الأنانية وعدم المبالاة، دعوة للاقتداء بالنبي ﷺ وصحبه الكرام الذين حاربوا شهواتهم فانتصروا على عدوهم، الذين تمسكوا بدينهم فدانت لهم الدنيا.

نعم هناك كثيرون من المسلمين صالحون لكن غالبية المسلمين غير ذلك - ندعو الله لنا ولهم بالهداية - فلو نصرْنا الله بتطبيق شرعه لنصرَنا على عدوه وعدونا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، (محمد : ٧).

ولو أننا أعددنا ما استطعنا من قوة وجاهدنا أعداءنا لعذبهم الله بأيدنا وأخزاهم ونصرنا.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، (التوبة : ١٤- ١٦).

وعلى العموم، فإن المهدي سيخرج، ولكن لا علم لأحد إلا الله بوقت خروجه؛ فلا يعلم الغيب إلا الله، ونحن مطلوب منا أن نعمل ونخدم الدين، فإن جاء المهدي فنحن -إن شاء الله- من جنوده، وإن لم يأت - في زماننا - فإننا ماضون على الطريق ونلفت النظر إلى أن الصحابة نزل عليهم قوله تعالى:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، (القمر:٤٥).

وهم في مكة، ولكن ذلك لم يكن مدعاة لهم للقعود عن العمل ولا السؤال عن زمن ذلك، حتى تحقق ذلك في السنة الثانية من الهجرة في غزوة بدر"[1].



(١) انظر «اليهود والصليبيون الجدد» للمؤلف الفصل الثامن مرجع سابق.

1

الباب الثاني

الفصل الأول

أسطورة عداء الأغيار الأزلي لليهود

الباب الثاني

الفصل الأول

أسطورة عداء الأغيار الأزلي لليهود

□□

يلجأ اليهود إلى ادعاء أن اليهود هم الضحية الوحيدة في التاريخ فكل الأمم على مدى التاريخ يناصبونهم العداء، ويحاولون استئصال جنسهم السامي، ويسوق اليهود الأدلة التاريخية على صحة هذا الزعم متخذين من التاريخ التوراتي المجتزأ الانتقائي دليلا قاطعا على صدق دعواهم.

وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي لم تَعُد هناك تفرقة بين ظاهرة معاداة اليهود في الدولة الرومانية وظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى المسيحية. ولم يَعُد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عرْقي وبين معاداة اليهود على أساس ديني.

لقد اتخذ اليهود الصهاينة من أسطورة العداء للسامية سلاحا يشهرونه في وجه أي إنسان يعترض على أفعالهم الإجرامية، أو يكشف زيف ادعاءاتهم، أو يقول كلمة حق فيسارعون في وصفه بأنه معادٍ للسامية، وهذه الكلمة لها تأثيرها الكبير على المجتمع الغربي لأنها تذكره بعقدة الذنب التي كان سببها ما فعله هتلر النازي مع اليهود حيث أحرق منهم نحو ستة ملايين يهودي -بزعم اليهود الصهاينة- وإن كان العدد أقل من هذا بكثير حسب الدراسات التي قام بها رجاء جارودي[1]، لكنها الدعاية الصهيونية التي تحاول ابتزاز العالم وخاصة ألمانيا وكسب تعاطف الشعوب الأوربية لقضيتهم.

(١) راجع الباب الرابع من هذا الكتاب «أسطورة الملايين الستة».

الرد على أسطورة عداء الأغيار لليهود

إن أسطورة عداء الأغيار (غير اليهود) لليهود من الأساطير الصهيونية التي يحاول اليهود الصهاينة أن يستدروا بها عطف العالم خاصة الأوربيين فهم يزعمون " أن اليهود هم الضحية الوحيدة على مستوى التاريخ " مستغلين ما يحس بها الأوربيون من الشعور بالذنب تجاه اليهود بعد محرقة هتلر النازي وللأسف الشديد هناك من الأوربيين من يصدق بهذه المزاعم الكاذبة ويتعاطف مع اليهود في صراعهم مع العرب ويمدهم بكل سلاح للدفاع عن أنفسهم ضد جمال عبد الناصر النازي الجديد - بزعمهم - الذي يريد أن يرمي بهم في البحر !! أو ضد صدام حسين الدكتاتور العنيد الذي يريد أن يحرق نصف إسرائيل !! أو ضد أسامة بن لادن الإرهابي الكبير الذي يريد أن يبيد غير المسلمين. أو حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي ومن وراءهم من محور الشر «كما يزعمون لتبرير كل أعمالهم القذرة» (إيران وسوريا) الذين يوجهون صورايخهم ضد المدن الإسرائيلية الآمنة ويخطفون الجنود الإسرائيليين المسالمين!!

والحقيقة أن اليهود ليسوا الضحية الوحيدة على مدى التاريخ فهناك أمم شتى تعرضت للسبي والتهجير والتعذيب والاستعباد، لكن اليهود لا يذكرون إلا عذاباتهم هم.

"فحينما يقوم البابليون بسبي وتهجير كثير من الأقوام السامية في فلسطين والشام لا يُذكَر سوى العبرانيين، وحينما يبيد النازيون الملايين لا يُذكَر أي من السلاف أو الغجر أو المعوقين أو غيرهم ممن تمت إبادتهم، وذلك حتى تظل الأضواء مسلطة على اليهود وحدهم. وأن اليهود ضحية وحيدة مقابل الأغيار، الذئب الدائم.. بل يصبح احتلال فلسطين وطرد سكانها منها مجرد تعويض عما حاق باليهود من أذى على يد النازيين!"(١).

لم يكن اليهود وحدهم من تعرض لاعتداء الأغيار عليهم ففي عصر الشهداء تعرض المسيحيون للتعذيب والتنكيل والإبادة من الرومان بسبب تمسكهم بدينهم ورفضهم لوثنية الرومان.

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية»، م٤ التاريخ من خلال الكوارث مرجع سابق.

"كان كل وثني يعرف أحد المسيحيين و يرشد عنه، كان يؤتى به علي عَجَل ويدعون الواحد باسمه يتقدم إلى هيكل الأوثان فيطلب منه تقديم الذبيحة الوثنية، وكان عقاب من يرفض تقديم الذبيحة للصنم أن يكون هو نفسه ذبيحة له، بعد أن يجتهدوا في إقناعه بذلك بكل وسائل التخويف والإرهاب".[1]

وفي الأندلس انتهى وجود ملايين من المسلمين بسبب محاكم التفتيش.

تقول الدكتورة زجريد هونكه:

في ٢ يناير ١٤٩٢ م رفع الكاردينال (دبيدر) الصليب على الحمراء، القلعة الملكية للأسرة الناصرية، فكان إعلاناً بانتهاء حكم المسلمين على أسبانيا -وبانتهاء هذا الحكم ضاعت تلك الحضارة العظيمة التي بسطت سلطانها على أوربا طوال العصور الوسطى، وقد احترمت المسيحية المنتصرة اتفاقاتها مع المسلمين لفترة وجيزة، ثم باشرت عملية القضاء على المسلمين وحضارتهم وثقافتهم.

... حُرِّم الإسلام على المسلمين، وفرض عليهم تركه، كما حُرِّم عليهم استخدام اللغة العربية، والأسماء العربية، وارتداء اللباس العربي، ومن يخالف ذلك كان يحرق حيًا بعد أن يعذَّب أشد العذاب.

وهكذا انتهى وجود الملايين من المسلمين في الأندلس فلم يبق في أسبانيا- مسلم واحد يُظهر دينه[2].

ويعترف أحد اليهود "روبيك آتوف" بهذه السياسة الإسرائيلية الوحشية تجاه العرب فيقول: "إن الغزو الصهيوني يستمد الوحي والقوة الدافعة لتصرفاته من احلام وتطلعات تلك الأرواح التي تعرضت للتعذيب في الجيتوات الأوروبية، إذ يبدو أن السنوات الطويلة من الإذلال والاضطهاد اللذين عاناهما اليهود في أوروبا والذي بلغ ذروته في عمليات الإبادة الهتلرية، قد تركت شرخا عميقا في البنية الروحية لليهود الأوروبيين الذين يقودون إسرائيل اليوم، وهكذا فإن أحقاد

---

(١) الشماس منسي القمص «تاريخ الكنيسة القبطية» ص١١٠ .

(٢) د. زجريد هونكه «القومية» ص ١٧٤.

مئات الأعوام تجد اليوم متنفسا لها من خلال الوحشية التي يُعَامَل بها العرب على نحو لم يسبق له مثيل قط. ولكن أي قدر ساخر قاس هذا الذي يجعل اليوم العرب الذين كانت أراضيهم ملاذا لليهود الفارين إليها من الفظائع الرهيبة التي كانوا يتعرضون لها في أوروبا خلال القرون الوسطى، ضحايا لاضطهاد بهذا المستوى والقسوة على أيدي اليهود بالذات"[1].

وقد وصلت تأثيرات النكبة النازية على السيكولوجية القومية في إسرائيل إلى ذروتها في الأسابيع التي سبقت حرب يونيو ١٩٦٧. لقد استولى الفزع على الإسرائيليين بما فيهم الكثير من الشباب، واعتقد الكثيرون أن المصريين الذين كانت نداءاتهم متعطشة للدماء، وتردد كل ساعة في الراديو يدبرون لهم نكبة يهودية جديدة. إن المؤسسة الإسرائيلية تنمي حاسة اليهودي باستمرار لتحقيق أكثر من هدف. وأهم هذه الأهداف هو دفع الإسرائيلي للقتال بشراسة تحت ستار «الدفاع عن النفس من خطر الإبادة»، وإيهام العالم الخارجي بمدى الخشية الإسرائيلية من خطر الإبادة العربية. وقد شهد الكثيرون من المراقبين بقدرة هذه المشاعر في تلك الفترة، حيث تنفجر فيه عقدة المادة الانتحارية و تحل كل المشاكل الشخصية، و تتآلف الأحزاب المتعارضة، و تنشأ حكومة قومية ويبحثون عن بطل قومي[2].

والعجيب في الأمر أن اليهود يستخدمون مع العرب سلاح البطش والإرهاب ويصرحون للعالم بأنهم مهددون بالإبادة والحرق.

وكانت النتيجة أن إسرائيل احتلت أراضينا واستمر وصفهم بالضحية أما نحن فضاعت أراضينا واتهمنا نحن بالبربرية والنازية!!

---

(١) آتوف. روبيك «العرض المزدوج للباتريوت» صحفية على همشمار ١٩٨٢/١٠/٢٩ نقلاً عن كتاب «الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية» مرجع سابق ص٢٣٦، ٢٣٧ .

(٢) د. رشاد الشامي «الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية» مرجع سابق ص٢٣٧ .

والتساؤل هنا الذي يطرح نفسه لماذا اليهود على مدى التاريخ هم وحدهم -على حد اعتقادهم- المضطهدون من كل البشر على اختلاف أزمانهم وجنسياتهم ومعتقداتهم ؟!!

والحقيقة التي يصل إليها دارس التاريخ الإنساني العام أو توراة اليهود نفسها يتضح له بجلاء أن اليهود لم يكونوا أبدا الضحية بل هم دائما أس البلاء في كل بلد حلوا به بما يتميز به أكثرهم من خيانة للعهود، وإثارة الفتن والحروب، وما كانت النوازل التي حلت بهم إلا جزاء وفاقا.

الأسباب الحقيقية وراء اضطهاد اليهود

من العجيب حقًا أن يكون " يهوه " إله بني إسرائيل وراء كل اضطهاد حاق ببني إسرائيل أو اليهود ؛ فهو الذي قرر إفناءهم بسبب كفرهم به واتخاذهم العجل إلها من دونه.

"٧ فَأَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى: «قُمْ وَانْزِلْ فَإِنَّ الشَّعْبَ الَّذِي قَدْ أَخْرَجْتَهُ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ، قَدْ فَسَدَ. ٨إِذِ انْحَرَفُوا سَرِيعاً عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَمَرْتُهُمْ بِهِ، فَصَاغُوا لَهُمْ عِجْلاً وَعَبَدُوهُ وَذَبَحُوا لَهُ الذَّبَائِحَ هَاتِفِينَ: هَذَا هُوَ إِلهُكَ يَاإِسْرَائِيلُ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ». ٩وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «لَقَدْ تَأَمَّلْتُ فِي هَذَا الشَّعْبِ، وَإِذَا بِهِ شَعْبٌ عَنِيدٌ مُتَصَلِّبُ الْقَلْبِ. ١٠وَالآنَ دَعْنِي وَغَضَبِي الْمُحْتَدِمَ فَأُفْنِيَهُمْ، ثُمَّ أَجْعَلَكَ أَنْتَ شَعْباً عَظِيماً»"، (الخروج :٣٢).

هذا هو رأي " يهوه في بني إسرائيل " شعب عنيد مُتَصلِّب القلب "وسيظل هذا دأب كثير ممن ينتسب لهذا الدين. ويأخذ موسى في الابتهال إلى الرب ليعفو عن شعبه العنيد حتى لا يَشْمت به المصريون" فتراءف الرب ولم يوقع بشعبه العقاب الذي توعد به"، (الخروج : ٣٢).

ولكن موسى ما إن اقترب من المخيم " ١٩ وَشَاهَدَ الْعِجْلَ وَالرَّقْصَ حَتَّى احْتَدَمَ غَضَبُهُ وَأَلْقَى بِاللَّوْحَيْنِ مِنْ يَدِهِ وَكَسَّرَهُمَا عِنْدَ سَفْحِ الْجَبَلِ. ٢٠ثُمَّ أَخَذَ الْعِجْلَ الذَّهَبِيَّ وَأَحْرَقَهُ بِالنَّارِ وَطَحَنَهُ حَتَّى صَارَ نَاعِماً، وَذَرَّاهُ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ وَأَرْغَمَهُمْ عَلَى الشُّرْبِ مِنْهُ"، (الخروج : ٣٢).

ولم يكتف موسى بهذا فقرر تمحيصهم ومعرفة من يتبع الرب ممن تولى عنه

واتبع هواه فوقف "في باب المخيم وصاح " كل من يتبع الرب فليقبل إليَّ هنا" فاجتمع حوله اللاويون. فهتف بهم " هذا ما يعلنه الرب إله بني إسرائيل : ليتقلد كل واحد سيفه، وجولوا في المخيم ذهابا وإيابا من مدخل إلى مدخل، واقتلوا كل داعر سواء أكان أخا أو صاحبا أم قريبا ". فأطاع اللاويون أمر موسى فقُتِل من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل"، (الخروج : ٣٢).

والسؤال هنا من الضحية ومن الجزار في هذه الحادثة التي تعد أول حادثة يُقتّل فيها هذا الخلق الكثير من بني إسرائيل ؟ هل يعد الكافرون بالله العابدون للعجل هم الضحية؟! ويهوه هو الجزار؟!!

إن المتتبع لكل عقاب سينزل ببني إسرائيل بعد ذلك يجده يسير على هذا المنوال فساد من بني إسرائيل، وعصيان لله يكون جزاؤه عقاب من الرب ينزله بهم ليس بأيديهم كما حدث في هذه المرة إنما بأيدي أعدائهم.

فتوراة اليهود توضح بجلاء المسئول عن كل بلاء حاق ببني إسرائيل، إنه كفرهم وفسادهم، وما العقاب الذي ينزله بهم الله إلا جزاء وفاقا.

عقوبات العصيان

فمن بين بنود الميثاق المبرم بين "يهوه" وشعبه عقوبات العصيان التي يقول الرب فيها لبني إسرائيل :

إن عصيتموني ولم تعملوا بكل هذه الوصايا، وإن تنكرتم لفرائضي وكرهتم أحكامي ولم تعملوا بكل وصاياي، بل نكثتم ميثاقي، فإني أبتليكم بالرعب المفاجئ وداء السل والحُمَّى التي تُفنّي العينين وتتلف النفس، وتزرعون على غير طائل، وينهب أعداؤكم زرعكم. وأنقلب عليكم فتنهزمون أمام أعدائكم، ويتحكم بكم مبغضوكم وتهربون من غير طارد لكم.

وإن أمعنتم في عصيانكم أزيد من عقابكم سبع مرات وفقاً لخطاياكم. أُذِلُّ غطرستكم، وأجعل سماءكم كالحديد لا تمطر وأرضكم كالنحاس لا تُغِلُّ فيذهب جهدكم باطلا... وإن لم تتعظوا، وتماديتم في عصيانكم أنقلب عليكم وأزيد في بلائكم سبع مرات وفقا لخطاياكم. أسلط عليكم سيف العدو. فينتقم منكم

لنقضكم ميثاقي.. وأجعل الأرض قفرا فيرتاع من وحشتها أعداؤكم الساكنون فيها، وأشتتكم بين الشعوب، وأجرد عليكم سيفي، وألاحقكم، وأحول أرضكم إلى قفر ومدنكم إلى خرائب. عندئذ تستوفي الأرض راحة سبتها طوال سنين وحشتها وأنتم مشتتون في ديار أعدائكم. حينئذ ترتاح الأرض وتستوفي سنين سُبُوتِها فتُعَوِّض في أيام وحشتها عن راحتها التي لم تنعم بها في سنوات سُبُوتكم عندما كنتم تقيمون عليها. أما الباقون منكم في أرض أعدائكم، فإني ألقي الرعب في قلوبهم فيهربون من حفيف ورقة تسوقها الريح، وكأنهم يهربون من السيف. ويسقطون وليس ثمة مطارد لهم. ويعثر بعضهم ببعض كمن يفر من أمام سيف من غير مطارد لهم، ولا تثبتون أمام أعدائكم فتهلكون بين الشعوب وتبتلعكم أرض أعدائكم. أما بقيتكم فتفنى بذنوبها وذنوب آبائها في أرض أعدائكم كما فني آباؤهم من قبلهم"، (اللاويين : ٢٦).

كل هذه البلايا من خراب لبيت بني إسرائيل، وأوبئة، وقتل، وشتات، وقهر وذل من أعدائهم جزاء المعصية والفساد ونقض الميثاق مع الله فإن تابوا وأصلحوا فإن "يهوه" يجدد لهم العهد.

"إن اعترفوا بخطاياهم وخطايا آبائهم وبخيانتهم لي وعداوتهم، التي جعلتني انقلب عليهم وأنفيهم إلى أرض أعدائهم وإن خضعت قلوبهم النجسة بعد أن استوفوا عقاب خطاياهم فإني أذكر ميثاقي مع إسحق وميثاقي مع إبراهيم"، (اللاويين : ٢٦).

وبناء على هذا الميثاق، وأحداث التاريخ التوراتي، بل والتاريخ الإنساني العام، فإن كل اضطهاد نزل ببني إسرائيل، أو بالجماعات اليهودية في كل زمان ومكان كان بسبب فسادهم ونقضهم للعهد.

وإليك ثبتا تاريخيا بأهم ما تعرضوا له من نوازل، واضطهاد، وأسباب هذا الاضطهاد في التاريخ الإنساني العام ثم في نصوص الأديان السماوية : التوراة، الإنجيل، القرآن.

أولا : أسباب اضطهاد اليهود في مصر القديمة

ما كان اضطهادهم في مصر القديمة، ثم طردهم منها إلا بسبب خيانتهم للمصريين القدماء والتحالف مع أعدائهم.

فقد عاش بنو إسرائيل في مصر عيشة كريمة، في أفضل مكان بمصر وامتلكوا أجود أرض فيها وكان ذلك زمن الهكسوس.

"٢٧ أَقَامَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي مِصْرَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَاقْتَنَوْا فِيهَا أَمْلاَكاً وَأَثْمَرُوا وَتَكَاثَرُوا. " (التكوين : ٤٧).

أقام بنو إسرائيل في مصر في عهد الهكسوس نحو مائة عام في كنف يوسف في أمن وسلام وفي نعمة وإحسان. واستمرت الحياة هنيئة لبني إسرائيل في مصر حتى بعد موت يوسف وجميع إخوته لسنين طويلة.

ولكن بعد أن تمكن المصريون من طرد الهكسوس الذين عاش بنو إسرائيل في كنفهم وأعانوهم على حكم مصر وتسخير المصريين لهم كما جاء في التوراة. اعتبر المصريون أن بني إسرائيل هم الذين استعبدوهم لصالح الحاكم الأجنبي لذا قاموا باضطهاد واستعباد بني إسرائيل الذين عاونوا الهكسوس أعداءهم.

" وَمَا لَبِثَ أَنْ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ. ٩فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هَا بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْثَرُ مِنَّا وَأَعْظَمُ قُوَّةً. ١٠فَلْنَتَآمَرْ عَلَيْهِمْ لِكَيْلاَ يَتَكَاثَرُوا وَيَنْضَمُّوا إِلَى أَعْدَائِنَا إِذَا نَشَبَ قِتَالٌ وَيُحَارِبُونَا ثُمَّ يَخْرُجُوا مِنَ الأَرْضِ». ١١فَعَهِدُوا بِهِمْ إِلَى مُشْرِفِينَ عُتَاة لِيُسَخِّرُوهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَةِ. فَبَنَوْا مَدِينَتَيْ فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ لِتَكُونَا مَخَازِنَ لِفِرْعَوْنَ. ١٢وَلَكِنْ كُلَّمَا زَادُوا مِنْ إِذْلاَلِهِمْ، ازْدَادَ تَكَاثُرُهُمْ وَنُمُوُّهُمْ، فَتَخَوَّفُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٣فَتَفَاقَمَ عُنْفُ اسْتِعْبَادِ الْمِصْرِيِّينَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. ١٤وَأَتْعَسُوا حَيَاتَهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَةِ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ كَادِحِينَ فِي الْحُقُولِ. وسَخَّرَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ بِعُنْفٍ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِمِ الشَّاقَةِ"، (الخروج : ١).

ولم يكن دافع فرعون مصر لاضطهاد بني إسرائيل مساعدتهم الهكسوس على استعباد المصريين فحسب بل قيامهم بأعمال تعد خيانة عظمى للوطن.

فقد كانوا يهربون أولادهم من التجنيد أو أعمال الحرب وانتهزوا فرصة انشغال فرعون وجيشه في محاربة الليبيين على الحدود الغربية فقاموا بتهريب الغلال والماشية والذهب إلى سوريا والبلاد الآسيوية وكانوا يشرفون على مخازن التموين وصوامع الغلال في بر رعمسيس ومنف مما تسبب في مجاعة في البلاد وتوقف إمداد الجيوش المحاربة بالتموين. فأوقف فرعون معاركه وعاد إلى العاصمة حيث أعد خطة للقضاء عليهم(١).

وتؤكد اللوحة المسماة بـ" لوحة إسرائيل" والتي جاء فيها أن من أعمال الفرعون " مرنبتاح " العظيمة هي انتصاره على الليبيين وقضائه على بني إسرائيل وتطهير مصر منهم. " وإسرائيل خُربت وليس بها بذر"(٢).

وظل هذا دأب أكثر اليهود في أي مكان حلُّوا فيه فإنهم كانوا يعملون على نقض العهود، وإشعال الحروب ؛ والتحالف مع أعداء الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها مما جعلهم شعبا منبوذا مستحقا للاضطهاد.

ثانيا : أسباب السبي الأشوري

هاجم (شلمانصر الخامس) ملك أشور مملكة إسرائيل واستطاع أن يخضعها لحكمه، وتعاهد مع هوشع ملك إسرائيل على دفع جزية سنوية نظير إبقائه في الحكم وقد قبل هوشع هذا العهد، لكن سرعان ما خان هوشع العهد مع ملك أشور واستغاث بملك مصر سرا وأثاره على ملك أشور وما لبث أن اكتشف ملك أشور خيانة هوشع، الذي أرسل وفدا يستغيث بِسَوَا ملك مصر، ولم يؤد جزية الملك أشور كعهده في كل سنة " فحاصر شلمانصر الخامس السامرة، ثم استولى عليها وخلفه سرجون الثاني فاختفت المملكة الشمالية إلى الأبد بالاستيلاء عليها وتم ترحيل زعمائها ورؤوس قبائلها إلى آشور وميديا (شرقي العراق) وإحلال آراميين (من سوريا) وبابليين محلهم بحسب المدونات الآشورية (٧٢١ ق.م). وهذا ما يُسمَّى «السبي الآشوري» الذي اختفت على أثره القبائل اليهودية العشر «المفقودة». استمرت يهودا في دفع الجزية. و في نهاية الأمر، اندلعت ثورة فيها

---

(١) د. سيد كريم «لغز الحضارة المصرية» ص٤٥١، مرجع سابق.

(٢) سليم حسن «موسوعة مصر القديمة» الجزء السابع مرجع سابق ص ١٠١.

بتأييد من مصر. وقد كان ردّ سناخريب حاسماً، فأخمد الثورة، ولكنه سمح ليهودا أن تستمر كدولة تابعة. وحينما عاود اليهود الكرَّة، حاصر سناخريب القدس ولكنها لم تسقط إذ اضطر إلى فك الحصار بسبب الوباء على أن يدفع اليهود الجزية"[١].

ثالثا : أسباب السبي البابلي

وحدث نفس الشيء قبل السبي البابلي. تَمَرُّد من اليهود، وإشعال للثورة، وإيقاد للحرب وتحالف مع كل القوى المتصارعة مما جعلهم أعداء للجميع فهم يعاهدون البابليين، وفي نفس الوقت يعاهدون المصريين أعداء البابليين، وفي الوقت ذاته يعاهدون الله، فهم يريدون أن يمسكوا بجميع الخيوط حتى وإن كانت متناقضة فحبل من المصريين، وحبل من البابليين أعدائهم، وحبل من الله عدو لجميع الكافرين، وهم أعداء للجميع.

فعندما كانت العلاقات بين الكلدانيين والمصريين متوترة، ومرشحة للاصطدام، قدر اليهود أن النصر سيكون حليف المصريين، لذلك سارعوا للتحالف معهم، وخالفهم في ذلك النبي " أرميا الكاهن " فقد كان اعتقاده أن النصر سيكون من نصيب نبوختنصر البابلي وجيشه.

و لما انتصر جيش نبوختنصر، اقتحم نبوختنصر القدس وساق اليهود أسرى إلى بابل، وقَدَّر للنبي " أرميا " موقفه فترك له الحرية في البقاء أو الهجرة[٢].

وكان نبوختنصر قد قاد حملتين ضد المملكة الجنوبية : الأولى في عام ٥٩٧ ق.م لإخماد التمرد فيها، ونفى ثمانية آلاف يهودي من الأرستقراطيين. وبعد بضع سنين، عندما أعاد العبرانيون الكرَّة بإيعاز من مصر، قاد نبوختنصر حملة أخرى عام ٥٨٦ ق.م. ورغم أن المصريين أرسلوا المساعدات للعبرانيين، فقد أسقط

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٤ ج٣ الآشوريين. مرجع سابق.

(٢) نعمان عبد الرزاق السامرائي «اليهود والتحالف مع الأقوى» نقلاً عن الشبكة الإسلامية.

القدس ودمَّر الهيكل وأسر عدداً من اليهود ساقهم إلى بابل، وعيَّن جداليا حاكماً لفلسطين-[١].

رابعا : أسباب السبي الروماني

والشيء نفسه حدث قبل الغزو الروماني فقد عاهد اليهود الرومان ثم عاهدوا أعداءهم من المصريين والفرس وكانت النتيجة أن دمر الرومان عليهم وهدموا لهم الهيكل " فقد أرسل يهودا المكابي مبعوثاً للدولة الرومانية ليعقد حلفاً مع القوة الجديدة. وقد قَبِل الرومان... وقد قوَّى اليهود علاقتهم مع حكام الفرس، ومع البطالمة في مصر، حتى أصبحت يهودا قوة عسكرية لا بأس بها في القرن الأول قبل الميلاد. ولكن القوة الرومانية الصاعدة كانت آخذة في الاقتراب، كما أن الخلافات الداخلية كانت تعتمل داخل الدولة اليهودية. ولذا، فقد سقطت الدولة بسهولة في يد الرومان (٦٥ ق.م) وتحولت إلى الدولة الهيرودية .

وقد تعاظمت قوة الحزب الشعبي بين اليهود أثناء حكم الأسرة الهيرودية، وكان أعضاء هذا الحزب لا يعرفون موازين القوى العظمى. ولذا فقد تمردوا ضد الهيمنة الرومانية، فكانت النتيجة سلسلة الهزائم والانكسارات في ماسادا وغيرها، وهي الهزائم التي انتهت بهدم الهيكل ثم القدس نفسها وبتحريم اليهودية في فلسطين-[٢].

ويكشف لنا التاريخ أن التجار اليهود وصرافي النقود لم يقتصروا في أعمالهم غير المشروعة على تجارة العبيد، بل كانوا ينظمون ويحتكرون التجارات الفاسدة، من مخدرات ودعارة وتهريب المسكرات والعطور والجواهر والبضائع الثمينة الأخرى.. وتأمينا لمصالحهم وحماية لعملياتهم غير المشروعة، كانوا يلجئون إلى الرشوة وشراء ذمم المسؤولين الكبار.. وهكذا استطاعوا بواسطة المخدرات والمسكرات والنساء تقويض أخلاق الشعب الروماني.. ويسجل التاريخ أن يوستيانوس، وهو إمبراطور روما القوي، لم يكن بالقوة الكافية لوضع حد لتلك النشاطات.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية و«الصهيونية» م٤ ج١: نبوختنصر مرجع سابق.

(٢) نفسه م٤ ج١ مصر والإمبراطورية الحيثية.

وقد بحث المؤرخ البريطاني إدوارد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤) في التأثيرات المفسدة للتجار والمرابين اليهود، ووصفهم بأنه كانت لهم يد طولي في " انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية ".. وكان هذا هو عنوان كتابه.. وتحدث جيبون بإسهاب عن الدور الذي لعبته بوبابا زوجة نيترون، في التمهيد لتلك الظروف التي جعلت الشعب الروماني ينظر كالمخمور بدون مبالاة إلى انهياره السريع وتحطمه.. وبسقوط الإمبراطورية الرومانية تأسست السيطرة اليهودية، ودخلت أوروبا في "العصور المظلمة".

وتقول الموسوعة البريطانية حول هذا الموضوع ما يلي : " كان لدي التجار والمرابين اليهود ميل شديد للتخصص بالتجارة، وكان مما ساعدهم على الامتياز في ذلك الحقل، مهارتهم وانتشارهم في كل مكان.. وكان معظم تجارة أوروبا في العصور المظلمة في أيديهم، وخاصة تجارة الرقيق ".

ونستطيع أن نلمس آثار تلك السيطرة اليهودية المطلقة، حين نرى مثلا قِطَع عملة قديمة بولونية وهنغارية تحمل نقوشا يهودية.. ويكشف لنا إلحاح اليهود بهذه الصورة للسيطرة على النقد وجعل إصدار العملة في أيديهم، أن المرابين اليهود اعتنقوا منذ تلك الأزمنة الشعار الذي اشتهر به بعد ذلك آمشل ماير باورر (١٧٤٣ - ١٨١٢ م) وهو: " دعنا نَتَوَلَّ إصدار النقد في أمة من الأمم والإشراف عليه، ولا يهمنا بعد ذلك من الذي يسنّ القوانين لهذه الأمة "!!

وقد طرح آمشل ماير باورر هذا الشعار على شركائه، ليشرح لهم جوهر الدافع الذي حدا بالمرابين اليهود السعي للحصول على السيطرة على مصرف إنجلترا عام ١٦٩٤[(١)].

وكانت هذه الجرائم اليهودية في حق الأوربيين سببا في اضطهاد الأوربيين لهم طوال العصور الوسطى حتى عصر النهضة.

خامسا : أسباب عداء سيدنا محمد ﷺ لليهود:

أما عن علاقتهم بخاتم الأنبياء وإمام المرسلين فكانت أنكى وأشدّ ؛ فعلى

(١) وليم جاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» الفصل الثالث «اليهود».

الرغم من المعاملة الراقية التي عاملهم الرسول بها إلا أنهم قابلوا وفاءه ﷺ لذمتهم بالغدر، كما قابلوا إحسانه ﷺ بالإساءة فقد أرادوا قتل النبي ﷺ بإلقاء حجر عليه وأنجاه الله تعالى من كيدهم، وكرر اليهود محاولة قتل النبي ﷺ مرة ثانية لكن هذه المرة ليس بإلقاء حجر عليه إنما بالسم ونجا النبي من الموت بالسم وإن ترك السم أثرا في جسده الشريف إلى أن توفاه الله تعالى.

وقد نقض اليهود عهد رسول الله، وعاهدوا الأحزاب -سرا- كعادتهم في معاهدة الأطراف المتصارعة معا فلما كفى الله تعالى المسلمين شر الأحزاب عاقبهم النبي على خيانتهم فقتل المحاربين المعتدين وأجلى الباقين عن المدينة.

والدولة الصهيونية تعترف بحسن معاملة المسلمين لليهود إبان الفتح الإسلامي لفلسطين " جاء الفتح الإسلامي للبلاد بعد أربع سنوات من وفاة النبي محمد ﷺ, ٦٣٢ واستمر الحكم العربي للبلاد أكثر من أربعة قرون، وتوالى على الحكم الخلفاء الراشدون ثم خلفاء بني أمية من دمشق وخلفاء الدولة العباسية من بغداد ثم من مصر.

وفي البداية، تجدد التوطن اليهودي في القدس، ومنحت الطائفة اليهودية المكانة التي حظي بها أهل الذمة تحت الحكم الإسلامي، وهي المكانة التي تضمن سلامتهم وأمنهم وممتلكاتهم وحرية العبادة مقابل دفع الجزية ومع ذلك فإن القيود التي فرضت بعد ذلك على غير المسلمين (٧١٧م) أثرت على إدارة اليهود لشؤونهم العامة كما أثرت على ممارستهم لشعائرهم الدينية وعلى مكانتهم الشرعية[١].

وسوء حال اليهود الاقتصادية والدينية في العصر العباسي الذي تدعيه الدولة الصهيونية هو محض افتراء وحسبنا للرد عليه هو ذكر ما كتبه المؤرخون الأكاديميون اليهود عن حال اليهود في العصر العباسي: " لقد مكّنت وحدة الإمبراطورية العباسية تسهيل نقل الأشخاص والبضائع ورأس المال والأفكار من المركز اليهودي في بغداد إلى معظم العالم اليهودي، وبالفعل فإن حوالي ٩٠٪ من يهود العالم آنذاك كانوا يعيشون في العالم الإسلامي.

(١) نقلاً عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الإنترنت.

وكان العالم اليهودي حرا في إدارة شئونه الداخلية بتدخل قليل من السلطات الإسلامية ما دام اليهود يدفعون ضرائبهم ويعترفون بسيادة الإسلام من خلال بعض التصرفات بعضها مذل شيئا ما. لا يهتم أسيادهم المسلمون كثيرا بما يقوم به اليهود ما داموا يحفظون السلام ويدفعون ضرائبهم (الحسبة أو الجزية) وما داموا ملتزمين بأماكنهم.

وصلت الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى فترتها الأكثر إنتاجا بين السنوات٩٠٠ و١٢٠٠، وتبعتها الحضارة اليهودية في العالم الإسلامي على المنوال نفسه. تطورت في أثناء هذه الفترة بعض أكبر أعمال الفلسفة اليهودية، والنحو، والقانون وفقه اللغة، وصناعة المعاجم مماثلا للتقدم الكبير لهذه الحقول في العالم الإسلامي. ووجد الشعر اليهودي بالعبرية نهضته أيضا في هذه الفترة وتشبه أوزانه وأسلوبه ومحتواه مثيلاتها في الشعر الإسلامي العربي وفي هذه الفترة أيضا بدأ العراق يفقد السيطرة السياسية للإمبراطورية[(١)].

ومع كل ما تمتع به اليهود في العصر العباسي من ازدهار اقتصادي واستقرار اجتماعي وتقدم في شتى المعارف : أدبية، وعلمية، وفلسفية لم يحمدوا للخلافة العباسية إحسانها إليهم فتحالفوا مع هولاكو وقدموا له المال والمشورة وتجسسوا له للقضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على أملاكها.

"وحين سطع نجم هولاكو في المشرق كاتبه يهود بغداد وحالفوه وقدموا له المال والمشورة، قبل أن يصل إلى بغداد، فلما دخلها وقتل الخليفة ومليونين من المسلمين سَلِمَ اليهود، فلم يُقْتَل منهم أحد، كما سلمت أموالهم من النهب والسلب"[(٢)].

سادسا : ملاحقة اليهود في أوروبا

ولنفس الأسباب التي اضطهد بسببها اليهود في الإمبراطورية الرومانية، وفي صدر الإسلام اضطهد اليهود في أوروبا ففي عام ١٢٥٣ عمدت الحكومة

(١) الحاخام روين فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت جميز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٥٣.

(٢) نعمان عبد الرزاق السامرائي «اليهود والتحالف مع الأقوى».

الفرنسية إلى حل جذريٍّ لمشكلة اليهود، فطردتهم جميعا لمخالفتهم القوانين، فاتجه قسم كبير من المطرودين إلى إنجلترا.. وحتى عام ١٢٥٥ كان اليهود قد تمكنوا من السيطرة على عدد من كبار الرجال السلك الكنسي الإنجليزيّ، وعلى الكثير من النبلاء والسادة الإقطاعيين.. وكان هؤلاء المرابون ومن يسمونهم حكماء اليهود ينتمون إلى النورانيين.. وقد تم اكتشاف ذلك خلال التحقيق الذي أمر الملك هنري الثالث بإجرائه، في فضائح الاحتيال والرشوة والجرائم التي فاحت روائحها، بعد مقتل سان هيوأوف لينكولن عام ١٢٥٥ وقد أثبت التحقيق أن ثمانية عشر يهوديا كانوا هم الذين ينظمون تلك العمليات فقدموا إلى المحاكمة، وحكم عليهم بالإعدام.

مات الملك هنري عام ١٢٧٢، وخلفه على عرش إنجلترا الملك إدوار الأول، الذي أصدر أمرا حرم بموجبة على اليهود ممارسة الربا.. ثم استصدر من البرلمان عام ١٢٧٥ قوانين خاصة سميت " الأنظمة الخاصة باليهود ".. وكان الهدف منها تقليص سيطرة المرابين اليهود على كافة مدينيهم، ليس فقط من المسيحيين بل حتى من الفقراء اليهود أنفسهم.. ولا يمكن وصم هذه الأنظمة بأنها معادية للسامية لأنها حمت فيمن حمت اليهود المتقيدين بالقوانين.

وقد ظن المرابون اليهود أنهم في هذه المرة أيضا، سيتمكنون من تحدي أوامر الملك.. وكان خطؤهم كبيرا، إذ أن الملك عمد إلى إصدار قانون بطرد جميع اليهود من إنجلترا.. وكان ذلك بدء المرحلة التي يسميها المؤرخون "الإجلاء الأكبر".

بعد أن خطا الملك إدوار الخطوة الأولى، سارع ملوك ورؤساء أوروبا إلى الاقتداء به.

عام ١٣٠٦ طردت فرنسا اليهود، وتبعتها سكسونيا عام ١٣٤٨، وهنغاريا عام ١٣٦٠، وبلجيكا عام ١٣٧٠، وسلوفاكيا عام ١٣٨٠، والنمسا عام ١٤٣٠، والأراضي المنخفضة (هولندا) عام ١٤٤٤، وأخيرا أسبانيا عام ,١٤٩٢

ويتخذ طرد اليهود من أسبانيا أهمية خاصة.. ففي القرن الرابع عشر تمكن

المرابون اليهود للمرة الأولى من جعل الحكومة الإسبانية تمنحهم حقّ جباية الضرائب من الشعب مباشرة، كضمان للقروض التي كانوا يقدّمونها للحكومة.. واستغل المرابون اليهود هذا الوضع أبشع استغلال، وأبدوا من القسوة والوحشية في طلب "أقّة اللحم" من الأهالي ما ملأ أفئدتهم بالحقد والغضب، بحيث أضحت شرارة واحدة كافية لتفجير النقمة.. فكانت هذه الشرارة في الخطابات اللاهبة التي ألقاها فرناندو مارتسنسز، والتي هبّ علي أثرها الشعب لارتكاب واحدة من أكثر المجازر المعروفة دموية.. وهذا أحد الأمثلة التي دفع فيها اليهود الأبرياء جزاء سياسة زعمائهم المجرمة بحق الإنسانية.

وقد طرد اليهود من ليتوانيا عام ١٤٩٥، ومن البرتغال عام ١٤٩٨، ومن إيطاليا عام ١٥٤٠، ومن بافاريا عام ، ١٥٥١

وهكذا يمكن القول بأن العصور المظلمة لدي اليهود بدأت مع بشائر عصر النهضة في أوروبا.. وهذه الحقيقة تدعم صحة النظرية التي يقول بها بعض المؤرخين والتي فحواها أن أمم أوروبا لم تستطيع البدء بعصر النهضة والازدهار، إلا بعد أن تمكنت من تحرير نفسها من براثن السيطرة الاقتصادية اليهودية.

حُصرت الجاليات اليهودية في أوروبا بعد حركات التهجير الكبرى، داخل أحيائها التي سميت بالجيتو، والتي يسميها اليهود الكاحل، حيث فرض على اليهود أن يعيشوا معزولين عن جماهير الشعوب، يحكمهم حاخاماتهم أو حكماؤهم، الذين كانوا بدورهم خاضعين لتوجيهات النورانيين وكبار المرابين اليهود، الذين لبثوا في مراكزهم التي تمكنوا من الحصول عليها في بعض المدن الأوروبية.. وكان عملاء النورانيين منبثين في أحياء الجيتو، ينفثون سموم الحقد والكراهية وروح الانتقام في قلوب الجماهير اليهودية، من أولئك الذين هجروهم وعزلوهم.. كما كان الحاخامات بدورهم يلقنونهم أنهم "شعب الله المختار"، وأن يوم الانتقام آت دون ريب، وسيرثون الأرض ومن عليها.

وتجدر هنا الإشارة إلى أن معظم اليهود الذين انتقلوا إلى أوروبا الشرقية، فرض عليهم بدورهم العيش في "مناطق الإقامة" التي سمح لهم بها، والواقعة بصورة عامة على الحدود الغربية لروسيا، من سواحل البحر البلطيقي في

الشمال حتى سواحل البحر الأسود في الجنوب.. وكان معظمهم من اليهود الخزر في الأصل.. ويشتهر الخزر من اليهود بثقافتهم المعروفة بـ "اليديش" (وهو اسم لغتهم التي يتكلمون بها) كما يعرفون بخبثهم وبخلهم الشديد، وأساليبهم المنحطة في الأمور المالية، وأخلاقهم الدنيئة.. ويجب أن نميز هنا بينهم وبين العبرانيين القدماء الذين ذكرتهم التوراة، فهؤلاء كانوا من الرعاة المهذبين في الغالب[١].

نشوء السوق السوداء في أوروبا

طوَّر سادة المال هذه الحركة الثورية، حتى حولوها إلى الشيوعية العالمية التي نعرفها اليوم.. كانوا ينظمون أعمال العنف الفردية حتى أصبحت حركة ثورية منظمة ووضعوا فيما بعد خطة منظمة لعودة اليهود للبلاد التي طردوا منها عن طريق التسلل، حيث إنهم كانوا ممنوعين قانونيا من الرجوع إلى تلك البلاد.. وحيث إنهم كانوا ممنوعين من الإقامة والحصول علي وظيفة، فقد زودوا بمبالغ وأرصدة لإنشاء نظام السوق السوداء، ومارسوا في هذه الأسواق كل أنواع التجارات والمبادلات المحرمة.. وكانوا يعملون حسب منهج الشركة الاحتكارية الخفية، مما أتاح لبارونات المال الذين يمولون هذه الشبكات أن يبقوا في الخفاء.

إننا نستطيع الحكم على نجاح مخطط تسلل اليهود إلى البلاد التي طردوا منها، بدراستنا للوقائع التالية: فقد عاد اليهود إلى إنكلترا عام ١٦٠٠م، وإلى هنغافوريا سنة ١٥٠٠ ولكنهم طردوا منها ثانية عام ١٥٨٢ وعادوا إلى سلوفاكيا سنة ١٥٦٢ ليطردوا منها عام ١٧٤٤ وعادوا إلى ليتوانيا عام ١٧٠٠ وبصرف النظر عن عدد المرات التي طردوا فيها، فإنهم في كل مرة كانوا يتركون وراءهم الشبكات الخفية التي كانت تدير وتخطط النشاطات الثورية والاضطرابات للقوى الخفية[٢].

---

(١) انظر وليم جاي كار «أحجار على رقعة الشطرنج» الفصل الثالث «اليهود».

(٢) نفسه.

سابعا : أسباب اضطهاد روسيا القيصرية لليهود :

لقد كان اليهود وراء كل ثورة ضد روسيا وكانوا سبب زعزعة الاستقرار فيها لذا كان إمبراطور روسيا شديد الكره لهم " وقد كان هرتزل يعرف مع ذلك معرفة كاملة المشاعر المعادية للسامية (لصاحب الجلالة إمبراطور روسيا) وروى في الواقع في صحيفته المحادثاتِ التي تمت في سان بطرسبرج مع وزير المالية الروسي الكونت " وت " Witte في ٩ من أغسطس عام ١٩٠٣م لقد قال لهرتزل منذ البداية : أتريد خروج اليهود من البلاد ؟ أأنت عِبراني؟ باختصارٍ إلى مَن أتكلم الآن ؟

ـ أنا عبراني ورئيس للحركة الصهيونية.

ـ إذن ماذا علينا أن نقول أنت وأنا؟[1].

وأخذ "وت" يعدد مطاعن القيصر ضد اليهود، وهي المطاعن ذات الطابع الديني والاقتصادي والسياسي (وعليه فإذا كان هنا سبعة ملايين فقط من اليهود وسط شعب تعداده مائة وستّة وثلاثون مليونا، فإن اليهود يشكلون ٥٠٪ من القوة المؤثّرة في الأحزاب الثورية)[2].

ـ أظن أن هذه غلطة حكومتنا، فإن اليهود جِدَّ مُضطَّهَدِين، ولقد كنت دائمًا أقول للإمبراطور الراحل ألكسندر الثالث:

لو كان من الممكن يا صاحب الجلالة أن نُغرِقَ ستة ملايين أو سبعة من اليهود في البحر الأسود، فربما أكون راضيًا رضًا كاملاً، ولكن إذا لم يكن هذا ممكنًا فيجب أن نتركهم يعيشون.

وأنا لم أغير رأيي، ولكني قُوبِلتُ بتعاظم الاضطهاد.

لم يُخدَعْ هرتزل بهذه (الأريحية) تجاه اليهود، وقد عزاها بحق إلى حرص وتّ على تكديس الأحقاد المتجمعة لمصلحته وضد غريمه بلف، وذلك بمناسبة مذبحة

---

(١) نشرة شيفر في مجموعة وثائق عن إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين ص ٣٩٤، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات السماوية» مرجع سابق.

(٢) نفسه ص ٣٨٥.

اليهود في كيشنيف (لو ساءت الأمور فسوف يسقط بلف وسوف يرتفع وت إلى الذروة)[1].

لقد كان وضع وت محدَّدًا بأمرين.

- وسأله هرتزل: إن جنودًا من الترك يحرسون قبر المسيح، ما رأيكم ؟

- ربما يكون أعظم سوءًا لو كان اليهود هم حراسه[2].

ثامنا : أسباب اضطهاد هتلر النازي لليهود

سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود، فكانت إجابته قصيرة بقدر ما كانت قاسية: "لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران. ونحن وحدنا شعب الإله المختار" .

وقبل عرض آراء هتلر في اليهود لابد أن نفرق بين يهود العالم الذين تعاونوا مع الحلفاء ضد هتلر في الحرب، واليهود الصهاينة الذين تحالفوا معه ضد الحلفاء بل وضد إخوانهم اليهود أيضا[3]. وكل الاتهامات التي شنها هتلر على اليهود والتي ضمنها كتابه " كفاحي " موجهة لليهود الاندماجيين غير الراغبين في الهجرة.

صرح هتلر بأن اليد الخفية اليهودية وراء جميع الجرائم الأخلاقية التي تفسد المجتمع، والأفكار المسمومة التي تضلله.

" قد أثبتت لي الأيام أن ما من عمل مخالف للأخلاق وما من جريمة بحق المجتمع إلا ولليهود فيها يد. واستطعت أن ألمس مدى تأثير هذا " الشعب المختار" في تسميم أفكار الشعب وتخديره وشل حيويته "[4].

فاليهود وراء كل فن إباحي، ووراء الشيوعية الهدامة، ووراء الصحف الموجهة ضد الشعب الألماني.

---

(١) نفسه ص ١٩٧.

(٢) نفسه.

(٣) راجع تفاصيل هذا التحالف في الفصل السادس «أسطورة عداء الصهيونية للنازية» من هذا الكتاب.

(٤) ادولف هتلر «كفاحي» ص١١ عن دار الكتب الشعبية بيروت لبنان ط الثانية ١٩٥٧ .

"فقد امتدت أصابع الإخطبوط اليهودي إلى جميع الميادين وفرض سيطرته عليها. وأصبح هذا التغلغل كالطاعون الأسود بل أشد منه فتكا، إذ تسعة أعشار المؤلفات والنشرات والمسرحيات واللوحات الفنية التي تدعو إلى الإباحية المطلقة وللماركسية هي من صنع اليهود أما الصحف الكبرى التي أعجبت بها وبرصانتها فكان معظم محرريها وموجهيها من أبناء هذا "الشعب المختار" وشعرت بعد معرفتي بالحقيقة مدى تأثير اليهود في توجيه الرأي العام وذلك بالنظريات التي تتناسب ومصالحهم الشخصية البعيدة الهدف"(١).

كما يصرح هتلر أن اليهود بارعون في جمع المال بشتى الطرق وإن كانت غير مشروعة وهي غالبا كذلك مثل تجارة الرقيق الأبيض والدعارة.

" ومما زاد في نقمتي على اليهود تكالبهم على جمع المال بجميع السبل الملتوية، ولقد لمست الحقائق التي لا تخطر ببال للدور الذي يمثله اليهود في ترويج سوق الدعارة والاتجار بالرقيق الأبيض"(٢).

كما يؤكد هتلر أن اليهود هم وراء المذهب الشيوعي الذي يعمل على تدمير الحياة وخراب العالم وإشاعة الفوضى في كل مكان لصالح اليهود الذين يسعون لفرض سيطرتهم على العالم.

" درست العلاقة بين الماركسية واليهودية وتأكدت لي حقيقة اليهود ومراميها في إشاعة الفوضى والخراب في العالم ليتمكن هذا الشعب المختار من استغلال الفوضى وبفرض مشيئته في كل مكان"(٣).

ويرجع هتلر خراب الاقتصاد الألماني قبل الحرب العالمية الأولى إلى اتباع ساسة ألمانيا نصائح عملاء الماركسية من اليهود في هذا الشأن بهدف قيام دولة تعمل لصالح اليهود على أنقاض ألمانيا.

" ولقد تأكدت لي مع الأيام الأخطاء السياسية التي ارتكبها المسئولون الألمان

---

(١) نفسه ص١١.

(٢) نفسه ص١١.

(٣) نفسه ص ٢٢.

منذ أواخر القرن الماضي حتى نشوب الحرب العالمية كانت نتيجة الأخذ بنصائح عملاء الماركسية من يهود ومفكرين عديمي الإخلاص لوطنهم فعندما أقامت ألمانيا اقتصادها على تلك الأسس الواهية كان اليهود أول المهللين لها، يقينا منهم أن الاقتصاد الأعوج سيؤدي بألمانيا إلى الانهيار، فتقوم على أنقاضها الدولة التي يحلمون بها دولة تحكمها في الظاهر البروليتاريا وتخضع في نفس الوقت لسيطرة شرذمة من رجال المال اليهود"[١].

ويجعل هتلر اليهود هم الطابور الخامس الذي تحالف مع أعداء ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

"لقد كان على السلطات أن تحزم أمرها وتتخذ جميع التدابير الكفيلة بالقضاء على المضللين والماركسيين ومن ورائهم اليهود كان على الحكومة أن تقضي على أعداء ألمانيا على تلك الحثالة الباقية في المؤخرة بينما كانت النخبة في الأمام تجود بدمائها في ساحة القتال"[٢].

قبل إعلان الصهاينة المفوضين عن اليهود تحالفهم مع الحلفاء ضد هتلر في الحرب العالمية في سبتمبر سنة ١٩٣٩ لم يكن هتلر راغبا في قتل اليهود إنما أراد التخلص منهم كما تخلصت بقية أوربا منهم عن طريق التهجير، لكن بسبب تحالف اليهود مع الحلفاء وتجسسهم ضد ألمانيا، وفشل هتلر في تهجيرهم للأسباب الآتية :

١- لم يكن لدى هتلر مستعمرات في آسيا وأفريقيا ينقلهم إليها.

٢- رفض دول أوربا استقبالهم.

٣- إغلاق إنجلترا -صاحبة الانتداب على فلسطين حينئذ- باب الهجرة أمام هجرة اليهود إلى فلسطين بسبب ثورة العرب.

لهذه الأسباب لم يكن بوسع هتلر التخلص من اليهود إثناء الحرب إلا باحتجازهم في معسكرات الاعتقال -بوصفهم " رعايا شعب في حالة حرب مع

---

(١) نفسه ص ٢٢.

(٢) نفسه ص ٢٦.

ألمانيا "- ثم بالإبعاد نحو مدغشقر في بادئ الأمر ثم نحو الشرق في الأراضي المحتلة وخاصة في بولندا حيث هلك كثير من اليهود بالأشغال الشاقة في خدمة الإنتاج الحربي، ثم بالأوبئة الفظيعة، فعل هتلر ذلك باليهود بسبب ارتكابهم جريمة الخيانة العظمى بالتحالف مع أعدائه أثناء الحرب كما فعل الأمريكان مع مواطنيهم من أصل ياباني عشية دخولهم الحرب مع اليابان.

أسباب اضطهاد اليهود في الكتب السماوية

ولا تكاد الكتب السماوية تختلف عن التاريخ الإنساني العام في رد كل اضطهاد لبني إسرائيل والجماعات اليهودية إلى فسادهم وانحرافهم الديني والسلوكي والأخلاقي.

أولا : أسباب اضطهاد بني إسرائيل في التوراة

العجيب أن توراة اليهود أكثر الكتب السماوية تصريحا بأن كفر وفساد وانحراف بني إسرائيل هي السبب الحقيقي وراء اضطهاد الشعوب لهم، ونكتفي في هذا المقام ببعض الإشارات على سبيل المثال لا الحصر.

"ارتكب بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا إلههم وعبدوا البَعْلِيم وعَشْتَارُوث فاحتدم غضب الرب عليهم، فسلط عليهم كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين، فاستعبد كوشان رشعتايم بني إسرائيل ثماني سنوات.

واستغاث بنو إسرائيل بالرب فأقام لهم مخلصا أنقذهم هو عُثْنِيئِيل بن قَناز أخو كالب الأصغر فحلّ عليه روح الرب وصار قاضيا لإسرائيل. وحين خَرَج لمحاربة كوشان رشعتايم ملك أرام تغلب عليه، وأظفره الرب به.

وعم السلام البلاد حِقبة أربعين سنة، إلى أن مات عُثْنِيئِيل بن قَناز. فعاد بنو إسرائيل يقترفون الشر في عيني الرب فسلط عليهم الرب عِجْلون ملك موآب عقابا لهم على شرهم فألّب عليهم بني عَمُّون وعماليق، وهاجَمَهم واحتلَّ أريحا مدينة النخل واستعبد عجلون ملك موآب بني إسرائيل ثماني عشرة سنة فاستغاث بنو إسرائيل بالرب فأرسل لهم منقذا إهود بن جيرا البنياميني.. وهاجموا الموآبين وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف من المحاربين الأشداء في ذلك اليوم خضع الموآبيون لبني إسرائيل وعمَّ السلام البلاد ثمانين سنة.

وبعد موت إهود عاد بنو إسرائيل يرتكبون الشر في عيني الرب فأخضعهم الرب ليابين ملك كنعان.. "، (القضاة : ٤،٣).

وتذكر توراة اليهود أن فساد اليهود كان السبب في عقاب الرب لهم بالسبي الآشوري.

"فاحتدم غضب الرب على إسرائيل، وطردهم من حضرته، ولم يبق سوى سبط يهوذا. ولكن حتى سبط يهوذا لم يحفظ وصايا الرب إلهه بل نهج في طُرُق إسرائيل التي سلكتها. فنبذ الرب كل ذرية إسرائيل وأذلهم وأسلمهم ليد آسريهم وطرهم من حضرته.. فَسُبِيَ الإسرائيليون من أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم.. ونقل ملك أشور أقواما من بابل وكوث وعوًّا وحماة وسفروايم، وأسكنهم مدن السامرة محل بني إسرائيل، فاستولوا على السامرة وأقاموا مدنها"، (ملوك الثاني:١٧).

وبدلا من اتعاظ بقية مدن إسرائيل بما أحدثه ملك أشور بالسامرة وأهلها راحوا يتمادون في غيهم وفسادهم فأوحى الرب إلى نبيهم ميخا أن أنذر كل من مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل بخراب أورشليم بسبب فساد شعب إسرائيل.

"ثم قال الرب على لسان عبيده الأنبياء: " لأن منسى ملك يهوذا اقترف جميع هذه الموبقات، وارتكب شرورا أشد من فظاعة شرور الأموريين الذين كانوا قبله، وأضل يهوذا فجعله يأثم بعبادة أصنامه، لذلك يقول الرب إله إسرائيل : " ها أنا أجلب شراً على أورشليم ويهوذا فَتَطِنُّ أُذنا كل من يسمع به. وسأوقع على أورشليم العِقاب الذي أوقعته بالسامرة وبأخآب ونسله. وأمسح أورشليم من الوجود كما يمسح الطبق من بقايا الطعام ثم يقلب على وجهه ليجف. وأنبذ بقية شعبي وأسلمهم إلى أيدي أعدائهم فيصبحوا غنيمة وأسرى لهم، لأنهم ارتكبوا الشر في عينيَّ وأثاروا غضبي منذ خروج آبائهم من مصر إلى هذا اليوم. وزاد منسى فسفك دم أبرياء كثيرين حتى ملأ أورشليم من أقصاها إلى أقصاها"، (ملوك الثاني : ٢١).

وتلخص توراة اليهود قصة شعب إسرائيل عبر تاريخه فتقول :

" أوحى إليَّ – أي حزقيال- بكلمته قائلا" يا ابن آدم، عندما أقام شعب إسرائيل في أرضهم نجسوها بطرقهم الشريرة وتصرفاتهم.

كانت طريقهم أمامي نجسة كنجاسة الطامث فسكبت غضبي عليهم جرَّاء ما سفكوا من دم على الأرض التي نجسوها بأصنامهم ففرقتهم بين الأمم وشتتهم في البلدان، ودنتهم بمقتضى طريقهم وتصرفاتهم.

وحين استقروا بين الأمم التي تفرقوا بينها دنَّسوا اسمي القدوس إذ قيل لهم : هؤلاء شعب الرب وقد طردوا من أرضه.

فغرت على اسمي الذي نجسه شعب إسرائيل بين الأمم التي تفرقوا بينها.

لذلك قل لشعب إسرائيل : ليس لأجلكم أنا موشك أن أعمل (عظائم) يا شعب إسرائيل، بل غيرة على اسمي الذي دنستموه بين الأمم التي تفرقتم بينها فأقدس اسمي العظيم الذي صار بسببكم منجسا بين الأمم التي تفرقتم بينها فتدرك الأمم أني أنا الرب حين أتقدس فيكم أمام أعينهم يقول السيد الرب إذ آخذكم من بين الأمم وأجمعكم من كل البلدان وأحضركم إلى أرضكم وأرش عليكم ماء نقيا فتطهرون من كل نجاساتكم ومن أصنامكم... ولهذا اعلموا أنه ليس من أجلكم أنا أفعل هذا، يقول السيد الرب فاخجلوا واخزوا من طرقكم يا شعب إسرائيل"، (حزقيال : ٣٦).

ثانيا : رأي يسوع في اليهود

ولقد تعقب اليهودُ يسوعَ وجادلوه طويلا و أنكروا عليه دعوته، ولما يأس يسوع من هدايتهم، وإصلاح انحرافهم صب عليهم جام غضبه واصفا إياهم بالرياء والنفاق والعمى، وبأنهم أحفاد قتلة الأنبياء وأبناء الحيات والأفاعي، وحمَّلهم مسئولية كل دم زكي سفح ظلما حتى وإن كان دم هابيل ابن آدم...

" لكم الويل أيها الكتبة و الفريسيين (علماء اليهود) المراءون فإنكم تغلقون ملكوت السموات في وجوه الناس فلا تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون، الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تلتهمون بيوت الأرامل وتذرعون

بإطالة صلواتكم لذلك سينزل بكم دينونة أقسى الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا متهودا واحدا فإذا تهود جعلتموه أهلا لجهنم ضعف ما أنتم عليه، الويل لكم أيها القادة العميان تقولون من أقسم بالهيكل فقسمه غير ملزم أما من أقسم بذهب الهيكل فقسمه ملزم أيها الجهال العميان أي الاثنين أعظم الذهب أم الهيكل الذي يجعل الذهب مقدسا.

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تؤدون حتى عشور النعنع والشبث والكمون وقد أهملتم أهم ما في الشريعة : العدل والرحمة والأمانة. كان يجب أن تفعلوا هذه أولا ولا تفعلوا تلك أيها القادة العميان إنكم تصفون الماء من البعوضة ولكنكم تبلعون الجمل الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تنظفون الكأس والصفحة من الخارج ولكنها من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم كالقبور المطلية بالكلس تَبْدو جميلة من الخارج ولكنها ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة كذلك أنتم تبدون للناس أبرارا ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق الويل لكم أيها الكتبة والفريسيين المراءون فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الأبرار وتقولون لو عشنا في زمن آبائنا لما شاركناهم في سفك دم الأنبياء فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلي الأنبياء فأكملوا ما بدأه آباؤكم ليطفح الكيل أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تفلتون من عقاب جهنم ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلمين فبعضهم تقتلون وتصلبون وبعضهم تجلدون في مجامعكم وتطاردونه من مدينة على أخرى وبهذا يقع عليكم كل دم زكي سفك على الأرض من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح الحق أقول لكم إن عقاب ذلك كله سينزل بهذا الجيل"، (متى : ٢٣).

وبعد أن لعن يسوع اليهود وفضح جرائمهم تنبأ بخراب أورشليم مسكن اليهود الملاعين الذين سفكوا دماء الأنبياء وكذبوا المرسلين فيقول :

"يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدوا ! ها إن بيتكم يُتْرَك لكم خرابا فإني أقول لكم إنكم لن تروني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب"، (متى : ٢٣).

ثالثا : اليهود في القرآن الكريم

لم يكتف بنو إسرائيل بعصيان أوامر الله فحسب بل كفروا بآيات الله وعبدوا العجل من دون الله تعالى، بل وامتدت يدهم الآثمة إلى أنبياء الله فقتلوا فريقا منهم، وكذبوا الآخرين، لذا ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب منه تعالى :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، (البقرة : ٦١).

وسولت لهم أنفسهم الأمارة بالسوء أن يصفوا الله تعالى بصفات منكرة لا يرضاها من البشر أحد فما بالك بالخالق العظيم المتعالى الغني المغني سبحانه وتعالى عما يصفون.

لذا فقد عاقبهم الله بان ألقى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما جمعوا وأعدوا شتت الله جمعهم.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، (المائدة : ٦٤).

والقرآن الكريم ينص على أن أكثر اليهود ناقضون لعهود الله وعهود البشر.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، (البقرة: ١٠٠).

ومن صور خيانتهم للعهود - كما ذكرنا - تحالفهم مع كل القوى المتصارعة مما جعلهم أعداء للجميع فهم يعاهدون البابليين مثلا، وفي نفس الوقت يعاهدون المصريين أعداء البابليين، وفي ذات الوقت يعاهدون الله، فهم يريدون أن يمسكوا بجميع الخيوط حتى وإن كانت متناقضة فحبل من المصريين، وحبل من البابليين أعدائهم، وحبل من الله عدو لجميع الكافرين، مما يجعلهم أعداء للجميع، وهذه سمة الجبان الذليل، كما أنها سمة خائن العهد ولقد وصفهم الله بهاتين الصفتين من بين

صفاتهم الدنيئة الكثيرة ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، (آل عمران :١١٢).

عن ابن عباس ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ قال: بعهد من الله وعهد من الناس.

ومن معاني الحبل هو العهد والوصل والسبب.

فمعنى الحبل في هذه الآية السبب فاليهود ضربت عليهم الذلة أينما وجودوا إلا بسبب من الله وهو اتباعهم الوحي والهدي النبوي عندما اتبعوا سيدنا موسى عليه السلام فأعزهم الله بعدما كانوا أذلة، أو بسبب من الناس من خلال تملق الأقوياء والتحالف معهم وجعلهم أداة ووسيلة تحقيق أهدافهم.

وهذا ما يصدقه الواقع والتاريخ فاليهود قوم انتهازيون وصوليون، يتملقون الأقوياء ويتحالفون معهم من أجل خدمة أهدافهم[1].

وذكر الله تعالى في كتابه العزيز فساد بني إسرائيل وتسليط الله أعداءهم عليهم.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ④ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ⑤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ⑦ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾، (الإسراء:الآيات من ٤ : ٨).

---

(١) نعمان عبد الرزاق السامرائي «اليهود والتحالف مع الأقوى».

ولقد صدقت النبوءة والوعد فسلط الله على بني إسرائيل من قهرهم أول مرة ثم سلط عليهم من شردهم في الأرض ودمر مملكتهم تدميرا.

أهؤلاء هم الضحية التي يتحدثون عنها ؟

أهؤلاء من يستحقون وعد الله لإبراهيم كما يزعمون؟

إن شرارهم أنجس من خَلَقَ الله على وجه البسيطة، و إن ما حدث لهم على مدى التاريخ كان جزاء وفاقا.

وبعد أن أثبتنا بالأدلة القاطعة : دينية، وتاريخية أن اليهود لم يكونوا أبدا ضحية عبر التاريخ بل أن مفسديهم هم وراء كل ما حل بهم من اضطهاد، وأن سماتهم الخسيسة هي التي جعلتهم شعبا منبوذا من كل شعوب الأرض، وهي التي حولتهم إلى جزار يفتك بالضعفاء والأبرياء، ولا يستثني في عدوانه نبيا ولا رسولا، ولا طفلا ولا شيخا، ولا امرأة ولا نبتا، لقد ارتكب اليهود في تاريخهم من الجرائم في حق الأنبياء والمرسلين ما لم يرتكبه شعب آخر فقد كذب كثير منهم الأنبياء والمرسلين بل سعوا إلى قتلهم، وتمكنوا بالفعل من قتل فريق من الأنبياء وسنعرض في الكتاب الثاني من هذه السلسلة لقصتهم في الكتب السماوية : قصتهم في التوراة، وقصتهم مع سيدنا عيسى كما جاءت في الأناجيل، ومع سيدنا موسى كما جاءت في القرآن الكريم، ومع سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وكلها تؤكد أن ما حاق بهم من اضطهاد كان جزاءً وفاقاً.

معاداة السامية

لو أُخذت العبارة بالمعنى الحرفي، فإنها تعني العداء للساميين أو لأعضاء الجنس السامي الذي يشكل العرب أغلبيته العظمى. بعكس اليهود الذين لا نستطيع أن نجزم على أي منهم بأنه سام خالص كما سبق الحديث.

ولكن مصطلح "معاداة السامية" في اللغات الأوربية، يقرن بين الساميين واليهود ويوحد بينهم، وهذا يعود إلى جهل الباحثين الأوربيين في القرن التاسع عشر بالحضارات الشرقية، وعدم تكامل معرفتهم بالتشكيل الحضاري السامي أو بتنوع الانتماءات العرْقية والإثنية واللغوية لأعضاء الجماعات اليهودية.

علاقة مصطلح "معاداة السامية" بالصهيونية

وقد اختلط المجال الدلالي لمصطلح معاداة السامية تماماً في اللغات الأوربية بعد ظهور الصهيونية. وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي، لم تَعُد هناك تفرقة بين ظاهرة معاداة اليهود في الدولة الرومانية وظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى المسيحية. ولم يَعُد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عِرْقي وبين معاداة اليهود على أساس ديني. وأصبحت معاداة الصهيونية، بل والدولة الصهيونية هي الأخرى، تُصنَّف باعتبارها من ضروب معاداة اليهود.

وحينما كانت دول الكتلة الشرقية تصوت ضد إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة، كان هذا يُعدُّ أيضاً تعبيراً عن تقاليد معاداة اليهودية الراسخة فيها. وبالمثل اعتُبر قيام فرنسا ببيع طائرات الميراج لليبيا تعبيراً عن الظاهرة نفسها. بل ويذهب أنصار هذا الرأي إلى أن نضال الشعب الفلسطيني ضد الاستيطان الصهيوني تعبير عن الظاهرة نفسها. وهكذا اتسع المجال الدلالي للمصطلح واضطرب ليضم عدة ظواهر لا يربطها رابط، حتى أصبح بلا معنى، وأصبح أداة للإرهاب والقمع الفكريين.

يُستخدَم المصطلح أيضاً للإشارة إلى ما يسميه الصهاينة «معاداة السامية الإسلامية»، أي عداء المسلمين لليهود. وهم يرون أن هذا النوع من العنصرية آخذ في التزايد حيث ينظر المسلمون إلى اليهود باعتبارهم "أعداء الله"، وأن إسرائيل تعبير عن المؤامرة اليهودية الأزلية.

ويرى الصهاينة أن معظم أشكال معاداة اليهود أشكال بنيوية، أي لصيقة ببنية المجتمع. وتحاول الصهيونية العمالية أن تبرهن على وجود هذه المعاداة البنيوية للسامية من خلال تحليل علاقات الإنتاج في المجتمع لتصل إلى نتيجة مفادها أن المجتمعات البشرية لا تسمح لليهودي أن يعمل في القطاعات الإنتاجية وأن اليهودي من ثم محكوم عليه بالهامشية والطفيلية، وأن الحل الوحيد لهذه الهامشية البنيوية أن يؤسس اليهود لهم وطناً يمارسون فيه سيادتهم القومية ويشغلون فيه كل المواقع في الهرم الإنتاجي.

ويذهب الصهاينة إلى أن معاداة اليهود ليست لصيقة ببنية المجتمع وحسب، بل لصيقة ببنية النفس البشرية. وهذا ما عبَّر عنه شامير بشكل سوقي حين قال إن البولنديين يرضعون معاداة اليهود مع لبن أمهاتهم. ويرى الصهاينة أن العرب والمسلمين يعانون من الظاهرة نفسها، أي المعاداة البنيوية للسامية.

والعلاقة بين «المعاداة للسامية» و«الصهيونية» علاقة قوية، فإذا كانت " معاداة السامية " تهدف إلى التخلص من اليهود وتطهير أوربا منهم، فإن " الصهيونية " تهدف إلى توظيفهم بحيث يتجه المهاجرون اليهود إلى فلسطين(١).

استغلال الصهيونية لأسطورة "معاداة السامية"

استغلت الصهيونية فكرة اللاسامية لتحقيق أهدافها في إنشاء الكيان الصهيوني في فلسطين، بل عملت على تأجيج نارها وافتعالها كلما خمدت.

ويعترف هرتزل أن ماكس نوردو يتفق معه في الاعتراف بأن "اللاسامية وحدها هي التي صنعت منا يهودا، "فهو جدٌّ مقتنع بأن أفكار "الجنس"، بل وأفكار "الشعب" و"القومية" اليهودية ليس لها من واقع(٢).

وقد كان هناك اعتقاد بأن اللاسامية ستنتهي بهزيمة النازية ولكن الصهيونية أرادت للاسامية أن تستمر لأنها البقرة الحلوب للصهيونية المعاصرة وأداة الابتزاز والإرهاب التي تشهرها ضد العالم، ولا سيما ضد الإنسان الأوروبي الذي أصبح يعاني بفعل الدعاية الصهيونية من عقدة الذنب وتأنيب الضمير. إن إشهار سلاح اللاسامية على كل من يقف في وجه الحركة الصهيونية أو يشكك في نشاطها أو مطامعها التوسعية أطلق يدها لتهيمن على مقدرات الإعلام الغربي فلم يعد هناك كاتب أو مفكر أو صحفي حر يجرؤ على فضح الصهيونية أو إدانتها دون أن يتعرض لتهمة اللاسامية. ولم تقف الصهيونية في استغلالها اللاسامية، عند هذا الحد فراحت تتهم كل من يتعاطف مع الفلسطينيين في مأساتهم بأنه لا سامي، تماماً مثلما اتهمت العرب (الساميين) بأنهم لا ساميون، لا بل إنما اتهمت

---

(١) لمزيد من التفصيل عن مصطلح «معاداة السامية» الرجوع لموسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» م٢ ج٤، عداء الأغيار الأزلي لليهود واليهودية.

(٢) يوميات تيودور هرتزل مرجع سابق ص ٧٨.

اليهود الذين عارضوا الصهيونية باللاسامية فحين تظاهر اليهود العراقيون في تل أبيب عام ١٩٥١ احتجاجاً على التفرقة بين الاشكنازيين والسفارديين هاجمهم بن غوريون ووصف تظاهراتهم بأنها "لا سامية إسرائيلية".

وما تزال الصهيونية تُشهِر سلاح اللاسامية في وجه كل دولة أو سياسي في العالم ينتقد (إسرائيل) أو يقف من العرب موقفا مؤيدا، بعدما استخدمت هذا السلاح بفاعلية لإقامة دولتها على أرض فلسطين[١].

واليهود الصهاينة إذ يرفعون شعار معاداة السامية في وجه أعدائهم إنما يرمون إلى هدفين : التغطية على جرائمهم التي يرتكبونها في حق الشعوب العربية، وكسب تأييد الدول الغربية في مشروعها الاستيطاني[٢].

ليت العرب والمسلمين يحسنون الدفاع عن حقوقهم كما يحسن اليهود الصهاينة الدفاع عن باطلهم، لكن مما يؤسف له أن العرب والمسلمين قد خسروا قضاياهم المشروعة بسبب انعدام المحامين المخلصين عنها فاغْتُصِبت أراضينا وحكم علينا بالإرهاب!!



---

(١) «قاموس المصطلحات الصهيونية» عن المركز الإعلامي الفلسطيني على شبكة المعلومات.

(٢) انظر الفصل الثالث من الباب الثاني «أسطورة معاداة الصهيونية لأعداء السامية» في هذا الكتاب.

2

الباب الثاني

الفصل الثاني

أسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض

الباب الثاني

الفصل الثاني

أسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض

□□

" أرض بلا شعب لشعب بلا أرض " أسطورة صهيونية سياسية تعتمد على أسطورة دينية توراتية وهي عهد الرب " يهوه " لإبراهيم ولنسله بتملك أرض كنعان «٧وَأُقِيمُ عَهْدِي الأَبَدِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ جيلاً بَعْدَ جيل، فَأَكُونُ إِلهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً» (التكوين: ١٧).

وقامت الصهيونية السياسية بتطبيق هذه الأسطورة الدينية بالقوة فدعت يهود الشتات المستوطنين في بلدان العالم إلى استيطان أرض فلسطين وطرد الفلسطينيين منها زاعمة أن فلسطين أرض بلا شعب، وأن اليهود شعب بلا أرض.

تقول جولدا مائير: " لا يوجد شعب فلسطيني وكأننا نحن الذين جئنا لإخراجه من دياره والاستيلاء على بلده، فالفلسطينيون لا وجود لهم"[١].

ويقول مناحم بيجين: "لقد وُعِدنا بهذه الأرض، ولنا حق فيها"[٢].

(١) جريدة الصنادي تايمز اللندنية بتاريخ ١٩٦٩/٦/١٥، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

(٢) تصريح بيجين في أسلو لصحيفة دافار ١٩٧٨/١٢/١٢، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

وقد أعلن مناحم بيجين وهو أشد الصهاينة إيمانا بالتقاليد التوراتية: إن أرض إسرائيل الكبرى ستعود إلى شعب إسرائيل كلها وللأبد"[1].

ولا شك أن بن جوريون كان يشير إلى إبادة الرجل الأبيض للهنود الحمر والاستيلاء على أرضهم عندما قال بوضوح " إن الأمر لا يتعلق بالحفاظ على الوضع الراهن فأمامنا مهمة إنشاء دولة نشيطة وديناميية موجهة نحو التوسع"[2].

وأسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض من اختراع المستعمرين الغربيين الذين أرادوا أن يتخلصوا من اليهود ومشاكلهم الاقتصادية والقومية والسياسية وفي نفس الوقت يستفيدون منهم برعاية مصالحهم في الوطن العربي فاختلقوا هذه الأسطورة العلمانية السياسية وأضفوا عليها بُعْداً دينيا توراتيا، فزعموا اقتراب يوم القيامة، وآن الأوان لتحقق مشيئة الرب " يهوه " بتوطين اليهود أرض الميعاد التي وُعد بها آباؤهم الغابرون، ولا يهم أن يتم هذا على يد الماشيخ المنتظر أو على يد بلفور أو ترومان أو بوش أو غيرهم من الصهاينة الغربيين،وفي سبيل تحقيق هذه الأسطورة لا يهم الاستيلاء على أرض الغير بالقوة وتهجير سكانها قسرا !!

وانطلاقا من أسطورة العهد الإلهي لبني إسرائيل ودون التساؤل عن ماهية هذا العهد، ولمن صدر وبغض النظر عن كون هذا الوعد كان مشروطا بالالتزام بوصايا الرب أم لا، أعلن الزعماء الصهاينة، حتى ولو كانوا لا أدريين أو ملحدين أن فلسطين قد أعطيت لنا من الرب!!

وتشير إحصائيات الحكومة الإسرائيلية أن ١٥٪ من الإسرائيليين فقط هم من المتدينين. ولكن هذا لا يمنع ٩٠٪ منهم التأكيد على أن هذه الأرض قد منحها لهم الرب الذي لا يؤمنون به!!

ولا تمارس الغالبية العظمى للإسرائيليين الحاليين الطقوس ولا العقيدة الدينية، ولا تضم مختلف "الأحزاب الدينية" سوى عدد قليل جدا من المواطنين ومع ذلك تلعب دورا حاسما في دولة إسرائيل.

---

(١) مناحم بيجين «العصيان، قصة الأرجون» ص٣٣٥ نقلاً عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٥٧.

(٢) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية مرجع سابق ص ١٥٦.

وشـرح ناثان وينسـتوك هـذا التناقض في كتـابه "الصـهيـونيـة ضـد إسـرائيل" قائلا: لـو ألغينا مفـاهيم "الشعب المختار" و "الأرض الموعـودة" لإنهارت الصـهيـونية من أساسها[١].

لقد اهتمت الحركة الصهيونية باستمرار في إنكار الشعب الفلسطيني كشعب مـثلما اهـتمت بالإيحـاء بأن أرضـه خـاليـة من السكان ومن الزراعـة لتـبـرر بذلك الأسطورة الأسـاسيـة التي قامت عليـهـا " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض " ويصل المنطق الصـهـيـوني إلى الاستنتاج التـالي: مَنْ تصـادف وجوده من العـرب في أرض فلسـطين في هذه المرحلة فليس لـه إلا الانتـقـال إلى مكان آخـر في أرض العـرب الواسعة، وأية مأساة في ذلك وأي عجب ؟!

ولا تزال الحـركة الصـهيـونيـة حتى الآن ترتكز في ما ترتكز إليه في إعـلامـهـا الغـربي والدولـي إلى هـذه النظرة لتـبـريـر احـتـلال فلسطين وللدعـوة إلى اسـتـمـرار الهجرة اليهودية إليها[٢].

وبهذا التـفسيـر الاستعماري -المتناقض- تحولت الجماعـات اليهـودية -المنبوذة المضطهدة من الغرب العلماني- إلى شعب الله المخـتار، كما تحولت أرض فلسطين المأهولة بـالسكان إلى أرض بلا شـعـب في حـاجـة لمن يسـتوطنـهـا، وبالطبع -وفـقـا لهذا التـفسيـر- فليس هناك أحق باستيطان الأرض المقدسـة إلا شعبـا مقدسا وهـو الشعب اليهودي!!

وبهـذا يتم اسـتـبدال يهود الـغرب بالـفلسطينيين العـرب، فيُشَتَّت الفلسطينيـون المواطنون الأصـليـون من بلادهـم فـلسطين، ويسـتـوطن اليـهـود المواطنون الغـربيـون هـذه البـلاد! كل هـذا يتم تحت رعـاية الغـرب خـدمـة لمصـالحـه، وهـذا هـو المشـروع الصهيوني.

وفي إطار هـذه الاسـتـراتيـجيـة الصـهيـونيـة تصبـح فلسطين (الأرض المقدَّسـة) بلداً بـلا سكان، لأن امـتــلاك فلسطين ليس من حق السكان الأصلـين. وليس

---

(١) نفسه ص ١٥٥.

(٢) فيصل أبو خضرا «تاريخ المسألة الفلسطينية» ص ٣٢.

بإمكان البشر، يهوداً كانوا أم عرباً أن يتساءلوا عن معنى هذا القرار، لأن محور مشكلة فلسطين، وفقاً لما قاله بن جوريون، يتلخص في حق اليهود المشتتين في العودة وهو حق مطلق قائم منذ بداية التاريخ حتى نهايته.

وكما قال وايزمان " إن أساس وجودنا كله هو حقنا في إقامة وطن قومي فوق أرض إسرائيل (فلسطين) وهو حق نملكه منذ آلاف السنين، ومصدره وعد الرب لإبراهيم، وقد حملناه معنا في أنحاء العالم كله طوال حياة حافلة بالتقلبات"[1].

الفكر الإمبريالي المؤسس لدولة إسرائيل

تعتبر الأحداث التي أدت مباشرة إلى إنشاء دولة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية صفحة واضحة من النضال الحاد للدول الاستعمارية من أجل إعادة تقسيم العالم ومن أجل مناطق النفوذ وتعزيز المواقف في الشرق الأوسط والأدنى، وسار هذا النضال بين الدوائر الاستعمارية في إنجلترا والرأسمالية في الولايات المتحدة الأمريكية.

إن مشكلة الاستعمار الصهيوني لفلسطين إنما تطرح بنفس المصطلحات التي تعرفها مشكلات المستعمرين الآخرين جميعا، فالاستعمار يرى أن أية أرض تعتبر (خالية) ما دامت غير مسكونة من البيض الغربيين، وقد عبر عن هذا المعنى ببراءة وقحة أحد الصهيونيين الأمريكيين فقال:

"أنا أعلم أن الأمريكي كان دائما موضع نقد لأنه إستغل واحتل تكساس وكاليفورنيا إبان حرب المكسيك، التي توصف بأنها عمل عدواني، ولكني أسأل نفسي: ما قيمة نقد كهذا حين يكون البديل أن يحرم مجموع الجنوب الغربي من طيبات الحضارة الأمريكية ؟ عندما توجد أرض "خالية" بالقوة إفتراضا فإن العالم يدعو إلى خلاصها، وفلسطين المقفرة كانت بالضبط تكساس مصغرة، ومنطق التاريخ يتطلب أن تملأ هذه (المساحات الخاوية) لأن الطبيعة يرعبها الخواء"[2].

---

(١) موسوعة «اليهود والصهيونية» م٦ ج٢ «الاعتذاريات الصهيونية العنصرية ونظرية الحقوق اليهودية المطلقة» مرجع سابق.

(٢) برنارد روزنبلات «الجسر الأمريكي إلى الكومنولث الإسرائيلي» ص١٢٣ نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

ولقد كان هذا من قبل هو الشعار الذي رفعه زنجويل عام ١٩٠٤م (أن تعطي أرضا بلا شعب لشعب بلا أرض)، (وقد كان تعداد سكان فلسطين آنذاك أكثر من ستمائة ألف من السكان العرب، مع كثافة سكانية مماثلة لكثافة الشقق الفرنسية المتوسطة).

هذا هو موقف الأمريكيين تجاه الهنود، وموقف البيض في أفريقيا الجنوبية تجاه السود، وموقف الصهيونيين تجاه العرب، وكلهم يرون أن فلسطين أرضا (خالية).

وقد كتبت السيدة جولدا مائير في أول سطر من رسالتها ذات المغزى في ٢٤من أغسطس ١٩٢١م تقول: "إن الإنجليز لم يختاروا العرب لاستعمار فلسطين، بل اختارونا نحن"[1].

ففي نهاية الحرب العالمية الأولى في ٢ / ١١ / ١٩١٧ تقدمت إنجلترا بتصريح حول نشأة "وطن قومي لليهود" في فلسطين، ويعتبر تصريح بلفور نتيجة للمحادثات التي جرت على مدار عام كامل بين القادة الصهيونيين والدوائر البريطانية الحاكمة، ووفقا لاعتراف الدبلوماسيين الإنجليز الرسميين، فإن تصريح بلفور قد أملته بالدرجة الأولى أهداف سياسة بريطانية الحربية وبالذات لإضعاف العدو وشد أزر الحلفاء.

ففي أثناء الحرب العالمية الأولى نظرا لارتباط مصالح بريطانيا بمصالح الحركة الصهيونية، فإن بريطانيا قررت أن ترعى المشروع الصهيوني الرامي إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يعمل في خدمة الأهداف الاستعمارية للدولة التي تساعد في إنشائه، ومن هنا صدر الأمر البريطاني المعروف بتصريح بلفور في صورة خطاب موجه إلى اللورد روتشيلد رئيس الطائفة اليهودية في بريطانيا في ٢ نوفمبر ١٩١٧ كما يلي:

"عزيزي اللورد روتشيلد.. أعبر لكم عن بالغ سروري إذ أنقل إليكم باسم

(١) ماري سركين «جلدامائير» ص ٦٣، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

حكومة صاحب الجلالة التصريح التالي بالعطف على الأماني اليهودية الصهيونية، وهو التصريح الذي عُرض على مجلس الوزراء ونال موافقته.

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وستبذل أقصى مساعيها لتيسير تحقيق هذا الهدف، على أن يكون مفهوما أن شيئا لن يُعمل قد يكون من شأنه المساس بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطّوائف الحالية غير اليهودية في فلسطين، ولا بالحقوق ولا بالوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر.

أكون ممتناً إذا أحطتم المنظمات الصهيونية علماً بهذا التصريح ".

المخلص.. آرثر جيمس بلفور

ومن الطريف أن نص وعد بلفور كتبه " وايزمان " رئيس المنظمة الصهيونية بخط يده ولم يضف بلفور شيئا على النص إلا توقيعه فقط كما جاء في مذكرات وايزمان.

ويجدر بنا أن نحلل ذلك التصريح الذي يعتبر من الأمور الرئيسة التي أدت إلى قيام إسرائيل في عام ١٩٤٨.

١- نَصَّ التصريح على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، ومن ثَمَّ ليس كل فلسطين يصبح وطناً قوميًا للصهيونيين.

٢- لم يُشر نص التصريح إلى عرب فلسطين بل صراحة يكاد يغفل وجودهم اللهم إلا عندما تحدث النص عن (طوائف غير يهودية) ومن ثَمَّ كان الإنجليز يُضْمِرون منذ البداية استبعاد حقيقة قائمة حينذاك وهي (عرب فلسطين)و(عروبتها). مع أن تعداد فلسطين في عام ١٩١٨ كان على النحو التالي: ٦٤٤ ألف نسمة من العرب، ٥٦ ألف نسمة من اليهود (أغلبهم من العرب) أي حوالي ٨ ٪ من تعداد السكان.

٣-إن بريطانيا منحت إقليما لا تملكه إلى طائفة لا تملكه دون استشارة أهل وأصحاب البلاد الذين كانوا يشكلون الأغلبية المطلقة لسكانه، بل وعاملت بريطانيا العرب -بمقتضى النص- على اعتبار أنهم مجرد طائفة ما[1].

---

(١) د. عطية القوصي، د.عبد العزيز نوار، و د. عاصم الدسوقي وغيرهم «الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث»، وزارة التربية والتعليم مطابع روز اليوسف ص ٢٢٢.

٤- تشترط اتفاقية لاهاي الرابعة في مقدمتها عن حق الحرب " أن يظل سكان الأراضي المحتلة تحت حماية قواعد القانون الدولي " ولما كان الخطاب مرسل إلى شخصية خاصة هي اللورد روتشيلد، وهو مواطن بريطاني، كيما يبلغه إلى منظمة دولية لم تكن في ذلك الوقت شخصا من أشخاص القانون الدولي فإن الوعد من ناحية القانون الدولي لا قيمة له.

٥- إن إعلان بلفور متعارض أساسًا مع ميثاق (عصبة الأمم) الذي ينص في المادة (٢٠): "على أن أعضاء العصبة يعترفون، كل فيما يخصه، بأن الميثاق الحالي يلغي أي التزامات أو اتفاقات لا تتفق مع نصوصه، وهم يتعهدون علنًا ألا يتعاقدوا على مثلها في المستقبل، وإذا كان عضو ما قبل انضمامه إلى العصبة قد تحمل التزامات لا تتوافق مع نصوص الميثاق فيجب أن يتخذ الإجراءات العاجلة للتخلص من هذه الالتزامات".

وقد قدم الكاتب آرثر كوستلر دون شك أفضل تعريف بهذا الخطاب حين قال: " إنه وثيقة تَعِد فيها قومية قوميةً أخرى رسميا بأرض قومية ثالثة، مع أن القومية التي بُذِل لها الوعد لم تكن قومية حقا بل كانت جماعة دينية، والأرض عندما وُعد بها كانت تابعة لقومية رابعة، هي تركيا"[1].

وقد كان المقصود بإعلان بلفور أن يستبق ألمانيا والنمسا في التأثير على يهود الإمبراطوريات الوسطى وروسيا؛ لأن الحلفاء كانوا بحاجة إلى روسيا وإلى اليهود في وقت واحد.

ثم إن الزعماء الإنجليز لم يدعوا أدنى شك حول المغزى الحقيقي لإعلان بلفور، كتب ونستون تشرشل يقول: " إن إعلان بلفور لا ينبغي أن يعتبر وعدا مبذولا لأسباب عاطفية، لقد كان إجراءً عمليا اتخذ لمصلحة القضية المشتركة، حينما كانت خدمة هذه القضية لا يمكن أن تتجاهل أي عامل لدعمها ماديا ومعنويا"[2].

---

(١) آرثر كوسلتر: تحليل معجزة، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

(٢) ستيفن داير وجاكوب دي هاز، «المخادع الكبير» ص ٢٨٨ نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

ولم يتوقف دور بلفور في دعم الصهيونية على تصريحه الشهير بل استمر في دعم الصهيونية عدة سنوات ففي يونيه عام ١٩٢٢، ألقى خطاباً في مجلس اللوردات البريطاني يحث فيه بريطانيا على قبول فرض الانتداب على فلسطين، وتقدَّم بمسودة قرار الانتداب لعصبة الأمم، كما شارك في افتتاح الجامعة العبرية عام ١٩٢٥ وقد بيَّن بلفور تصوُّره لمستقبل فلسطين في إحدى المذكرات حيث قال: إن الصهيونية، سواء أكانت على حق أم كانت على باطل، خيِّرة كانت أم شريرة، فإنها ذات جذور متأصلة في "تعاليم قديمة وحاجات حالية وآمال مستقبلية" (غربية). ولذا، فإن أهميتها "تفوق رغبات وميول السبعمائة ألف عربي" قاطني هذه الأرض. وقد أكد بلفور في مذكرة أخرى أن الحلفاء لم يكن في نيتهم قط استشارة سكان فلسطين العرب.

وانطلاقاً من إدراك الأهمية الجغرافية/السياسية لفلسطين، طلب بلفور أن تكون فلسطين متاحة لأكبر عدد من المهاجرين (الذين رفض بلفور من قبل دخولهم إنجلترا) وأن تُوسَّع حدودها لتشمل الأراضي الواقعة شرقي نهر الأردن[1].

وبعد انتهاء الحرب توالت المذكرات العربية والصهيونية على المسئولين من دول الحلفاء، وعلى مؤتمر الصلح، فقد طالب الشريف حسين بن علي (شريف مكة) -الذي ساعد إنجلترا في هزيمة العثمانيين وإجلائهم عن المشرق العربي نظير وعد من انجلترا باستقلال العرب إذا انتصرت في الحرب- طالب إنجلترا بأن تنجز وعدها معه. بينما طالبت الحركة الصهيونية بالاعتراف بالحق التاريخي لليهود في فلسطين، وحقهم في إقامة وطن قومي لهم هناك على النحو التالي:

١- وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

٢- العمل على تطبيق تصريح بلفور.

٣- إقامة مجلس تمثيلي ليهود فلسطين.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٦ ج١ الباب الثالث: الوعود البلفورية. مرجع سابق.

فاتفقت فرنسا وانجلترا على أن تكون فلسطين تحت الانتداب الإنجليزي، وأن تلتزم الحكومة البريطانية بتنفيذ تصريح بلفور دون إشارة إلى العرب صراحة مع أنهم يشكلون أغلبية سكان فلسطين، وبذلك تكون عصبة الأمم المتحدة التي أقرت نظام الانتداب قد تخلت عن واحد من أهم أهدافها ألا وهو مساعدة الشعوب على أن تحكم نفسها بنفسها، وسارت في طريق إبادة عرب فلسطين وتهويدها[1].

سياسة الانتداب البريطاني في فلسطين

إن "الانتداب البريطاني" مهما كانت الأعراض الطارئة التي أحدثها تَلَهُّف الصهيونيين للتعجيل بمجرى الأحداث. يتصف باتجاه حدَّده منذ عام ١٩٢١ السير هيوبرت يانج أحد مديري وزارة المستعمرات بقوله: "إن المشكلة التي يتعيَّن علينا أن نَحُلَّها هي أننا نستَهْدِف إيجاد تكتيك، وليس إستراتيجية، والفكرة الإستراتيجية العامة التي أتخيَّلُها هي التهجير التدريجي لليهود إلى فلسطين، إلى أن نُؤَمِّن لهم أغلبية ساحقة في البلاد... بيد أنه من المشكوك فيه أن نكون بحيث نعترف للعرب بما تَعْنِيه سياستنا في الواقع"[2].

عندما اجتمعت عصبة الأمم عام ١٩٢٢ قررت يوم ٢٤ / ٧ / ١٩٢٢ وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، دون استشارة الشعب الفلسطيني مخالفة بذلك المادة ٢٢ من عهد عصبة الأمم التي تنص على أنه " يجب أن يكون لرغبات هذه الشعوب المقام الأول في اختيار الدولة المنتدبة "، كما تقضي المادة ٢٢ أيضا " وضع رفاهية الشعب الفلسطيني ومصالحه نصب عين الدولة التي يتم اختيارها بواسطة ذلك الشعب لتقوم بأمانة الانتداب " وهذا ما لم تقم به بريطانيا بل عمدت بعد الانتداب على الاعتراف بالوكالة اليهودية (عام ١٩٢٩) ووافقت على

---

(١) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار، د. عاصم الدسوقي وغيرهم «الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث» مرجع سابق ص ٢٢٣.

(٢) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق، مدخل. «فلسطين ما هي؟».

نقل مقرها إلى القدس ثم ألفت إدارة مدنية حلت محل الإدارة العسكرية وعينت يهوديا كأول مندوب سام لها في فلسطين، وشجعت بريطانيا الهجرة الصهيونية بصورة شرعية وغير شرعية فارتفعت نسبة السكان اليهود في فلسطين.

وعندما عارض الجنرال السير لويس بلوس -المندوب السامي البريطاني في فلسطين- السياسة الصهيونية في فلسطين عُزل في يوليو ١٩٢٠ واستُبدل به السير هربرت صموبل، الصهيوني الدولي، الذي كتب عنه زعيم التنظيم الصهيوني العالمي حاييم وايزمان عام ١٩٢١ قائلا: " كنت المسئول الأول عن تَعْيين السير صموبل في فلسطين، فهو صديقنا، وقد قَبِلَ هذه المهمَّة الصَّعبة بناءً على طلبنا، فهو صموبلنا"[1].

شكل هربت صموبل إدارة عليا ذات طابع صهيوني وصدرت القوانين التي تنقل الأراضي المملوكة للدولة إلى اليهود، والقوانين التي تُسَهِّل انتقال الأراضي بالشراء أو بالتنازل من أيدي العرب إلى اليهود، وكانت رءوس الأموال الصهيونية مستعدة لتغطية طلبات أي بائع حتى ولو كانت الأسعار مرتفعة ، فالمهم الاستحواذ على الأرض[2].

ومنذ ذلك الحين تسارع نمو الاستيطان اليهودي الصهيوني في فلسطين بشدة بوساطة الحماية البريطانية، لقد كانت فلسطين عام ١٩١٨ بلدًا عربيًا شبيهًا بكل البلاد العربية الأخرى، وكانت نسبة اليهود فيه لا تتعدى ٨ ٪ ارتفعت هذه النسبة في إحْصَاء نوفمبر عام ١٩٣١م لتصل إلى ١٧٪ ثم إلى (٣١٪) عام ١٩٤٨.

أما فيما يخصّ الأرض، ففي عام ١٩١٨ كان السكان اليهود يملكون ٢٪ من الأرض، وفي نهاية الحماية البريطانية تضاعفت هذه المساحة إلى ثلاثة أضعاف، فكانت الملكيَّة غير القابلة للتَّصَرُّف للشعب اليهودي قد وصلت إلى ٦٪ وتقع في أجود الأراضي وأفضلها ريًا.

(١) ذكره ج.ب. آلم في كتابه: يهود وعرب ص ١٢٦ نقلاً عن كتاب «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثاني، الفصل الثالث: أسباب نجاح الصهيونية السياسة.

(٢) عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار، د. عاصر الدسوقي وغيرهم «الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث» مرجع سابق ص ٢٢٣.

وكانت ميزانية الحماية البريطانية من حظ الصهيونية، فخلال الحماية إنتقل الوطن من ٨٠,٠٠٠ ألفا من السكان عام ١٩٢٢ إلى ٦٤٠,٠٠٠ ألفا عام ١٩٤٨ وكانت الحركة الصهيونية مالكةً لمدنها، وأراضيها، وصناعتها، وجيشها[1].

ونظرا للسياسة البريطانية الظالمة الداعمة للصهيونية والمُفَرِّطة في حقوق الفلسطينيين العرب فإن العرب قاموا بثورات ضدّ الاحتلال المزدوج، الصهيوني والإنجليزي، في إبريل عام ١٩٢٠ وفي مايو ١٩٢٠ وفي أغسطس ١٩٢٩ ثم كانت ثورتي: ١٩٣٦، ١٩٣٩ م.

وكانت ثورة ١٩٢٩ في مبدأها (حرب فلاحين) فلاحين بلا أرض طردتهم الوكالة الصهيونية حين اشترت الأرض من الملاك الكبار أصحاب الملكية العقارية، وهم في أغلب الأحيان يقيمون بالخارج. فبين عامى: ١٩٢٢ و١٩٢٩ مثلاً كان أكثر من ٩٨٪ من الأرض المبيعة لجماعات من كبار الملاك، منهم ٩٦٪ غير مقيمين بفلسطين.

ويعترف المؤرخون الأكاديميون اليهود أنه لم يكن هناك أي عداء بين العرب واليهود قبل افتضاح المخطط الصهيوني الرامي إلى طرد الفلسطينيين من أرضهم وتوطين يهود العالم مكانهم بل على العكس تماما فقد نَعِمَ اليهود بالعيش في ظل الحكم الإسلامي نعيما لم يروا مثله على مدى تاريخهم كله. " ومن المثير أن الصهاينة الأوائل كانوا ينظرون بعين الرضا إلى الثقافة العربية، وإلى المعاملة الحيادية بعامة التي تلقاها اليهود تحت الحكم الإسلامي. ولقد اتجهت أنظار الصهاينة نحو الثقافة العربية والدين الإسلامي كحضارة مثالية يمكن أن تتسامح في وجود وطن أو دولة يهودية داخلها، وذلك جزئيا، كرد على العنف الفظيع الذي كان يهود أوروبا الشرقية يعانون منه على يد جيرانهم المسيحيين. لكن الصراع، والعنف الذي وقع في النهاية بين اليهود والعرب في فلسطين تحت الانتداب البريطاني وضع حدا لهذه النظرة. ولقد ساهم هذا الصراع العسير الذي أنزل

(١) لمزيد من التفاصيل حول الإحصاءات الخاصة بتلك الفترة راجع «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق، الفصل الثالث.

الكارثة على اليهود والعرب في الشرق الأوسط منذ ذلك الوقت في المواقف السلبية في كلا الجانبين[1].

ويلاحظ تجاهل اليهود الأسباب الحقيقية التي وَلَّدَت الصراع والعنف بين الفلسطينيين والصهيونيين وهي اغتصاب الصهيونيين للأراضي الفلسطينية وطرد أهلها منها.

يحلل كرستوفر سايكس كيف نشأت المشكلة فيقول: " إن مشكلة الأرض في فلسطين إنما تنشأ أساسًا من بيع مساحات شاسعة من الأرض بوساطة ملاك مُتَغَيِّبين مُوَكِّلين إلى أفراد وإلى نقابات صهيونية، وهناك شَرْطٌ مُعْتَاد في هذه البيوع هو طرد شاغليها. أما التعساء الذين عاشوا غالبا على هذه الأرض خلال أجيال عديدة فإنهم يرون أنفسهم مطرودين من أرضهم ومحرومين دون تَعْويض عن وسيلتهم الوحيدة للبقاء. إن المستأجرين المطرودين وهم الضحايا الحقيقيون للهجرة اليهودية هم جَوْهَر المشكلة الفلسطينية"[2].

هؤلاء الفلاحون العرب، بلا أرض، ولم يتح لهم العمل لدى المُلاك الجدد الصهيونيين، لأن ميثاق المؤسسة القومية اليهودية كان يحرم تشغيل العرب في أملاك الصهيونيين.

فميثاق الوكالة اليهودية الذي صُودِقَ عَليه في ١٤ من أغسطس عام ١٩٢٩ في زيورخ يقرر أَنه " في جميع الأعمال والمشروعات التي تنفذها الوكالة اليهودية يجب الالتزام بالمبدأ الأساسيّ، وهو اسْتِخْدَام عمال يهود".

بل إن منطق هذه السياسة الصهيونية ذاته، والمُتَمَثِّل في إبْعَاد العرب عن فلسطين هو الذي أدى إلى ثَوْرَات جديدة للفلسطينيين خلال الأعوام من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ .

وهكذا كان موقف المحتل الإنجليزي واضحًا إلى جانب انْتِشَار الصهيونية.

ويعترف مؤرخو الدولة الصهيونية بالدور الإنجليزي الفاعل لإقامة دولة

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين، وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٦٩.

(٢) كريستوفر سايكس (order wingate) لندن ١٩٥٩ ص ١٠٦، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

يهودية في فلسطين " خلال العقود الثلاثة للانتداب البريطاني، اتسع نطاق الزراعة، وأنشئت مصانع صغيرة، وتم شق طرق جديدة في مختلف أنحاء البلاد. واستغلت مياه نهر الأردن لإنتاج الطاقة الكهربائية، كما استغلت الطاقات المعدنية الكامنة في البحر الميت"[1].

وعندما بدأ هتلر ونظام حكمه النازي في اضطهاد اليهود، أخذت جموع اليهود تتدفق على فلسطين الجهة المفضلة لدى اليهود الألمان، خاصة أن الحكومة الإنجليزية والوكالة اليهودية كانت تمد يد المساعدة بكل كثافة إلى المهاجرين لكي يستقروا في فلسطين.

وإليك ثَبْتاً بهجرات اليهود إلى فلسطين

١ - الهجرة الأولى، استمرت خلال الفترة من عام (١٨٨٢ - ١٩٠٣) وضمت عدداً يصل من ٢٠ . ٣٠ ألف مهاجر يهودي.

٢- الهجرة الثانية امتدت من عام (١٩٠٤ - ١٩١٤) تقريباً وضمت عدداً يتراوح بين (٣٥: ٤٠) ألفاً من اليهود.

٣-الهجرة الثالثة التي امتدت من عام (١٩١٩ - ١٩٢٣) وضمت حوالي ٣٥ألف يهودي.

٤- الهجرة الرابعة امتدت من عام (١٩٢٤ - ١٩٣١) وضمت حوالي ٨٢ ألف يهودي.

٥- الهجرة الخامسة: واستغرقت السنوات من (١٩٣٢- ١٩٤٤) وضمت حوالي ٢٦٥ ألف يهودي، وهو أعلى رقم بلغته أفواج المهاجرين إبان الانتداب.

وقد استمرت الهجرة بعد ذلك، ووصل إلى فلسطين ١٩٢ ألف مهاجر، وجاء بعد الحرب العالمية مجموعة من ١٦١ ألفاً معظمهم «مهاجرون غير شرعيين».

ويمكن القول بأن عدد اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ قد بلغ ٦٤٩,٦٢٣

(١) نقلاً عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية على الانترنت.

يهودياً. وبلغ عدد اليهود الذين هاجروا بعد إنشاء الدولة حتى عام ١٩٥١ حوالي ٦٨٧ ألف. ومنذ عام ١٩٦٩ بدأ تدفُّق جديد للمهاجرين اليهود[١].

كيف وُلِدَتْ دولة إسرائيل؟

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية رأت المنظمات الصهيونية أن دور انجلترا في التمهيد لقيام دولة يهودية قد انتهى، وأن وجود إنجلترا في فلسطين أصبح عقبة في سبيل قيام الدولة اليهودية، وأنه من الضروري انتقال رعاية المشروع الصهيوني من إنجلترا إلى الولايات المتحدة الأمريكية خاصة بعد ضمان إيمان الرئيس الأمريكي ترومان بالمشروع الصهيوني فما كان نجاح ترومان -وحزبه الديمقراطي- في انتخابات الرئاسة الأمريكية سنة ١٩٤٥م ليتم إلا بالأموال الباهظة التي أنفقها اليهود.

وكان نتيجة ذلك أن شكلت الولايات المتحدة وانجلترا لجنة إنجليزية أمريكية في نوفمبر ١٩٤٦م لإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية، وكان الهدف من تشكيل هذه اللجنة العمل على تحقيق المصالح الصهيونية في فلسطين لذا جاءت قرارات هذه اللجنة على النحو التالي:

١- فلسطين ستكون دولة يهودية.

٢- فتح باب الهجرة اليهودية.

٣- حرية انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود.

وحاولت الحكومة البريطانية عن طريق عقد مؤتمر في لندن الوصول إلى حل مَّا إلا أن الصهيونيين رفضوا حضوره إلا إذا وافقت بريطانيا على قيام دولة يهودية في فلسطين، وحضره العرب وكشفوا فقط عن مخطط إبادة اليهود لعرب فلسطين، ولما انتهى المؤتمر على هذا النحو أعلنت انجلترا نفض يدها من المشكلة ووضعها بين يدي الأمم المتحدة[٢].

(١) راجع «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» د. عبد الوهاب المسيري م٧ ج٢ الباب الثالث التهجير، مرجع سابق.

(٢) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار، د. عاصم الدسوقي وغيرهم «الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث» مرجع سابق ص ٢٢٨.

دعت بريطانيا الجمعية العامة للأمم المتحدة للاجتماع في دورة غير عادية في مايو ١٩٤٧ حيث قررت الجمعية اختيار لجنة تحقيق لتحضير تقرير عن مسألة فلسطين. وقدمت اللجنة تقريرها الذي اقترحت فيه تقسيم فلسطين على دولتين مستقلتين مع اتحاد اقتصادي، وتدويل مدينة القدس، ووافقت الجمعية العامة على التقرير وأصدرت قرارها الشهير رقم ١٨١ بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ باعتماد ذلك المشروع وبتكليف مجلس الأمن باتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذه، وصوتت الحكومات العربية بالرفض على قرار التقسيم، ولكنه أجيز بأغلبية ٣٣ دولة ضد ١٣، وامتنعت ١١ دولة عن التصويت.

وأجمع ممثلو الدول العربية في كلماتهم على أن الحل الوحيد لقضية فلسطين الذي يتفق مع العهود المقطوعة للعرب هو إنهاء الانتداب، وإنجاز استقلال فلسطين في ظل دولة واحدة ديمقراطية تعترف بجميع حقوق مواطنيها وتمنح الضمانات للأقليات فيها.

أما الوكالة اليهودية فقد أعلن مندوبها في الجمعية العامة للأمم المتحدة عن موافقته على مشروع القرار وجاء في كلمته " إن الوكالة اليهودية تقبل جميع التوصيات التي أيدتها لجنة التحقيق بإجماع الآراء".

إن قرار التقسيم يؤكد هذه المؤامرة الحقيرة على فلسطين وشعبها لذا سنقف وقفة لنبين ما جرى في كواليس الأمم المتحدة لضمان صدور قرار التقسيم.

قرار التقسيم في الأمم المتحدة

إن حل تَقْسِيم فلسطين صدر عن الجمعية العامة لِلأممِ المتحدة، فِي ٢٩ من نوفمبر عام ١٩٤٧م، وفِي ذلِك التاريخ كان اليهود يُكَوِّنُونَ ٣٢٪ من السكان، ويملكون ٥,٦٪ من الأراضي، وإذا بِالدولةِ الصهيونية تتسلم ٥٦٪ من الأراضي، بِما فِي ذلِك أخصب المناطِق الزراعِية.

وعن كيفية الوصول إلى قرار التقسيم يقول جارودي: "ولقد أتاح التصويت على هذِهِ الخطة مجالا لِمؤامرات حَقِيرَة؛ ففِي ١٨ من ديسمبر عام ١٩٤٧م وقف عضو الكونجرس الأمريكي لورانس سميث، فذكر هذِهِ المؤامرات أمام الكونجرس،

وقال: "فلْنَنْظُر ما جرى في جمعية الأمم المتحدة خلال الاجتماع السابق من تصويت على التقسيم، كان لابد أن يُصَوِّت ثُلُثَا الأصوات إلى جانب القرار للموافقة عليه. لقد أُعِيدَ التصويت مرتين. وفي أثناء ذلك تَعَرَّضَ مندوبو ثلاث دول صغيرة لضغط قَوِيّ. لقد كانت الأصوات الحاسمة هي أصوات: هاييتي، وليبيريا، والفلبين، ولقد كَفَتْ هذه الأصوات لإحراز أغلبية الثُّلُثَيْن، وكانت هذه البلاد قبل ذلك مُعْتَرِضَة على التَّقْسيم. إن الضغوط التي مارسها مندوبونا، ورجالنا الرسميون، وبعض المواطنين الأمريكيين تعتبر عملا ذميمًا".[1]

وكتب درو بيرسون في صَحِيفَة شكياغو ديلي، في ٩ من فبراير عام ١٩٤٨م مُحَدِّدًا هذه النقاط: "لقد سعى هارفي فايرستون، مالك مزارع المطاط في ليبيريا لدى الحكومة الليبيرية..".

ومَارَسَ الرئيس ترومان ضَغْطًا لا مثيل له على رياسة الدولة، وكتب نائب رئيس الوزراء سمنرولز يقول: "اسْتِجَابَةً لأوامر مباشرة من البيت الأبيض مَارَسَ الموظفون الأمريكيون ضغوطًا مباشرة أو غير مباشرة. حتى يُؤَمِّنُوا الأغلبية الضرورية عند التصويت النهائي".[2]

ويؤكد وزير الدفاع - آنذاك - جيمس فورستال أن "الطُّرُق المستخدمة للضَّغْط، ولإكراه الأمم الأخرى في نطاق الأمم المتحدة، كانت فضيحة".[3]

وأما عن أسلوب "الضغوط" التي مارسها "اللوبي" الصهيوني، وضغوط "التصويت اليهودي" فقد إعترف الرئيس ترومان نفسه أمام مجموعة من الدبلوماسيين، عام ١٩٤٦م فقال:

---

(١) مضبطة الكونجرس في ١٨ من فبراير عام ١٩٤٧م ص ١١٧٦، نقلاً عن فلسطين أرض الرسالات الإلهية، مرجع سابق.

(٢) سمنرولز «نحن لا نحتاج إلى السقوط» بوسطون، بوجتون ميلفين، ١٩٤٨م، ص ٦٣،نقلاً عن فلسطين أرض الرسالات الإلهية مرجع سابق.

(٣) مذكرات فورستال ص ٣٦٣، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

"إنّي آسِف، أيها السادة، ولكن ينبغِي أن أجيب مئات الألوف من الناس الذِين ينتظِرون نجاح الصهيونية، وليس عندي مئات الألوف من العرب بين ناخبيّ"[1].

ويقرر رئِيس الوزراء الإنجليزي القديم إيرل كليمنت أتلى فِي مذكراته هذِهِ الشهادة: "إن سِياسة الولايات المتحدة، فِي فلسطين كانت خاضِعة لِلتصويتِ اليهودي، ولمساعدات الشركات اليهودية الكبرى"[2].

لقد اتُّخِذَ قرار التقسِيم بوساطة الجمعية العامة، لا بوساطة مجلِس الأمن، فقد كان له - إذَنْ - قِيمة التوصِية، لا قِيمة القرار واجِب التنفِيذ !!

لم يكن الفلسطينيون وحدهم يرفضون هذا التقسِيم، فإن أرجون "مناحم بيجن" أعلنت آنذاك أن هذِهِ التجزِئة غير قانونِية، ولا يمكِن الاعترِاف بها، ودَعَت اليهود: " لا إلِى طرد العرب فحسب، بل إلِى الاستيلاء على كل فلسطين"[3].

حرب فلسطين ١٩٤٨

بعد صدور قرار التقسيم أعلنت حكومة بريطانيا أنها ستنسحب من فلسطين في ميعاد غايته ١٥ مايو ١٩٤٨م، وكانت كل التطورات لصالح اليهود حيث كان لديهم القوات المدربة، والأموال الكثيرة، والدعم الدولي وعلى رأسه القوتان العظميان: الولايات المتحدة،والاتحاد السوفيتي. بينما كانت البلاد العربية التي تدعم الحق العربي في فلسطين مشغولة هي الأخرى في تحرير نفسها من الاحتلال الأجنبي.

وعندما كانت آخر القوات الإنجليزية تغادر فلسطين أُعْلِن قيام دولة إسرائيل، واعترفت بها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ومعظم دول العالم.

---

(١) وليام إذي «فرانكلين روزفلت يقابل ابن سعود» نيويورك، الأصدقاء الأمريكيون للشرق الأوسط عام ١٩٥٤م، ص٣٧، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

(٢) كليمنت آتلي رئيس الوزارء يتذكر فرانس ويليام ط هينمام لندن ١٩١٦م، ص ١٨١، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية»، مرجع سابق.

(٣) مناحم بيجن، «التمرد: قصة الأرجون» ص٥٣٣ نقلاً عن فلسطين أرض الرسالات الإلهية مرجع سابق.

أصدرت جامعة الدول العربية قرارها بدخول الجيوش العربية لإعادة السكينة والأمن إلى فلسطين التي تجري على أرضها دماء العرب.

وقد دخلت القوات المصرية والأردنية والعراقية والسورية، ولكنها كانت غير مدربة وغير متحدة الفكر أو الخطة فأدى ذلك إلى هزيمة القوات العربية، واستيلاء القوات الإسرائيلية ليس فقط على الأجزاء التي خصصتها الأمم المتحدة بمقتضى قرار التقسيم لكن الاستيلاء على أجزاء أكثر منها بكثير، واضطرت البلاد العربية المواجهة (مصر، والأردن، وسوريا، ولبنان) إلى عقد اتفاقيات الهدنة (هدنة رودس) عام ١٩٤٩م، وأعلنت الولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا في عام ١٩٥٠م ضمان هذه الحدود الجديدة لإسرائيل(١).

وقد كتب بن جوريون نفسه يقول: "إنه حتى رحِيل البريطانيين لم تخترق أية مستعمرة يهودية، حتى ولو كانت مُتَطَرِّفَة بعِيدة، أو يستول عليها العرب، فِي حِين أن الهاجاناه بِما وجهت من هجمات قوية وكثِيرة. اِستولت على كثِير مِن المواقع العربِية، وحررت طبرية، وحيفا، ويافا، وصَفد"(٢).

واختِصارا، يخطئ من يقول: إن دولة إسرائيل أُنْشِئَت بوساطة الأمم المتحدة، فلقد أنشِئت بِمجموعة مِن الأحداث شكلت "الأمر الواقع".

رسم المؤرخون الإسرائيليون الجدد صورة أكثر واقعية تقترب إلى حد ما من الرواية الفلسطينية لوقائع حرب ١٩٤٨، والتي تبين أن المطامع الصهيونية قد تم تحقيقها على حساب السكان الفلسطينيين وأن العرب أبعدوا عن طريق الطرد، وقد أظهر المؤرخون الجدد أن العالم العربي لم يكن لديه قوة عسكرية مخيفة، بل كان مفككا يتكون من دول متخلفة، بعض حكامها متواطئ مع الصهاينة، وجيوشها سيئة التدريب وقدراتها القتالية شديدة التدني كل هذا يؤدي إلى نزع البطولة عن اليهود بل بين هؤلاء المؤرخون الجدد أن إسرائيل دولة متعنتة، ترفض السلام وقد

---

(١) د. عطية القوصي، د. عبد العزيز نوار، د. عاصر الدسوقي وغيرهم «الحضارة الإسلامية وتاريخ العرب الحديث»، مرجع سابق ص ٢٣٠ .

(٢) دافيد بن جوريون «بعث وقدر إسرائيل» ص٥٣٠، نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية»، مرجع سابق.

اعتمد هؤلاء المؤرخون الجدد المادة الأرشيفية التي رفعت عنها السرية بعد مرور ثلاثين عاما[1].

كيف حولت الصهيونية أسطورة أرض بلا شعب إلى حقيقة ؟

ولم يكن مخطط تهجير اليهود إلى فلسطين وطرد الفلسطينيين منها معلنا بل تم إخفاؤه فشعارات مثل "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" و"إرتس يسرائيل التي تمتد من النيل إلى الفرات" أو " إعادة يهود الشتات إلى أرض الميعاد " و" نفي العرب من بلادهم وتحويلهم إلى لاجئين " كل هذه الشعارات قد تم إخفاؤها عن طريق استخدام الخطاب الصهيوني المراوغ.

فعندما انضمت إسرائيل لمنظمة الأمم المتحدة -بإرادة الولايات المتحدة الأمريكية- في ١١ مايو ١٩٤٩فإنها لم تقبل عضوا إلا بثلاثة شروط هي:

١- عدم المساس بوضع مدينة القدس.

٢- السماح للعرب الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم.

٣- احترام الحدود التي وضعها قرار التقسيم.

ولكن بن جوريون أعلن في معرض حديثه عن التقسيم وعن القرار الذي اتخذته الأمم المتحدة: " ترى دولة إسرائيل أن قرار الأمم المتحدة الصادر في ٢٩من نوفمبر ١٩٤٧ يعتبر باطلا وكأنه لم يكن"[2].

وعندما بدأ الصهاينة مجازرهم ضد الفلسطينيين في ظل قرار التقسيم بدأت حركة التهجير وأخذت في طريقها في مرحلة أولى ٣٠٠ ألف فلسطيني لفت نظر العالم إليهم مبعوث الأمم المتحدة " الكونت برنادوت " الذي اغتاله الإرهاب الصهيوني في اليوم التالي لتقديمه التقرير الذي طلب فيه بتعديل قرار التقسيم على نحو أكثر ملاءمة للواقع. ثم كانت حرب ١٩٤٨ التي انتهت بطرد ٧٢٦ ألف

(١) «قاموس المصطلحات الصهيونية» موقع السلطة الوطنية الفسطينية على الانترنت.

(٢) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٥٧ .

فلسطيني من أرضهم ومدت سيطرة الدولة الصهيونية إلى نحو ٨٠٪ وهكذا أقيمت دولة إسرائيل، وطرد نصف سكان فلسطين[١].

وكان الأسلوب المستخدم والمتبع لطرد الفلسطينيين هو أسلوب الترهيب والتخويف والمثل الصارخ على ذلك هو مذبحة دير ياسين في التاسع من أبريل عام ١٩٤٨ والتي تمت بطريقة مماثلة لطريقة النازي في أورادور، فقد تم قتل أهالي هذه القرية البالغ عددهم ٢٥٤ نسمة (الرجال والنساء و الأطفال والشيوخ) على أيدي قوات الأرجون التي كان يرأسها مناحم بيجين.

يقول مناحم بيجين تعليقا على هذه المذبحة: " إنه بدون هذا الانتصار (!) في دير ياسين ما قامت دولة لإسرائيل... وقد قامت الهاجاناه بهجمات مظفرة على جبهات أخرى.. وكان العرب الذين أصابهم الهلع يهربون وهم يصيحون: دير ياسين"[٢].

وقد اعتبر حكام إسرائيل كل فلسطيني غادر منزله -من هَوْل المذابح الإسرائيلية- غائبا لا حق له في العودة وبهذه الطريقة صُودِر ثلثا الأراضي المملوكة للعرب (٧٠,٠٠٠ هكتار من ١١٠,٠٠٠) وظل هذا المخطط متبعا حتى بلغ ما يملكه الفلسطينيون في عام ١٩٨٢ هو ٧٪ من أرض فلسطين فقط. ولمحو ذكرى وجود السكان الفلسطينيين والتأكيد على أسطورة " أرض بلا شعب دُمِرت القرى الفلسطينية وهُدِّمت منازلهم وحتى قبورهم، وقد أورد الأستاذ شاحاك عام ١٩٧٥ قائمة بأسماء ٣٨٥ قرية فلسطينية دُمِّرت بالبولدوزر وذلك من بين ٤٧٥ قرية كانت مُسَجَّلة في عام ١٩٤٨ [٣].

واستبدلت بالقرى الفلسطينية مستوطنات إسرائيلية، وازداد هذا الاستبدال منذ ١٩٧٩ في الضفة الغربية، وطبقا للتقاليد الاستعمارية الكلاسيكية، وهي تسليح المستوطنين، تم طرد مليون ونصف مليون فلسطيني وأصبحت " الأرض اليهودية " تمثل اليوم ٩٣٪ من فلسطين بعد أن كانت ٥،٦٪ عام ١٩٤٧ .

---

(١) فيصل أبو خضرا «تاريخ المسألة الفلسطينية» مرجع سابق ص ٢٨،٢٧ بتصرف يسير.

(٢) راجع «اليهود والصليبيون الجدد» للمؤلف الفصل الخامس «أشهر مذابح اليهود» مرجع سابق.

(٣) إسرائيل شاحاك «عنصرية دولة إسرائيل» ص١٥٢ نقلاً عن الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية مرجع سابق ص١٦٣ .

وقد حُرِّف " قانون العودة " لصالح اليهود فأي يهودي قادم من أي مكان يصبح مواطناً إسرائيليا بمجرد أن تطأ أقدامه مطار تل أبيب،أما الفلسطيني المولود في فلسطين ومن أبويين فلسطينيين فيجوز اعتباره عديم الجنسية!

ومن المدهش حقا أن تَوصَّل الصهيونية إلى تحقيق الغرض الذي وضعه لهم المعادون للسامية وهو انتزاع اليهود من أوطانهم وحبسهم داخل جيتو عالمي .

الإرهاب الصهيوني ضد الفلسطينيين

إن الدولة الصهيونية "إسرائيل" لم تولد من وعد، أو هِبَة مِن الرب، ولا حتى بِقرار مِن الأمم المتحدة، ولكِنها وُلِدَتْ مِن العنف المسلح، ومن "الأمر الوَاقِع". الذي صنعته العصابات الصهيونية: الهاجاناه، والأرجون، شتيرون.

فلم يكن الاستيطان الصهيوني ليتم إلا بالإرهاب والعنف، وطالما ردد بن جوريون " أن الإمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من النيل إلى الفرات وأن إسرائيل لا يمكن أن تعيش إلا بالقوة والسلاح ".

وقد جاء في كتاب " التمرد أو الثورة " لفيلسوف العنف الإسرائيلي مناحم بيجين " موضحا منهج وفلسفة العصابات الصهيونية: " قال ديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود، وأقول أنا أقتل إذن أنا موجود ".

وعن نتائج العنف يقول بيجين في كتابه " من مجموع ٨٠٠ ألف عربي كانوا يعيشون على بقعة إسرائيل الحالية عام ١٩٤٩ لم يبق غير ١٥٦ ألف عربي، ولقد مهدت دير ياسين الطريق لانتصاراتنا الحاسمة في طبريا واحتلال يافا"

كما يقول " أوري أفنيري " في كتابه " إسرائيل بدون صهيونيين " ص ١٣٤ :

" نحن جيل من المستوطنين ودون الخوذة الفولاذية والمدفع لا نستطيع أن نزرع شجرة أو أن نبني بيتا "

ويقول " حاييم وايزمان " في مذكراته " التجربة والخطأ ":

" يستطيع الإنسان أن يلمس هنا وهناك تحللا للأخلاقية الصهيونية التقليدية ويلمس هنا وهناك مسحة من الروح العسكرية وارتماء في أحضانها بل وأكثر من

ذلك اللجوء إلى العنف والإرهاب والاستعداد للتعاون مع الشر كقوة لها فوائدها في تحقيق الوطن القومي لليهود".

وقد سيطرت فكرة العنف على وجدان العصابات الصهيونية فلم يكن المستوطن اليهودي فلاحا وحسب بل كان أيضا " الشومير " أي الحارس الذي يدافع عن الأرض التي سرقها، وحيث إن الإرهاب كان سلاحا أساسيا ومباشرا لإجلاء الأرض من السكان الأصليين كان من الضروري تأسيس منظمات لها طابع مزدوج زراعي / عسكري حتى تترجم الرواية الصهيونية نفسها إلى واقع(١).

ويكتب أحد اليهود في صحيفة " هاملتس " الألمانية معللا لجوء اليهود الصهاينة إلى العنف فيقول:

" ماذا يفعل إخواننا (الصهاينة) في فلسطين إنهم عبيد في الدياسبورا (المنفى) وفجأة وجدوا أنفسهم أحرارا بلا حدود ولا رادع، إن هذا التحول قد خلق في نفوسهم حالة من الميل إلى الاستبداد كحالة العبد عندما يتحول إلى سيد فهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة ثم يفاخرون بما يفعلون.. ورغم ذلك فليس هناك بيننا من هو قادر على الوقوف في وجه هذا الميل الخطير ".

ولقد اشتركت المؤسسات الصهيونية على اختلافها في الإعداد للعمل الإرهابي حيث كانت التدريبات تجرى أسبوعيّاً في المدارس العبرية والدينية والمصانع الصغيرة والحمامات ودور العبادة اليهودية. وهكذا لم يكن النشاط الإرهابي عملاً على هامش الحركة الصهيونية. بل كان عملاً يرتبط بالوجود الصهيوني وبطبيعة الاستيطان(٢).

المذابح الإسرائيلية وطرد الفلسطينيين

في عام ١٩٤٧ وعشية إنشاء دولة إسرائيل كان هناك ٦٠٠,٠٠٠ يهودي في فلسطين من مجموع السكان البالغ قدره مليون وربع مليون نسمة.

وهنا بدأ الاجتثاث المنظم للفلسطينيين فقد كان هناك قبل حرب ١٩٤٨ نحو

(١) حسين الطنطاوي «الصهيونية والعنف» دار الشعب ص ٣٦ .

(٢) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود والصهيونية» م٧ ج٣ الباب الثاني الإرهاب الصهيوني الإسرائيلي حتى عام ١٩٤٨ مرجع سابق.

٦٥٠,٠٠٠ عربي يعيشون على أرض فلسطين، وفي عام ١٩٤٩ لم يتبق منهم سوى ١٦٠,٠٠٠ عربي فقط، وبسبب الخصوبة الشديدة وكثرة مواليدهم أصبحوا ٤٥٠,٠٠٠ في نهاية ١٩٧٠، وحسب إحصاء عام ١٩٩٨ بلغ عدد الفلسطينيين حوالي ٢,٥ مليون نسمة، وبلغ عدد الفلسطينيين الكلى ٧,٧٨٨,١٨٦ يوجد معظمهم فى البلاد العربية، خاصة الأردن وسوريا ولبنان. وتوجد قلة منهم في الأمريكتين وأوربا[1].

الحروب العربية /الإسرائيلية

إن ميلاد الدولة الصهيونية (إسرائيل) كان بفضل حربين:

١- الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) حيث اضطرت ضرورة الحصول على أكبر دعم ممكن ضد ألمانيا، في العالم، وبخاصة في أمريكا ـ اضطرت إنجلترا إلى إعطاء وعود بلفور عام ١٩١٧م.

٢- وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) نجح الزعماء الصهاينة في فرض أسطورة صهيون، التي تعني إنشاء دولة إسرائيل، وذلك حين رفضت كل البلاد أن تستقبل اليهود المضطهدين على يد النازيين، فكانت إسرائيل نتيجة حتمية للهتلرية وللسياسة الأمريكية التي تبنت المشروع الصهيوني.

وإذا كان تاريخ الدولة الصهيونية "إسرائيل" يُبَيِّن أنها وُلِدَتْ بفضل حربين، فقد امتدت حتى الآن بفضل ستة حروب، هي:

الحرب التي إنتهت عام ١٩٤٨م بالاستيلاء على أراض تتجاوز الحدود التي رسمتها الأمم المتحدة فقد حصلت على ٧٧,٤٪ من أرض فلسطين.

وحرب العدوان عام ١٩٥٦م، "بالتؤاطؤ مَعَ إنجلترا وفرنسا" وفيها استطاعت أن تستولي على سيناء، ولم تنسحب منها إلا بعد أن أصبحت مسألة مرور السفن الإسرائيلية رافعةً العَلَم الإسرائيلي في خليج العقبة أمرا واقعا، تحميه قوة الطوارئ الدولية التي ترابط في شرم الشيخ.

وحرب عام ١٩٦٧م. فحرب ١٩٦٧ ـ وما ترتَّب عليها من احتلال الأراضي

(١) رجاء الجارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٦٣-١٦٥ بتصرف.

العربية في سيناء والجولان والضفة الغربية وغزة. شكلت منعطفاً بارزاً في تاريخ التوسع الصهيوني باعتبار أن الكيان الصهيوني حقَّق أقصى اتساع له ووصل إلى الحدود الآمنة.

كما أن من أهم نتائج انتصار إسرائيل الساحق في ١٩٦٧ زوال الخلافات بين التيار الديني اليهودي المعادي للصهيونية وممارساتها الخارجة عن تعاليم التوراة واقترابه بل تطابقه مع التيار الصهيوني العلماني.

يقول د.عبد الوهاب المسيري " بعد احتلال ما تبقى من فلسطين في حرب يونيه ١٩٦٧، طرأ تحوُّل على مواقف معظم الأحزاب الدينية الصهيونية وغير الصهيونية من اعتبار هذه الحرب معجزة وإشارة ربانية إلى اعتبارها بداية الخلاص، وفي الأوساط الدينية غير الصهيونية انطلق الصوت الجديد من الولايات المتحدة، موطن زعيم حركة حبد، الحاخام شنيرسون. ويتلخص الموقف الجديد بالقول بأنه صحيح أن دولة إسرائيل بوصفها كياناً صهيونيا تعبير عن الكفر والتمرد على إرادة الله، ولذلك فهي بالتأكيد ليست تعبيراً عن الخلاص، لكن، ومن ناحية أخرى، فإن أرض إسرائيل بسيادة يهودية تنطوي على مغاز ذات أهمية. ولذلك تدعو هذه الحركة إلى عدم التنازل عن أيٍّ من الأراضي التي احتُلت عام ١٩٦٧م، وذلك من منطلق أحكام الشريعة الدينية.

لقد تأثر هذا الموقف منذ البداية بما سمي «المعجزات والإشارات السماوية» التي تجلت بالانتصارات في الحروب المختلفة، وخصوصاً حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧ , وقد اعتمد قسم من هذا التيار، في تأكيده عدم قدسية إسرائيل، على الفارق بين دولة إسرائيل وأرض إسرائيل، وعلى ذلك الجزء بالذات الذي لا يمثل مكاناً مهما في التقاليد الدينية اليهودية. لكن، بعد احتلال عام ١٩٦٧، زال الفارق عمليا، وأصبح هناك تطابق بين أرض إسرائيل وهي مفهوم ديني وبين دولة إسرائيل وهي مفهوم سياسي علماني،وزاد اقتراب اتباع هذا التيار تدريجيا من الأوساط اليمينية في إسرائيل، أو لوبي أرض إسرائيل كما تُسمّي هذه الأوساط نفسها. ومع أن هذا التيار ما زال غير صهيوني بالمعنى التقليدي، إلا أن

تحوُّل أرض إسرائيل إلى قيمة دينية في نظره، جعله يقترب كثيراً من مواقف جوش إيمونيم. التي تعتبر حرب ٦٧ بداية الخلاص[١].

وحرب عام ١٩٧٣م التي أوصلت إسرائيل إلى توقيع معاهدة السلام مع مصر في مقابل تخليها عن سيناء فقط. وبهذا خرجت مصر زعيمة الوطن العربي من الصراع، مفسحةً المجال لإسرائيل لتعربد في المنطقة.

وغزو لبنان عام ١٩٨٢م وحصار إسرائيل للعاصمة بيروت لمدة شهرين كاملين وإجلاء المقاومة الفلسطينية عن أرض لبنان.

وأخيرا غزو لبنان عام ٢٠٠٦ وتدمير إسرائيل للبنان تدميرا شاملا، وإقصاء حزب الله عن الجنوب اللبناني الذي كان يحتله ويهدد منه شمال إسرائيل، وإحلال قوات اليونيفيل بدلا منه وهي قوات مهمتها منع أي هجوم محتمل على إسرائيل[٢].

وهكذا نجح الصهاينة -بالنار والدماء- في إقامة المشروع الصهيوني على أرض فلسطين بل اتسع ليشمل أراض عربية أخرى، كما نجحوا ليس فقط في كسب الرأي العام العالمي لصالح هذا المشروع بل نجحوا في كسب تأييد الدول العظمى، والدول ذات التأثير في السياسة الدولية لهذا المشروع.

لقد كانت بريطانيا هي الراعي الرسمي للمشروع الصهيوني من وعد بلفور ١٩١٧ إلى مؤتمر بلتيمور ١٩٤٢، لتتحول الرعاية إلى الولايات المتحدة بعد ذلك. والآن الولايات المتحدة الأمريكية هي الراعي الرئيسي نعم، ولكنها ليست الراعي الوحيد فهناك شبه إجماع من الدول الغربية على أن إسرائيل هي ثابت من الثوابت. يجب حمايته والدفاع عنه بالحق والباطل.

في حين فشل العرب في إفشال المشروع الصهيوني عسكريا وسياسيا، فلم ينجح العرب في شيء سوى في إزكاء نار الفرقة وإشعال الصراع العربي العربي

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود والصهيونية» م٧ ج٥ الباب الأول أزمة الصهيونية مرجع سابق.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول غزو إسرائيل للبنان عامي: ١٩٨٢و٢٠٠٦راجع كتاب «إسرائيل وحزب الله ولبنان»، للمؤلف دار الإبداع.

طوال القرن العشرين ابتداء من صراع بعض الحكام العرب مع الخلافة العثمانية، حتى احتلال صدام حسين للكويت مرورا بصراع الملك فاروق مع الملك عبد الله، والحرب العربية الباردة -الساخنة أحيانا كما حدث في حرب اليمن، وأيلول الأسود- إبان الحقبة الناصرية. لم يتحد العرب إلا في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ثم سرعان ما نشأ الصراع ثانية بين السادات وجبهة الرفض.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، (النحل: ٣٣، ٣٤).

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾، (الشورى: ٣٠).

إن ما يوصف بالتطرف يوماً يوصف بالاعتدال يوماً آخر بعد تغيير الحقائق على الأرض هذا هو القانون الصهيوني الذي مارسوه في صراعهم مع العرب. فبعد إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ كان الصهاينة الذين يطالبون بإنشاء دولة صهيونية يعدون " متطرفين " لأن الحد الأقصى المعلن آنذاك هو " وطن قومي " وحسب.

ولكن هؤلاء المتطرفين أصبحوا معتدلين في الأربعينيات حينما أصبح الشعار الرسمي للحركة الصهيونية هو إنشاء دولة صهيونية وقبول قرار التقسيم والعيش مع العرب في سلام ! ومن ثم كان الحديث عن كامل أرض إسرائيل وطرد العرب هو عين التطرف الصهيوني.

ولكن بعد أن قضمت إسرائيل أراض تتجاوز حدود الأرض المعطاة لها بمقتضى قرار التقسيم وبعد أن تم طرد العرب، أصبح الاعتدال الصهيوني هو تجاوز قرار التقسيم والقبول بالأمر الواقع والتمسك بحدود ١٩٤٨ وبقاء الفلسطينيين خارج ديارهم.

وبعد حرب ١٩٦٧ كان التطرف الصهيوني هو التمسك بكل أو بعض الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وبإقامة المستوطنات فيها. وبالتدريج تغيَّر مثل هذا الموقف الأخير، وأصبح الاعتدال هو قبول الأمر الواقع وتجميد المستوطنات مع الاستمرار في تسمينها (أي توسيعها).

ينطبق الموقف نفسه على العرب بطبيعة الحال، فالمعتدل، من وجهة النظر الصهيونية، هو الذي يقبل الموقف الصهيوني المعتدل ويتغيَّر بتغيُّره. فالعربي الذي كان يقبل استيطان الصهاينة دون إنشاء دولة كان يُعدُّ (منذ عام ١٩١٧ وحتى الأربعينيات) معتدلاً، ولكنه أصبح متطرفاً بعد ذلك التاريخ.

ومن كان يقبل إنشاء الدولة اليهودية وقرار التقسيم عام ١٩٤٨ كان يُعدُّ عربيا معتدلاً، ولكن بعد إنشاء الدولة، أصبح مثل هذا الشخص متطرفاً. وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٦٧ حين أصبح الاعتدال العربي هو الرضوخ لحدود إسرائيل بعد عام ١٩٦٧ وأصبح تطبيق قرار ٢٤٢ أو حتى إنقاص المستوطنات في الضفة الغربية هو عين التطرف العربي.

المشروع الصهيوني والإجماع الصهيوني ينطلقان من الصيغة الصهيونية الشاملة المهوَّدة التي تفترض أن الجماعات اليهودية شعباً له علاقة عضوية بأرض فلسطين، وأن علاقة شعب فلسطين بأرض أجداده هي علاقة عرضية واهية هامشية تبرر عملية إبادتهم وطردهم (شعب يهودي بلا أرض لأرض بلا شعب فلسطيني). ومثل هذا المشروع لا يمكن تنفيذه إلا بحد السلاح وعن طريق الإرهاب[1].

ومن الملاحظ أن الحفاظ على أمن إسرائيل هو دائماً الحجة التي تُساق لتحديد مفهومي الاعتدال والتطرف، وأن مواصفات هذا الأمن تحدده الدولة الصهيونية دائماً. ويُلاحَظ، في جميع الأحوال، غياب مفهوم العدل والتآكل التدريجي لمفهوم المقاومة إلى أن أصبح أي شكل من أشكال " المقاومة " شكلاً من أشكال التطرف والإرهاب !!

وقد تَسلَّل مصطلحا التطرف والإرهاب بمرجعيتهما الصهيونية إلى الخطاب السياسي العربي وأصبح يُشار إلى " العمليات الفدائية "بأنها" عمليات انتحارية" .

وقبل أن نغادر هذه النقطة يجب أن نفرق بين المقاومة المشروعة وغير المشروعة حتى ننصف الحق وديننا الحنيف مما لحق بهما من أفكار هما بريئان منها.

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٧ ج١ التحدي الحضاري الإسرائيلي مرجع سابق.

حرمة النفس الإنسانية

لقد صان الله تعالى حرمة النفس الإنسانية فحرم قتلها و جعل الله تعالى من قتل نفسا واحدة-بغير حق- فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها وصان حرمتها وحافظ على حياتها- فكأنما أحيا الناس جميعا .

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، (المائدة: ٣٢).

والكلام عن حرمة النفس الإنسانية عام لا يختص بالمسلم فقط عكس ما زعم وعاظ السوء من استحلال دم ومال غير المسلمين !! فراحوا يقتلون فى خلق الله بغير حق وزعموا أن هذا جهاد فى سبيل الله، والله بريء مما يفعلون إنما هو جهاد فى سبيل الشيطان، فالآية الكريمة نصت على عموم النفس الإنسانية ولم تخصص نفس المسلمين.

ويجدر بنا فى هذا المقام وقد كثر اللغط فى هذا الموضوع، وكثرت الجرائم التى راح ضحيتها الأبرياء بسبب الفهم الخاطئ لبعض المتفيقهين المتنطعين، كنت أقول يجدر بنا فى هذا المقام أن نوضح من الذى يجب قتاله من أعداء الله والإسلام، ومن يجب صيانة دمائهم، وأعراضهم، وأموالهم ؛ فقد أساء كثير من المسلمين فهم هذا الأمر وظنوا أن الإسلام حكّم السيف فى علاقته بغير المسلمين فإما أن تسلم وإما أن تقطع رقبتك.

أو أن الحرب تكون على كل جنس الأغيار غير مفرقين بين المحارب المقاتل، والمدني المسالم، وهذا الفهم المناقض للإسلام بل المناقض لكافة الأديان والقوانين مازال مسيطرا على فهم بعض قساة القلوب خفاف العقول جهّال الدين والواقع، وهذا القول لا يقبل من مسلم أيام المد الإسلامي والفتوح فكيف يقبل من مسلم يعيش أيام الانحسار الإسلامي والاحتلال الصليبي والهوان!!

والعجيب أنه فى الوقت الذى يعتذر فيه أعداء المسلمين عن أية قتلى أو جرحى من المدنيين أثناء قتالهم للمجاهدين من العرب فإن بعض المسلمين يصرحون بأن الإسلام يبيح قتل المدنيين من غير المسلمين بل وينسبون لأسامة

بن لادن -وهو شرف لم يدعيه- قتل المدنيين فى برج التجارة العالمى فى أحداث ١١ سبتمبر، ويقومون بمظاهرات تأييد له، وتعلو الفرحة وجوههم، ويقولون هذا هو الجهاد الإسلامي.

ويَصِم الغرب الإسلام كله بالإرهاب من جراء أقوال وأفعال هؤلاء المتخلفين "فى فلوريدا فى اللافتة التى يكتب عليها مواعيد الصلاة فى الكنيسة - كتبت العبارة الآتية: (عيسى ينهى عن الاغتيال، سفر متّى ٢٦ - ٥٢، محمد يأمر بالاغتيال، سورة ٨ -٦٥ "[1].

وتستغل أمريكا الموقف وتشن حربها ضد المسلمين الأبرياء المسالمين بدعوى أنهم إرهابيون، ويساندها الغرب كله فى غزو أفغانستان، ثم تتفرد بقرار غزو العراق لنزع أسلحة التدمير الشامل من أيدي صدام الطاغية المسلم الإرهابى!

وهكذا فبدلا من نشر دعوة الإسلام الداعية إلى الحب والسلام والتسامح يلصق به بعض المسلمين تهما هو بريء منها تنفر الناس منه، ويضطر علماء الدين ورجال السياسة والمخلصون للدفاع عن الإسلام وبيان سماحته علهم يصححون صورة الإسلام فى أذهان غير المسلمين وخاصة الغربيين لكن هيهات فقد تلقفت القوى المعادية للمسلمين الطامحة فى احتلال أراضيه هذه الدعاوى المغرضة ونشرتها واتخذتها ذريعة لحرب المسلمين واحتلال أراضيهم واستغلال مواردهم وخيراتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل فى تنطع هؤلاء المسلمين وكيد أولئك الغربيين.



(١) الأستاذ سليمان البطحي: أمين عام اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء ﷺ «ندوة البيان».

3

الباب الثاني

الفصل الثالث

أسطورة عداء الصهيونية لأعداء السامية

الباب الثاني

الفصل الثالث

أسطورة عداء الصهيونية لأعداء السامية

□□

من الأساطير السياسية التي تُرَوِّج لها الصهيونية أسطورة عداء الصهيونية المستحكم لأعداء السامية -يقصدون أعداء اليهود- من الفاشيين والنازيين وغيرهم، ويبرهن الصهاينة على هذا العداء بالمذابح التي قام بها أعداء السامية ضد اليهود.

وما تزال الصهيونية تشهر سلاح اللاسامية في وجه كل دولة أو سياسي في العالم ينتقد إسرائيل أو يقف من العرب موقفا مؤيدا، بعدما استخدمت هذا السلاح بفاعلية لإقامة دولتها على أرض فلسطين.

ولكن الوقائع دلت على أن الصهيونية لم تكن عدوة لأعداء السامية بل على العكس فقد تحالفت الصهيونية مع كل أعداء السامية من الفاشيين والنازيين وغيرهم من أجل إقامة دولة يهودية في فلسطين، وتوطين يهود العالم فيها ، كما أن الصهاينة قد تقمصوا شخصية اللاساميين في سياستهم ضد مخالفيهم من الفلسطينيين واليهود على السواء.

وهذه قصة الصهيونية مع اللاسامية.

علاقة الصهيونية باللاسامية

لاشك أن بروز اللاسامية خصوصا في روسيا بعد اغتيال القيصر ألكسندر

الثاني عام ١٨٨١، وتحميل اليهود مسئولية اغتياله، وبروز اللاسامية في بعض دول أوروبا الشرقية وظهور قضية "درايفوس"[1]. في فرنسا في المرحلة نفسها قد ساعدت الحركة الصهيونية على طرح فكرتها على اليهود.

لكن موجة اللاسامية التي ظهرت في بعض أنحاء القارة الأوربية في أواخر القرن التاسع عشر كانت موجة محدودة لا تقاس بما عرفته أوروبا من عداء لليهود في مراحل تاريخية سابقة لاسيما في القرون الوسطى، وكانت موجة عابرة ليس لها جذور عميقة في الواقع الأوروبي في تلك المرحلة ولا فيما كان متجها إليه لأن ظاهرة اللاسامية كانت ذاهبة إلى زوالها التاريخي فقد خلق "عصر التنوير " أي القرن الثامن عشر الأوروبي خصوصا عبر المفكرين والفلاسفة الفرنسيين لاسيما فولتير، وروسو، وديديرو، ومونتيسكيو، واقعا فكريا جديدا في أوروبا كان استكمالا وتتويجا لعصر النهضة الأوربية وكان تكريسا نهائيا لموت القرون الوسطى ولبدء العصر الحديث فقد برزت وتكرّست منذ ذلك الحين مفاهيم الحرية والمساواة، وبرزت فكرة الجمهورية،وفكرة الديمقراطية كأساس للسلطة وإعلاء شأن العقل كأساس للمعرفة، وما نتج عن كل ذلك من تكريس للحقوق الفردية والاجتماعية، وكانت الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م هي النتيجة السياسية الأولى لذلك التحول، ولم تنس الثورة الفرنسية فيما أحدثته إقرار حقوق اليهود كاملة في مجتمعاتهم وذلك قبل قرن من ظهور الحركة الصهيونية في " مؤتمر بال " وانتشرت مبادئ الثورة الفرنسية في كل أوروبا خصوصا أوروبا الغربية التي اندمج فيها اليهود مثلهم مثل سائر مواطنيها، وكان التيار الاشتراكي الذي دخل إلى روسيا وانتصر فيها، ثم امتد فيما بعد إلى كل أوروبا الشرقية كان ذاهبا في هذا المنحى نفسه وهو دمج اليهود في مجتمعاتهم الأوربية واعتبارهم مواطنين كغيرهم من أبناء الدولة الأصليين.

---

(١) قضية الضابط الفرنسي من أصل يهودي «ألفرد درايفوس» الذي تم اعتقاله ومحاكمته عام ١٨٩٤ بتهمة تسريب معلومات عسكرية للألمان ثم ثبتت براءته، وانقسمت فرنسا حوله، وقد ادَّعى تيودور هرتزل وكان موجودًا في حينه كصحافي أجنبي في فرنسا بأن قضية درايفوس هي التي جعلته يتبنى الفكرة الصهيونية ودفعته لكتابة كتابه «الدولة اليهودية».

لذا كانت موجة اللاسامية التي ظهرت في بعض أنحاء أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر محدودة ومصطنعة وزائلة، وما ظهر من أعمال عنف متفرِّقة في روسيا ضد اليهود بعد اغتيال ألكسندر الثاني عام ١٨٨١، وفي المرحلة التي تلت ذلك كان مفتعلا افتعالا من جانب النظام القيصري الذي بات عاجزا عن ضبط أوضاعه الداخلية، وخائفا من انهياره، وقد انهارت فعلا بعد حين وانهارت اللاسامية الروسية معه، أما قضية درايفوس في فرنسا فلم تؤلب الأمة الفرنسية على اليهود بل أدت إلى انقسامها، وأدَّت على كل حال إلى انتصار الفرد درايفوس وإعادة اعتباره وإعادته إلى منصبه العسكري عام ١٩٠٦.

إننا نوضح ذلك لنصل إلى استنتاجين أساسيين هما:

١- إن الظاهرة اللاسامية - ظاهرة العداء لليهود - التي قامت في بعض بلدان أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر لم تكن على الإطلاق هي الأساس في قيام الدعوة الصهيونية، ولم تكن هي الدافع الرئيسي للبحث عن الدولة اليهودية، وإن سهَّلت للصهاينة مهمتهم، أما الأساس في نشأة الحركة الصهيونية فهو ظهور النزعتين الأوروبيتين الكبيرتين:

أ- النزعة القومية التي كانت تهدف إلى إقامة الدول على أساس وحدة اللغة والتراث، إن لم يكن وحدة العِرق أو تفوقه أو تمجيده (القوميات الألمانية، والبريطانية، والفرنسية، والإيطالية، والروسية...).

ب- نزعة الاستعمار لدى الحضارة الأوروبية المسلحة بتطورها العلمي والصناعي والعسكري التي اعتقدت أنها أصبحت هي الحضارة القدوة والحضارة المثالية ومن حقها السيطرة على سائر العالم القابع في نظرها في " بربريته " والغارق في ضعفه وتشتته، واتجه نظر الاستعمار الأوربي إلى الشرق حيث كانت الإمبراطورية العثمانية التي دامت أربعة قرون تنحدر نحو نهايتها.

٢- رهان الاتجاه الصهيوني على اللاسامية، واندفاعه للتنسيق معها، ودوره الكبير في تطويرها حتى وصولها إلى النازية. فقد أدرك الصهاينة منذ البداية ومنذ تيودور هرتزل أن انتهاء العداء لليهود في أوربا يعني انتهاء دعوتهم، وأنه

بقدر ما تشتد اللاسامية ويشتد العداء لليهود بقدر ما يتعذر على اليهود الاندماج في مجتمعاتهم، ويتضح شعورهم بأنهم "شعب واحد" و "قومية واحدة" وتقوى رغبتهم في النزوح عن أوطانهم والتجمع في دولة جديدة تكون هي دولتهم.

هذا هو التحالف المكيافيلي البغيض الذي قامت عليه دولة إسرائيل بين الحركة الصهيونية والحركات اللاسامية. وهذا اللقاء السري بين النقيضين الذي وقع ضحيته اليهود قبل أن يتحولوا إلى أداة تنفيذه.

كانت الصهيونية تصرخ في العلن بأن العداء للسامية لدى شعوب أوروبا هو الخطر الثابت الدائم الذي لا خلاص منه إلا بتجميع اليهود في دولة تكون دولتهم. أما في الخفاء فكانت الصهيونية تذكي نار العداء للسامية كلما خمدت، وتقدم الحجج اللازمة لاستمرارها وهي عالمة بأن العداء لليهود هو أفضل محرِّك لفصلهم عن أوطانهم وتهجيرهم وتجمعهم في الدولة المقرر قيامها.

وكان اللاساميون يلعبون اللعبة نفسها فيهاجمون الصيونية في العلن ويجدون فيها البرهان الساطع على "عدم ولاء اليهود لأوطانهم" وعلى كونهم "أغراب يستحيل دمجهم في مجتمعاتهم" بينما كانوا ينسقون في الخفاء مع الحركة الصهيونية، ويجدون فيها أفضل معين لهم على "التخلص من اليهود الاندماجيين" وتوجيههم إلى بقعة خارجية بعيدة تصبح لهم وطنا.

هذا هو سر العلاقة وسر اللقاءات والمراسلات بين تيودور هرتزل وأكبر المسئولين عن أعمال العنف ضد اليهود الروس في بدء القرن العشرين[1].

قبل الحركة الصهيونية وقبل نهاية القرن التاسع عشر لم تظهر في التاريخ اليهودي الطويل أية دعوة لتجميع يهود العالم في دولة مًّا، ولم ينشأ لدى اليهود أي اتجاه فعلي للهجرة إلى فلسطين حتى في العصور الوسطى التي اشتدت فيها نزعة العداء لليهود في بعض المجتمعات المسيحية الأوروبية وزاد اضطهادهم لهم (والاضطهاد لم يكن قاصرا على اليهود بل إن الاضطهادات والحروب بين المذاهب المسيحية نفسها كانت أكثر اتساعا وهولا) فلم يفكر اليهود في النزوح

---

(١) فيصل أبو خضرا «تاريخ المسألة الفلسطينية» ص ٤٠،٤١ .

إلى فلسطين ولا فكروا في تحويلها إلى ملجأ أو وطن لهم، فقد كانت العلاقة مع الأماكن المقدسة الوارد ذكرها في التوراة هي علاقة طقوسية وروحية أيضاً، ولم يكن لها مضمون سياسي يوما، ولا توجه سلطوي، وبهذا المعنى يعترف ناحوم سوكولوف الذي لعب دورا رئيسيا في تطور الحركة الصهيونية وخلف حاييم وايزمان في رئاسة " المنظمة الصهيونية العالمية " عام ١٩٣١ فهو يعترف بأن "الصهيونية ليست النتيجة المنطقية لتاريخ شعب إسرائيل"[١].

إن العودة اليهودية إلى فلسطين، وبناء الوطن اليهودي فيها اللذين تصورهما الصهيونية وكأنهما ظاهرتان طبيعيتان وحركتان تاريخيتان ملازمتان للتاريخ اليهودي من البداية والنهاية هما في الحقيقة حركتان وهميتان ومصطنعتان من جملة ما اختلقته واصطنعته الصهيونية، وليس لهما وجود تاريخي قبل القرن التاسع عشر.

ولقد هال يهود أوروبا وأمريكا أن يتحملوا وزر الحركة الصهيونية الناشئة التي تلتقي في طرحها وهدفها - ولو من منطلقات مختلفة ومتعارضة - مع أعدائهم اللاساميين فتحيي العداء لليهود، وتسعى لمنع اندماجهم في أوطانهم وتعمل على تجميعهم ونقلهم إلى مكان بعيد لا معرفة لهم به ولا دافع لهم للذهاب إليه يكون أحيانا الأرجنتين وأحيانا أوغندا وأحيانا فلسطين.

كانت الحركة الصهيونية تردد الحجج نفسها التي يسوقها اللاساميون ضد اليهود كانت تقول:

١- إن اليهود عرق واحد و شعب واحد.

٢- لا ولاء حقيقا لليهود لأوطانهم التي يعيشون فيها.

٣- لا مجال نهائيا لاندماج اليهود في أوطانهم.

٤- أن العداء لليهود شعور أبدي ثابت لدى شعوب العالم.

٥- أن الحل هو فصل اليهود عن سواهم نهائيا وإتاحة المجال لتكوين دولة مستقلة لهم تكون بمثابة جيتو كبير.

---

(١) نفسه ص ٤٢ .

وكان هرتزل يردد في كل مكان قولا وكتابة من الأفكار ما يلتقي تماما مع اللاسامية وتبريرها فيقول للإمبراطور الألماني: " دع شعبنا يرحل فنحن أجانب "، وهو يجيب أحد محاوريه الألمان: " إني أتفهم اللاسامية فنحن اليهود بقينا أجساما أجنبية داخل مختلف الأمم، وإن لم يكن الخطأ خطأنا " وبنتيجة حواره مع أحد رجال الدين اليهود الفرنسيين يصل إلى الاستنتاج التالي: " على المرء أن يختار بين صهيون وفرنسا "(١).

الصهيونية والفاشية

قلنا إنه تمَّ تحالف مكيافيلي بين الحركة الصهيونية والحركات اللاسامية، وبناء على هذا التحالف أنشأت الصهيونية جسور صداقة مع النظام الفاشي في إيطاليا والنظام النازي في ألمانيا.

وقد أكد موسوليني منذ بداية حكمه أن الفاشية لا علاقة لها بالعداء لليهود. وفي ٣٠ أكتوبر ١٩٣٠ أصدر قراراً بدمج كل التجمعات اليهودية في إيطاليا في اتحاد فاشي يمثل كل يهود إيطاليا بغير استثناء، وأصبح هذا الاتحاد إحدى الوكالات الرسمية للحكومة الفاشية. حيث نصت المادة ٣٥ من قانون تأسيس هذا الاتحاد على أن.

اليهود هم سفراء الفاشية للعالم، وعلى ضرورة أن يشترك اتحاد التجمعات اليهودية في إيطاليا في النشاطات الدينية والاجتماعية ليهود العالم، وأن يحتفظ بعلاقاته الدينية والثقافية معهم.

وفي ٣ يناير ١٩٢٣ قام حاييم وايزمان بوصفه رئيس المنظمة الصهيونية بزيارة موسوليني، لمحاورته بشأن الصهيونية والدعم الفاشي الممكن تقديمه إلى الحركة. واكتشف الزعيم الصهيوني أن اعتراض موسوليني على الصهيونية مرده إحساسه بأن الصهيونية أداة لإضعاف الدول الإسلامية لصالح الإمبراطورية البريطانية. فرد وايزمان عليه رداً مقنعاً بيَّن له فيه أن إضعاف الدول الإسلامية سيعود أيضاً على إيطاليا بالنفع، وأضاف أن شروط حكومة الانتداب ذاتها تفتح المجال أمام

(١) يوميات هرتزل ص ٧٣،١٩،٩ نقلاً عن فيصل أبو خضرا «تاريخ المسألة الفلسطينية» ص٤٨.

إيطاليا أو أية دولة أخرى للمشاركة في تطوير هذا البلد (أي تصدير العمالة الفائضة والحصول على امتيازات تجارية، على حد قول وايزمان)، وأن في وسع إيطاليا أن تفعل ذلك إذ اعتمدت الميزانية اللازمة. وانتهى الاجتماع بتفاهم كامل بين الطرفين، سمح موسوليني على إثره بتعيين يهودي إيطالي في الوكالة اليهودية.

وحينما دُعي وايزمان مرة أخرى إلى إيطاليا في١٧ سبتمبر ١٩٢٦، عرض موسوليني أن يُقدم المساعدة للصهاينة كي يبنوا اقتصادهم، وقامت الصحافة الفاشية بنشر مقالات مؤيدة للصهاينة.

وتحدث ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية مع موسوليني في ٢٦ أكتوبر ١٩٢٧ الذي قال له: " سأساعدكم في إنشاء هذه الدولة اليهودية"[١].

كما قام ناحوم سوكولوف، باعتباره رئيس اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية، بزيارة إيطاليا عام ١٩٢٧ وصرح بأنه أدرك الطبيعة الحقة للفاشية، وأكد أن اليهود الحقيقيين لم يحاربوا قط ضدها. ولا شك في أن كلماته هذه تحمل معنى التأييد الكامل للنظام الفاشي، وقد تبعته في ذلك المنظمة الصهيونية في إيطاليا.

وقد تعلم جابوتنسكي (زعيم الصهيونية التصحيحية) الكثير من الفاشية الغربية، وكان يُعبِّر عن إعجابه الشديد بالدوتشي وفكره، وبالتنظيمات الشبابية الفاشية التي حاولت المنظمات الشبابية التصحيحية التشبه بها في زيها الرسمي. وكال موسوليني المديح والتقريظ لجابوتنسكي حين قال مرة للحاخام ديفيد براتو الذي أصبح فيما بعد حاخام روما: «كي تنجح الصهيونية يجب أن تحصلوا على دولة يهودية لها علم يهودي ولغة يهودية، والشخص الذي يفهم ذلك حقا هو الفاشي جابوتنسكي». كما نعت موسوليني نفسه ضمناً بأنه صهيوني يدافع عن فكرة الدولة اليهودية[٢].

(١) ناحوم جولدمان السيرة الذاتية ص ١٧٠ نقلاً عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

(٢) د. عبدا لوهاب المسيري موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» م٢ ج٤ إشكالية التعاون بين بعض أعضاء اليهودية والنازيين، مرجع سابق.

الصهيونية والنازية: الفكر المشترك

يظهر التماثل بين النازية والصهيونية في خطابهما فكلاهما يستخدم مصطلحات القومية العضوية مثل «الشعب العضوي» و«الرابطة الأزلية بين الشعب وتراثه وأرضه» و«الشعب المختار». وقد سُئل هتلر عن سبب معاداته لليهود، فكانت إجابته قصيرة بقدر ما كانت قاسية: "لا يمكن أن يكون هناك شعبان مختاران. ونحن وحدنا شعب الإله المختار. هل هذه إجابة شافية على السؤال ؟ ". ويتحدث مارتن بوبر (أحد الأصوات اليهودية الكبرى) عن أن الرابطة بين اليهود وأرضهم هي رابطة الدم والتربة، ومن ثم يطالب بضرورة العودة إلى فلسطين حيث توجد التربة التي يمكن للدم اليهودي أن يتفاعل معها ويبدع من خلالها.

وأثناء محاكمات نورمبرج، كان الزعماء النازيون يؤكدون، الواحد تلو الآخر، أن الموقف النازي من اليهود تمت صياغته من خلال الأدبيات الصهيونية، خصوصاً كتابات بوبر عن الدم والتربة.

ويستخدم النازيون والصهاينة على حد سواء الخطاب النيتشوي الدارويني نفسه المبني على تمجيد القوة وإسقاط القيمة الأخلاقية. إذ يستخدم الصهاينة - شأنهم في هذا شأن النازيين - مصطلحاً محايداً، فهم لا يتحدثون عن طرد الفلسطينيين وإنما عن " تهجيرهم " أو "دمجهم في المجتمعات العربية". وهم لا يتحدثون مطلقاً عن «تفتيت العالم العربي» وإنما عن "المنطقة"، ولا يتحدثون عن «الاستيلاء» على القدس وإنما عن "توحيدها" ولا عن الاستيلاء على فلسطين أو «احتلالها» وإنما عن "استقلال" إسرائيل أو عن "عودة الشعب اليهودي" إلى أرض أجداده.

ولنا أن نلاحظ الأصول الألمانية الراسخة للزعماء الصهاينة الذين صاغوا الأطروحات الصهيونية الأساسية. فتيودور هرتزل وماكس نوردو وألفريد نوسيج وأوتو ووربورج كانوا إما من ألمانيا أو النمسا يكتبون بالألمانية ويتحدثون بها، كما كانوا مُلمِّين بالتقاليد الحضارية الألمانية ويكنون لها الإعجاب ولا يكنون احتراماً كبيراً للحضارات السلافية (وقد غيَّر هرتزل اسمه من «بنيامين» إلى «تيودور»

حتى يُؤَلَّمِن اسمه، وسمَّى ماكس نوردو نفسه بهذا الاسم لإعجابه الشديد بالنورديين). ولا يختلف زعماء يهود اليديشية عن ذلك، فلغتهم اليديشية هي رطانة ألمانية أساساً. ومن جهة أخرى، كانت لغة المؤتمرات الصهيونية الأولى هي الألمانية، كما توجه الزعماء الصهاينة أول ما توجهوا لقيصر ألمانيا لكي يتبنى المشروع الصهيوني. وقد أكد جولدمان أن هرتزل قد وصل إلى فكرته القومية (العضوية) من خلال معرفته بالفكر والحضارة الألمانيين.

وكان كثير من المستوطنين الصهاينة يكنون الإعجاب للنازية، وأظهروا تفهماً عميقاً لها ولمُثُلِها ولنجاحها في إنقاذ ألمانيا. بل عدوا النازية حركة تحرر وطني. وقد سجل حاييم كابلان، وهو صهيوني كان موجوداً في جيتو وارسو (حينما كان تحت حكم النازي)، أنه لا يوجد أي تناقض بين رؤية الصهاينة والنازيين للعالم فيما يخص المسألة اليهودية، فكلتاهما تهدف إلى الهجرة، وكلتاهما ترى أن اليهود لا مكان لهم في الحضارات الأجنبية[1].

موقف المسيحية من الصهيونية والنازية

في عام ١٩٢٦، حدد فيلي ستارك ما تصوره موقف المسيحية من مسألة الشعب العضوي. فأشار إلى نقط التشابه بين الصهيونية والنازية، فكلتاهما تدور حول قيمة مطلقة تحيطها القداسة الدينية، الدم والتربة، وهي قيمة تضرب بجذورها في المشاعر الأسطورية الكونية، وفي ممالك الأرض بدلاً من مملكة السماء. ومن ثم، توصَّل فيلي ستارك إلى أنه لا يوجد أي مجال للتفاهم بين المسيحية وعبادة الشعب العضوي: الصهيونية أو النازية. كما توصل إلى أن كلا من الصهيونية (التي تحاول أن تؤسس الهيكل الثالث أي الدولة الصهيونية) والنازية (التي أسست الرايخ الثالث أي الدولة النازية) تجسيد لعدم فهم البُعد المجازي في العقيدة الألفية الاسترجاعية في المسيحية. وبالتالي، فإن كلتا الحركتين ضرب من ضروب المشيحانية السياسية (الأخروية العلمانية) التي

(١) د. عبد الوهاب المسيري «اليهود واليهوية والصهيونية» م٢ ج٤ إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين مرجع سابق.

تحوّل الدنيوي المدنّس إلى مقدّس، وبذلك يُمثل كل منهما تهديداً لليهودية والمسيحية، بل للجنس البشري بأسره(١).

ولقد أحجمت الفاتيكان عن الاعتراف بدولة إسرائيل عند قيامها، كما أن الكنيسة الشرقية تناهض تماما الصهيونية وتعادي دولة إسرائيل، فهل يوجد تهديد للمسيحية أخطر من سيطرة اليهود الصهاينة على القدس والأراضي المقدسة ؟ واليهود هم أعدى أعداء المسيحية ابتداءً من تكذيبهم للمسيح وإعلان العداء له ولدعوته وحمل دمه - حسب عقيدتهم - وانتهاءً بعدوانهم على مسيحيي فلسطين وهدم كنائسهم تماما كما يفعلون مع مسلمي فلسطين(٢).

وهذه طائفة من أقوال أكبر الرموز المسيحية العربية التي تؤكد موقفها العقائدي من اليهود الصهاينة والمسيحية البروتستانتية المشايعة لها. وكما ذكرنا سابقا.

يقول د. ميلاد حنا المفكر المسيحي البارز (عضو المجلس الأعلى للثقافة في مصر): "اليهود ركبوا موجة كبيرة جداً في تفسير بعض نصوص دينية في أن يجعل المؤمن المسيحي - البروتستانتي - علشان يبقى مسيحي كويس لازم يؤمن بحق إسرائيل في الوجود وإنها تستنى، وإن دا يخلي المسيح يحبا يقوم دا يحقق القيامة !!"(٣).

ويضيف الأستاذ جمال أسعد عبد الملاك (عضو مجلس الشعب المصري الأسبق والمفكر المسيحي المعروف) قائلا:

" الأخطر هو الاختراق الصهيوني للمسيحية من خلال إعمال بعض نصوص العهد القديم اللي هو كتاب اليهود لتبرير صفقات سياسية، يعني هو لما ما يقول حكاية الألفية دي، هو المقصود باختصار شديد، الألفية إنه لابد تنتهي ببناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، ومن هنا يبقى تبرير للوجود الإسرائيلي وإنهاء للقضية الفلسطينية من أساسها، وللأسف الشديد أن هناك بعض

---

(١) نفسه.

(٢) انظر «حقيقة اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية» للمؤلف فصل «علاقة اليهود بالمسيح كما جاءت في الأناجيل».

(٣) د. ميلاد حنا في حوار أجرته معه قناة الجزيرة في برنامج «بلا حدود» ٢٠٠٢/٨/١٢

المسيحيين يغرر بهم باعتبار إن دي تحت مقولات ونصوص دينية، ومن هنا لا.. لا ينظرون إلى مجمل العقيدة وموقف المسيحية بشكل عام من اليهود، ومعروف إن إحنا كنائسنا التقليدية اللي هي الأرثوذكسية والكاثوليكية ضد الحكم الألفي باعتبار إن إحنا الآن يحكمنا المسيح حكما روحياً، ولا وجود لما يسمى بشعب الله المختار، ولا أرض الميعاد، ولا حكم (ألفي) ولا كل الكلام دا كله الهراء الكذب"[1].

ويقول بطريرك السريان الكاثوليك الإنطاكي أغناطيوس بطرس الثامن عبد الأحد: " إن موقف الكنيسة القبطية المصرية وعلى رأسها قداسة البابا شنودة الذي أصدر أوامره إلى أتباعه بعدم زيارة مدينة القدس ما دامت تخضع للاحتلال الإسرائيلي هذا بالرغم من وجود اتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل"[2].

تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود

وقد اكتشف النازيون أيضاً عمق تناقض مصالح الصهاينة مع اليهود واتفاق الموقف النازي مع الموقف الصهيوني. فاليهودي الصهيوني الذي يخدم هويته العضوية هو شخص يستحق الاحترام (لأنه يشبه النازي)، على عكس اليهودي المتألمن المندمج الذي يتمسح في الهويات العضوية للآخرين ولا ينجح بطبيعة الحال في اكتسابها، لأنه حبيس هويته اليهودية، شاء أم أبى. ولعل هذا يُفسِّر السبب في أن النازيين اعتبروا أن عدوهم الحقيقي هم اليهود الأرثوذكس والجماعة المركزية للمواطنين اليهود من أتباع العقيدة اليهودية. ولعله يفسر أيضاً لِمَ كانت علاقة الدولة النازية بالمنظمات الصهيونية تتسم بشيء من الود والتفاهم. فبينما كان الأرثوذكس والإصلاحيون يطالبون بمنح اليهود حقوقهم كمواطنين، وباندماجهم في مجتمعاتهم، كان الصهاينة يعارضون الاندماج ويعارضون منح اليهود أي حق، إلا حق الهجرة إلى الوطن القومي اليهودي.

(١) قناة الجزيرة برنامج بلا حدود ٢٠٠٢/٨/١٢ .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول موقف الكنيسة الشرقية من الصهاينة: يهودا، ومسيحيين انظر «اليهود والصليبيون الجدد» للمؤلف الفصل الرابع عشر موقف مسيحي العرب من مخطط الصليبيين الجدد» مرجع سابق.

لكل هذا قام النظام النازي بتشجيع النشاط الصهيوني ودعم المؤسسات الصهيونية والسماح للمنظمات الصهيونية بممارسة جميع أنشطتها من تعليم وتدريب على الاستيطان ونشر مجلاته، بينما مُنع الاندماجيون والأرثوذكس من إلقاء الخطب، أو الإدلاء بتصريحات، أو جمع التبرعات أو مزاولة أي نشاط آخر.

فالصهيونية عقيدة سياسية، وقومية عنصرية، وأيديولوجيا استعمارية تلك هي الخصائص التي تشرح السياسة الصهيونية التي انتصرت في مؤتمر بازل في أغسطس ١٨٩٧ م.

ولكن هذه العملية السياسية والقومية والاستعمارية لم تكن بأي حال تمثل روحانية الديانة اليهودية، ولا المصلحة الحقيقية لليهود ففي نفس وقت انعقاد مؤتمر بازل انعقد مؤتمر في مونتريال في أمريكا جاء في بيانه الختامي:

" إننا نشجب تماما أي مبادرة تهدف إلى إنشاء دولة يهودية، وإن أي محاولات من هذا القبيل تكشف عن مفهوم خاطئ لرسالة إسرائيل.. التي كان الأنبياء اليهود هم أول من نادى بها.. ونؤكد أن هدف اليهودية ليس بهدف سياسي ولا قومي، ولكن روحي[1].

في هذا المؤتمر تمسك اليهود بروحانية اليهودية، واعترضوا على المنحى الذي سلكه هرتزل في مؤتمر بازل الذي انتقى من الديانتين اليهودية والمسيحية ما يبرر أهدافه السياسية الاستعمارية " فهو يشير إلى عصر مسيحي حيث يعترف كل الناس بأنهم ينتمون إلى طائفة واحدة كبرى لإنشاء مملكة الرب على الأرض"[2].

وهكذا كان رد الفعل الأول للمنظمات اليهودية ابتداء من "رابطة حاخامات ألمانيا "وحتى" الاتحاد الإسرائيلي العالمي لفرنسا" و "الاتحاد الإسرائيلي في النمسا" وكذلك الرابطات اليهودية في لندن.

وهذه المعارضة حيال الصهيونية السياسية المستوحاة من التمسك بروحانيات

---

(١) المؤتمر المركزي للحاخامات الأمريكيين الكتاب السابع ١٨٩٧ ص ١٢ نقلاً عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٢١ .

(٢) نفسه ص ٢١ .

الديانة اليهودية، ما فتئت تعبر عن نفسها حتى في أعقاب الحرب العالمية الثانية، عندما استغلت الصهيونية الإسرائيلية مرة أخرى المخاصمات والمشاحنات التي دارت بين الدول في الأمم المتحدة، ولا سيما التأييد غير المشروط من الولايات المتحدة لكي تفرض نفسها كقوة مهيمنة، وتمكنت بفضل مختلف أنواع اللوبي من عكس الاتجاه وإنجاح سياسة القوة الإسرائيلية الصهيونية على العكس ما كان متوقعا ولكنها مع ذلك لم تفلح في تكميم نقد كبار الروحانيين.

الصهيونية والنازية: العلاقة الفعلية

قام الصهاينة الألمان بتطوير الأيديولوجيا الصهيونية والوصول بأطروحاتها إلى نتائجها المنطقية، أي تصفية الجماعات اليهودية في المنفى (أي العالم) تماماً وإنشاء الدولة الصهيونية. وابتداءً من العشرينيات، بدأ الزعماء الصهاينة في ألمانيا يطلقون التصريحات الصهيونية التي تؤكد الهوية اليهودية العضوية الخالصة وتنكر على اليهود انتماءهم إلى الأمة الألمانية. ففي عام ١٩٢٠ (قبل ظهور كتاب هتلر كفاحي بثلاثة عشر عاماً)، ألقى جولدمان خطاباً في جامعة هايدلبرج بيَّن فيه أن اليهود شاركوا بشكل ملحوظ للغاية في الحركات التخريبية، وفي إسقاط الحكومة في نوفمبر ١٩١٨، وأصر على أن يهود ألمانيا والشعب الألماني ليست بينهما عناصر مشتركة، وعلى أن الألمان يحق لهم أن يمنعوا اليهود من الاشتراك في شئون الفولك الألماني.

أما وايزمان، فقد شبه علاقة الألمان باليهود بصورة مجازية استقاها من عملية الهضم، فقال: إن أي بلد يود تحاشي الاضطرابات المعوية عليه أن يستوعب عدداً محدوداً فقط من اليهود. وكان يرى أن عدد اليهود في ألمانيا أكبر من اللازم، أو بعبارة أخرى يوجد فائض بشري يهودي. وفي الفترة نفسها، وصف كلاتزكين اليهود بأنهم جسم مغروس وسط الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها، ولذا فإن من حقهم أن يحاربوا ضد اليهود من أجل تماسُكهم القومي.

وهذه كلها موضوعات قديمة مطروحة في كتابات هرتزل ونوردو، الأبوين الروحيين للصهيونية على وجه العموم والصهيونية الألمانية على وجه الخصوص، ولكنها اكتسبت أهمية خاصة من سياقها الزماني والمكاني في ضوء ما حدث بعد

ذلك. وهي لا تختلف في جوهرها عن قول إرنست يونجر (المفكر القومي العضوي الذي ألهم النازيين) أن اليهود يتوهمون أن بوسعهم أن يصبحوا ألمانيين في ألمانيا، ولكن هذا أمر غير قابل للتحقق. فاليهود يواجهون خياراً نهائيا: إما أن يكونوا يهوداً في ألمانيا، أو لا يكونوا.

ومن المدهش حقا أن نكتشف أن قادة اليهود الصهاينة الذين أثاروا موضوع الهولوكوست وحصلوا على تعويضات ضخمة من ألمانيا بسببها هم من تعاون مع هتلر المتهم الأول بإبادة اليهود في الهولوكوست!!

فعندما بدأت الحرب ضد هتلر وقفت الغالبية العظمى من المنظمات إلى جانب الحلفاء إلا أن الجماعة الصهيونية رغم قلتها في ألمانيا آنذاك اتخذت سياسة مخالفة منذ ١٩٣٣ وحتى ١٩٤١، وتواطأت بل وتعاونت مع هتلر، وكانت السلطات النازية، في الوقت الذي كانت تضطهد فيه اليهود بطردهم من الوظائف العامة -على سبيل المثال في مرحلة أولى - تتحاور مع القادة الصهاينة الألمان وتمنحهم معاملة تفضيلية بتمييزهم عن اليهود من ذوي النزعة المتطرفة الذين كانت تطاردهم.

والاتهام بتحالف اليهود مع هتلر لا ينطبق على غالبية اليهود لكن ينطبق على الأقلية التي كانت منظمة تنظيما جيدا والمكونة من القادة الصهاينة الذين كان همهم الوحيد إنشاء دولة يهودية قوية.

وكان اهتمامهم الوحيد هو إنشاء دولة يهودية قوية وكانت رؤيتهم العنصرية للعالم تجعل عداوتهم للإنجليز أشد من عداوتهم للنازية.

والمدهش حقا أن المتعاونين مع هتلر من اليهود الصهاينة يصبحون بعد الحرب العالمية هم قادة دولة إسرائيل مثل: مناحم بيجين أو إسحق شامير.

ولقد برهن الزعماء الصهاينة في عصر نازية هتلر على سلوك غامض ومشبوه بدءا من عرقلة الكفاح ضد النازية وحتى التعاون معها.

فالهدف الأساسي لليهود الصهاينة لم يكن إنقاذ حياة اليهود ولكن إنشاء دولة يهودية في فلسطين، ولقد أعلن أول رئيس لدولة إسرائيل بن جوريون ودون

موارية في ٧ ديسمبر ١٩٣٨ أمام القادة الصهاينة من " العمال ": " لو كنت أعلم أنه من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بإحضارهم إلى إنجلترا، وإنقاذ نصفهم فقط بنقلهم إلى إسرائيل الكبرى لاخترت الحل الثاني ؛ لأننا يجب أن نحرص ليس فقط على حياة هؤلاء الأطفال بل وعلى تاريخ شعب إسرائيل أيضا"(١).

وفي ضوء هذا التوجه الصهيوني، لم يكن من الغريب أن يرى هتلر حين وصل إلى الحكم أن كثيراً من الصهاينة على استعداد لتَفهُّم وجهة نظره. فقد صرح الحاخام الصهيوني يواكيم برنز في يناير ١٩٣٣ أنه لا مكان يمكن لليهود أن يختبئوا فيه. وقال: بدلاً من الاندماج، نرى نحن الصهاينة أنه يجب الاعتراف بالأمة اليهودية وبالعرّق اليهودي.

وحينما قام النازيون في ٣١ يناير ١٩٣٣ بحرق الكتب التي كانوا يرونها هدامة، كتبت يوديش روندشاو (المجلة الناطقة باسم الاتحاد الصهيوني) تقول إن كثيراً من المؤلفين اليهود خونة تنكروا لجذورهم لأنهم شتتوا جهودهم بإسهامهم في الثقافة الألمانية غير اليهودية. وفي نبرة ترحيب واضحة، صرح إميل لودفيج (الكاتب اليهودي الألماني) بأن ظهور النازيين دفع بالآلاف من اليهود إلى حظيرة اليهودية مرة أخرى بعد أن كانوا قد ابتعدوا عنها. وقال: "ولذا، فأنا شخصيّاً ممتن لهم". وترد نفس الفكرة النازية الصهيونية على لسان الشاعر الصهيوني حاييم بياليك إذ يرى أن الهتلرية أنقذت يهود ألمانيا، ويضيف: " أنا أيضاً مثل هتلر أومن بفكرة الدم "(٢).

الصهيونية ومقاومة النازية

قد بيَّن كثير من الكُتَّاب أنه لم تنشأ أية مقاومة يهودية للنازية في أرجاء أوربا، مع أن مثل هذه المقاومة كان بوسعها أن تصيب آلة الإبادة النازية بالشلل أو تَحِد من سرعتها أو تعطلها،خصوصاً أنها كانت مُرهَقَة،ولم تبدأ المقاومة اليهودية

(١) إيفون جلبتير «السياسة الصهيونية ومصير اليهودية الأوربية» م١٢ ص ١٩٩ نقلاً عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٧٣.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٢ ج٤ إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين مرجع سابق.

جـديّاً في وارسـو - التي كـان ٤٥٪ من سكانهـا مـن اليـهـود - إلا في أوائل عـام ١٩٤٣، عندما بدأت موازين القوى تميل لصالح الحلفاء وحين قـررت برلين تدمير حارة اليهود، وكان الوقت قد فات على إنقاذ نزلاء المعسكرات.

ويبدو أن يهود الولايات المتحدة (الذين يُشكِّلون أكبر جماعة يهودية في العالم) لم يلعبوا دوراً فعالاً بما فيه الكفاية في محاولة حماية يهود ألمانيا. وقد حاولت إحدى المنظمات اليهودية الأمريكية، عام ١٩٨١، فتح ملف تقصير الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة، ولكنها أغلقته بسرعة بدعوى أن الموضوع محرج ومؤلم، وهو كذلك بالفعل. لكن هذا لا يبرر إغلاق التحقيق، وخصوصاً أن الاتهامات الصهيونية للحكومة الأمريكية والفاتيكان والكنيسة بالتقصير لم تتوقف[1].

هدف الصهيونية، إنقاذ اليهود أم إنشاء دولة يهودية؟

إن الصهاينة اكتشفوا، أثناء الإرهاب النازي ضد اليهود، ذلك التناقض العميق بين فكرة الدولة اليهودية ومحاولة إنقاذ اليهود. وقد حدد بن جوريون القضية بشكل قاطع (في ٧ ديسمبر ١٩٣٧) حين أكد أن المسألة اليهودية لم تَعُد مشكلة آلاف اليهود المهدَّدين بالإبادة وإنما هي مشكلة الوطن القومي أو المستوطن الصهيوني.

وقد أدرك بن جوريون خطورة فصل مشكلة اللاجئين اليهود عن المشروع الصهيوني والتفكير في توطين اللاجئين في أي مكان إن لم تستوعبهم فلسطين. وأكد بن جوريون أنه إن استولت "الرحمة على شعبنا ووجه طاقاته إلى إنقاذ اليهود في مختلف البلاد" فإن ذلك سيؤدي إلى "شطب الصهيونية من التاريخ".

وفي العام التالي - وكما ذكرنا - صرح بن جوريون أمام زعماء الصهيونية العمالية: « لو عرفت أن من الممكن إنقاذ كل أطفال ألمانيا بتوصيلهم إلى إنجلترا، في مقابل أن أنقذ نصفهم وأنقلهم إلى فلسطين. فإني أختار الحل الثاني، إذ يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا، لا حياة هؤلاء الأطفال وحسب، بل كذلك تاريخ شعب إسرائيل».

---

(١) نفسه.

وإذا كان بن جوريون على استعداد بالتضحية بنصف الأطفال اليهود من أجل الوطن القومي الصهيوني فإن إسحق جرونباوم (رئيس لجنة الإنقاذ بالوكالة اليهودية) قد تجاوز الحدود تماماً، ففي حديث له أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية في ١٨ فبراير ١٩٤٣، صرح قائلاً إنه لو سُئل إن كان من الممكن التبرع ببعض أموال النداء اليهودي الموحد لإنقاذ اليهود فإن إجابته ستكون «كلاً ثم كلاً» بشكل قاطع. وأضاف: "يجب أن نقاوم هذا الاتجاه نحو وضع النشاط الصهيوني في المرتبة الثانية... إن بقرة واحدة في فلسطين أثمن من كل اليهود في بولندا ". وكان وايزمان قد عبَّر عن نفس الفكرة النفعية عام ١٩٣٧ حينما قال: " إن العجائز سيموتون، فهم تراب وسيتحملون مصيرهم، وينبغي عليهم أن يفعلوا ذلك".

وانطلاقاً من هذه الرؤية المتمركزة حول المشروع الصهيوني وليس الإنسان اليهودي، لعبت الحركة الصهيونية دوراً حاسماً في تدمير جميع المحاولات الرامية إلى توطين اليهود في أماكن مختلفة من العالم، مثل جمهورية الدومينيكان، حتى يضمن الصهاينة تدفق المادة البشرية اليهودية على فلسطين. ولهذا، التزمت جولدا مائير، مندوبة الحركة الصهيونية في فلسطين، الصمت الكامل حيال مداولات مؤتمر إفيان باعتبارها أمراً لا يخصها.

لم يكن إذن إنقاذ يهود أوروبا على رأس أولويات الطبقة الحاكمة بل كان تأسيس دولة يهودية في فلسطين هو الأمر المهيمن على تفكيرهم، وهذا التعصب يوحي بموقف الوفد الصهيوني في " مؤتمر إيفيان " في يوليو ١٩٣٨ حيث اجتمعت ٣١ دولة لمناقشة استيعاب لاجئي ألمانيا النازية فقد طلب الوفد الصهيوني وكحل وحيد ممكن بقبول مائتي ألف يهودي في فلسطين.

لقد كانت الدولة اليهودية بالنسبة لهم أهم من حياة اليهود.

إن العدو الرئيسي بالنسبة لزعماء اليهود الصهاينة هو ذوبان اليهود في مجتمعاتهم، وهم يلتقون في ذلك مع الفكر الأساسي لأي عنصرية بما في ذلك العنصرية الهتلرية، وهو نقاء الدم، ولهذا السبب وطبقا لمعاداة السامية المنظمة التي دفعت زعماء النازية إلى محاولة طرد كل اليهود من ألمانيا ثم من أوروبا

عندما سيطروا عليها، فإن النازيين قد اعتبروا الصهاينة بمثابة السند الرئيسي لهم لأنهم يخدمون المخطط هذا[1].

تعاون اليهود الصهاينة مع النازيين

وهناك قرائن تدل على تواطؤ قادة اليهود الصهاينة مع النازيين فقد وجه الاتحاد الصهيوني الألماني إلى حزب النازي مذكرة في يونيو ١٩٣٣ أعلن فيها ما يلي:

"بتأسيس دولة جديدة -أعلنت مبدأ الجنس- نأمل أن تتواءم طائفتان مع الهياكل الجديدة، وأن اعترافنا بالجنسية اليهودية يسمح لنا بإقامة علاقات واضحة مع الشعب الألماني وحقائقه القومية والعنصرية. وذلك لأننا لا نود أن نقلل من قدر المبادئ الأساسية، ولأننا أيضا ضد الزيجات المختلطة، فاليهود الواعون بهويتهم والذين نتحدث باسمهم يستطيعون أن يجدوا مكانا لهم داخل هياكل الدولة الألمانية لأنهم قد تحرروا من الشعور بالحقد والضغينة الذي يعاني منه اليهود الذين تمثلهم المجتمعات الموجودين به؟ وإننا نعتقد في إمكانية العلاقات المخلصة بين اليهود الواعين بطائفتهم وبالدولة الألمانية .

ولبلوغ هذه الأهداف العملية تأمل الصهيونية في أن تتمكن من التعاون حتى مع حكومة معادية تماما لليهود، فإن تحقيق الصهيونية لا يضيره حقد اليهود في الخارج، وعداؤهم للتوجه الألماني الحالي، والدعاية للمقاطعة -الموجهة ضد ألمانيا- هي في جوهرها ليست صهيونية[2].

وأضافت المذكرة: " وإنه في حالة موافقة الألمان على هذا التعاون، سيسعى الصهاينة بكل جهدهم إلى تحويل اليهود في الخارج عن المناداة بالمقاطعة ضد ألمانيا[3].

---

(١) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٧٤ .

(٢) لوسي داووفيش «قارئ للهلوكوست» ص ١٥٥ نقلاً عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٧٥ .

(٣) نفسه ص ٧٥ .

ورحب الزعماء الهتلريون بتوجيهات قادة الصهاينة الذين يتفقون معهم في التخلص من اليهود من أجل همهم الوحيد وهو إنشاء دولتهم في فلسطين ، وكتب المُنَظِّر النازي الرئيسي " ألفريد روزنبرج " ينبغي مساندة الصهيونية بكل قوة حتى يتسنى نقل مجموعة من اليهود الألمان سنويا إلى فلسطين .

وكتب مولار شوانت إلى وزارة الداخلية : " ليس هناك من الأسباب ما يدعو إلى عرقلة النشاط الصهيوني في ألمانيا بواسطة أي إجراءات إدارية لأن الصهيونية لا تتعارض مع برنامج الاشتراكية القومية (النازية) التي هدفها هو إبعاد يهود ألمانيا تدريجيا " .

وقد طبقت هذه الأوامر بحذافيرها لتأكيد الإجراءات السابقة ، لقد كان وجود المنظمة الصهيونية ليهود ألمانيا وجودا قانونيا وشرعيا حتى عام ١٩٣٨ أي بعد مضي خمس سنوات على اعتلاء هتلر الحكم ، واستمرت صحيفة الصهاينة الألمان تصدر حتى ١٩٣٨ (١).

أهم أشكال التعاون بين الصهاينة والنازيين

إن التعاون بين الصهيونية والنازية لم يقتصر على العمل على إنشاء دولة يهودية في فلسطين ، والتخلص من اليهود الألمان بتهجيرهم إليها ، وكسر الحصار والمقاطعة المفروضتان ضد ألمانيا النازية والذي تم من خلال اتفاقية الهعفراه بل امتد التعاون بينهما لحد مشاركة بعض قادة الصهيونية في مساعدة النازيين في إبادة اليهود وتوجد حالات محددة تعاون فيها الصهاينة مع النازيين في عمليات نقل اليهود وإبادتهم (كاستنر ونوسيج). كما تُوجَد منظمة صهيونية ذات طابع نازي واضح، وهي عصبة الأشداء . وبالمثل حاولت منظمة شتيرن تقنين عملية التعاون. وسنحاول الآن تناول أهم أشكال التعاون بين القادة الصهاينة والنازيين .

---

(١) رجاء جاودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٧٥- ٧٧ بتصرف.

اليهود الصهاينة يكسرون الحصار والمقاطعة ضد ألمانيا النازية

كان اليهود - غير صهاينة - مشغولين بعمليات إنقاذ يهود ألمانيا، وتنظيم مقاطعة اقتصادية ضد النظام النازي. وقد نجحوا في تكوين منظمة دولية أطلق عليها «الاتحاد اليهودي الاقتصادي العالمي» في أمستردام للتنسيق بين جميع المنظمات الداعية إلى المقاطعة .

وشكلت المقاطعة، وخصوصاً في الشهور الأولى، تهديداً خطيراً للنظام النازي. ولو اتحدت المنظمات اليهودية والصهيونية خلف حركة المقاطعة، لما نجح النازيون، وخصوصاً في الأشهر الأولى من تسلمهم السلطة، في الإمساك بزمام الأمور .

وفي حين كان اليهود - غير الصهاينة - يحكمون الخناق حول النظام النازي عن طريق المقاطعة الاقتصادية نجد أن هناك صفقة تتم بين اليهود الصهاينة والنازيين لإفشال هذه المقاطعة . ففي مقابل الاعتراف الرسمي بالزعماء الصهاينة بوصفهم الممثلين الوحيدين للطائفة اليهودية فقد عرضوا على النازيين القيام بكسر الحصار والمقاطعة .

وابتداءً من ١٩٣٣ بدأ التعاون الاقتصادي ، وأنشئت شركتان هما : شركة هعفرا في تل أبيب ، وشركة يالترو في برلين . وكانت آلية العملية على النحو التالي : يودع أي يهودي يرغب في الهجرة في بنك فاسرمان في برلين ، أو في بنك فاربورج في هامبورج مبلغا لا يقل عن ١٠٠ استرليني وبهذا المبلغ يشتري المُصَدِّرون اليهود بضاعة ألمانية وجهتها فلسطين ، ومع دفع القيمة المقابلة بالجنيهات الفلسطينية ، ولحساب شركة هعفرا في البنك الإنجلو فلسطيني في تل أبيب . وعندما يصل المهاجر إلى فلسطين يتسلم ما يعادل المبلغ الذي أودعه في ألمانيا .

وقد شارك عدد كبير من رؤساء وزراء إسرائيل في هذه العملية لا سيما بن جوريون ، وموشى شاريت (الذي كان يسمى حينذاك موشى شرتوك)

وجولدا مائير التي ساندتها من نيويورك ، وليفي أشكول الذي كان الممثل لها في برلين[1].

ولقد كانت العملية مربحة بالنسبة للطرفين : فقد نجح النازي في تحطيم الحصار (ونجح الصهاينة في بيع بضائع ألمانية حتى في إنجلترا) وحقق الصهاينة هجرة انتقائية كما أرادوها : فالمليونيرات وحدهم كان بوسعهم الهجرة (والتي كانت رؤوس أموالهم تسمح بتنمية الاستيطان الصهيوني في فلسطين) وطبقا لأهداف الصهيونية فقد كان الأهم هو إنقاذ رؤوس الأموال اليهودية من ألمانيا النازية لكي تتاح لها توسيع عملياتها وإن حياة اليهود المُعْدمين ، أو غير القادرين على العمل أو على الحرب ، ما هي إلا عالة وعبء ثقيل [2].

إن فترة الهعفراه [3]تعَدُّ أهم فترة في تاريخ المُستوطَن اليهودي في فلسطين إذ تم تزويده بعدد كبير من أعضاء المادة البشرية المطلوبة وبرأس المال اللازم للبنية التحتية. وقد بلغ عدد اليهود الألمان الذي هاجروا إلى فلسطين في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٣ و١٩٤١ (بموجب الاتفاقية) نحو ٥٢,٣٠٠ ويُشكِّلون ٢٥٪ من مجموع المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة نفسها. وكان بينهم ٦,٥٢٩ رأسماليا يمثلون إضافة اقتصادية ضخمة للمستوطن و٦,٧٠٠ مهاجر من أبناء الطبقة الوسطى المثقفة غالبيتهم من الأطباء والمحامين والمهندسين والصناعيين[4].

ويحكي ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ثم رئيس المجلس اليهودي العالمي في سيرته الذاتية مقابلته المأساوية مع وزير الخارجية التشيكي "إدوار بينيس" في ١٩٣٥ التي عاب فيها على الصهاينة كسرهم لحصار هتلر

---

(١) بن جوريون وشرتوك ص ٢٩٤ نقلا عن«الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» ص٧٨

(٢) رجاء جارودي «الاساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٧٨.

(٣) الهعفراه هو اسم المعاهدة التي وقعها الصهاينة مع النازيين لكسر الحصار والمقاطعة التي كان اليهود - غير الصهاينة- أعداء النازية في العالم يحاولون فرضها على ألمانيا النازية.

(٤) عبد الوهاب المسيري «اليهود واليهودية والصهيونية» م ٢/ج٤ «إشكالية التعاون بين بعض أعضاء الجماعات اليهودية والنازيين» . مرجع سابق.

بواسطة شركة هعفراه واتفاقات النقل ، ورفض المنظمة الصهيونية العالمية تنظيم المقاومة ضد النازية .

" لم أشعر في حياتي بالأسى والخزي في أي مقابلة من المقابلات العديدة التي أجريتها إلا خلال هاتين الساعتين . لقد أحسست بكل شعرة في جسمي أن بينيس كان على حقٍّ " (١)

ودامت سياسة التعاون بين قادة اليهود الصهيونية وبين النازيين حتى عام ١٩٤١ (أي طوال ٨ سنوات بعد وصول هتلر إلى السلطة) . وقد توقفت هذه المفاوضات عندما ألقت قوات الحلفاء القبض في يونيو ١٩٤١ على مندوب شتيرن وإسحق شامير وهو نفتالي لوبنتشيك داخل مكتب الجهاز السري النازي في دمشق وهناك أعضاء في المجموعة واصلوا الاتصالات حتى إلقاء القبض على إسحق شامير من طرف السلطات البريطانية في ديسمبر ١٩٤١ بتهمة "الإرهاب والتعاون مع العدو النازي " .

وهذا الماضي القذر لم يمنع إسحق شامير من أن يصبح رئيس وزراء وأن يكون رئيسا لمعارضة قوية وأشدها تمسكا باحتلال الضفة الغربية !!

المجالس اليهودية

ومن بين أشكال التعاون بين الصهيونية والنازية " المجالس اليهودية " وهي مجالس كان يقيمها النازيون بين الجماعات اليهودية التي تقع تحت سلطتهم. وكان سلوك أعضاء المجالس يندرج تحت واحد من أربعة أنماط:

١- تعاون من نوع ما في المجالات الاقتصادية والمادية.

٢- استعداد للاستجابة للمطالب لنازية حين يتعلق الأمر بمصادرة الممتلكات والأشياء المادية الأخرى، مع رفض كامل لتسليم اليهود.

٣- قبول اضطراري لإبادة جزء من الجماعة اليهودية على أمل إنقاذ الجزء الآخر.

٤- خضوع كامل للمطالب النازية نظير حماية مصالح القيادة اليهودية.

(١) ناجوم جولدمان «السيرة الذاتية» ص١٥٧ ، ١٥٨ . نقلا عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

ويبدو أن القيادات اليهودية القديمة كانت تسلك وفق النمطين الأولين. ولكن النمطين الثالث والرابع سادا في المراحل الأخيرة حينما ترأست المجالس اليهودية شخصيات يهودية جديدة لم تضطلع بدور القيادة من قبل.

وكان النازيون يحاولون، قدر المستطاع، أن يضموا إلى هذه المجالس العناصر الصهيونية أو اليهودية القومية باعتبارها عناصر حديثة تشاركهم الرؤية في أن أوربا ليست وطن اليهود، وأنه يجب إخلاؤها منهم، وأن كفاح اليهود (باعتبارهم شعباً عضويا) يجب أن ينصرف إلى الهجرة لا إلى المقاومة والثورة. وقد نجحت هذه المجالس في إدارة أمور الجماعات وضمان سكوتها. وكان كثير من الصهاينة أعضاءً في هذه المجالس.

رابطة الثقافة اليهودية

وهي منظمة ألمانية يهودية تأسست في ألمانيا النازية عام ١٩٣٣، بمبادرة من النظام النازي وبعض المثقفين الألمان اليهود ونظراً لنجاح الرابطة، فقد تم في عام ١٩٣٨ تأسيس شبكة قومية من فروع الرابطة في كل أنحاء ألمانيا بلغ عددها ١٦٨ فرعاً، وبلغ عدد الفنانين اليهود التابعين للرابطة حوالي ألفين. وقامت الرابطة بتنظيم ما يقرب من ٨٤٥٧ برنامجاً تشمل محاضرات وحفلات ومسرحيات وعروضاً فنية. وحققت إيراداً بلغ مليوناً وربع مليون مارك. كما كان لها جريدتها الخاصة. وقد شاركت الرابطة بنشاط ملحوظ في الدعاية النازية، سواء في الداخل أم في الخارج. ففي الداخل، قامت الرابطة بزيادة التماسك العضوي والوعي اليهودي بين أعضاء الجماعة اليهودية، الأمر الذي يعني زيادة عزلتهم وإعطاء مصداقية للرؤية النازية لليهود .

أما بالنسبة للخارج، فكانت تعطي صورة مشرفة للحكم النازي في علاقته باليهود وفي سماحه لهم بالإفصاح عن هويتهم العضوية.

ولم يكن سلوك النازيين هذا ينم عن أي تسامح أو اضطهاد، وإنما هو تعبير عن إيمان بأن القومية العضوية تشكل أرضية تفاهم مشتركة بينهم وبين الصهاينة، وهي أرضية لا توجد بينهم وبين أي فريق يهودي آخر.

تيريس آينشتات

" تيريس آينشتات " مدينة في تشيكوسلوفاكيا حولها النازيون إلى مستوطنة نموذجية بين عامي ١٩٤١ و ١٩٤٥ رُحِّل إليها حوالي ١٥٠,٠٠٠ يهودي وقد أدار المستوطنة مجلس من الكبراء يضم القادة اليهود ويترأسه أحد كبراء اليهود كانت تعينه السلطات الألمانية. وتمتعت المستوطنة بحريات كثيرة، حيث كان لها نظامها التعليمي ونظامها البريدي المستقل ومكتباتها وهويتها الثقافية ، كما كان يتبع المستوطنة نظام قضائي مستقل .

وقد رُحِّل حوالي ١٤٠,٩٢٧ يهوديا إلى مستوطنة تيريس آينشتات من بينهم ٣٣,٥٢٩ ماتوا فيها، أي حوالي ٢٥٪، ورُحِّل حوالي ٨٨,١٩٦ إلى معسكرات الاعتقال. وحينما تم تحرير المستوطنة كان يوجد فيها ١٧,٢٤٧ شخصاً.

وتثير هذه المستوطنة الكثير من القضايا:

١- يُلاحَظ اشتراك المجالس اليهودية مع السلطات النازية في كل الأنشطة سواء الإعداد والتخطيط للمستوطنة أو إدارتها ، وهذا التعاون يثير واحدة من أهم القضايا الأساسية في ظاهرة الإبادة النازية لليهود، أي مدى اشتراك قيادات الجماعات اليهودية في عملية الإبادة.

٢- وتثير المستوطنة قضية ترشيد الإبادة، فلم يكن النازيون مجرد جزارين على الطريقة التقليدية، وإنما كانوا يلجئون إلى التخطيط العلمي الدقيق وإلى التفرقة بين اليهود المتميِّزين واليهود العاديين.

٣- ويمكن التساؤل أيضاً عما إذا كان هدف النازيين هو توظيف اليهود أم إبادتهم.

٤- ومن القضايا الأخرى التي تثيرها المستوطنة، عدد اليهود الذين تمت إبادتهم عن طريق أفران الغاز. فالموسوعة اليهودية (جودايكا) تتحدث عن أن ربع سكان هذه المستوطنة المثالية التي تتمتع بظروف خاصة ماتوا بسبب ظروف الحرب، وأنه في أبريل ١٩٤٥ وصل إلى تيريس آينشتات

١٤,٠٠٠ سجين من معسكرات الاعتقال الأخرى، فاجتاحت الأوبئة سكان المستوطنة وهلك منهم ومن المرحلين الجدد الآلاف، واستمرت الأوبئة في حصدهم حتى بعد سقوط النظام النازي. فإذا كانت الأوبئة قد حصدت حياة الألوف قبل و بعد انتهاء الحرب، ألا يثير هذا قضية عدد اليهود الذين أُبيدوا عن طريق أفران الغاز ؟

جماعة شتيرن والنازية

جماعة صهيونية حاولت التعاون مع النظم الشمولية فعقدوا اتفاقاً مع حكومة موسوليني تعترف بمقتضاه الحكومة الفاشية بالدولة الصهيونية على أن يقوم أعضاء شتيرن بالتنسيق مع القوات الإيطالية حين تقوم بغزو فلسطين. ولكن التعاون مع النازيين كان هو الهدف الحقيقي. وبعد الحرب العالمية الثانية اكتُشفت وثيقة أرسلتها جماعة شتيرن للحكومة الألمانية تنص على أن إجلاء الجماهير اليهودية من أوربا هو شرط مسبق لحل المسألة اليهودية. كما تذكر الوثيقة وجود مصالح مشتركة بين النازيين والصهيونية، وتُعبِّر عن تقدير جماعة شتيرن للرايخ الثالث لتشجيعه النشاط الصهيوني داخل ألمانيا وللهجرة الصهيونية إلى فلسطين. وتؤكد الوثيقة ضرورة التعاون بين ألمانيا الجديدة والفولك العبري في المجال السياسي والعسكري. وكان إسحق شامير، رئيس وزراء إسرائيل السابق، عضواً في جماعة شتيرن. وحينما عُيِّن شامير وزيراً للخارجية ثار الرأي العام العالمي بسبب تعيين إرهابي مثله (قام بتدبير عملية اغتيال اللورد موين في القاهرة عام ١٩٤٢ والكونت فولك برنادوت عام ١٩٤٨) ولكن أحداً لم يتطرق إلى ماضيه النازي !!

" عصبة الأشداء "

جماعة صهيونية كان معظم مؤسسيها أعضاء في منظمات صهيونية عمالية ثم استقالوا منها. وقد تبنت الجماعة صياغة صهيونية لا تُخْفِي إعجابها بالفكر النازي. وكانت مجلة عصبة الأشداء في فلسطين تزخر بالمقالات التي تمجد هتلر والهتلرية. وكان من بين هتافات أعضاء العصبة «ألمانيا لهتلر، وإيطاليا

لموسوليني، وفلسطين لجابوتنسكي (زعيم الصهيونية التصحيحية)». كما مجَّد أعضاء الجمعية الجوانب العسكرية في تاريخ العبرانيين، وكان أتباع الجمعية يرون أن الاغتيال السياسي ليس جريمة وإنما هو فعل ذو هدف ومعنى، وأن الدم والحديد هما الطريق الوحيد للتحرر. وكما قال آبا أحيمئير (١٨٩٨ ـ ١٩٦٢) مؤسس الجماعة : " إن "الماشيَّح لن يأتي راكباً على حمار"، وهو ما يعني أن الماشيَّح الصهيوني سيأتي راكباً دبابة، حاملاً القنابل العنقودية! ورغم أن جابوتنسكي كان يحاول أحياناً أن يحتفظ بمسافة بينه وبين أعضاء الجمعية، إلا أنه كان يُعبِّر في خطاباته عن إعجابه بهم وتعاطفه معهم. ولم يتخذ أي إجراء تنظيمي ضدهم وتذكر موسوعة الصهيونية وإسرائيل أن مناحيم بيجين انضم إلى الجناح الراديكالي لحركة التصحيحيين الذي كان مرتبطاً بعصبة الأشداء وقد استمرت العلاقة بين بيجين وأحميئير حتى بعد إعلان الدولة، فسمح بيجين، باعتباره رئيس حزب حيروت، بأن يكتب أحميئير في الجريدة اليومية للحزب، إلى أن مات عام ,١٩٦٢ "

جرائم اليهود الصهاينة في حق اليهود

لقد ارتكب اليهود الصهيونية أبشع الجرائم في حق اليهود أنفسهم فقد كان حرصهم على إقامة دولة إسرائيل أهم عندهم من إنقاذ يهود أوربا من الإبادة كما أشرنا ، لكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد بل وصل باليهود الصهاينة إلى قتل أعداد كبيرة من اليهود من أجل مشروعهم القومي ففي عام ١٩٤١ ومن أجل إثارة السخط على الإنجليز الذين كانوا قد قرروا إنقاذ اليهود المهددين من هتلر وذلك باستضافتهم في جزيرة موريشيس فإن الباخرة التي كانت تقلهم وهي ناقلة البضائع الفرنسية " باتريا " وعند توقفها في ميناء حيفا يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٤٠ لم يتردد الزعماء الصهاينة من جماعة الهاجاناه (وكان رئيسهم بن جوريون) في تفجيرها مما أدى إلى وفاة ٢٥٢ يهوديا وأفراد طاقم الباخرة الإنجليز .

ومثال آخر وقع في العراق ، فقد كانت الطائفة اليهودية (١١٠,٠٠٠ شخص في ١٩٤٨) متأصلة في العراق ، وأعلن حاخام العراق الأكبر خدوري ساسون : "

لقد تمتع اليهود والعرب بنفس الحقوق الامتيازات منذ ألف سنة ولم يعتبروا أنفسهم عناصر غريبة أو منفصلة عن هذا البلد " .

ثم بدأت التصرفات الإرهابية الإسرائيلية ، في عام ١٩٥٠ في بغداد وأمام إحجام اليهود العراقيين وترددهم في تسجيل أنفسهم على قوائم الهجرة إلى إسرائيل ، ولم تتردد الأجهزة السرية الإسرائيلية ومن أجل إقناعهم بأنهم في خطر بإلقاء القنابل عليهم ، وقَتَل الهجوم على معبد " شيم توف " ثلاثة أشخاص وجرح العشرات وهكذا بدأ الخروج المسمى " عملية علي بابا "[(١)].

وكان الهدف المنشود هو تجميع اليهود في جيتو علمي ، لكن العودة لم تتم إلا بتخويف اليهود من التعرض لخطر أعداء السامية في البلدان الأجنبية .

الصهيونية والحروب العربية

لقد استغل زعماء الصهيونية جرائم القتل التي حدثت لليهود والتي شاركوا في بعضها بالتعاون مع النازيين أو قاموا هم أنفسهم بها من أجل تخويف اليهود وخاصة الأغنياء والعلماء والشباب إلى الهجرة إلى فلسطين عندما لاحظوا إحجامهم عن ذلك ، كما استغلوها في ابتزاز من قاموا بهذه الجرائم ماديا وسياسيا .

ولكي يعمل زعماء دولة إسرائيل على التأليف بين هؤلاء المهاجرين أو المهجرين الذين ينتمون إلى حوالي ١٠٠ جنسية مختلفة فإنهم عمدوا إلى إثارة الحروب مع العرب من أجل هدفين :

١- توحيد هذه الجماعات المتباينة دينيا وثقافيا وجنسيا تحت شعار إما أن تتحدوا وإما أن يبيدكم العرب بقيادة عبد الناصر أو صدام حسين أو أحمدي نجاد أو أسامة بن لادن أو حسن نصر الله أو قادة حماس ...

---

(١) جريدة اديعوت أحروذوت الإسرائيلية في أغسطس ١٩٧٧، نقلا عن «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» مرجع سابق.

٢- التوسع على حساب البلاد العربية وتحقيق أسطورة أرض إسرائيل من النيل للفرات .

وكما أن العرب يدفعون ثمن هذه السياسة النازية التي نهجها زعماء إسرائيل فإن اليهود يدفعون الثمن كذلك ، فكثيرة هي دماء اليهود الإسرائيليين التي تراق دون سبب إلا طموحات زعماء إسرائيل العدوانية التوسعية .

فخمسة حروب من الحروب الستة التي جرت بين دولة إسرائيل والدول العربية كانت حروبا عدوانية شنها زعماء إسرائيل النازيين ضد العرب المسالمين ، فقادة العرب بعد حرب ٤٨ لم يفكر أحد منهم في الاعتداء على إسرائيل ، وعبد الناصر (الذي كان يدعوه الصهاينة النازي الجديد) لم يكن عدوا حقيقيا لإسرائيل فلقد اعترف في وقت مبكر جدا (في مؤتمر باندونج ١٩٥٥) بقرارات الأمم المتحدة عامي : ١٩٤٧ ، ١٩٤٨ بشأن تقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية ، و لم يقم بأي إجراء عسكري ضد إسرائيل رغم الاستفزازات الإسرائيلية المتكررة ، التي وصلت لاحتلال منطقة " العوجا " و" الكونتيلا " المصريتين ووصل عدد القتلى من جراء هذه الغارات إلى نحو ١٥٠ قتيلا غير مئات الجرحى .

كما أنه لم يسعَ ليشن حربا هجومية وقائية واحدة ضد إسرائيل رغم علمه يقينا بعزم إسرائيل على شن حرب وشيكة على مصر (حدث هذا في ٥٦ ، ٦٧)، وبعد جلاء العدوان الثلاثي وتوقيع اتفاقيته تأكد اعتراف عبد الناصر الرسمي بإسرائيل وبحقها في الوجود ، وبحرية الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة ، وأصبح مسألة مرور السفن رافعة العلم الإسرائيلي في خليج العقبة أمرا واقعا ، كما سمح بقوة الطوارئ الدولية أن ترابط في شرم الشيخ وقطاع غزة ، وعليه فإن عبد الناصر لم يطلق رصاصة واحدة نحو إسرائيل لمدة إحدى عشرة سنة.

(من ٥٦ - ٦٧).

وبعد هزيمة ٦٧ أعلن قبوله لقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، ولمشروع روجرز

وزير الخارجية الأمريكية ، اللذين يعدان أساساً لمعاهدة السلام التي وقعها السادات مع الإسرائيليين عام ١٩٧٩، وتاريخ عبد الناصر يؤكد مهادنته لإسرائيل(١).

الصهيونية العالمية ودعم المتطرفين

تلجأ الصهيونية العالمية الآن إلى حيلة ذكية ، وهي دعم خفي للنُّظُم والجماعات المعروفة بممانعتها تجاه أمريكا وإسرائيل والتي تتبنى الخيار العسكري كحل وحيد للصراع العربي الصهيوني ومحاولة إظهار أصوات القادة العرب المعتدلة بمظهر الجبن والخيانة للقضايا العربية وهذا الدعم الخفي للجماعات والنُّظُم المانعة تجاه أمريكا وإسرائيل له هدفان:

١- تمزيق الوحدة الوطنية، وإشعال الحروب الأهلية كما حدث مع حماس وفتح، وحزب الله وكتلة ١٤ آزار، والشيعة والسنة في العراق.

٢- اتخاذ مواقف المانعين ذريعة للعدوان العسكري ، أو الحصار الاقتصادي، أو العزل السياسي ، أو الدعم اللا محدود للسياسة الصهيونية في المنطقة كما حدث هذا في الحرب الأمريكية / العراقية ، الإسرائيلية / اللبنانية، والحصار الاقتصادي المضروب على الفلسطينيين ، والعزلة الدولية المضروبة على سوريا وإيران .

والمدهش حقا أن تقوم بهذا الدعم نيابة عن أمريكا وإسرائيل قناة فضائية كبرى تُبَث من الدولة العربية التي بها أكبر قاعدة أمريكية توجه منها أمريكا ضرباتها ضد أعدائها من العرب!!



(١) لمزيد من التفصيل حول علاقة عبد الناصر بإسرائيل انظر كتابنا «دروس سياسية من التجربة الناصرية».

4

الباب الثاني

الفصل الرابع

أسطورة الملايين الستة (الهولوكوست)

الباب الثاني

الفصل الرابع

أسطورة الملايين الستة (الهولوكوست)

□□

من الأساطير السياسية التي تروج لها الصهيونية أسطورة «الستة الملايين» يهودي الذين يُفترض أن النازيين قاموا بإبادتهم، ولقد تحول هذا الرقم - بسبب الدعاية الصهيونية الجبارة - إلى رقم سحري، وإلى عقيدة لا تقبل الشك . وإذا ناقش أحد مصداقية هذا الرقم، فإنه يُتهم فوراً بانتهاك الحرمات وإنكار الهولوكوست ! رغم أن اليهود الصهاينة كانوا حلفاء للنازيين ، ويتحملون جانبا كبيرا من مسئولية هذه الجريمة كما بينا في الفصل السابق .

إن إنكار الإبادة مصطلح يتواتر الآن في الصحف الغربية وفي بعض الأدبيات الخاصة بالإبادة النازية لليهود، وهو يشير إلى أي كتاب أو مؤلف تجرًّا صاحبه وكتب دراسة (علمية أو غير علمية) تطعن فيما ذهبت إليه الدعاية الصهيونية من أن عدد ضحايا النازية من اليهود يبلغ ستة ملايين، أو تثير الشكوك بخصوص أفران الغاز .

قصة " الهولوكوست " حسب الرؤية الرسمية للدولة الصهيونية :

" لقد كانت المحرقة (كارثة يهود أوروبا في الحرب العالمية الثانية) محاولة متعمدة ومنتظمة لإبادة الشعب اليهودي كله. وتدنس محاولات عصرية لإنكار

حقيقة وقوع هذه الكارثة أو حتى للتقليل منها، بالرغم من حجمها الهائل، ذكرى ملايين الضحايا.

في عام ١٩٣٣ تولى أدولف هتلر السلطة في ألمانيا وأسس نظام حكم عنصريا كان اليهود يُعتبرون فيه أشخاصًا من أدنى درجة ليسوا جزءًا من الجنس البشري.

وبعد أن بادرت ألمانيا إلى نشوب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ بدأ هتلر يطبق خطة "الحل النهائي" لإبادة الشعب اليهودي. وقد جمعت قواته اليهود في جيتوهات وأنشأت مخيمات العمل، والتجميع، والإبادة حيث أرسل اليهود إليها. وتمت إبادة الملايين من اليهود، بينما مات معظم اليهود الذين نجوا من الإبادة من التجويع المتعمد والأمراض. وكان هتلر ينوي مسح وجود أي يهودي عن خريطة العالم.

وأباد النازيون، خلال السنوات الست من الحرب ٦,٠٠٠,٠٠٠ يهودي، ومن ضمنهم ١,٥٠٠,٠٠٠ طفل. مما أسفر عن إبادة ثلث من أبناء الشعب اليهودي في العالم. إن هذه العملية لإبادة شعب لم يكن لها مثيل من ناحية حجمها، وإدارتها وتنفيذها. وكانت تقصد إبادة أبناء شعب بكامله، أينما تواجدوا، وذلك فقط لأنهم ولدوا يهودا. ولهذه الأسباب سميت هذه الأحداث بالكارثة.

والآن، بعد ستين عامًا تقريبًا، ينكر لا ساميون كثيرون حقيقة حدوث هذه المحرقة، أو يحاولون تقزيم هذه الكارثة مدعين بأن حجمها كان أقل بقليل. ويريد بعض العنصريين تبرئة النازيين من هذه الجريمة الفظيعة. ويعتقد الآخرون بأن إقامة دولة إسرائيل كان بمثابة تعويض لليهود على المحرقة. وعند إنكارهم لحدوث المحرقة، يريد المنكرون حرمان إسرائيل من حق وجودها. لهذا السبب يجد منكرو المحرقة الكثير من التأييد في الدول العربية. وقد أيد بعض الزعماء العرب أثناء الحرب العالمية الثانية الخطط النازية لإبادة اليهود، وقد سُمعت بعض الأصوات العربية التي شكت من أن هتلر "لم يكمل عمله".

وفي السنوات الأخيرة ظهر بُعد جديد لهذه الظاهرة. فإن أشخاصًا أشرارًا معادين لإسرائيل من يمين ويسار الخريطة السياسية، كثيرًا ما يقارنون الإسرائيليين بالنازيين والفلسطينيين باليهود. وذلك ليس افتراء دم ممقوتًا فحسب يهدف إلى سحب الشرعية من وجود إسرائيل، بل إنه محاولة للتقليل من المحرقة. وبمقارنة هاتين الحالتين، اللتين لا قاسم مشترك لهما على الإطلاق، يتم شجب إسرائيل وفي نفس الوقت التقليل من معاناة ضحايا المحرقة .

ويعتبر إنكار المحرقة، على جميع أشكاله، أمرًا مستنكرًا لن يمكن التسامح معه. ولن يمكننا ضمان عدم حدوث كارثة أخرى مثلها في المستقبل، لليهود أو لأي شعب آخر على الأرض، إلا إذا تذكرنا ووثقنا وخلدنا المحرقة[1]

وإليكم رد فعل اليهود إزاء الهولوكوست كما ذكره علماؤهم " لقد ردَّ اليهود آنذاك وفي الوقت الحالي بطرق مختلفة. فقد تخلى بعضهم عن أي التزام ديني مؤكدين أن تدمير يهود أوروبا يثبت أن الله قد تخلى عن الشعب اليهودي. وفي المقابل فإن الآخرين أكثر تدينا والتزاما نتيجة فظائع الهولوكوست. وبالعبارات العَلمانية، فإن تذكر الفظاعة عمل على تعزيز معنى الشعب بين اليهود، ويؤكد دعمهم العام تقريبا لدولة إسرائيل آمنة.

ولقد اختلفت ردود الفعل اليهودية أيضا على الهولوكوست فيما يتعلق بعلاقاتهم مع العالم غير اليهودي. صمم بعضهم على المثابرة في العمل لمنع إلى الأبد توجيه الكراهية والعنف مرة أخرى إلى أي جماعة إنسانية. ويرون أنه بما أن اليهود كانوا ضحايا لأفظع جريمة لا سابق لها في التاريخ فإن عليهم المسؤولية الرهيبة للمساعدة على ضمان أن لا يقع مثل ذلك الفعل أبدا مرة أخرى .

وكانت ردة فعل أخرى على الهولوكوست هي الانكماش والابتعاد عن العالم، والتركيز فقط على البقاء اليهودي. يحتج رواد هذه النظرة بأن اليهود ليسوا

(١) نقلا عن موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية.

مدينين للعالم بأي شيء كضحايا أبرياء لأفظع جريمة في التاريخ البشري، وكضحايا لما يتعذر وصفه من المآسي المروعة والبشعة التي أنزلتها بهم بعض أمم العالم في حين وقف آخرون غير مبالين.

وفي ردة فعل ثالثة لا ترى أي صراع بين الإنعاش القومي اليهودي بعد الكارثة وبين الواجب الإنساني العام، يرى كثير من اليهود زعماء عرب فلسطين في الثلاثينات والأربعينيات من القرن الماضي مذنبين بالتواطؤ في الهولوكوست. لقد تعاون ، مثلا، المفتي الحاج أمين الحسيني زعيم القومية العربية في فلسطين مدة طويلة، مع ألمانيا النازية كأحد دعاتها الرئيسين للعرب. فقد جند ونظم المتطوعين المسلمين للقضية النازية بدعم ومساعدة البرنامج النازي لإبادة الشعب اليهودي. فلهذا، فإن الفلسطينيين والمسلمين لا يستطيعون الادعاء أن لا دخل لهم بالهولوكوست بحسب هذا الموقف.

لقد أسدلت الهولوكوست نوعا من الظلام على العلاقات بين اليهود والعرب، لأن اليهود يميلون إلى رؤية العرب كمجموعة أخرى مثل غيرها التي وقفت تتفرج، وسمحت بتدمير اليهودية الأوروبية. وبالعكس فإن العرب يميلون إلى اعتبار أنفسهم أبرياء من الهولوكوست ويعتقدون أنها ظاهرة أوروبية محضة، واليوم يميل بعض العرب إلى القول بأن الهولوكوست لم تحدث أصلاً وأنها مجرد دعاية يهودية لتبرير احتلال فلسطين. يشكك اليهود أحيانا في موقف الإسلام نظرا لموقف الحسيني مفتي الإسلام بجانب زعماء الإسلام الآخرين الذين وافقوا أو تعاونوا أحيانا مع ألمانيا النازية وخططها في الشرق الأوسط. ومن جهة أخرى ، فإن المسلمين ينظرون إلى الهولوكوست كظاهرة أوروبية ومسيحية، وليس لهم أي ارتباط بها على الإطلاق. ومن وجهة نظرهم ، فإن الفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل وفلسطين، وفوقهم أولئك الذين استبعدوا من المنطقة، قد أرغموا على تحمل عقاب الجرائم التي اقترفها الأوروبيون والمسيحيون ضد اليهود. إن

ألم الوقوع كضحية، وألم الاتهام واللؤم عميق، ومن الصعوبة بمكان نسيانه. إن بالإمكان تجاوز هذا الموقف جزئيا عن طريق حوار صادق ومناقشة صريحة، لكن الناس يستطيعون ومن الواجب عليهم، أن يتعلموا أن يعيشوا مع بعضهم حتى إذا تعذر وجود تفاهم كامل بينهم .

لقد تم تفسير بشاعة الهولوكوست من قبل بعض مناهضي الصهيونية من اليهود الأرثوذكس كعقاب شديد على محاولة لَيِّ الذراع مع الله (استباق الأحداث). لكن بالنسبة لمعظم الآخرين، سواء من الأرثوذكس أو المحافظين ، أو الإصلاحيين أو العلمانيين فإن الهولوكوست أثبتت إيمانهم أن دولة يهودية فقط هي التي تستطيع أن تحمي يهود العالم من أي كارثة مستقبلية "

ونحن ووفقا لاقتراح المفكرين اليهود سنحاول مناقشة موضوع الهولوكوست عن طريق الحوار الهادئ والمناقشة الصريحة . ونبدأ المناقشة بتحرير المصطلحات الخاصة بالموضوع والتي ورد ذكرها في الادعاءات الصهيونية وهي ثلاثة مصطلحات : " الهولوكوست " و " الإبادة الجماعية " و " الحل النهائي " .

تحرير مصطلح " الهولوكوست "

يُشار إلى ما فعله هتلر باليهود عن طريق تصفيتهم جسديًا (من خلال أفران الغاز) في معظم الأحيان بكلمة " هولوكوست " وهي كلمة يونانية تعني " حرق القربان بالكامل " (وتُترجم إلى العبرية بكلمة " شواه " ، وتُترجم إلى العربية أحياناً بكلمة " المحرقة ") .

وكانت كلمة " هولوكوست " في الأصل مصطلحاً دينيّا يهوديّا يشير إلى القربان الذي يُضحَّى به للرب، فلا يُشوى فقط بل يُحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح ، ولا يُترك أي جزء منه لمن قدَّم القربان أو للكهنة الذين كانوا يتعيشون على القرابين المقدمة للرب . ولذلك كان الهولوكوست يُعَدُّ من أكثر

الطقوس قداسة، وكان يُقدَّم تكفيراً عن جريمة الكبرياء . ومن ناحية أخرى ، كان الهولوكوست هو القربان الوحيد الذي يمكن للأغيار أن يُقدِّموه .

ومن العسير معرفة سر اختيار هذا المصطلح، ولكن يمكننا أن نقول إن المقصود عموماً هو تشبيه " الشعب اليهودي " بالقربان المحروق أو المشوي وأنه حُرق لأنه أكثر الشعوب قداسة !!

ويتم في الوقت الحاضر الاتجار بالهولوكوست وتوظيفها بشكل ممجوج لخدمة الأهداف الصهيونية والتجارية. وقد ظهرت مجموعة من المصطلحات المشتقة من كلمة « هولوكوست» والتي تُعبِّر عن الاستياء العميق من عملية التوظيف هذه. بمعنى توظيف الهولوكوست تجارياً لتحقيق الأرباح العالية. ومن العبارات الأخرى المتواترة عبارة " هولوكوست مانيا " أي " الانشغال الجنوني أو المرضي بالإبادة»[1].

تحرير مصطلح " الإبادة الجماعية "

يُطلَق مصطلح «إبادة اليهود» في الخطاب السياسي الغربي على محاولة النازيين التخلص من أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا وفي البلاد الأوربية (التي وقعت في دائرة نفوذ الألمان) ولعبارة " الإبادة الجماعية " معنى محدد من واقع أصل الكلمة نفسها وهو إبادة جنس ما ، وذلك بافتراض وجود جنس يهودي كما تدعي العنصرية الهتلرية ، وكما يؤكد اليهود الصهاينة .

ولكن هل كانت هناك أثناء الحرب العالمية الثانية " إبادة جماعية لليهود " ؟

إن لعبارة الإبادة الجماعية معنى محددا في جميع القواميس فقاموس لاروس على سبيل المثال يعطي هذا التعريف : " الإبادة الجماعية هي الإبادة المنظمة لمجموعة عرقية بالقضاء على أفرادها " .

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود والصهيونية» م٢/ج٤ «الإبادة النازية والحضارة الغربية الحديثة» مرجع سابق.

ولا ينطبق هذا التعريف حرفيا إلا على غزو يشوع لأرض كنعان حيث جاء في سفر العدد أنه بالنسبة لكل مدينة دخلها شعب إسرائيل " لم يبق بها شريد (أي إنسان حي) " (العدد ٢١:٣٥).

وعلى ذلك فقد استخدمت العبارة أثناء محاكمات نورمبرج بطريقة خاطئة تماما لأن الأمر لا يتعلق بإفناء شعب بأكمله والقضاء عليه كما هو الحال بالنسبة للإبادة المقدسة للعمالقة والكنعانيين وغيرهم من الشعوب الأخرى التي تحدث عنها سفر يشوع بأنها حدثت في عجلون وحبرون : " ولم يبق منهم باقيا " (يشوع ١٠ : ٢٨) أو في حاصور : " وأما الرجال فضربوهم جميعا بحد السيف حتى أفنوهم ولم يبقوا نسمة "(يشوع ١١:١٤) [١].

هل أباد يشوع كل الكنعانيين ؟

وبالقطع فإنه لم يحدث إبادة شاملة لكل الكنعانيين كما تحاول توراة اليهود أن توهمنا ، فيشوع لم يَغْزُ كل أرض كنعان ، ولكنه غزا بعضها فقط ، وعلى فرض أن يشوع أباد كل الكنعانيين في البلاد التي غزاها ، فإن ذلك لم يحدث إلا في مدينتين أو ثلاث على الأكثر من مدن الكنعانيين ، والتاريخ يقول إن وسائل القتال على عهد يشوع لا تُمَكِّنه من إبادة سكان كل مدينة يدخلها .

لكن السؤال هنا لماذا توراة اليهود تؤكد على إبادة يشوع للكنعانيين رغم ما في هذا من مجافاة للأخلاق الإنسانية الكريمة ، وللتاريخ الإنساني الصحيح ؟

تهدف الصهيونية من وراء ذلك إلى :

١- التأكيد على فناء الكنعانيين أصحاب فلسطين الأصليين عن آخرهم وبالتالي لا يكون هناك حق لأي عربي في فلسطين .

" مارس الرومان نوعا من "التطهير العرقي" من أجل إبعاد اليهود عن القدس

(١) رجاء جارودي «الأساطير للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٣٩ .

عاصمتهم المركزية، وكانوا مصممين على منع وقوع مزيد من الثورات اليهودية إلى درجة أنهم تخلوا عن تسمية المنطقة يهودا، وذلك من أجل فصلها عن اليهود تماما. غيَّر الرومان اسم يهودا إلى اسم "فلسطين" المأخوذ من اسم الشعب القديم البائد المعروف بالفلسطينيين[1].

٢- اتخاذ الصهيونية من إبادة يشوع للكنعانيين ذريعة دينية لممارسة كافة أشكال المذابح العنصرية ضد العرب . معتبرة أن المجازر التي ترتكبها في حق العرب جهاد مقدس مارسه سلفهم الصالح !!

تحرير مصطلح " الحل النهائي "

تُستخدَم عبارة «الحل النهائي» للإشارة إلى «المخطط الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادتهم ، أي تصفيتهم جسديًا . وتزعم الأدبيات الصهيونية ترادف عبارة «الحل النهائي» مع عبارة «الإبادة كتصفية جسدية» ، وهو ترادف ينكره رجاء جارودي، وغيره من الدارسين، للأسباب التالية:

١ ـ كان النازيون يتحركون في إطار الحل الإمبريالي للمسألة اليهودية وهو تصديرها للخارج. وقد بيَّن هتلر أنه يميِّز بين معاداة اليهود العاطفية ومعاداة اليهود المنهجية، فالأولى تنتهي بالمجازر، أما الثانية فتنتهي بتهجير (ترانسفير) اليهود. وقد حدد هتلر مشروعه بالنسبة لليهود باعتباره عملية تهجير. وفي رده على سؤال وُجه إليه في اجتماع عام بشأن حقوق اليهود الإنسانية، قال : " ليبحث اليهودي عن حقوقه الإنسانية في دولته فلسطين " .

---

(١) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت والحاخام جيمز أ. رودين. وآخرون «ذرية إبراهيم» مرجع سابق ص ٥١.

فالحل النهائي إذن يكمن في تفريغ أوربا من اليهود والإمعان في إقصائهم بعيدا حتى تسمح الحرب بوضعهم داخل جيتو خارج أوروبا (كمشروع مدغشقر)[1].

٢. طبق النازيون هذه الرؤية الإمبريالية (الصهيونية) على اليهود، ولذا بدأ الحل النهائي بتهجير اليهود من أصل بولندي إلى بولندا، ولكن الحدود أُوصدت دونهم. ثم طرح النازيون مشاريع صهيونية عديدة تهدف إلى توطين اليهود وتأسيس وطن قومي لهم في أي مكان خارج أوربا (إكوادور . سوريا . مدغشقر) .

وقد تعاون النازيون مع الصهاينة انطلاقاً من قبول هذا الحل الصهيوني النازي للمسألة اليهودية فتم توقيع معاهدة الهعفراة للمساعدة في تهجير اليهود إلى فلسطين. وحقق النازيون بعض النجاح في هذا المضمار إذ بلغ عدد اليهود الذين هاجروا من ألمانيا وحدها حوالي ١٥٠ ألفا (بين ١٩٣٣- ١٩٣٨) وهي نسبة مئوية عالية. وظل النازيون يدافعون عن فكرة تهجير اليهود، وكانوا لا يكفون عن الشكوى من أن سيل الهجرة لم يكن سريعاً بما فيه الكفاية، ومن أن الدول الغربية توصد أبوابها في وجه المهاجرين اليهود .

وفي السنين الأخيرة للحرب، بعد مؤتمر فانسي (يناير ١٩٤٢) وبعد وقوع مساحات شاسعة من الأرض السوفيتية البولندية في أيدي النازيين، بدأت فكرة توطين اليهود فيها تراود النازيين («ترحيل اليهود إلى الشرق» في المصطلح النازي). وقد جاء في مذكرة رسمية بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٤٢ صادرة من وزارة الخارجية الألمانية ما يلي: » إن الحرب ضد الاتحاد السوفيتي وفرت لنا أراضيَ جديدة لتنفيذ الحل النهائي. وقد قرر الفوهرر (لقب هتلر) انه بدلاً من إرسال اليهود إلى مدغشقر فسيقوم بإرسالهم إلى الشرق. ولذا ليس هناك ما يدعو إلى التفكير في مدغشقر باعتبارها الحل النهائي " .

(١) رجاء جارودي «الأساطير للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٣٩.

وكل هذا يعني في واقع الأمر أن الحل النهائي هو حل صهيوني إقليمي، يعني التخلص من اليهود عن طريق ترحيلهم من مكان لآخر، تماماً كما فعلت الحضارة الغربية مع اليهود حيث نقلتهم إلى فلسطين، وكما فعل الصهاينة مع الفلسطينيين بنقلهم منها.

٣- كان النازيون في حاجة ماسة للأيدي العاملة، فلماذا تُضيِّع آلة الحرب النازية وقتها في إبادة الملايين بدلاً من توظيفهم في أعمال السخرة ؟ ومن الواضح أن النازيين كانوا أكثر رشداً ونفعية مما يتصوره الدارسون الصهاينة. فكانوا يزيدون من عدد العمال الذين يعملون نظير دولار واحد في اليوم للاستفادة من العمالة الرخيصة .

وقد أرسل هتلر مذكرة إلى أحد رؤساء معسكرات الإبادة (بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٤٢) يخبره فيها أن يستعد لاستقبال ٢٠٠ ألف يهودي حيث ستسند للمعسكر مهام اقتصادية مهمة. وفي مايو ١٩٤٤ أصدر هتلر أمراً باستخدام ٢٠٠ ألف يهودي كعمال في أحد المشاريع الإنسانية. وقد أصدرت قيادة الإس. إس أمراً بمنح مكافأة لكل السجناء (ومنهم اليهود) الذين أبلوا بلاءً حسناً في العمل. كما وفرت المؤسسات النازية لهؤلاء العاملين كل الأنشطة الترفيهية، وضمنها بيت دعارة، لزيادة الإنتاجية !! (كذا).

٤- حينما يَرِد لفظ «الإبادة» في نصوص نازية فإنه لم يكن يعني دائماً «التصفية الجسدية»، ففي ٢٦ مارس ١٩٤١ في حفل افتتاح معهد فرانكفورت لدراسة المسألة اليهودية أشار أحد المتحدثين إلى الإبادة باعتبارها الحل الشامل للمسألة اليهودية وعُرِّف هذا الحل بأنه " أن يترك اليهود أوربا " . وقد أفاض المتحدث وقال إنه يمكن أن يترك اليهود أوربا عن طريق وضعهم في معسكرات عمل في بولندا (حيث يتم إفقارهم) أو في مستعمرة. ولعل تجربتيْ : جيتو وارسو ، وتيرس آينشتات (وغيرهما من التجارب) قد تمتا في هذا الإطار.

٥- لوحظ أثناء محاكمات نورمبرج أن المدَّعين الذين مثَّلوا الحلفاء كانوا يحاولون قصارى جهدهم أن يلووا عنق بعض الكلمات الألمانية ليترجموها بكلمة «إبادة». فكلمة "أوسروتونج" على سبيل المثال، والتي تعني «استئصال شأفة» شيء ما بأية طريقة فعلية أو مجازية تُرجمت إلى «إبادة» بمعنى «تصفية جسدية متعمدة»، مع أن النازيين استخدموا في إحدى وثائقهم عبارة «استئصال شأفة المسيحية»، ولم يُفسِّر أحد هذه العبارة باعتبارها مخططاً نازياً لإبادة المسيحيين.

٦ ـ ما تهمله كثير من الدراسات الغربية هو ما يمكن تسميته «الاختفاء»، أي اختفاء أعداد كبيرة من اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط والموت بسبب الغازات والأوبئة أثناء الحرب.

لكل هذا فعبارة «الحل النهائي» تعني ما تقول دون زيادة أو نقصان، ومن ثم فهي لا تعني بالضرورة «تصفية جسدية متعمدة»، وقد تعني «تصفية من خلال التهجير وأعمال السخرة"(١)

وبعد تحرير المصطلحات الثلاثة (الهولوكوست ، والإبادة الجماعية ، والحل النهائي المرادف للتصفية الجسدية المتعمدة) يتبين لنا أنها جميعا لا تصلح وصفا لما فعله هتلر مع اليهود .إنما هي من قبيل الدعاية التي يستخدمها الإعلام الصهيوني للتهويل والإثارة .

نأتي إلى زعم آخر ادعته الأدبيات الصهيونية وهو " أن اليهود كانوا ضحايا لأفظع جريمة لا سابق لها في التاريخ " أي أن ما فعله هتلر باليهود لم تتعرض له جماعة قط طوال التاريخ .

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول إبادة الرجوع إلى رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» الفصل الخاص بأسطورة عدالة نورمبرج. د. عبد الوهاب المسيري موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» م٢/ج٤ «بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوروبا».

وهذا ادعـاء تكذبه توراة اليـهـود التي نصت على إبادة يوشع لمدن كـاملة كمـا سبق ذكره ولـن نذهب بعيدا فقط سنكتفي بذكـر أشهـر الجـرائم التي وقعت في العصـر الحديث لنبين إلى أي مدى تزيف الدعاية الصهيونية الحقائق .

ضحايا الحرب العالمية الثانية

في البـداية لا بد من الاعتـراف بـأن جـريمة النازيين فـي حق اليهـود وغـيـرهم ثابتة لا ينكرها إلا معاند ، ولكن السؤال ، ماذا عن الحساب الختامي لمجازر هتلر في حق اليهود ؟

لقـد خلَّفت الحـرب العـالميـة الثـانيـة ٦٠ مليـونا من الموتى منهم ١٧ مليـونا من السـوفـيـيت ، و٩ مـلايين مـن الألمان . وكـذلك مـلايين الجنود من أفـريقـيا وآسـيا دفعوا ثمنا باهظا بموت عدد كبير منهم .

وعلى ذلك فإن الهيـمنة الهتلرية لم تكن كما شـاعت بعض ألوان الدعـاية حكرا على اليـهـود وحـدهم ، أو أنهم كانوا الـضحـايا الرئيـسـيين ، فـقـد كـانت الحـرب العـالميـة الثـانيـة كارثة بشـرية لا مـثـيل لها للأسف الشـديد . لأن هتلر طَبَّق على البيض (سكان أوروبا) ما طبـقه الاستعمـاريون الأوربيون منذ خمسة قـرون على المُلَوَّنِين .

نَسَى اليهود أو تناسوا أن حرب هتلر قد كلفت العالِم ستين مليونًا من الموتى، وحفِظوا الرقم على أنه ستة مـلايِين من اليهود ، ثم أعلنوا أن هذِهِ "أعظم أَحْدَاث الإبادة فِي التـاريخ" ! إن هذا يُثِيـر قـضِيـة العـالَم كله: قـضِيـة الأمـريكان الذِين اِرتكبـوا مذابح أكبـر مِن هذِهِ وأبشع، لأكثـر مِن عشرين مليونًا من الهنود، وقـضِيـة الروس الذِين كلَّفتهم حـمـلات التطهِيـر السـتـالينيـة أكثـر من عشـرة مـلايِين من القتلى، وقضِية الاستعماريين الأوربيين: "فرنسيين وإنجليز وغيرهمْ"، وقد أسْفرت عملِيات "نِخاسة السود" على أيديهم عن عدد يتراوح "بين ١٠ ملايِين و٢٠ مليونًا

من العبيد"، نُفوا إلى أمريكا، وكانت الضحايا بنسبة ١٠ قتلى إلى أسير واحد، أي: إنه قُتِلَ فِي هذِهِ العملِيات ما بين مائة ومائتي مليون من السود.

إن "أكبر مذبحة فِي التاريخ" سَمَحَتْ بأن يُلْقَى بسوابقها فِي طَوايا النِّسيان.

فأما الصهاينة فقد كان هذا عندهم حُجَّة إضَافِيَّة تُضفي الشرعِية، لا على وجود دولة إسرائيل فحسب، ولكن كذلِك على أية جرِيمة اغتصاب ترتكِبها فِي المستقبل مهما تكن . "[١].

هدف الغرب من التركيز على الهلوكوست

إن تركيز الغرب على أسطورة الهلوكوست وحدها دون سائر الجرائم التي ارتكبت في حق شعوب أخرى كانت تمويها على حقيقة جرائمهم.

فالحديث عن "أكبر عملية إبادة جماعية في التاريخ " كانت بالنسبة للاستعماريين الغربيين إنزالا للستار على جرائمهم قتل الهنود في أمريكا ، والرقيق السود وبالنسبة لستالين محوا لآثار عمليات القمع الوحشية التي قام بها.

وكانت الغايات من ذلك غايات سياسية وليست غايات حربية.

فقد كتب تشرشل ابتداء ١٩٤٨ في كتابه : الحرب العالمية الثانية (المجلد الرابع) : من الخطأ الافتراضي بأن مصير اليابان قد تقرر بواسطة القنبلة الذرية[٢].

وعبارة " هولوكست " المطبقة على نفس المأساة منذ السبعينيات انطلاقا من كتاب إيلي فينزل " الليل " (١٩٥٨) والتي انتشرت بعد عرض فيلم " الهولوكست" تشي بالرغبة في استغلال الجريمة التي ارتكبت ضد اليهود وجعلها حدثا

---

(١) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثالث، الفصل الثاني: كيف ولدت دولة إسرائيل. مرجع سابق.

(١) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٤١، ١٤٢.

استثنائيا لا مثيل له ولا يمكن مقارنته بقتل الضحايا الآخرين للنازيين ، ولا بأي جريمة أخرى من جرائم التاريخ ، لأن معاناتهم وأمواتهم قد اتخذت طابعا مقدسا ، ومن ثم فإن قاموس " لاروس " يعرف الهولوكست كالآتي : " قربان لدى اليهود ، تحرق فيه الضحية بالنار تماما " .

وبذلك أصبح استشهاد اليهود لا يعادله استشهاد آخر نظرا لطابعه القرباني الذي أدمجهم ضمن المشروع الإلهي على طريقة صلب المسيح في اللاهوت المسيحي ، مفتتحا بذلك عصرا جديدا الأمر الذي أتاح لأحد الحاخامات أن يقول : " إن إنشاء إسرائيل هو رد فعل الرب على الهولوكست " .

ولتبرير الطابع المقدس للهولوكست كان لابد من الإبادة التامة واختراع عمليات التنفيذ ثم الحرق .

ولم يتسن تقديم أي نص يثبت أن " الحل النهائي " للمشكلة اليهودية كان بالنسبة للنازيين هو الإبادة [١].

نأتي بعد ذلك إلى الأسطورة العظيمة وهي إبادة هتلر لستة ملايين يهودي ، فإذا كان هرتزل عندما صاغ الشعارات: "نحن شعب"، "وفلسطين وطننا التاريخي الذي لا يُنْسَى" لم يفعل سوى أن تناول ما أطلق عليه هو نفسه: "الأسطورة العظيمة"[٢] فإن الدولة الصهيونية فعلت الشيء نفسه بإصرارها على رقم الستة ملايين .

هل أباد هتلر ستة ملايين يهودي حقا ؟

ليس الغرض مسك دفاتر حسابية مؤلمة ومفجعة فقتل إنسان بريء واحد سواء أكان يهودياً أم غير يهوديٍّ هو جريمة ضد الإنسانية ولكن إذا ما كان عدد الضحايا لا أهمية له من هذه الناحية ، فلماذا إذن يتمسك الصهاينة منذ ما يزيد على نصف قرن مضى بالرقم الذهبي الستة ملايين الذي أحاطوه بهالة من التقديس رغم ما طرأ عليه من تخفيض بصورة دائمة .

---

(١) نفسه ص ١٤٤.

(٢) رجاء جارودي «الأساطير للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٣٩.

تضارب عدد قتلى اليهود على يد النازيين

لقد تضاربت أرقام ضحايا اليهود على يد النازيين فقد وصل بعضهم بالعدد إلى تسعة ملايين ، وقد نزل البعض بالرقم إلى مليون وربع فقط وإليك أهم هذه الأرقام واسم من قال بها .

(٩) ملايين وفقا لفيلم المخرج الفرنسي آلان رينيه " الليل والضباب " الذي أخرجه عام ١٩٥٥، ومع إنه فيلم رائع ومؤثر .

(٨) ملايين وفقا " لوثائق خدمة تاريخ الحرب " - معسكرات الاعتقال الذي أصدره المكتب الفرنسي للنشر عام ,١٩٤٥ ص ٧

(٤) ملايين طبقا للتقرير السوفيتي الذي جعلت منه محكمة نورمبرج دليل إثبات شرعيّاً وفقا للمادة ٢١ من النظام الأساسي التي تنص على ما يأتي : " تكون للوثائق والتقارير الرسمية للجان التحقيق التابعة لحكومات الحلفاء قوة دليل الإثبات الشرعي " ومع أن هذه المادة نفسها تنص على أن " هذه المحكمة لن تطالب بتقديم الأدلة على الوقائع المعروفة للجميع ، وستعتبرها أدلة مسلم بصحتها " .

(٢) مليون حسب ما جاء في كتاب المؤرخ اليهودي ليون بولياكوف " ترانيم الحقد " ١٩٧٤ . ص ٤٩٨.

(مليون وربع) مليون حسب ما جاء في كتاب المؤرخ اليهودي راءول هيلبرج " تدمير يهود أوروبا " الصادر عام ١٩٨٥ . ص ٨٩٥

والآن وبعد أبحاث تاريخية مطولة قام بها علماء من جنسيات مختلفة أوجز مدير معهد التاريخ المعاصر في باريس السيد فرانسو بيداريدا هذه الأعمال في مقال له صدر بجريدة لموند وعنوانه " تقييم ضحايا أوشفيتز " خلص فيه إلى أن عدد ضحايا معسكر أوشفيتز يتراوح بين ٩٥٠,٠٠٠ على أقل تقدير و ١,٢ مليون على أكثر تقدير[١].

---

(١) رجاء جارودي «فلسطين أرض الرسالات الإلهية» الباب الثاني: من اليهودية إلى القومية الصهيونية. مرجع سابق.

ويمكن كذلك عمل تقييم لعدد الموتى في المعسكرات الأخرى فعلى سبيل المثال، كم كان عدد الموتى في معسكر مجدانيك ؟

- (مليون ونصف) طبقا للوسى داودوفيتش في كتاب " الحرب ضد اليهود " الصادر في عام ١٩٨٧ .
- (٣٠٠,٠٠٠) حسب لياروش وإبرهارد ، ١٩٩١
- (٥٠٠,٠٠٠) حسب راءول هيلبرج .

وهنا يطرح السؤال التالي ألا يخدم الدعاية النازية الحديثة تقديم مثل هذه الحجة : إذا كنتم قد كذبتم بشأن مسألة عدد الضحايا اليهود ، فماذا يمنع أن تكونوا قد بالغتم في جرائم هتلر؟ (١)

تضارب الآراء حول طريقة قتل النازيين اليهود

وكما تضاربت أرقام القتلى من اليهود تضاربت كذلك أساليب قتل اليهود فقد ذكرت بعض المصادر أن وسيلة القتل كانت الرمي بالرصاص ، في حين ذكرت مصادر أخرى أن الوسيلة كانت الصعق بالكهرباء ، ومصادر ثالثة غرف بخار الماء، ورابعة بالغاز .... وهكذا تضاربت المصادر في تحديد سلاح الجريمة ، وبعض وسائل القتل التي ذكرت ثبت بالدليل كذبها مما يثير سحبا من الشك في الوسيلة التي دأبت الدعاية الصهيونية على تأكيدها وهي الإعدام بغاز الزيكلون .

وإليك بعض المصادر التي ذكرت وسيلة قتل اليهود على يد النازيين :

- فالنيويورك تايمز الصادرة في ٣ يونيو ١٩٤٢ تتحدث عن " مبنى للإعدام " كان يُعدم فيها بالرصاص ١٠٠٠ يهودي يوميا .
- وفي ديسمبر ١٩٤٥ أَدْخَل ستيفان زيند اليهود في حوض سباحة ضخم يمر فيه تيار كهربائي ذو ضغط عالٍ لصعقهم ويضيف : " وبهذا فإن مشكلة إعدام ملايين الرجال قد حُلت " .

---

(٢) جريدة لموند الفرنسيةبتاريخ ٢٢ يوليو خ١٩٩٠ نقلا عن جارودي«الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٤٨.

- وثيقة نورمبرج رقم ٣٣١١ المؤرخة في ١٤ ديسمبر ١٩٤٥ تشير إلى ضحايا ماتوا بالأبخرة داخل " غرف بخار الغاز " .
- وبعد شهرين ونصف استبدلت نفس هذه المحكمة بغرف بخار الغاز غرف الغاز !

لكن الصيغتين الشائعتين في التليفزيون والصحافة والكتب المدرسية هما الإعدام بالزيكلون ب من جهة ، والشاحنات المجهزة بمخارج غاز محرك الديزل .

والأمر الذي يؤسف له أن محكمة نورمبرج أو أي محكمة أخرى لم تأمر بإجراء أي معاينة من أجل التحديد النهائي لسلاح الجريمة . حتى لا يثبت خطأ الدعاية الصهيونية في هذا الشأن ، وربما يكون لأول مرة في تاريخ المحاكم أن تتجاهل المحكمة البحث في وسيلة القتل ، وهي أقوى دليل إثبات أو نفي .

الشك في قتل اليهود في غرف الغاز

الفيلم الذي عُرض في نورمبرج أثناء المحاكمة بشأن فظاعات النازي ، أوضح وجود " غرفة غاز " واحدة فقط هي غرفة معسكر داخاو ، وعد ذلك دليل إثبات لوقوع جرائم قتل في غرف الغاز .

وقد نظمت الزيارات للسياح والطلبة إلى هذه الغرفة الواحدة التي استندت عليها محكمة نورمبرج كدليل إثبات قتل اليهود عن طرق غرف الغاز ، وتبين أن هذه الغرفة لم تستعمل أبداً ، حيث توجد اليوم لوحة تذكارية جاء فيها أن أحدا لم يلق فيها حتفه لأنها لم تستعمل أبدا !!

وصدر في ١٩ أغسطس ١٩٦٠ بيان عن مارتي بروزات عضو معهد التاريخ المعاصر في ميونيخ اعترف فيه بأنه لم يحدث أن قتل اليهود أو المعتقلون الآخرون بالغاز في داخاو ، أو بريجن – بيلس أو بوشنفالد .. ولم يبدأ القضاء الجماعي على اليهود بالغاز إلا في ١٩٤١– ١٩٤٢ وقبل كل شيء في الأراضي البولندية المحتلة " .

وبالإضافة إلى عمليات القصف الجوي التي ضربت سكان البلدان المشتركة في الحرب العالمية الثانية والأشغال الشاقة والنقل الدائم في ظروف لا إنسانية

خلفت آلاف الجثث في الطريق . وسوء التغذية ، والأوبئة فهل تحتاج هذه المأساة إلى تضخيم للدلالة على قتل اليهود على أيدي النازي ؟

وهل الحاجة تدعو والحالة هذه إلى الإبقاء بأي ثمن على هالة القداسة للهلولوكست، والتلويح بشبح " غرف الغاز " ؟

قصة محارق الموتى في المدن الأوربية الكبرى

تحاول الدعاية الصهيونية إثبات أن غرف حرق الموتى الموجودة في معظم المدن الأوربية الكبرى لحرق جثث الموتى المصابين بالأوبئة كالتيفوس لمنع انتشار الوباء ، استغلت الصهيونية وجود هذه المحارق في مستعمرات النازيين لإثبات استخدام النازيين لها في حرق اليهود .

ورغم وجود خلط لدى الناس من ذوي النيات الطيبة بين " محارق الموتى " و"غرف الغاز " ووجود عدد هام من هذه المحارق في المعسكرات الهتلرية لوقف انتشار وباء التيفوس ، فإن هذه المحارق ليست بالحجة الكافية ، فهذه المحارق موجودة في المدن الكبرى كباريس (بيرلاشيز) ولندن وفي كل العواصم الهامة وحرق الموتى لا يعني بالطبع الرغبة في إبادة السكان .

ولذلك فقد اقتضى الأمر إضافة " غرف الغاز " إلى المحارق لإقامة الذرائع والتدليل على الإبادة بالنار . ومع ذلك فلم تتوفر المقتضيات المبدئية لإثبات وجودها ولم تسمح معاينة " سلاح الجريمة " بالعثور عليها [١]

وقد خدع الإخراج الذي أحاط بمعسكر داخاو آلاف الأطفال الذين كانوا يقتادون إلى هناك لتلقينهم عقيدة الهلولوكست ، ناهيك عن الكبار وقدماء المعتقلين !

وكانت غرف الغاز في داخاو هي الوحيدة التي عرضت بالصور على المتهمين في نورمبرج بوصفها من أماكن الإبادة الجماعية ، ويبدو أنهم اقتنعوا بذلك باستثناء جورنج وستريشر [٢].

(١) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ١٢٩.

(٢) نفسه ص ١٥١.

أشهر الدراسات العلمية حول الهولوكست

وقد صدرت في السنوات الأخيرة عدة كتب ودراسات تدور حول هذا المحور:

١ - كتب بول راسينيه في الخمسينيات دراسة ضخمة بعنوان أسطورة غرف الغاز. وكان المؤلف قد رُحِّل إلى أحد معسكرات الاعتقال. وفند في كتابه وجود مثل هذه الغرف أساساً وبيَّن أنها أكذوبة تاريخية وأورد إحصاءات ديموجرافية (رسمية) عن عدد اليهود في كل أوربا قبل الحرب وبعدها، وعقب صدور الكتاب حُوكم راسينيه وناشره وعُوقب بالسجن (مع إيقاف التنفيذ) كما فُرضت عليه غرامة مالية فادحة.

٢ - من أهم الكتب التي صدرت في هذا المجال كتاب البروفسور آرثر باتس الأستاذ بجامعة نورث ويسترن أكذوبة القرن العشرين الذي يثير الشكوك حول عملية الإبادة نفسها. ولا يزال البروفسير باتس يُدرِّس في الجامعة في الولايات المتحدة.

٣ - أصدر روبير فوريسون أستاذ الأدب في جامعة ليون سلسلة مقالات ثم مؤلفاً كبيراً كتب مقدمته اللغوي الأمريكي الشهير نعوم تشومسكي يثبت أنه لم تكن هناك أصلاً أفران غاز.

٤. تقدَّم هنري روكيه برسالة للدكتوراه إلى جامعة نانت يُشكك فيها في وجود غُرف الإعدام بالغاز «زيكلون بي». وقد أجازت الجامعة الرسالة ومنحته الدرجة العلمية بامتياز. ولكن الحكومة الفرنسية ألغت قرار اللجنة وسحبت منه الدرجة. ويُعَدُّ هذا التدخل سابقة ليس لها مثيل في تاريخ الجامعات الفرنسية الذي يمتد ألف عام.

٥ - أصدر ستاجليش أحد قضاة مدينة هامبورج، كتاباً بعنوان أسطورة أوشفيتس. والكتاب هو رسالة للدكتوراه كان القاضي قد قدمها إلى جامعة جوتينجن، وتوصَّل فيها إلى أن كثيراً من النصوص وشهادات الشهود بخصوص معسكر أوشفيتس أو عما كان يجري فيه غير صحيح بالمرة ومليئة بالتناقضات. وقد أُجيزت الدكتوراه بالفعل. وما إن صدر الكتاب

حتى قررت الجامعة سحب الدكتوراه من الرجل. كما أصدرت السلطات القضائية قراراً بخصم ١٠٪ من راتبه.

٦ - يتعرض المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفينج للمطاردة منذ نهاية الثمانينيات لأنه ينكر الإبادة رغم أن مجلة The New York Review of Books وصفته بأنه "يعرف عن الاشتراكية الوطنية (أي النازية) أكثر من أي عالم آخر متخصص في هذا الحقل، وأشارت إلى كتابه عن حرب هتلر بأنه أحسن دراسة عن الجانب الألماني في الحرب". ورغم كل هذا طُرد من كندا وبعد ذلك من أستراليا، ومُنع من إلقاء محاضراته فيهما. وأصدرت إحدى المحاكم الألمانية حكماً بتغريمه عشرة آلاف مارك لمجرد أنه نفى أن اليهود كانوا يموتون في غرف الغاز في معسكر أوشفيتس.

وقد وصل هذا الاتجاه إلى ذروته (أو هوته) مع صدور قانون فابيوس (رقم ٤٢) في مايو ١٩٩٠ المسمى " قانون جيسو " (وهو اسم النائب الشيوعي الذي تبنّى هذا القانون). ويُحرِّم هذا القانون أي تشكيك في الجرائم المقترفة ضد الإنسانية بإضافة المادة ٢٤ مكرر إلى قانون حرية الصحافة عام ١٨٨١، جاء فيها: "يُعاقب بإحدى العقوبات المنصوص عليها في الفقرة السادسة من المادة ٢٤، كل من ينكر وجود أي من الجرائم المرتكبة ضد الإنسانية كما وردت في المادة ٦ من النظام الأساسي للمحكمة العسكرية الدولية الملحق باتفاق لندن الموقع في ٨ أغسطس ١٩٤٥" .

وقد يظن المرء لأول وهلة أن كل القضايا المرتبطة بالإبادة النازية مثل: هل هي حقيقة أم مجرد اختلاق ؟ وعدد الضحايا اليهود، وهل يبلغ عددهم ستة ملايين بالفعل أم أنه أقل من ذلك بكثير؟ هي قضايا تم حسمها تماماً في الأوساط العلمية. وقد يظن المرء كذلك أن الدراسات السابقة هي دراسات عنصرية تآمرية كتبها مهيجون يحاولون إثبات أن اليهود وراء كل الشرور والجرائم. ولكن الأمر أبعد ما يكون عن ذلك، فهي دراسات علمية، ذات مقدرة تفسيرية معقولة تتناول قضايا خلافية. وهي دراسات تطرح وجهة نظر قد تكون متطرفة أو خاطئة (والوصول إلى قدر من الحقيقة في مثل هذه الأمور الخلافية أمر جد عسير)،

إلا أنها تدلل على وجهة نظرها من خلال الأرقام والحقائق والمعلومات. ومما لا شك فيه أن هناك المئات من الكتب الأخرى التي كتبها بعض المؤلفين العنصريين، ومثل هذه الكتب لا تستحق القراءة لأنها كتابات عصبية متشنجة لا تبرهن على وجهة نظرها بطريقة علمية تفسيرية هادئة[1].

الإعلام الصهيوني والدفاع عن الهولوكوست

يهاجم الإعلام الغربي والصهيوني بشدة الكتب التي تثير الشكوك حول موضوع الملايين الستة ، العلمي منها وغير العلمي، ويشجبها بعصبية واضحة، ويهيج ضدها بطريقة غوغائية، ويوجه الاتهام لكل من تسول له نفسه أن يُنكر الإبادة أو يشكك في أسطورة الملايين الستة حتى لو كان من العلماء المتخصصين، مع العلم بأن هناك دراسات كتبها علماء إسرائيليون يُعبِّرون فيها عن شكوكهم بخصوص رقم ستة ملايين. ولعله كان من الأجدى أن يميِّز الإعلام الغربي بين الدراسات العلمية والدراسات غير العلمية، وأن يُخضع الدراسات العلمية للنقد العلمي الهادئ، وأن يُطالب بفتح كل الملفات السرية والأرشيفات الغربية والشرقية لنتبيَّن مدى صحة هذه الأطروحات. وقد أصبح هذا متيسراً بعد سقوط الاتحاد السوفيتي إذ أصبحت وثائقه متاحة للدراسة. ولعل حالة ديمانجوك الذي اتُّهم بأنه «إيفان الرهيب»، الذي اشترك في إبادة اليهود وغيرهم في معسكر تريلينكا، تكون مثلاً على الخطوات المطلوب اتخاذها. فقد كانت كل الدلائل التي جمعها الأمريكيون والإسرائيليون تبيِّن أن ديمانجوك هو إيفان الرهيب، وأصدرت المحاكم الإسرائيلية حكماً ضده بالفعل. ولكن، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ظهرت وثائق تبيِّن بما لا يقبل الشك أن هناك شخصاً آخر هو الذي قام بعمليات الإبادة فأُفرج عن ديمانجوك.

ومن الصعب فهم تلك الاستجابة الهستيرية لدى الإعلام الغربي والصهيوني إزاء عمليات إثارة الشكوك حول الإبادة وعدد الستة ملايين، ومع هذا فلنحاول تناول هذه الظاهرة غير العقلانية. ونحن نذهب إلى أن الخطاب الحضاري

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» م ٢/ج٤ «بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا» مرجع سابق.

الغربي له حدوده التي يفرضها على عملية الإدراك. فقد قام الغرب بتحديد معنى الإبادة النازية لليهود ومستواها التعميمي والتخصيصي، فقام باختزالها وفرض منطق غربي ضيق عليها من خلال التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية، ومن خلال نزعها من سياقها الغربي، الحضاري والسياسي الحديث .

١ ـ بالنسبة للمسئول عن الجريمة: تُخضَع الإبادة النازية لعمليتين متناقضتين

أ - يتم تضييق نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تصبح الإبادة النازية جريمة ارتكبها الألمان وحدهم ضد اليهود.

ب- يتم توسيع نطاق المسئولية إلى أقصى حد بحيث تختفي كل الحدود وتصبح الإبادة النازية ليهود أوربا جريمة كل الأغيار بشكل مطلق، أو جريمة كلٍّ من الألمان والأغيار، أو الألمان باعتبارهم أغياراً، أو الألمان بموافقة وممالأة الأغيار

٢- بالنسبة للضحية : تُخضَع الإبادة كذلك لعمليتين متناقضتين:

أ- يتم تضييق نطاق الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود وحدهم ، لا ضد الملايين من اليهود وغير اليهود (من الغجر والسلاف وغيرهما).

ب- يتم تعميم الجريمة إلى أقصى حد بحيث تصبح جريمة موجهة ضد اليهود، كل اليهود، لا يهود العالم الغربي وحسب.

وبعد أن تم تعريف الإبادة بهذه الطريقة، وبعد أن تم التلاعب بالمستويات التعميمية والتخصيصية وضبطها بما يتفق مع مصلحة الغرب، قام الغرب بأيقنة الإبادة، أي جعلها مثل الأيقونة تشير إلى ذاتها حتى لا يمكن التساؤل بشأنها، فهي مصدر المعنى النهائي .

فالإبادة بهذا المعنى أصبحت من المسلمات، ومن ثم أصبح التساؤل بشأن

الإبادة هو تساؤل بشأن أحد المقدسات وهو ما لا يمكن لأية حضارة، مهما بلغت من سعة صدر وليبرالية وتعددية قبوله[1].

الأسباب الحقيقية لاختفاء الملايين الستة من اليهود

قد يكون عدد اليهود الذين اختفوا هو ستة ملايين، ولكن ما يثير الشك حقيقة هو ادعاء الصهيونية أن هذه الملايين الستة تم حرقها جميعا في أفران الغاز النازية وهو مالا يمكن التسليم به .

فأعداد كبيرة من الملايين الستة قد اختفت من خلال التناقص الطبيعي ، ويمكن أن نشير إلى أن ثمة عناصر أخرى ساعدت على تصعيد هذا التناقص في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر يمكن أن نذكر منها ما يلي :

أولا : أسباب تؤدي إلى العزوف عن الإنجاب وإلى تناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر .

١- أدت الهجرة اليهودية الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية ويقال إن هجرة اليهود قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عاماً، وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل بإمكان الجماعة أن تعيد إنتاج نفسها. والإنسان المهاجر أقل خصوبة من الإنسان المستقر .

٢- كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة، أي بأعمال التجارة والمال. وكانوا، لهذا، مركزين إما في المدن أو المناطق شبه الحضرية . ومع منتصف القرن التاسع عشر ، تصاعد هذا الاتجاه و تزايد تركزهم في المدن بحيث أصبحت أغلبيتهم الساحقة تسكن في المدن عشية الحرب العالمية الثانية .

٣- كانت هناك عناصر أخرى أدت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب، من بينها تحسن مستواهم المعيشي، والقلق الذي كان يعيشه أعضاء الجماعات

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة «اليهود واليهودية و الصهيونية» م ٢/ج٤ «بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا» مرجع سابق.

اليهودية في الفترة بين الحربين وإبان الحرب العالمية الثانية، وكذلك تزايد معدلات العلمنة وبالتالي زيادة التوجه نحو اللذة وتحقيق الذات، الأمر الذي يقوض من الرغبة في إنجاب الأطفال .

ثانيا : عوامل تؤدي إلى الاختفاء :

١- ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية، وهو أمر جديد كل الجدة، إذ كانوا يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك، كما سقط منهم ضحايا بأعداد كبيرة في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية. لكن هذا العنصر لا يؤدي إلى إنقاص عدد اليهود مباشرة عن طريق سقوطهم قتلى وحسب وإنما بشكل غير مباشر أيضاً عن طريق معدل العزوف عن الإنجاب. كما أن العناصر القادرة على القتال هي عادة من الذكور في سن الخصوبة .

٢- تَنَصُّر أعداد كبيرة من اليهود، وهو شكل من الأشكال الحادة للاندماج. وقد تزايد المعدل عشية الحرب العالمية الثانية لأسباب عملية منها الهرب من بطش النازي. كما حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتيسر لهم دخول أمريكا اللاتينية. وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر.

٣- ينطبق الشيء نفسه على مئات الألوف من الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازي. فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودي، خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي (سابقاً) كان يترك لكل شخص أن يحدد انتماءه، فلو كان الشخص يهودياً وعرف نفسه بأنه (روسي) أو (أوكراني) فإن الأمر كان متروكاً له. ومع تآكل الهوية اليهودية، لم يعد هناك دافع قوى لدى كثير من اليهود للإفصاح عن هويتهم.

ثالثا : ظروف الحرب العالمية الثانية :

١- لابد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي صعدت من كل العناصر السابقة وزادتها حدة، ولابد أن نأخذ في الاعتبار انتشار

الأوبئة وسوء التغذية في نفس الفترة. كما ينبغي الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز، مثل أعمال السخرة وعزل اليهود في الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض. ويقال: إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبهم بهذه الطريقة، وإنه كان من المتوقع لهم جميعاً أن يبادوا تماماً خلال عدة أعوام. (وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة، إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع. ولكننا نذكر هذا العنصر أيضاً حتى تكتمل الصورة لدينا). كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءً من عدم توفر الرعاية الصحية، وانتهاءً بالغارات على المدن، مروراً بأحكام الإعدام التي كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم .

٢- وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العناصر يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء ستة الملايين يهودي (أو حتى أربعة الملايين حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كتصفية جسدية متعمدة فحسب.

نعم! قد يكون عدد اليهود الذين (اختفوا) هو ستة ملايين، ولكن هل (حرق) جميعهم في أفران الغاز النازية؟ هل الأرقام حقائق صلبة فعلاً؟![1].

دوافع عداء هتلر لليهود

قبل إعلان الصهاينة المفوضين عن اليهود تحالفهم مع الحلفاء ضد هتلر في الحرب العالمية في سبتمبر سنة ١٩٣٩ لم يكن هتلر راغبا في قتل اليهود إنما أراد التخلص منهم كما تخلصت بقية أوربا منهم عن طريق التهجير -لابد أن ندرك أن حركة أعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق الدول الغربية، لخوفها على أمنها الداخلي، ومكانتهم الاجتماعية- فمثلا استطاعت إنجلترا أن تتخلص من اليهود عن طريق وعد بلفور الشهير الذي مَكَّن لإنجلترا

(١) د. عبد الوهاب المسيري «الأكاذيب الصهيونية» الفصل السادس معاداة اليهود، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

من تهجير اليهود إلى فلسطين ، وإذا كان بلفور قد حل المسألة اليهودية في إنجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين، فإن هذا الحل لم يكن متاحاً لهتلر لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا، ولقد جمع هتلر بالفعل عشرة آلاف من اليهود في عدة سفن وأرسلهم عبر الحدود إلى بولندا في ٢٨أكتوبر ١٩٣٨، ولكن الحدود البولندية كانت موصدة دونهم واستمرت المحاولات النازية التي تستهدف تهجير اليهود حتى نهاية الحكم النازي . فبُذلت المحاولة تلو الأخرى لتوطينهم في سوريا وإكوادور وتم تشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين. وكان هناك مشروع صهيوني نازي يُسمَّى «مشروع مدغشقر» يهدف إلى تأسيس دولة يهودية في تلك الجزيرة الأفريقية. ولكن معظم هذه المشروعات فشلت.ولم تُطرح بدائل أخرى فالمجال الاستعماري الحيوي لألمانيا،بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، كان محدوداً. والدول الغربية (التي تتباكى حتى الآن على ضحايا الإبادة) لم تكن ترحب هي الأخرى بالمهاجرين اليهود أو غيرهم (بسبب حالة الكساد الاقتصادي).

وكان هتلر يسمي خطة التهجير هذه «الحل الشامل » و«الحل النهائي»[1]، ومع قيام الحرب العالمية الثانية وتحالف غالبية اليهود مع الحلفاء ضد هتلر بل إن بعضهم قبل اندلاع الحرب العالمية كافح الفاشية بالسلاح في إسبانيا من عام ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ في صفوف الفرق الدولية ، وأنشأ بعضهم في جيتو وارسو "لجنة الكفاح اليهودية " وماتوا وهم يحاربون .

وعندما بدأت الحرب ضد هتلر وقفت الغالبية العظمى من المنظمات إلى جانب الحلفاء ، بل إن غالبية زعماء اليهود ومنهم حاييم وايزمان اتخذوا موقفا مساندا للحلفاء ، ففي ٥ سبتمبر ١٩٣٩ – أي بعد يومين من إعلان إنجلترا وفرنسا الحرب على ألمانيا – كتب حاييم وايزمان رئيس الوكالة اليهودية إلى تشمبرلين رئيس وزراء صاحب الجلالة ملك فرنسا خطابا يبلغه فيه : " إننا نحن اليهود في جانب بريطانيا العظمى وسنحارب من أجل الديمقراطية " .

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٢: إشكالية العزلة والخصوصية اليهودية، مرجع سابق.

مشيرا إلى أن : " المفوضين عن اليهود على استعداد فوري لإبرام اتفاق للسماح باستخدام كل قواهم وعدتهم من الرجال ومهارتهم التقنية ومساعداتهم المادية وكل قدراتهم " . وقد نشر هذا الخطاب في " الجويش كرونيكل " يوم ٨ سبتمبر ١٩٣٩، وهو بمثابة إعلان حرب صريح من العالم اليهودي ضد ألمانيا وقد طرح هذا الخطاب مشكلة احتجاز كل اليهود الألمان في معسكرات الاعتقال بوصفهم " رعايا شعب في حالة حرب مع ألمانيا" كما فعل الأمريكان مع مواطنيهم من أصل ياباني عشية دخولهم الحرب مع اليابان[١].

ماذا كان ينتظر من هتلر أن يفعل وهو في حالة حرب - بيهود ألمانيا بعد إعلان المفوضين عن اليهود الحرب ضده متحالفين مع أعدائه؟!

ومن المدهش حقا أن نكتشف أن قادة اليهود الصهاينة الذين ملئوا الدنيا ضجيجا في محاولة إثبات الهولوكوست ، وعويلا على من راح ضحيتها من اليهود الألمان هم من تعاون مع هتلر المتهم الأول بإبادة اليهود في الهولوكوست[٢].

لكن ماذا عن الجرائم التي ارتكبها زعماء اليهود في حق العرب الأبرياء في فلسطين؟ وعن موقف الغرب من هذه الجرائم؟

الغرب والمذابح العربية والإسلامية

إن اهتمام الغرب المحموم بالإبادة النازية لليهود (التي مضى عليها ما يزيد عن ستين عاماً) والإصرار على الاستمرار في تعويض الضحايا وتقديم الاعتذار لهم والتعبير عن الندم عما بَدَر من الألمان وغيرهم قد يكون أمراً محموداً في حد ذاته (فهو في نهاية الأمر تعويض لفئة من ضحايا الحضارة الغربية) إلا أن هذه الظاهرة المحمودة في حد ذاتها تثير الشك حين يلاحظ المواطن العربي والمسلم أن سلسلة كاملة من المذابح قد ارتكبت منذ الأربعينيات حتى الآن في (فلسطين الجزائر - فيتنام - البوسنة - الشيشان - لبنان - أفغانستان - العراق ...) معظمها في العالم الإسلامي وتم التزام الصمت تجاهها ولم يتحدث أحد

(١) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) راجع الفصل الخامس «أسطورة عداء الصهيونية للنازية» في هذا الكتاب.

عن تعويض أو اعتذار أو توبة أو ندم ! هذا في الوقت الذي تستمر الآلة الإعلامية الغربية في التركيز على الهولوكوست دون غيرها كما أن الزعم الغربي بأن فلسطين في الشرق العربي قُدِّمت لليهود تعويضاً لهم عما حدث لهم في ألمانيا في العالم الغربي، هو أمر يصعُب فهمه .

ونحن ندين كل اعتداء على أية روح إنسانية إلا بالحق مهما كان جنسها أو ديانتها لذا فإنا ندين بشدة ما فعله هتلر النازي في بعض اليهود ونعد ذلك من الأعمال الإجرامية التي ترفضها كل الديانات السماوية والقوانين الدولية والأخلاق الإنسانية ، ونحن إذا كنا ندين هتلر النازي فيما فعله باليهود فنحن بنفس المنطق ندين كل الاعتداءات الصهيونية والأمريكية ضد الأبرياء من الشعوب العربية والإسلامية تلك الممارسات التي تعد وصمة عار على جبين كل من قام بها أو سمح بها أو كان قادرا على منعها وتقاعس عن ذلك ، وكان على المصابين بعقدة الذنب مما فعله هتلر باليهود كان عليهم أن تحرك ضمائرهم تلك الجرائم التي تقوم بها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة ضد الشعب الفلسطيني الأعزل .

"و نظرا لأن تجربة النازي في حياة اليهود كانت متلازمة مع مشاعر العداء للسامية ، و نظرا لأنها كما أوضحنا . ولدت ميلا لدى الإنسان اليهودي الإسرائيلي «للتوحد في المعتدي» من حيث الرغبة في القتل الجماعي، فإن الإسرائيليين قد اتخذوا مما أسموه «الشعارات اللاسامية» في الدعاية العربية ذريعة ، على أساس «النكبة النازية» . رأوا فيها أن الخصم متمثل في العرب هو ممثل «للشر المجرد» ، وقد أسقط هذا الأمر فكرة أساسية للصهيونية تنص على أن إسرائيل هي أحد الحواجز بل الحاجز الوحيد في الواقع لمناهضة اللاسامية"[1].

---

(١) د. رشاد الشامي «الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية» مرجع سابق ص٢٣٢ ، ٢٣٣ .

العرب والمسلمون والإبادة النازية ليهود أوربا

ويحاول الغرب إقحام الجريمة النازية داخل التاريخ العربي حتى يُبرِّر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي، تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل حدود أوربا الجغرافية. وتحاول الدعاية الصهيونية، بممالأة الغرب، أن تنجز ذلك من خلال آليتين أساسيتين:

١- محاولة الدعاية الصهيونية تصوير المقاومة العربية للغزو الصهيوني لفلسطين وكأنها دعم مباشر أو غير مباشر للإبادة النازية، لأنها حالت في بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين. ومثل هذه الحجة لا أساس لها من الصحة. فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها، تحت رعاية العالم الغربي، وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية (ومن النازيين أنفسهم)، وفي الوقت الذي كانت الدول الغربية توصد أبوابها دون المهاجرين اليهود. ومهما فعل الصهاينة (يؤيدهم في هذا العالم الغربي دون تحفُّظ) يظل حق المقاومة حقا إنسانيا مشروعاً بل واجباً على كل إنسان يحترم إنسانيته، ويظل رفض الإنسان للظلم تعبيراً عن نبله وعظمته، بل إنسانيته.

٢- محاولة الدعاية الصهيونية التأكيد على أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازي. وهذه أكذوبة أخرى. فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء (فالعالم العربي على أية حال كان يقع في دائرة الاستعمار الغربي). كما أن النظرية النازية العرْقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصاف اليهود، ولذا فأي تحالف مزعوم كان تحالفاً مؤقتاً لا يختلف عن حلف ستالين/هتلر. وهؤلاء الساسة (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كُرهاً في اليهود أو حبا في النازيين، وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني .

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغيِّر شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية، الدينية والإنسانية. فالإبادة النازية لا تُشكِّل جزءاً من التاريخ العربي أو تواريخ المسلمين، ولم يلوث العرب والمسلمون أيديهم بدماء ضحايا النازية من يهود أو سلاف أو غجر. وهذه المحاولات تُبيِّن في نهاية الأمر اتساق الغرب مع نفسه، الذي يُكفر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي.

ومن المعروف أنه حينما حدث احتكاك مباشر بين المسلمين والعرب من جهة والإبادة النازية من جهة أخرى فإن موقف المسلمين والعرب كان يتسم بالإنسانية. فعلى سبيل المثال قامت الأقلية المسلمة في بلغاريا بدور كبير في حماية أعضاء الجماعات اليهودية من الإبادة، كما أن الملك محمد الخامس عاهل المغرب رفض تسليم رعاياه اليهود إلى حكومة فيشي الفرنسية الممالئة للنازي.

إن الضحايا الذين كانوا يقادون لأفران الغاز كانوا يسمونهم ميلزمان Musel-mann أي مسلم بالألمانية، وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في الموسوعة اليهودية Enyclopedia judaica جزء ١٢ ص٥٣٧-٥٣٨ عنوانه «مسلم».

"ميزلمان" أي مسلم بالألمانية، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تُستخدَم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت، أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي. وكان هذا المصطلح يُستخدَم أساساً في أوشفيتس ولكنه كان يُستخدَم في المعسكرات الأخرى".

هذه هي المعلومة، فكأن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يرى فيهم الآخر، والآخر منذ حروب الفرنجة هو المسلم. ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطى أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول ﷺ وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط.

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي، والنازيون هم حملة عبء هذه الرؤية، وهم مُمثّلو الحضارة الغربية في مجابهتها مع أقرب الحضارات الشرقية، أي الحضارة الإسلامية. وهم لم ينسوا قط هذا العبء حتى وهم يبيدون بعضاً من سكان أوربا[1].

وفي النهاية لابد من ذكر عدة حقائق نختم بها الرد على أسطورة الملايين الستة

١- تحريم الأديان السماوية قتل النفس الإنسانية بغير حق .

٢- الإبادة التامة لم تتم في التاريخ إلا مرتين :

أ- إبادة سكان بعض المدن الكنعانية على يد العبرانيين .

ب- إبادة الهنود الحمر على يد الرجل الأبيض (الأمريكي) .

٣- الاعتراف بجرائم قتْل قام بها النازيون في حق اليهود .

٤- من ذاق الظلم أولى الناس بأن يحكم بالعدل .

٥- لا تزر نفس وازرة وزر نفس أخرى فلا يؤخذ إنسان بذنب غيره .

أولا : تحريم الأديان السماوية قتل النفس الإنسانية بغير حق

لقد حرمت كل الأديان السماوية قتل النفس الإنسانية بغير حق.

فتحريم قتل النفس كانت الوصية السادسة من الوصايا العشر التي أوحى بها إله إسرائيل لموسى ليبلغها لبني إسرائيل .

"…. أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يهبك إياها الرب إلهك، لا تقتل. لا تزن. لا تسرق …. "، (الخروج : ١٩).

ولما كان يسوع جاء ليكمل ما جاء به الأنبياء قبله لا لينسخه فقد حرم القتل الذي كان محرما في شريعة موسى .

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٢ ج٤ «العرب والمسلمون والإبادة النازية ليهود أوربا».

"لا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة أو الأنبياء ما جئت لألغي بل لأكمل"، (متى:٥).

وَقد سَأَلَ وَاحِدٌ مِنَ رُؤَسَاءِ اليهود يسوع قَائِلاً:

«أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟» ١٩وَلَكِنَّ يَسُوعَ قَالَ لَهُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي الصَّالِحَ؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ، وَهُوَ اللهُ! ٢٠أَنْتَ تَعْرِفُ الْوَصَايَا: لاَ تَزْنِ؛ لاَ تَقْتُلْ؛ لاَ تَسْرِقْ؛ لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ؛ أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ!» ٢١فَقَالَ: «هَذِهِ كُلُّهَا عَمِلْتُ بِهَا مُنْذُ صِغَرِي!» ٢٢فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ هَذَا، قَالَ لَهُ: «يَنْقُصُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ: بِعْ كُلَّ مَا عِنْدَكَ، وَوَزِّعْ عَلَى الْفُقَرَاءِ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاوَاتِ. ثُمَّ تَعَالَ اتْبَعْنِي!». (لوقا : ١٨).

بل يذهب يسوع إلى أبعد من هذا فهو يطلب من أتباعه أن يحبوا أعداءهم ويباركوا لاعنيهم ، وأن يُدِر خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن .

"وَأَمَّا لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ، فَأَقُولُ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ؛ أَحْسِنُوا مُعَامَلَةَ الَّذِينَ يُبْغِضُونَكُمْ؛ ٢٨بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ؛ صَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ. ٢٩وَمَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ، فَاعْرِضْ لَهُ الْخَدَّ الآخَرَ أَيْضاً. وَمَنِ انْتَزَعَ رِدَاءَكَ، فَلاَ تَمْنَعْ عَنْهُ ثَوْبَكَ أَيْضاً. ٣٠ أَيُّ مَنْ طَلَبَ مِنْكَ شَيْئاً فَأَعْطِهِ؛ وَمَنِ اغْتَصَبَ مَالَكَ، فَلاَ تُطَالِبْهُ. ٣١وَبِمِثْلِ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يُعَامِلَكُمُ النَّاسُ عَامِلُوهُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً. " (متى : ٦).

ولقد ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى فرض على بني إسرائيل أن قتل النفس الإنسانية بغير نفس أو فساد في الأرض كقتل الناس جميعا يقول تعالى :

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، (المائدة :٣٢).

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾، أي قتل ابن آدم أخاه ظلما وعدوانًا .

﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي : شرعنا لهم وأعلمناهم ، وخص الله تعالى

بني إسرائيل بالذكر وقد تقدمتهم أمم قبلهم كان قتل النفس فيهم محرما بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء[1].

ومن أجل وجود هذه النماذج في البشرية.. من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شرا ولا عدواناً.. ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر؛ وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس.

من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً؛ وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً .

إن قتل نفس واحدة -في غير قصاص لقتل ، وفي غير دفع فساد في الأرض- يعدل قتل الناس جميعاً، لأن كل نفس ككل نفس؛ وحق الحياة واحد ثابت لكل نفس. فقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على حق الحياة ذاته؛ الحق الذي تشترك فيه كل النفوس. كذلك دفع القتل عن نفس ، واستحياؤها بهذا الدفع سواء كان بالدفاع عنها في حالة حياتها أو بالقصاص لها في حالة الاعتداء عليها لمنع وقوع القتل على نفس أخرى هو استحياء للنفوس جميعاً، لأنه صيانة لحق الحياة الذي تشترك فيه النفوس جميعاً[2].

والمقصود من تشبيه قتل النفس الواحدة بقتل النفوس المبالغة في تعظيم أمر القتل العمد العدوان وتفخيم شأنه ، يعني كما أن قتل كل الخلق أمر مستعظم عند كل أحد، فكذلك يجب أن يكون قتل الإنسان الواحد مستعظماً مهيباً فالمقصود مشاركتهما في الاستعظام ، لا بيان مشاركتهما في مقدار الاستعظام[3].

(١) تفسير القرطبي ج٦ ص١٤٦.

(٢) سيد قطب في ظلال القرآن الكريم ج٢ ص٣٥٢ .

(٣) فخر الدين الرازي مفاتيح الغيب ج٢ ص٤٢.

وهب الله تعالى نعمة الحياة للإنسان ، وجعل حياطتها كلا وجزءا وصيانته مادة ومعنى في طليعة الأهداف التي أبرزها الدين ، وتحدث فيها الرسل مبشرين ومنذرين .

ولا عجب فإن إشقاء حيوان وإزهاق روحه ظلما يعده الله العدل الرحيم جريمة يدخل فيها الإنسان النار .

فعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ " (متفق عليه)

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : "بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ " ، (متفق عليه).

أرأيت كيف أن راحة حيوان وحفظ حياته باب من رضوان الله تعالى ، وكيف أن إتعاب حيوان وإهدار حياته باب إلى سخطه.

فإذا كانت هذه نظرة الإسلام إلى قيمة الحياة في المخلوقات الدنيا ، فما تكون عنايته وجائزته لمن يدعم حق الحياة بين الناس؟

وما تكون نقمته وعقوبته لمن يستهين بهذا الحق؟

عن ابن عباس أن قتيلا قتل على عهد رسول الله ﷺ لا يدرى من قتله فقال النبي ﷺ يقتل قتيل وأنا فيكم لا يدرى من قتله لو أن وأهل السماء أهل الأرض اشتركوا في قتل مؤمن لعذبهم الله إلا أن لا يشاء ذلك (رواه البيهقي والطبراني).

والمسلم وغير المسلم سواء في حرمة الدم واستحقاق الحياة ، والاعتداء على المسالمين من أهل الكتاب هو في نُكْره وفحشه كالاعتداء على المسلمين وله سوء الجزاء في الدنيا والآخرة .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا، (رواه البخاري)،

"عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ"، (رواه النسائي وأبو داود وأحمد والبيهقي).

إن الحياة الكاملة مصونة، والاعتداء عليها بالقتل جريمة ، وكذلك الاعتداء على جزء منها ، وتعريضه للتلف أو التشويه .

فذلك كله في نظر الإسلام عدوان أساس العقوبة فيه القصاص وإنما شرع القصاص تأمينا للسلامة بين الناس .

وهذا معنى قوله تعالى ﴿ولكم في القصاص حياة﴾[1].

إن الناس في حق الحياة سواء، فليس هناك دماء أعز من دماء ، ولا شعب أكرم من شعب . إنما التفاضل يكون بالتقوى والتقوى لا يعلمها أحد من البشر فهي مما استأثر الله تعالى بعلمه .

جاء في ميثاق الأمم المتحدة ،الفصل الثاني عشر،المادة ٧٦ فقرة ج ما يلي :

التشجيع على احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين، ولا تفريق بين الرجال والنساء، والتشجيع على إدراك ما بين شعوب العالم من تقيد بعضهم بالبعض .

ثانيا : الإبادة التامة لشعب تاريخياً

لم نعرف شعبا أُبيد عن آخره إلا مرتين : ذكرت توراة اليهود أولاهما ، وهو إبادة العبرانيين بقيادة يشوع لسكان مدينة أريحا من الكنعانيين العرب .

فقد اندفع شعب إسرائيل نحو مدينة أريحا " ٢١ واستولوا عليها . ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير .. ٢٤ ثم أحرق الإسرائيليون المدينة بالنار بكل ما

---

(١) محمد الغزالي «حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة» دار الكتب الإسلامية ص ٥٠-٥٢ .

فيها . أما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد فقد حفظوها في خزانة بيت الرب .. ٢٦ في ذلك الوقت أنذر يشوع الشعب قائلا: "ملعون أمام الرب كل من يحاول أن يعيد بناء أريحا ، فإن بِكْرَهُ يموت وهو يضع أساساتها ، وصغيره يَهْلك وهو يقيم بواباتها"، (يشوع:٦).

فإن صحت هذه الرواية يكون سكان مدينة أريحا الكنعانيين العرب هم أول الشعوب في التاريخ -فيما نعلم- ينطبق عليه لفظ الإبادة التامة تلك الإبادة التي ارتكبها أجداد اليهود -بحسب زعمهم- في حق بعض أجداد العرب .

و ثاني الإبادات التامة فكان للهنود الحمر السكان الأصليين لأمريكا على يد الرجل الأبيض (المحتل لأمريكا).

وقد قام الرجل الأبيض (المحتل لأمريكا) بإنهاء حضارة الهنود الحمر وإنسانها، باعتبارها حضارة بدائية متخلفة، وباعتبار إنسانها بدائيا متخلفا، وهى نظريات اقتربت من فكرة "القتل الرحيم" للمرضى الميئوس من شفائهم ،كان هذا المفهوم هو الأساس الذي اعتمد لإبادة أكثر من ١٨,٥ مليون من الهنود -أصحاب البلاد الأصليين- الذين تم قتلهم أو تعذيبهم ، باعتبار أن هؤلاء بشر بدائيون لا قيمة لقتلهم وأبادتهم وإبادة حضارتهم ،في سبيل بناء الحضارة الأرقى ،كما جرى التركيز بالمقابل على جهود الرجل الأبيض بالقول بأن الولايات المتحدة دولة قامت على جهود المستوطنين البيض وكان القتل والإبادة عملا من أعمال التنمية .

"وقد نطق تيودور روزفلت في فترة لاحقة بالجملة الفظيعة التالية: "لو تركنا للهنود أراضي الصيد الخاصة بهم لوضعنا قارتنا تحت تصرف همج قذرين متوحشين؛ لذلك لم يبق أمامنا خيار غير إبادتهم".

وروزفلت للتذكير حاز على جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٠٦[(١)].

أما غير هاتين الواقعتين فلم يشهد التاريخ -فيما نعلم- أية إبادة تامة لشعب من الشعوب، إنما شهد التاريخ مجازر بشرية كثيرة لبعض الشعوب لم تصل لاستئصال شأفتهم .

---

(١) حمادة منتصر «صفحات مجهولة من تاريخ أمريكا» إسلام أون لاين ٢٠٠٥/٥/٢٤ .

والعجيب أن تتم الإبادة التامة في المرتين بأمر من "يهوه" إله اليهود القديم في المرة الأولى، وعلى يد الرجل الأبيض (المحتل لأمريكا) راعي اليهود الحديث في المرة الثانية!!

كتب المؤرخ الأمريكي أولبريت الذي كان مديرا للمعهد الأمريكي للبحوث الشرقية في كتابه الأساسي "من العصر الحجري إلى المسيحية والوحدانية وتطورها" وبعد أن برر الإبادات الجماعية المقدسة ليشوع في غزوه لكنعان يقول إننا نحن الأمريكان ليس لنا الحق في الحكم على الإسرائيليين لأننا قد أبدنا آلاف الهنود الحمر داخل الأركان الأربعة لبلدنا الكبير وجمعنا من تبقى في معسكرات ضخمة للاعتقال[1].

ويعقد منير العكش في كتابه "أمريكا والإبادة الجماعية" مقارنة بين الوقعتين فيقول : "إن تطابق الفكر الأمريكي المستعمر مع الفكر اليهودي الصهيوني الحالي "فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة" هي التطبيق العملي للفهم الانجليزي لفكرة إسرائيل التاريخية وكل ما نجده من تفاصيل الاستعمار الانجليزي لشمال أمريكا نجد جذوره في أدبيات إسرائيل وتقمص وقائعها وأبطالها وأبعادها الدينية والاجتماعية والسياسية فكانوا يسمون أنفسهم يهودا عبرانيين ويطلقون على العالم الجديد اسم إسرائيل وأرض كنعان وكانوا يقتلون الهنود الحمر وهم على قناعة بأنهم عبرانيون أعطاهم الرب تفويضا بقتل الكنعانيين. إن يهودية هؤلاء المستعمرين الانجليز هي التي أرست الثوابت الخمسة التي رافقت التاريخ الأمريكي:

١- عقيدة الاختيار الإلهي .

٢- التفوق العرقي والثقافي .

٣- الدور الخلاصي للعالم .

٤- قدرية التوسع اللانهائي .

٥- حق التضحية بالآخر .

(١) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص١٤٣.

ولذلك أباد البيض في مستعمرتهم الجديدة نحو ١٨,٥ مليون هندي أحمر دون أن تطرف لهم عين أو يعانوا من أي وخز للضمير ولم تتوقف فلسفة الإبادة الجماعية الأمريكية هذه التي أنهت منذ أكثر من ٤٠٠ سنة مضت وجود الهنود الحمر كشعب قائم متمتع بالسيادة على أرضه"[١].

ثالثا : الاعتراف بجرائم قتل قام بها النازيون في حق اليهود

لقد شهد التاريخ جرائم قتل جماعية لا تحصى وقعت في حق الشعوب الضعيفة، ومن تلك المجازر التي يحفل بها التاريخ مجازر النازيين في حق اليهود في النصف الأول من القرن العشرين، وبغض الطرف عن دوافع النازيين لقتل كثير من اليهود في ألمانيا، فإنه من الثابت تاريخيا أن النازيين قد أقدموا على جرائم قتل جماعية في حق بعض اليهود الألمان، لا مجال لإنكارها بل من الظلم عدم الاعتراف بها.

ولا شك أن اليهود كانوا أحد الأهداف المفضلة لهتلر بسبب نظريته العنصرية التي تقوم على تفوق الجنس الآري، وخلطه المتعمد والمنهجي بين اليهود والشيوعية التي كانت عدوه الرئيسي (وهو ما تشهد عليه عمليات إعدام آلاف الشيوعيين الألمان، ثم عناده وتصلبه ضد السجناء السلاف أثناء الحرب) وأطلق على هذا الخلط عبارة "اليهودية البلشفية".

وتوخى منذ إنشاء حزبه "القومي - الاشتراكي" (النازي) ليس فحسب استئصال الشيوعية، بل وطرد جميع اليهود من ألمانيا أولا ومن كل أوربا بعد أن يسيطر عليها، وحدث هذا بطريقة بعيدة كل البعد عن الإنسانية: أولا بالتهجير، ثم بالنفي، وأثناء الحرب بالحبس في معسكرات الاعتقال في ألمانيا، ثم بالإبعاد نحو مدغشقر في بادئ الأمر ثم نحو الشرق في الأراضي المحتلة وخاصة في بولندا حيث هلك السلاف واليهود والغجر بالأشغال الشاقة في خدمة الإنتاج الحربي ، ثم بالأوبئة الفظيعة للتيفوس التي تدل كثرة المحارق على ضخامتها[٢].

فنحن نُقِرُّ بأن معسكرات الاعتقال والسخرة والإبادة حقيقة مادية لا شك

(١) منير العكش «أميركا والإبادات الجماعية»، الناشر: رياض للكتب والنشر.

(٢) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص١٤٠.

فيها، وأن أفران الغاز هي الأخرى حقيقة. ولكن حجم هذه الأفران ومدى كفاءتها وعدد ضحاياها ودلالة هذه الحقائق المادية وتفسيرها تظل كلها موضوعات قابلة للاجتهاد والفحص العلمي والوثائقي بل تتطلبها، فهي موضوعات خلافية. وهناك فيما يبدو مصلحة للبعض في أن يُضخمها أو يُقلل من أهميتها. فإذا كان الحياد الكامل مستحيلاً في مثل هذه الأمور (كما في غيرها)، فلابد، على الأقل، أن ننفصل إلى حدٍّ ما عن الظاهرة موضع الدراسة ونُعيد قراءة الوثائق المتاحة ونطالب بإتاحة كل الوثائق السرية، وخصوصاً أن الموضوع أصبح موضوعاً تاريخيا مر عليه أكثر من خمسين عاما[٢].

ونحن إذ ندين ما فعله النازيون في حق بعض اليهود الألمان ندين في الوقت نفسه كل الجرائم التي ارتكبت وترتكب في حق الشعوب العربية والإسلامية مثل: البوسنة والهرسك ، والشيشان ، وأفغانستان والعراق، وفلسطين ولبنان.

رابعا : من تعرض للظلم أولى الناس بالحكم بالعدل

إذا كان اليهود قد عانوا الظلم على يد النازيين والصهاينة فإنه من المحتم عليهم أن يقيموا العدل، ويعطوا الحق لأصحابه لا أن يؤيدوا الصهاينة في عدوانهم الوحشي والمستمر على الأبرياء من الشعوب العربية .

وكما أن اليهود الصهاينة يحرصون أشد الحرص على إثبات جريمة النازيين في حق بعض اليهود، ويقفون بالمرصاد في وجه من يشكك في هذه الجريمة، ويروجون لها حتى أصابوا الأوربيين -وخاصة الألمان- بعقدة الذنب، وحصلوا من ورائها على تعويضات طائلة، كنت أقول إذا كان الصهاينة قد فعلوا هذا من أجل بعض الضحايا اليهود فإنه كان من الواجب عليهم أن يتذكروا أنهم كانوا شركاء اللاساميين في جرائمهم ضد اليهود، وأنه لولا هذه المذابح ما كانت هناك دولة يهودية ، وأن عليهم أن يكفوا أيديهم عن الأبرياء من الشعب الفلسطيني وأن يتعظوا بالفاشيين والنازيين حلفائهم الذين دالت دولتهم وذهبوا غير مأسوف عليهم مصحوبين باللعنات فدولة الظلم ساعة .

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» م٢ ج٤ بعض إشكاليات الإبادة النازية ليهود أوربا مرجع سابق.

وإذا كانوا قد كسبوا الجولة الأولى بالعنف والإرهاب والتحالف مع الشيطان فإن أرواح الذين قُتِلُوا دون ذنب مازالت تشتكي إلى الله بأي ذنب قُتِلَت؟ وأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب "اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب"، (رواه مسلم).

وأن الملايين من العرب والمسلمين الذين ظلمهم الصهاينة حتما سينتصرون فإن الله تعالى قد أقسم بعزته لينصرن دعوة المظلوم ولو بعد حين.

"ودعوة المظلوم تُحمَل على الغَمام، وتفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين"، (رواه أحمد والترمذي، وابنُ ماجه) .

فالناس جميعا متساوون في الحقوق والواجبات ، كلهم ينتمون إلى أسرة إنسانية واحدة ، " كلكم لآدم ، وآدم من تراب" ولكن مع الأسف أن الصهيونية لا تعترف بهذا، ولا تزن الناس إلا بميزان المصلحة دون اعتبار لدين أو خلق كريم ، فإذا كانت مصلحتها أن توطِّن اليهود في فلسطين وتشتت أهل فلسطين فإنها تعد المذابح الإسرائيلية في حق العرب دفاعا عن النفس ، وتعد المقاومة العربية للعدوان الصهيوني التي كفلها لها ميثاق الأمم المتحدة تطرفا و إرهابا!!

وإن كانت مصلحتها التحالف مع النازيين فإنها تسارع بتنفيذ المخطط النازي الرامي لتهجير اليهود النافعين لدولة إسرائيل وإبادة سواهم من الاندماجيين والفقراء والعجزة ، وإن كانت مصلحتها معاداة النازية ومقاضاتها -بعد أن ذهبت دولتهم- فإنهم لا يتورعون عن ابتزاز ألمانيا والنمسا وغيرهما بسبب جرائم النازيين ضد اليهود تلك الجرائم التي كانوا هم شركاء فيها!!

ولابد أن نقرر أن الصهيونية عندما لم تقم بعملية إبادة شاملة للفلسطينيين، فإن هذا يرجع إلى اعتبارات عملية عديدة لا علاقة لها بأية أخلاق إنسانية حميدة، ومن بين هذه الاعتبارات :

١- تأخر التجربة الصهيونية إلى أواخر القرن التاسع عشر، وعدم إعلان الدولة الصهيونية إلا في منتصف القرن العشرين، وهو ما جعل الإبادة مسألة عسيرة بسبب وجود المنظمات الدولية والإعلام.

٢- الكثافة السكانية العربية.

٣- تماسك العرب ومقدرتهم على التنظيم والمقاومة والانتفاضة.

٤- الخصوبة العالية التي يتسم بها الشعب الفلسطيني فمعدلات المواليد فيهم عالية جدا .

كل هذا جعل إبادة الفلسطيني حلاً مستحيلاً، ومع هذا لابد من الإشارة إلى عمليات الإبادة الجسدية والتي تمت في صفد، ودير ياسين، وكفر قاسم، وغيرها من مدن وقرى في فلسطين، حيث لم تكن الممارسة الصهيونية تهدف إلى تهجير الفلسطينيين، بقدر ما كانت تهدف إلى قتلهم وإبادتهم. وبالمثل كانت عملية صابرا وشاتيلا ذات طابع إبادي واضح . كما أن الإبادة بمعنى التهجير والتسخير والقمع والاستغلال هي حدث يومي داخل الإطار الصهيوني.

خامسا: لا تزر وازرة وزر أخرى فلا يؤخذ إنسان بذنب غيره

إن شريعة الحق والعدل تقضي بأن كل إنسان مسئول عن عمله ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ ، ولا يؤخذ إنسان بجريرة غيره .

يقول تعالى : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، (الأنعام : ١٦٤).

أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها .

وقيل: إن هذه الآية نزلت ردا على العرب في الجاهلية من مؤاخذة الرجل بأبيه وبابنه وبجريرة حليفه. وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب(١).

إذا كان الحق والعدل وشرائع السماء تقضي بألا يؤخذ إنسان بجريمة غيره، فكيف يأخذ اليهودُ الصهاينةُ الفلسطينيين بذنب النازيين، ماذا جنى الفلسطينيون حتى يتعرضوا لهذه المذابح التي لا تنقطع؟!!

---

(١) تفسير القرطبي ج٧ ص١٥٧.

لقد عاش اليهود دهورا متطاولة بين ظهراني المسلمين فما وجدوا لديهم إلا العدل والإنصاف فهل هذا جزاؤهم على حسن معاملتهم لليهود!!

قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، (إبراهيم : ٤٢ -٤٤).



5

الباب الثاني

الفصل الخامس

أسطورة المعجزة الإسرائيلية

الباب الثاني

الفصل الخامس

أسطورة المعجزة الإسرائيلية

□□

تحاول ماكينة الدعاية الصهيونية الترويج لأسطورة أن نجاح اليهود في إقامة دولة إسرائيل على جزء من أرض الميعاد رغم العداء الغربي (المتمثل في ألمانيا النازية) والعربي والإسلامي لليهود، ونجاحهم في هزيمة كل الجيوش العربية قاطبة ذات العدد والعتاد (٤٨، ٥٦، ٦٧، ٨٢) تعد الدعاية الصهيونية كل هذا أسطورة خارقة ما كان لها أن تتحقق إلا لشعب الله المختار الذي حافظ على نقائه الجنسي لأكثر من ثلاثة آلاف عام، والذي يستحق وعد إلهه " يهوه " بأن ينصره على أعدائه من الأغيار ويعيده إلى أرضه التي وُعِد بها أجداده، وتَحَقُّق الوعد على أيديهم هم لذا لا يستحقون العودة إلى الأرض الموعودة فحسب بل الخلاص على يد الماشيخ المخلص في آخر الزمان أيضا.

وهذه الأساطير الموغلة في الباطل الذي عمل على إشاعتها، وتصديق البعض لها هو تمكن اليهود الصهاينة بالفعل من إقامة دولة إسرائيل، ومن هزيمة العرب، ونجاحهم في إقامة دولة عصرية متقدمة وسط دول عربية رجعية متخلفة.

وهذا النجاح جعل الجماعات الدينية غير الصهيونية -في إسرائيل وخارجها- التي كانت تؤمن أن خلاص الرب "يهوه" لشعبه المختار إنما يتم على يد الماشيخ المنتظر وليس لليهود أن يسعوا لتحقيق هذه الوعود (العودة لأرض الميعاد، والخلاص) بأنفسهم إنما عليهم انتظار الماشيخ.

إن النجاحات التي حققتها دولة إسرائيل جعلت هذه الجماعات الدينية غير الصهيونية تراجع مواقفها وتؤيد دولة إسرائيل رغم أنها كانت -من قَبْل- تعارض خروج اليهود من الجيتو والاختلاط بالأغيار، كما كانت تعارض بشدة الأفكار الصهيونية وتعدها خروجا على التعاليم الدينية.

لقد تأثرت هذه الجماعات اليهودية غير الصهيونية -داخل إسرائيل وخارجها- بـ «المعجزات والإشارات السماوية» التي تجلت بانتصار دولة إسرائيل في الحروب المختلفة، وخصوصاً حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٦٧, وقد كانت هذه الجماعات تعتمد في تأكيدها على عدم قدسية دولة إسرائيل، على الفارق بين دولة إسرائيل (السياسية العلمانية)، وأرض إسرائيل (الدينية السلفية الراديكالية). لكن بعد الانتصار الكبير الذي حققته دولة إسرائيل عام ١٩٦٧، زال الفارق عمليا، وأصبح هناك تطابق بين أرض إسرائيل وهي مفهوم ديني سلفي راديكالي وبين دولة إسرائيل وهي مفهوم سياسي علماني، وزاد اقتراب هذه الجماعات تدريجيا من الأوساط اليمينية في إسرائيل، أو اللوبي اليهودي خارجها.

ومع أن هذه الجماعات اليهودية ما زالت غير صهيونية بالمعنى التقليدي، إلا أن تحوُّل أرض إسرائيل إلى قيمة دينية في نظره، جعله يقترب كثيراً من مواقف اليهود الصهاينة السياسية العلمانية.

لقد ظلت أكثرية التيارات والجماعات الدينية اليهودية تحافظ على موقف غير صهيوني من المشروع الصهيوني. ولكن هذه التيارات بدأت بعد إعلان الدولة الصهيونية تنقاد بالتدريج للتعايش مع المفهوم الصهيوني للعودة. وبعد حرب ١٩٦٧، بدأت أحزاب دينية صهيونية عديدة تنظر إلى نتائج هذه الحرب باعتبارها معجزة و"إشارة ربانية" إلى بداية الخلاص، وأن دولة إسرائيل ما هي إلا مقدمة مجيء الماشيَّح المخلِّص، مضفية بذلك على دولة إسرائيل سمات دينية مشيحانية. بل اعتبرها البعض استجابة لنداء الرب، بل هي "الإرادة الإلهية نفسها" (على حد تعبير الحاخام كوك الأب الروحي لحركة جوش إيمونيم).

وفي الأوساط الدينية غير الصهيونية انطلق الصوت الجديد من الولايات

المتحدة، موطن زعيم حركة حبد، الحاخام شنيرسون. ويتلخص الموقف الجديد بالقول بأنه صحيح أن دولة إسرائيل بوصفها كياناً صهيونياً تعبير عن الكفر والتمرد على إرادة الله، ولذلك فهي بالتأكيد ليست تعبيراً عن الخلاص لكن ومن ناحية أخرى، فإن أرض إسرائيل بسيادة يهودية تنطوي على مغاز ذات أهمية. ولذلك تدعو هذه الحركة إلى عدم التنازل عن أيٍّ من الأراضي التيٍ احتُلت عام ١٩٦٧، وذلك من منطلق أحكام الشريعة الدينية[1].

الرد على أسطورة المعجزة الإسرائيلية

والحقيقة أن نجاح اليهود في إقامة دولة صهيونية على الأراضي العربية ليس بمعجزة إسرائيلية إنما هو خيبة عربية، ومؤامرة غربية، والدارس لتاريخ دولة إسرائيل تتبدى له هذه الحقيقة جلية، ولكن اليهود الصهاينة وكعادتهم الدائمة يحاولون إضفاء القداسة على كل أعمالهم ولو كانت أعمالا دنسة.

و"يهوه" نفسه يحذر اليهود عند انتصارهم من إضفاء القداسة على هذا الانتصار أو ادعاء جماعة اليهود الصلاح.

" لا تقولوا لأنفسكم بعد أن ينفيهم الرب من أمامكم: " لقد أدخَلَنَا الرب لامتلاك هذه الأرض بفضل صلاحنا ". إنما من أجل كثرة إثمهم يطردهم الرب إلهكم من أمامكم. إذ ليس بفضل صلاحكم واستقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم، إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب من أمامكم"، (التثنية: ٩).

أسباب انتصار إسرائيل على العرب

إن تغلب الإسرائيليين على العرب وقهرهم لهم لم يكن بسبب صلاحهم وإقامتهم للتوراة إنما كان بسبب فساد العرب وتخليهم عن دينهم وعن السعي المخلص لدنياهم فابتلاهم الله تعالى باليهود الصهاينة الذين أحسنوا الأخذ في أسباب التقدم، والاستفادة من المشروع الغربي.

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيها اليهود والعرب جميعا، وهي أن انتصار

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٤: إشكالية معادلة اليهود مرجع سابق.

اليهود لم يكن مرجعه طاعة الله وإنما أخذهم في أسباب التقدم، وتخلي العرب - أكثرهم - عن الدين الصحيح، وإهمالهم لأسباب التقدم والعدل والحرية.

وتوراة اليهود نفسها تصرح بهذا.

"إذ ليس بفضل صلاحكم واستقامتكم تدخلون لامتلاك أرضهم، إنما من أجل إثمهم يطردهم الرب من أمامكم "، (التثنية: ٩).

والقرآن الكريم يصرح بهذا في مواضع كثيرة منها قوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، (النور: ٥٥).

فيبين الله تعالى في هذه الآية المباركة أن الله وعد -ومن أصدق من الله قيلا- الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقاموا بما فرضه الله عليهم من عبادة له جل وعلا وتعمير لأرضه وعدهم بأن يجعلهم خلفاء الأرض ويمكن لهم دين الإسلام ويفضلهم على العالمين، كما حدث لبني إسرائيل من قبل، بشرط أن يعبدوا الله كما أمر في كتابه وسنة نبيه .

﴿ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾، أي فمن خرج عن طاعة الله بعد ذلك، وارتكب ما نهى الله عنه فأولئك لا نصر لهم من الله " فالصحابة رضي اللّه عنهم لما كانوا أقوم الناس بأوامر اللّه عزَّ وجلَّ، وأطوعهم للّه كان نصرهم بحسبهم، أظهروا كلمة اللّه في المشارق والمغارب، وأيدهم تأييداً عظيماً، وحكموا سائر العباد والبلاد، ولما قصّر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم"[١].

فبإثمنا لا بصلاحهم عاقبنا الله بهم فهم جبناء تؤثر فيهم أدنى مقاومة، وتفزعهم أية قوة، وتاريخهم يشهد بذلك، فحرب السادس من أكتوبر أذلت كبرياء إسرائيل،وقطعت يدها الطويلة، وفي خلال ست ساعات أصبح خط بارليف الحصين أثراً بعد عين.

---

(١) تفسير ابن كثير ج٦ ص٨٠.

مسلمو العرب والجيتو العثماني:

إن الدولة العثمانية التي بسطت نفوذها على البلاد العربية منذ منتصف القرن السادس عشر الميلادي في بداية أمرها كانت تسير وفق هذه السنة آخذة بشروط التمكين وأسبابه أما في أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط التمكين، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية.

فلقد انحرف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع الله فلم يقوموا بعبادة الله على الوجه الصحيح الذي يطهر القلب ويزكي النفس ويسمو بالأخلاق، ولم يأخذوا في أسباب العلم النافع الذي يعمر الأرض ويصلحها، ولم يسيروا في البلاد التي حكموها سير الخلفاء الراشدين بل ساروا فيها سير الحجاج بن يوسف الثقفي فكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والإنجليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السلاطين والأمة العثمانية، وحرموا التمكين، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

وكان نتيجة ذلك أن حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، محمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القرامليون في ليبيا)[١]. وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانية ساهم في إضعافها ثم زوالها وسقوطها[٢].

---

(١) انظر «العالم العربي في التاريخ الحديث» د. إسماعيل ياغي، ص ٩٤.

(٢) لمزيد من التفصيل حول أسباب سقوط الدولة العثمانية انظر «الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط» علي محمد محمد الصلابي المبحث الثامن «أسباب سقوط الدولة العثمانية».

واللافت للنظر أن السمات التي اتصف بها يهود الجيتو وهي: العزلة، والمفهوم الاستعلائي للدين، والتناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية، تكاد تنطبق على كثير من مسلمي العرب ابتداءً من الغزو العثماني حيث بسط العثمانيون سلطانهم على شبه الجزيرة العربية ومعظم شمال أفريقيا.

أولا: عزلة المسلمين

إذا كان الأوربيون قد فرضوا على اليهود الجيتو اتقاءً لفسادهم فإن العثمانيين قد فرضوا على الشعوب العربية الجيتو رغبة في تخلفهم فقد عملوا على عزل البلاد العربية عن الاتصال بغيرها من الأمم الغربية التي كانت آخذة في النهضة: سياسيا واقتصاديا وعلميا، وكان يمكن أن يستفيد العرب من تلك النهضة كما استفاد الأوربيون من النهضة العربية من قبل لكن الحكم العثماني كان سيئا * فهو حكم أجنبي جامد متخلف أسدل على الشرق العربي أستارا من التخلف والتأخر في كافة المجالات ونواحي النشاط[1].

وإذا كانت الجماعات اليهودية في أوربا تمثل الفئة المستعبَدة من قِبَل الطبقة الأرستقراطية، فإن العرب كانوا كذلك بالنسبة للحكام العثمانيين مع فارق جوهري وهو أن العرب لم يكونوا يعيشون في المنفى - كاليهود - بل كانوا أصحاب الأرض الأصليين.

* كان المجتمع في نظر العثمانيين ينقسم إلى طبقتين: الحكام الأتراك والرعية المحكومين، ومهمة الطبقة الثانية خدمة الأولى أي أن الأتراك صاروا طبقة أرستقراطية حاكمة منعزلة عن بقية المجتمع وترفعوا عن الاتصال به. كما أحاط العثمانيون بلاد الشرق بسياج منيع من العزلة رغبة في الإبقاء عليها تحت حكمهم خاصة بعد أن فشلوا في طرد البرتغاليين من منطقة الخليج العربي أو القضاء على نشاطهم في المحيط الهندي أو إيقاف تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح وإعادتها إلى طريقها القديم. وبذلك انقطعت الصلات السياسية والاقتصادية والحضارية بين العالم والشرق العربي الذي أوصدت أبوابه في وجه

---

(١) د. محمود صالح منسي «حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي» ص٢٤.

الحضارة الغربية التي كانت تسير مسرعة في طريق التقدم منذ القرن السادس عشر[١].

ثانيا: المفهوم الاستعلائي للدين

إذا كان المسلمون الأوائل لم يمنعهم اعتزازهم بالإسلام أن يخالطوا الشعوب الأخرى ويتعلموا منهم ما ينقصهم من شئون الدنيا والعلم فـ " الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها " (رواه الترمذي وابن ماجه) فإن المسلمين في عصور التخلف سيطر علي كثير منهم الاستعلاء الديني العنصري فتوهموا أنه بسبب كونهم مسلمين - وإن كان بالاسم فقط - أصبحوا خير أمة أخرجت للناس، وأن بلادهم بلاد الإيمان وما عداها فبلاد الكفر والشرك !! وأن الخير كل الخير في اعتزال هؤلاء الكفرة وعدم الاختلاط بهم والاستفادة من حضارتهم، وكأنهم -المسلمين - شعب الله المختار، ميزهم بأفضل دين، وفضلهم بأعظم نبي، وخصهم وحدهم بشفاعته يوم القيامة، فَلِمَ العمل والسعي وقد فضلهم الله على العالمين ليس في الدنيا فقط بل وفي الآخرة أيضا؟

وهكذا استقر هذا الفهم المغلوط لدين الله الحنيف في عقول كثير من المسلمين في عصور الضعف والانحطاط.

هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين، وطريقة عمله في حياة البشر.. حقيقة أولية بسيطة.. ولكنها مع بساطتها، كثيراً ما تنسى، أو لا تُدْرَك ابتداءً. فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين: حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي. حاضره ومستقبله كذلك !

إن البعض ينتظر من هذا الدين -ما دام منزلاً من عند الله- أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب! ودون أي اعتبار لطبيعة البشر، ولطاقاتهم الفطرية، ولواقعهم المادي، في أي مرحلة من مراحل نموهم، وفي أية بيئة من بيئاتهم.

وحين لا يرون أنه يعمل بهذه الطريقة، وحين يرون أن الطاقة البشرية

(١) نفسه ص ٣١، ٣٢.

المحدودة، والواقع المادي للحياة الإنسانية، يتفاعلان معه، فيتأثران به -في فترات- تأثراً واضحاً، على حين انهما في فترات أخرى يؤثران تأثيراً مضاداً لاتجاهه، فتقعد بالناس شهواتهم وأطماعهم، وضعفهم ونقصهم، دون تلبية هتاف هذا الدين، أو الاتجاه معه في طريقه.

حين يرون هذا فأنهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها -ما دام هذا الدين منزلاً من عند الله- أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني للحياة وواقعيته. أو يصابون بالشك في الدين إطلاقاً!.

وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلها من خطأ واحد أساسي: هو عدم إدراك هذا الدين وطريقته، أو نسيان هذه الحقيقة الأولية البسيطة.

إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية. يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم في حدود طاقتهم البشرية؛ وفي حدود الواقع المادي حينما يتسلم مقاليدهم. ويسير بهم إلى نهاية الطريق في حدود طاقتهم البشرية، وبقدر ما يبذلونه من هذه الطاقة-[1].

ثالثا: عقدة التناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية والاضطهاد

في عصور التخلف والانحطاط تنازع المسلمين شعوران: شعور بالاستعلاء بما منَّ الله عليهم بنعمة الإسلام، وشعور بالذل والهوان بسبب قهر أعدائهم لهم وانتزاع أرضهم منهم، وتفوقهم عليهم في شتى مجالات الحياة: عسكريا، وعلميا، وتكنولوجيا، واقتصاديا.

وتولد عن هذا الصراع النفسي منهجان للتفكير: أحدهما يرد ضعف المسلمين إلى بعدهم عن دين الله وعدم أخذهم بأقوال السلف، والثاني يرى عكس ذلك فهو يرى أن التمسك بالدين هو سبب ضعف المسلمين وانحطاطهم حضاريا.

وتبنى وعاظ الدين الرأي الأول الذي يرى أن كل بدعة ضلالة وأن الوقوف عند حدود ما أبدعه السالفون نجاة.

وتبنى العلمانيون المستغربون الرأي الثاني الذي يرى أن كل قديم تخلف

---

(١) سيد قطب «هذاالدين» ص٦،٥.

ورجعية حتى وإن كان دينا وأنه لا إيمان إلا بما يقوله العلم الحديث الذي آمن به الغرب المتقدم.

أما المفكرون المستنيرون الذين فهموا الإسلام على أنه نظام شامل دين ودنيا، مأثور و معقول، إيمان وعمل لا كما يفهمه وعاظ الدين الرجعيون على أنه نقل لا عقل فيه ومأثور لا فقه فيه و ثبات لا تطور فيه !! وأن الإسلام يجعل العلم -بمفهومه الشامل- فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلمية[١].

ودار الصراع بين هؤلاء وأولئك رمى فيها وعاظ الدين العلمانيين بالكفر والخروج من الملة، ورمى فيها العلمانيون وعاظ الدين بالجهل والتخلف والخروج من العلم.

أما المفكرون المستنيرون فقد صُبَّت عليهم لعنات هؤلاء وأولئك فهم في نظر الوعاظ خارجون عن أقوال السلف مبتدعون في أمور الدين، وهم في نظر العلمانيين هم والوعاظ سواء بسواء: متخلفون رجعيون .

وفي حين تمكن اليهود من التخلص من أفكار الجيتو التي أوردتهم المهالك، والخروج من الجيتو نفسه والاندماج في النهضة الأوروبية والتحالف معها ضد الخلافة العثمانية، ظل المسلمون العرب في صراع طاحن حول هذه الأفكار حتى يوم الناس هذا.

معجزة إسرائيلية أم مخطط غربي؟

إن قيام دولة إسرائيل لم يكن بفضل إخلاص اليهود الصهاينة لها فحسب إنما كان الفضل الأكبر في قيام دولة إسرائيل هو المخطط الغربي الذي يُعرف بالصهيونية.

لكل حركة أو تنظيم أهداف يسعى لتحقيقها ولما كانت الصهيونية تقوم على الفكر الغربي العلماني الاستعماري الذي يهدف إلى التخلص من العناصر

---

(١) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر «ميزان الحق بين العلمانية اللادينية والسلفية اللا أصولية» للمؤلف مكتبة مدبولي.

اليهودية المنبوذة بتوطينهم في فلسطين لذا جاءت أهداف الصهيونية في صالح الغرب المسيحي الاستعماري ومن تحالف معهم من اليهود الرأسماليين وليس في صالح اليهود بعامة.

ولقد اعتقد الكثير أن الصهيونية حركة يهودية دينية، وأن كلمة صهيوني مرادفة لكلمة يهودي والذي أوقع الكثير في خطأ قصر الصهيونية على اليهود فقط أن أشهر الأسماء التي ارتبطت بالصهيونية السياسية كانت يهودية مثل: تيودور هرتزل ، اللورد روتشيلد ، حاييم وايزمان، ناحوم جولدمان ، بن جوريون والدارس لحياة هؤلاء الأشخاص وغيرهم من اليهود الصهاينة يتضح له أنهم جميعا ينطلقون من أيديولوجية علمانية غربية لا تحركها إلا دوافع مادية نفعية لا دينية ولقد واجه هؤلاء الصهاينة اعتراضات كبيرة من اليهود المتدينين -كما بينا- ونظرة إلى أهداف الصهيونية التي تحققت يتبين لنا جليا لمصلحة من كانت الحركة الصهيونية تهدف، ويمكن أن نجمل أهداف المخطط الصهيوني في الآتي:

١- تخلص الغرب من مشاكل اليهود على كافة المستويات: القومية، والسياسية، والاقتصادية، تلك المشاكل التي باتت تهدد النهضة الغربية.

٢- نقل دور اليهود كجماعة وظيفية كانت تقوم بدور تسخير الطبقات الشعبية الدنيا لصالح الطبقة الأرستقراطية الحاكمة إلى فلسطين لتسخير العرب لتحقيق المصالح الغربية الاستعمارية التي تتمثل في:

أ- السيطرة على موارد العرب الطبيعية وخاصة البترول الذي يعد أمرا حيويا لمنظومة الصناعة في الغرب.

ب-السيطرة على الأسواق العربية التي تعد أهم المنافذ لتسويق السلع الغربية (من الإبرة للصاروخ).

ج- استثمار رأس المال الغربي في البلاد العربية التي تعد أصلح المناطق لاستثمار هذه الأموال نظرا لتوفر العمالة الماهرة الرخيصة، والموارد الطبيعية، والقرب من منافذ تسويق السلع المنتجَة .

٣- تمزيق الخلافة الإسلامية، وضرب المشروع العربي الإسلامي الذي بدأه

محمد على والذي بات يهدد أوروبا والعمل على إجهاض أي مشروع عربي أو إسلامي مزمع قيامه.

٤- العمل على تحقيق النبوءة المسيحية بالخلاص ونزول المسيح المخلص والتي لا تتم إلا بقيام دولة صهيون في أرض الميعاد.

٥- إبادة اليهود وغيرهم من غير المسيحيين " فما تضمره المسيحية الإنجيلية، أو المسيحية الصهيونية أو الصهيونية المسيحية هو دعوة اليهود إلى العودة إلى أرض الميعاد -فلسطين- تمهيداً إما لتنصيرهم أو لإبادة معظمهم[1].

هذه هي أهم أهداف الصهيونية وهي في عمومها تصب في صالح الغرب المسيحي في المقام الأول والأخير.

إن الدولة الصهيونية، في واقع الأمر، ما هي إلا أداة في يد الاستعمار الأمريكي على وجه الخصوص، والغربي على وجه العموم، وهذا هو العدو الحقيقي الذي يحاول أن يفرض منظومته على العالم فيُحوِّله إلى سوق ومصنع، والدولة الصهيونية هي الوسيلة والجزء وليست الغاية والكل... ولعل موقف بلفور (وكل الصهاينة من غير اليهود) هو خير تعبير عن هذا الموقف الذي ينم بلا شك عن تسامح مع اليهود حيث وقف إلى جوارهم حتى أعلن الوعد المعروف باسمه عام ١٩١٧ ولكن من الواضح أن تسامحه هذا نابع من رغبته في وضع اليهود في خدمة المصالح الإمبريالية البريطانية بحيث يحولهم إلى أداة لقمع العرب واغتصاب أرضهم. ومن ثم، نجد أن بلفور المتسامح هو نفسه الذي حاول أن يوقف هجرة يهود اليديشية إلى إنجلترا، واستصدر من القوانين ما يكفل ذلك حينما كان رئيساً للوزراء. فكأن تسامحه مع المشروع الاستيطاني الصهيوني تعبير عن رغبته الصادقة في التخلص منهم وتوظيفهم. ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن نابليون بونابرت وغيره من الزعماء الغربيين ممن أبدوا تسامحاً كبيراً تجاه اليهود[1].

---

(١) حوار مع المسيري «قناة الجزيرة».

الدليل على خضوع إسرائيل للمخطط الغربي الإمبريالي

ودونك هذه الأدلة التي تؤكد فكرة تبعية الدولة الإسرائيلية للمخطط الغربي الإمبريالي وليس العكس:

١- فكرة الصهيونية السياسية فكرة غربية مسيحية وليست فكرة يهودية بل إن معظم الحاخامات رفضوها وناصبوها العداء ؛ لأنهم وجدوها قراءة مغلوطة ومتعصبة للديانة اليهودية، فإذا كانت الديانة اليهودية تدعو إلى العمل بشريعة الرب وهدي الأنبياء لاستحقاق اختياره وتحقيق وعوده والخلاص على يد الماشيخ، فإن الصهيونية ما هي إلا تلك البدعة المتشددة التي استبدلت بالرسالة الإلهية قومية عنصرية، وبإله إسرائيل دولة إسرائيل، وبهداية الأنبياء العظام ضلال السياسيين اللئام، وبانتظار الماشيخ المخلص السعي للحصول على الخلاص بالعنف والإرهاب.

٢- رفض أمريكا ومعظم دول أوربا فتح أبوابها لليهود أثناء المرحلة النازية التي عملت على إبادة أعداد كبيرة من اليهود، بسبب سوء حالة الاقتصاد الأمريكي آنذاك والخوف من تسلل الجواسيس الألمان لأمريكا ففضلت أمريكا مصلحتها الاقتصادية والأمنية وأغلقت الأبواب في وجه اليهود.

٣- إسراع أمريكا بالاعتراف بدولة إسرائيل فور إعلانها رغم أن اللوبي الصهيوني آنذاك كان ضعيفا في مقابل اللوبي اليهودي المعادي للصهيونية الذي كان لا يزال قويا إذ كان يضم عددا كبيرا من أثرياء اليهود المندمجين، وهذا يعني أن المصالح الأمريكية هي ما تسعى أمريكا لتحقيقه بغض النظر عن أية ضغوط يهودية أو إعلامية.

٤- حينما تصرفت إسرائيل دون إذن من أمريكا، ودون مراعاة لمصالحها في حرب السويس سنة ١٩٥٦م أجبرت أمريكا إسرائيل على الانسحاب من سيناء التي كانت قد احتلتها. إذ أن المصلحة الأمريكية آنذاك كانت تقضي بإجلاء الاستعمار القديم (إنجلترا وفرنسا) من منطقة الشرق الأوسط لتحل محله.

٥- لم تقدم إسرائيل على القيام بحرب ٥ يونيو ١٩٦٧ إلا بعدما أن أضاءت لها أمريكا الضوء الأخضر لأن السياسة الأمريكية آنذاك كانت تريد التخلص من جمال عبد الناصر الذي أدخل عدوها اللدود الاتحاد السوفييتي في المنطقة، والذي عملت سياسته على زيادة نفوذه فيها، ومحاربة المصالح الأمريكية عن طريقه.

٦- شهدت الفترة من ١٩٦٧- ١٩٧٤ تنامي العلاقة بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في فترة حكم نيكسون الذي لا يكن حبا خاصا لليهود.

٧- ضغط أمريكا في عهد كارتر على ساسة إسرائيل لتوقيع معاهدة السلام وإعادة كل سيناء لمصر والتعهد باستمرار المفاوضات من أجل سلام شامل في المنطقة وإعادة كل الحقوق لأصحابها.

٨- إن سياسة إنجلترا أكثر اقترابا من السياسة الأمريكية وأكثر دعما لإسرائيل رغم الضعف الشديد للجماعة اليهودية في انجلترا، في مقابل أن سياسة فرنسا أكثر ابتعادا عن السياسة الأمريكية رغم أن جماعة اليهود في فرنسا تعدادها ٧٠٠ ألف يهودي وهي جماعة ذات نفوذ قوي في الإعلام وغيره. مما يؤكد أن الجماعة اليهودية في الغرب لا تأثير لها يذكر في المخطط الغربي الاستعماري بل هم يمثلون أحد أدوات هذا المخطط.

٩- وقوف أمريكا في وجه إسرائيل حينما حاولت الاستقلال النسبي عنها وظهر هذا جليا في قضية " جوناثان بولار " الأمريكي اليهودي الذي تجسس لحساب إسرائيل، وكان رد فعل المؤسسة الأمريكية حاسما، إذ قبض على بولار وأدخل السجن لمدة عشرين عاما وأُجري تحقيق في إسرائيل لتحديد المسئولية، كما أن الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة ثارت ثائرتها ضد إسرائيل، ورفض كل من بوش، وكلينتون العفو عن بولار رغم إلحاح اللوبي الصهيوني في ذلك.

كذلك رفض أمريكا السماح لإسرائيل بإنتاج " طائرة اللافي " محليا في إسرائيل وبمساعدة أمريكية.

١٠- أثبتت حرب الخليج الثانية (التي بدأت بالاحتلال العراقي للكويت) بما لا يدع مجالا للشك أن إسرائيل لا تتحرك إلا في إطار المصالح الغربية وليس في إطار المصالح اليهودية أو الصهيونية، فإسرائيل قد أعدها الغرب للقيام بالدور العسكري لصالح الغرب في المنطقة العربية، وكانت إسرائيل تأمل أن تقوم بدورها في حرب صدام حسين خاصة أنه هددها بحرقها بسلاحه الكيماوي قبل غزوه للكويت بزمن، لكن جاء قرار أمريكا بعدم مشاركة إسرائيل في هذه الحرب حتى لا تستثير حفيظة الشعوب العربية الكارهة لإسرائيل ضد أمريكا وحلفائها، وتتعاطف مع صدام الذي سيظهر بدور البطل العربي الشجاع الذي يحارب أمريكا وإسرائيل. وقد حاول صدام أن يستثير حفيظة إسرائيل لدفعها في الدخول في المعركة ليكسب تأييد الشعوب العربية فضربها بعدة صورايخ "سكود"، ولكن إسرائيل وبضغط من أمريكا لزمت الصمت، وامتثال إسرائيل لأوامر أمريكا في هذا الظرف يؤكد مدى ذكاء اليهود الصهاينة في معرفة قواعد اللعبة السياسية[١].

لقد ظهرت الصهيونية كحركة مسيحية غربية استيطانية تعمل على استغلال اليهود لتنفيذ المخططات المسيحية الغربية لذا عمدت الصهيونية إلى تمويل ما يطلق عليه " المعجزة الإسرائيلية " على المستوى الاقتصادي، وعلى صعيد التسليح أيضا (بما في ذلك التسليح النووي) مما ساعد على استحداث أسطورة داود الصغير الذي نجح في أن يقضي على عدوه العملاق جالوت بنبلة صغيرة وهي كناية عن دولة إسرائيل الصغيرة التي انتصرت على جيرانها العرب مجتمعين[٢].

(١) لمزيد من التفاصيل حول تبعية اليهود للمخطط الغربي وليس العكس الرجوع إلى كتاب «اليد الخفيَّة».

(٢) عن رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص ٢٠٠.

(١) سعد الدين وهبة من مقال «إسرائيل عارية» بجريدة الأهرام.

لقد قامت الصهيونية العالمية بالعمل على قيام دولة إسرائيل وتوفير كافة السبل لبقائها، والعمل على الحفاظ على تفوقها على جميع الدول العربية على كافة الأصعدة.

وكان اختيار فلسطين لإنشاء هذه الدولة اختيارا عبقريا فإسرائيل في هذا المكان تتمتع بموقع استراتيجي فريد على مفترق الطرق بين أوروبا وآسيا وإفريقيا وهي نفس الميزة التي تتمتع بها مصر.

كما أن إسرائيل ذات موقع اقتصادي مهم في قلب هذا الجزء من العالم الذي يحوي نصف بترول العالم عصب التنمية (بالمعنى الغربي) وهناك أيضا تلك الأسطورة اللاهوتية عن شعب الله المختار والتي تستخدم لتغطية أطماع الغرب في الموقع الاستراتيجي والموقع الاقتصادي لإسرائيل، وتضع تجاوزاتها بل وأخطاءها فوق أي قانون وأي عقوبة بشرية باعتبار أن كل ما تفعله هو تنفيذ لإرادة الله، ولذلك أصدرت الأمم ١٩٢ قرارا ضد إسرائيل لم تنفذ منها قرارا واحدا، إنها تعتبرها جميعها كما قال جميع رؤساء إسرائيل (حبرا على ورق)[(١)].

المساعدات الغربية لدولة إسرائيل

ونكتفي في هذا الفصل بذكر المعونات الاقتصادية والعسكرية التي وفرتها الصهيونية العالمية لقيام دولة إسرائيل.

أن مجموع المساعدات الأمريكية لإسرائيل إضافة إلى التعويضات الألمانية والجباية اليهودية منذ عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٩٦ ما يزيد عن ١٧٩,٤ مليار دولار، موزعة بين ٧٩,٦ مليار دولار مساعدات حكومية أمريكية متنوعة، ٦٠مليار دولار تعويضات ألمانية، ١٩,٤ مليار دولار جباية يهودية، ٢٣,٤ مليار دولار أصول أجنبية في إسرائيل. وحتى إذا استبعدنا الأصول الأجنبية الموجودة في إسرائيل على اعتبار أنها قد توطنت فيها لاعتبارات اقتصادية (وهو أمر غير صحيح لأنها كانت دائماً دولة في حالة حرب أو توتر ولا تغري أي مستثمر بتوطين الاستثمارات فيها) فإن المساعدات الخارجية المعروفة التي تلقتها إسرائيل منذ

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري موسوعة «اليهود واليهودية والصهيونية» م٧ ج١ «المعونات

إنشائها عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٩٦ قد بلغت نحو ١٥٦ مليار دولار بالأسعار الجارية على مدى سنوات تلقي إسرائيل لها، وهي توازي ما يزيد عن ٤٥٠ مليار دولار من دولارات الوقت الراهن.

وهناك مساعدات تحصل عليها إسرائيل في ظروف معينة مثل ما حصلت عليه عند التوقيع على معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٩ لتعويض ما فقدته، فحصلت على : بناء مطارين في النقب يعمل في كل منهما سربان أثناء العمليات بواسطة سلاح المهندسين الأمريكي، وتعزيز البنية الأساسية لقواعد بحرية وإنشاءات عسكرية ومراكز تدريب وثكنات، والحصول على معدات وأسلحة لتحديث قواتها، وبناء مدارس عسكرية، وبناء مخزنين في كل قاعدة جوية في النقب بهما قطع الغيار اللازمة، وهي تعمل بطريقة أوتوماتيكية بحيث يكفي ٣ أشخاص لتشغيل وإدارة كل مخزن، وقد تكلفت هذه الإنشاءات والمعدات ما يقرب من٢,٣ مليار دولار، والغريب أن كل معدات سلاح المهندسين التي قامت ببناء هذه الأبنية أعطيت منحة لإسرائيل.

علاوة على ذلك فإنه لا يمكن حصر المساعدات غير المنظورة التي تُعطَى للكيان الصهيوني، مثل هجرة العلماء إليها، فمثلاً يُقال إن معظم أعضاء قسم رسم الخرائط في الجيش البولندي هاجروا إلى إسرائيل بعد عام ١٩٦٧، كما أن كثيراً من العلماء اليهود يجرون تجاربهم في معامل جامعاتهم في الولايات المتحدة، ثم يعطون نتائجها لإسرائيل. وهذا شكل من أشكال المعونات يصعب حسابه.

ويمكن رصد أنواع أخرى من المساعدات غير المباشرة. ففي مجال الصناعات الحربية تسهم الولايات المتحدة في مشروع إنتاج الصاروخ "حيتس أو السهم" الإسرائيلي المضاد للصواريخ رغم تكرار فشله (وكذلك الحال مع الطائرة لافي من قبل). وفي مجال نقل التكنولوجيا نجد أنه رغم أن الولايات المتحدة تفرض قيوداً صارمة على عملية النقل هذه إلا أنها لا تُطبَّق على إسرائيل، التي تستخدم في صناعاتها الحربية معدات تكنولوجية أمريكية.

وتشير بعض الإحصاءات إلى أن ٣٦٪ من الصادرات الإسرائيلية تحتوي على

نظم أمريكية، ولذلك فإنه لو طُبِّقت القيود الصارمة على تصدير التكنولوجيا التي في حوزة إسرائيل لدولة ثالثة لأصيبت صادراتها بضربة قاسية.

وهناك نوع آخر من المساعدات غير المباشرة وهو فتح الأسواق الأمريكية للصادرات الإسرائيلية، وكذلك ما يُعرف بـ «الأسواق المتروكة»، وهي أسواق لا تستطيع الولايات المتحدة التورط فيها بطريقة مباشرة مراعاةً لمصالحها العليا، الأمر الذي يجعلها تلجأ إلى إسرائيل لملئها مؤقتاً مثل أسواق ديكتاتوريات أمريكا اللاتينية أو أسواق بعض النظم العنصرية مثل نظام جنوب أفريقيا السابق[1].

وفيما يتعلق بالمبالغ التي دفعتها ألمانيا لدولة إسرائيل سأعطي الكلمة لمن كان المفاوض الرئيسي لقيمة التعويضات، السيد ناحوم جولدمان الذي أورد تفاصيل ذلك في سيرته الذاتية، التي يقول فيها :

"في أوائل عام ١٩٥١ دخلت إسرائيل الحلبة لأول مرة بتوجيه مذكرتين إلى الحلفاء الأربعة بخصوص المطالبات اليهودية بالتعويضات من ألمانيا الجديدة والتي بلغت مليار ونصف مليار دولار، نصفها من ألمانيا الغربية والنصف الآخر من ألمانيا الشرقية.

وقام هذا المبلغ على الأساس الآتي :

استقبلت إسرائيل خمسمائة ألف يهودي تقريبا، وتكلفت إعادة دمج كل منهم نحو ثلاثة آلاف دولار. ونظرا لأن إسرائيل هي التي أنقذت هؤلاء الضحايا من براثن النازية، وتكبدت تكاليف مالية باهظة، فقد رأت أنها في حل من فرض هذه الطلبات باسم الشعب اليهودي، رغم أن هذا لا يقوم على أي أساس قانوني، وذلك لأن الدولة اليهودية لم يكن لها وجود عند قيام النظام النازي .

وكانت الدفعات الألمانية عاملا حاسما في الانطلاقة الاقتصادية لإسرائيل خلال تلك الأعوام، وكنت لا أدري ماذا سيكون مصير إسرائيل في الأوقات الحرجة لاقتصادها لو أن حكومة ألمانيا لم تحترم تعهداتها.

---

(١) ناحوم جولدمان «السيرة الذاتية» باريس ١٩٦٩ نقلاً عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الخارجية للدولة الصهيونية الوظيفية»، مرجع سابق.

فالسكك الحديدية، والتليفونات، ومنشآت الموانى، ونظم الري، وفروع بأكملها من الصناعة والزراعة، ما كانت ستصبح على ما هي عليه الآن بدون التعويضات الألمانية. وأخيرا تلقى مئات الآلاف من الضحايا اليهود مبالغ محترمة في هذه السنوات الأخيرة بموجب قانون التعويضات.

وفي صبيحة يوم وصولي إلى تل أبيب قمت بزيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي بن جوريون الذي استقبلني وقد ارتسمت على وجهه علامات الجدية وهو يقول : " لقد كان لي ولك حظ في أن نحيي معجزتين : إنشاء دولة إسرائيل، والتوقيع على الاتفاق مع ألمانيا. كنت أنا المسئول عن المعجزة الأولى، وأنت (أي ناحوم جولدمان) عن المعجزة الثانية"(١).

وفي كتاب آخر من كتبه " التناقض اليهودي " لا يحكي جولدمان مفاوضاته مع ألمانيا فحسب بل والكيفية التي ابتز بها تعويضات من النمسا ومن مستشارها "راب " فقد قال للمستشار : يجب أن تدفعوا تعويضات لليهود، ويرد عليه المستشار : ولكننا كنا أنفسنا ضحايا الألمان ! واستطرد جولدمان قائلا : في هذه الحالة سأستأجر كبرى دور لعرض السينمائي في فيينا وسأعرض فيها كل يوم الفيلم الذي يصور دخول القوات الألمانية وهتلر فيينا في مارس ١٩٣٨م.

وعندئذ قال "راب": موافق ستأخذون أموالكم !

وكانت هذه الأموال في حدود ٣٠ مليون دولار. وفي وقت لاحق عاد جولدمان وقال : يجب دفع ٣٠ مليون أخرى !

فقال راب : لقد اتفقنا على ٣٠ مليون فقط.

فرد عليه جولدمان : الآن يجب أن تقدموا أكثر.

وحصل عليها. ثم عاد مرة ثالثة وحصل على نفس المبلغ.

فبالإضافة إلى " التعويضات " تتمتع إسرائيل بإمدادات لا حد لها من الأسلحة والأموال التي تأتي أساسا من الولايات المتحدة حيث يلعب اللوبي اليهودي دورا فعّالا في ذلك، وكذلك المنح والهبات المقدمة من أبناء الشتات.

---

(١) الأيكونوميست الإسرائيلي سبتمبر ١٩٦٧ نقلاً عن «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص١٩٧-١٩٩.

وكشف بنحاس سابير وزير المالية أثناء مؤتمر المليارديرات اليهود الذي عقد في القدس عام ١٩٦٧ ، أن دولة إسرائيل قد تلقت في الفترة من ١٩٤٩- ١٩٦٦ مبلغ قدره (٧) مليارات دولار[1].

وكانت المنظمات اليهودية الأمريكية ترسل كل سنة وفي المتوسط مليار دولار لإسرائيل (وكانت هذه المساهمات تعتبر مساهمات خيرية وتخصم من ضرائب المانح أي أنها تقع على عاتق دافعي الضرائب الأمريكيين) ومع ذلك فمعظم المساهمات كانت تأتي من الدولة الأمريكية مباشرة، والتي ارتفعت معونتها إلى أكثر من ثلاثة مليارات دولا سنويا، نصفها تقريبا يتحول إلى منح وهبات لا ترد.

وتتكون هذه المعونة السنوية من شحنات للأسلحة كانت تمول بطريقة خاصة بموجب قانون مراقبة تصدير الأسلحة لعام ١٩٧٦م تفاديا لانتقادات الجمهور.

ويكفي أن نذكر هنا أن معونة " مشروع مارشال " المقدمة إلى أوروبا الغربية في الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٤ قد وصلت إلى ١٣ مليار دولار، أي أن دولة إسرائيل بأقل من مليونين من السكان قد حصلت على أكثر من نصف ما تلقاه مائتي مليون أوروبي.

وعلى سبيل المقارنة أيضا فإن المليارات السبعة التي حصلت عليها إسرائيل في ثمانية عشر عاما كمنح، وتمثل ما يزيد على مجموع الدخل القومي السنوي للعمل في كل البلاد العربية المجاورة (مصر وسوريا ولبنان والأردن) الذي بلغ في عام ١٩٦٥، ستة مليارات .

وإذا أخذنا في الاعتبار المساهمة الأمريكية وحدها، يلاحظ أن الولايات المتحدة قد منحت من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ مساعدات بلغت في متوسطها ٤٣٥ دولارا لكل إسرائيلي، ٣٦ دولارا لكل عربي !![2].

وباختصار يكفي رقم واحد للدلالة على طابع دولة إسرائيل الصهيونية : فإن مجموع "المعونة" الرسمية الأمريكية التي تتلقاها إسرائيل وحدها يعادل ما يزيد

الإسرائيلية، مرجع سابق ص ٢٠٠ .

(٢) جورج قرم «مالية إسرائيل» ١٩٦٨ نقلاً عن الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية مرجع سابق ص٢٠١،٢٠٢

(١) رجاء جارودي «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية» مرجع سابق ص٢٠٤،٢٠٥ .

على ١٠٠٠ دولار للفرد أي كبقشيش يضاف إلى دخله القومي، وهو ما يزيد ثلاث مرات على إجمالي الدخل القومي للفرد في مصر، وفي معظم البلدان الأفريقية.

إسرائيل مشروع استثماري غربي

إذن قيام دولة إسرائيل لم يكن معجزة أو عملا استثنائيا في التاريخ إنما هو مشروع استثماري غربي شارك فيه عديد من الدول. فقد وضع أسسه إنجلترا وساهم في تمويله ألمانيا والنمسا، وأتمت بناءه واستغلاله الولايات المتحدة الأمريكية، وعليه فإن هذا المشروع الاستيطاني المسمى " دولة إسرائيل " ما كان له أن يتم بجهد اليهود وحدهم إنما تم بفضل المعونات الغربية، وسوء السياسة العربية.

والحقيقة أن اليهود ليسوا إلا جماعة وظيفية استعملها الصليبيون الجدد لتحقيق أهداف استعمارية معتمدين على ضعف العرب، و تخلفهم، و تفرق كلمتهم .

وفي هذا الصدد يفصح الأستاذ يشاياهو ليبوفيتش عن رأيه في الدولة الصهيونية قائلا: "إن نظامنا عفن وفاسد من أساسه"، وذلك لسببين هما :

١- المصيبة كلها نشأت من أن كل شيء قد ارتكز حول الوطن والدولة. فإذا كان الوطن والدولة هما الغاية في حد ذاتها فاليهودية مرفوضة لأن دولة إسرائيل أهم.

" إن القومية هي تدمير لجوهر الإنسان "ودولة إسرائيل ليست بدولة تملك جيشا، ولكنها جيش يملك دولة.

٢- ارتهان هذه الدولة بالولايات المتحدة.

"والأمريكان لا يهمهم سوى فكرة الاحتفاظ هنا بجيش من المرتزقة الأمريكيين في زي التساحل (الجيش الإسرائيلي) وإن قوة الكلمة اليهودية تأتي من القفاز الفولاذي الأمريكي الذي يلفها والدولارات التي تبطنها[١].

لقد استمرت المساعدات الخارجية لإسرائيل في تدفقها على مستوى عالٍ

(١) أنطون د. زحلان «العلم والتعليم العالي في إسرائيل» ترجمة محمد صالح العالم

وذلك لأن المانحين قد استفادوا بنفس الدرجة -على الأقل- التي استفاد بها الممنوحون وأن هذا لينطبق بوجه خاص على كل من يهود أمريكا وحكومة ألمانيا الغربية. أما يهود أمريكا فقد داخلهم شعور من خلال تزويدهم للحكومة الإسرائيلية وللمؤسسات الإسرائيلية وللأفراد الإسرائيليين بأنهم إنما يشاركون في إنجازات عظيمة كما أنهم وجدوا في ذلك معانيَ جديدة للكرامة الشخصية وفرصا للنشاط الخلاق.

وأما حكومة ألمانيا الغربية فقد حصلت على غفران جزئي عن الجرائم البشعة التي اقترفها النازيون وقد مكنها ذلك من الحصول على مساعدات اقتصادية من الولايات المتحدة الأمريكية ومن النجاح في خططها الرامية إلى تطوير اقتصادي سريع، كما مكنها من الانضمام تدريجيا إلى المجتمع الدولي"[١].

وقد أصبحت إسرائيل نتيجة هذا الدعم المستمر بلداً كل ما فيه مموَّل أو مُدّعَم من الخارج: حمام السباحة في النادي، معمل قسم الطفيليات في الجامعة، مشروعات إعانة الفقراء، المتحف الذي يذهب المواطن لزيارته، بل حتى البرامج الإذاعية التي يسمعها. وبطبيعة الحال الجيش الذي يدافع عنه، والوجبة التي يتناولها. إن مثل هذا الوضع يقوض دعائم الأخلاقيات الاجتماعية وأي إحساس بالعزة القومية. والصهيونية تستمد شرعيتها أمام اليهود من ادعائها أنها حولتهم إلى شعب له كرامته القومية مثل كل الشعوب.

وقد بدأت الحكومة الأمريكية تتدخل في السياسات الداخلية للمستوطن الصهيوني وبخاصة الشئون الاقتصادية والعسكرية، وأصبحت هذه السياسات يتم تقريرها على أمل أن تحوز إعجاب واشنطن. وهذه قضية تثير قلقاً عميقاً داخل المُستوطَن الصهيوني. وكما قال ييجال يادين: "إن المعونة الأمريكية تشكل الخطر الأساسي على مستقبلنا الروحي". ولكن لا يوجد حل ولو نظري لهذه المشكلة في الوقت الحاضر على الأقل.

والمعونات الخارجية أدت إلى ظهور بعض الظواهر الفريدة في المجتمع الإسرائيلي. فالمعونات الألمانية -على سبيل المثال- خلقت بشكل فجائي فوري طبقة من الإسرائيليين الأثرياء (من أصل أوروبي) تمكنوا من الانتقال من الأحياء

الفقيرة إلى أحياء أكثر ثراء، وغيَّروا أسلوب حياتهم بشكل كامل. هذه النقود السهلة (كما يسمونها)، أي النقود التي لم يكدَّ أحد من أجلها، تُعرِّض المجتمع لهزات اجتماعية وتُولِّد فيه التوترات.

ونتيجة المعونات ازداد عدد كليات الطب في إسرائيل بشكل غير طبيعي في بلد يوجد فيه فائض كبير من الأطباء الأمر الذي يتسبب في هجرة العديد منهم. وقد لخص أحد الرأسماليين الإسرائيليين أثر المعونات السلبي في المجتمع الإسرائيلي بقوله: "إنه قد يضطر لإغلاق مصنعه لو زادت المنح الخارجية لإسرائيل، إذ أنها ستوزَّع على العمال الذين يمكنهم بذلك تحقيق دخل لا بأس به دون الحاجة للعمل"، أي أن المعونة تحوِّل اليهود إلى شعب طفيلي غير منتج مرة أخرى.

ونتيجة انسحاب اليهود من الأعمال الإنتاجية دخلت العمالة العربية كل مجالات الحياة وضمنها الكيبوتس الذي يستفيد منها بسبب انخفاض تكلفتها. وبدأت الأعمال الضرورية في الزراعة والبناء والمصانع تنتقل تدريجيا إلى أيدي العرب، وهناك فروع كاملة أو جزء كبير منها لم يَعُد موجوداً بين أيدي عمال يهود.

وفي أعقاب احتدام أزمة نموذج الصهيونية العمالية منذ منتصف الثمانينيات وظهور الدعوة لتطبيع الاقتصاد الإسرائيلي، تعالت الأصوات منادية بضرورة إعادة النظر في اعتماد إسرائيل على المساعدات الخارجية، وداعية إلى ضرورة تَوجُّه إسرائيل نحو جذب رؤوس أموال غير مسيَّسة عن طريق توفير مناخ استثماري أفضل لضمان تدفُّق رؤوس الأموال على إسرائيل سواء في شكل استثمارات أجنبية مباشرة أو استثمارات في حوافظ الأوراق المالية، عن طريق ما يُعرف بالوعاء الاستثماري للدولة أو صندوق الدولة الذي يتم تسجيله كشركة قابضة في إحدى البورصات ثم يقوم بإصدار أوراق مالية يتم تداولها في البورصات العالمية، على أن يقوم هذا الصندوق باستثمار حصيلة بيع الأوراق

مؤسسة الدراسات الفلسطينية بالاشتراك مع دار الهلال ص١٢.

(١) د. عبد الوهاب المسيري «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» م٧ ج١ المعونات

المالية في مجموعة من الشركات الإسرائيلية سواء عن طريق شراء أسهم وسندات هذه الشركات أو عن طريق الاستثمار المباشر (وهو ما تم بالفعل منذ عام ١٩٩٢ إذ تم إنشاء ما يُعرف بصندوق إسرائيل الأول).

وتبلورت هذه الاتجاهات بشكل احتفالي خلال الزيارة الأولى التي قام بها بنيامين نتنياهو إلى الولايات المتحدة عقب توليه الحكم. فقد شهدت هذه الزيارة - ولأول مرة منذ قيام دولة إسرائيل -إعلان رئيس وزراء إسرائيلي عن استعداده لبحث خفض المعونة الأمريكية لإسرائيل بدعوى أن الاقتصاد الإسرائيلي وصل لمرحلة من التطور تغنيه عن المساعدات الخارجية! ونجاح إسرائيل في الاستغناء عن المساعدات الخارجية (التي مثّلت -إلى جانب موجات الهجرة لإسرائيل- إحدى دعامتين قام عليهما نموذج الصهيونية العمالية) يمكن أن يُعَد مؤشراً بالغ الدلالة على قدرة الاقتصاد الإسرائيلي على تجاوز أزماته وإمكانية نجاح التطبيع على الأقل على المستوى الدولي[1].

وإذا كان اليهود قد اجتهدوا في الاستفادة من المنح والهبات التي قدمت إليهم في إنشاء دولة قوية متقدمة فإن العرب مع الأسف لم يحسنوا استثمار مواردهم الطبيعية والبشرية.

ويقدر مصرفيون حجم الثروات الخليجية الفردية المستثمرة في الخارج فقط بنحو ١,٢ تريليون دولار .

فماذا لو سُحبت هذه الأموال، بالإضافة إلى مليارات الدولارات التي يملكها عرب ومسلمون من مختلف أنحاء العالم ؟ وتم استثمارها في البلاد العربية؟[٢].

ولأهمية هذا الموضوع فإننا خصصنا كتابا مستقلا لمناقشة هذا الموضوع بالتفصيل تحت عنوان " معجزة إسرائيلية أم خيبة عربية ".

الخارجية للدولة الصهيونية الوظيفية مرجع سابق.

(٢) عبد الكريم حمودي، إسلام أون لاين ٢٠٠١/١١/٢٩ .

6

الباب الثاني

الفصل السادس

أسطورة بناء اليهود أهرام مصر

الباب الثاني

الفصل السادس

أسطورة بناء اليهود أهرام

□□

من أعجب الأساطير الصهيونية وأشدها غرابة، وأجرأها على الحق أسطورة بناء اليهود أهرام مصر إبان وجودهم في مصر في الفترة ما بين دخولهم أيام يوسف عليه السلام وخروجهم على يد موسى عليه السلام!!

ويرجع تاريخ هذه الأسطورة إلى الأول من أبريل عام ١٩٧٩ وهو تاريخ زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلي "بيجين" للأهرامات وأبي الهول وتصريحه بأن الإسرائيليين هم الذين قاموا ببناء الهرم الأكبر، وفي حين أن المصريين اعتبروا هذا التصريح مجرد دعابة أو كذبة أبريل كان ذلك التصريح بمثابة طلقه إعلان المباراة بين كتَّاب الإسرائيليات ومؤرخي الصهيونية في نشر الأكاذيب والمغالطات في كتابة تاريخ الأهرام ومحاوله تأكيد نسبها إلي اليهود الذين منحهم يهوه الأرض من النيل إلى الفرات ملكا أبديا.

وحاولوا تأكيد ذلك بما تعبر عنه نجمه إسرائيل التي قاموا بتشكيلها بتطبيع الأهرامات وقلب أوضاعها فيعبر الهرم المعتدل بقاعدته عن نهر النيل أرض مصر وتعبر قمته عن نهر الفرات. بينما تعبر قاعدة الهرم المقلوب عن نهر الفرات أرض الكنعانيين وتصل قمته إلى أرض النيل.

وحاولوا عبر تاريخهم الذي اتسم بالخداع والتزوير إقناع العالم بما ترمز إليه وتعبر عنه نجمه إسرائيل عن حدود ملكهم وأملاكهم التي تمتد من النيل إلى

الفرات والتي اتخذوا شكلها من شكل الأهرام التي قاموا ببنائها رمزا لحضارتهم وتعبيرا عن فلكهم وأملاكهم التي تمتد من النيل إلي الفرات وعندما قاموا باحتلال أرض سيناء بمعاونه شعوب الغرب أعلنوا أنهم قاموا باحتلالها استردادا لجزء من وطنهم المسلوب الذي يمتد من النيل إلي الفرات كما تعبر عنه نجمتهم المقدسة[1].

ولقد قام الإسرائيليون مؤخرا باتخاذ الأهرامات المصرية رمزا لقناة فضائية إسرائيلية تأكيدا لأسطورة أنهم بناة الأهرام لا المصريين.

ولعل أهم أسباب انتشار هذه الأسطورة هو الربط بين ما أورده هيرودوت وما ذكرته التوراة، فقد ذكر هيرودوت أن الفراعنة كانوا يسخرون العبيد في بناء الأهرامات والأبنية, وذكرت التوراة أن ملك مصر قد سخَّر اليهود في أعمال البناء وجعل المصريين رؤساء عليهم لكي يذلوهم, وأن بني إسرائيل قد بنوا قريتي بيثوم و بر رعمسيس لتكونا مخازن لفرعون.

"وَمَا لَبِثَ أَنْ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ فَقَالَ لِشَعْبِهِ: «هَا بَنُو إِسْرَائِيلَ أَكْثَرُ مِنَّا وَأَعْظَمُ قُوَّةً. فَلْنَتَآمَرْ عَلَيْهِمْ لِكَيْلاَ يَتَكَاثَرُوا وَيَنْضَمُّوا إِلَى أَعْدَائِنَا إِذَا نَشَبَ قِتَالٌ وَيُحَارِبُونَا ثُمَّ يَخْرُجُوا مِنَ الأَرْضِ» فَعَهِدُوا بِهِمْ إِلَى مُشْرِفِينَ عُتَاةٍ لِيُسَخِّرُوهُمْ بِالأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ. فَبَنَوْا مَدِينَتَيْ فِيثُومَ وَرَعَمْسِيسَ لِتَكُونَا مَخَازِنَ لِفِرْعَوْنَ "، (الخروج: ١) .

وقرية رعمسيس تعني مدينه الملك رمسيس وتقع في منطقه تل الضبعة بشرق الدلتا وبالتحديد بجوار قنتير وتعمل بها حاليا بعثه نمساوية برئاسة العالم النمساوي منفريد بتاك وقد عثر على أدلة قاطعة على أن هذا الموقع كان عاصمة الهكسوس ثم بعد ذلك استُخدِم عاصمة للرعامسة في الأسرة التاسعة عشرة، وفي العصور المتأخرة نقل بقايا معبد لرمسيس الثاني إلى صان الحجر مما دفع العديد من علماء المصريات للاعتقاد خطأ بأن صان الحجر هي مقر مدينه الرعامسة بالدلتا[2].

---

(١) د. سيد كريم «اليهود والهرم الأكبر» جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠١/٥/١ .

(٢) زاهي حواس جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠١/٦/١ .

الرد على أسطورة بناء اليهود أهرام مصر

ومع أن أسطورة بناء اليهود لأهرام مصر لا تستحق الرد فهي بينة الوضع لقيطة النسب لا تستند إلى دليل ديني ولا تاريخي ولا حتى منطقي، لكن تبجح اليهود في الدعاية لهذه الأسطورة، وإصرارهم الشديد على إثبات صحتها. وجعل الأهرامات المصرية رمزا لقناة فضائية إسرائيلية هو ما دعانا إلى الرد على هذه الأسطورة ردا علميا مؤيدا بأدلة دينية وتاريخية ومنطقية ولغوية.

أولا: الأدلة الدينية

لم تنص توراة اليهود على تسخير فراعنة مصر لبني إسرائيل في بناء أي من الأهرام، بل لم ترد كلمة هرم في التوراة على الإطلاق في حين أن توراة اليهود قد نصت على القريتين اللتين زعم اليهود تسخير فرعون مصر لبني إسرائيل في بنائهما وهما قريتا بيثوم و بررعمسيس، ولو شارك اليهود بحمل حجر واحد في بناء أي هرم لبادرت التوراة في ذكر ذلك إما لتنسب لليهود شرف بناء الأهرام أو لتثبت مدى القهر الذي مارسه فراعنة مصر عليهم فما كان أي هرم من أهرام مصر الخالدة ليبنى إلا بجهد خارق وتضحيات كبيرة.

إن للأهرامات المصرية أهدافا وثيقة الصلة بالفكر الديني في مصر القديمة خاصة ديانة الشمس فالشكل الهرمي كان هو التل الأزلي الذي خرج من المياه الأزلية (نون) ووقفت فوقه روح الإله الخالق " رع "[1]، متجسدة في هيئه طائر "الفونكس" ويدا من عليه هذا الإله الذي خلق: الكون، والحيوانات، والنباتات، والبشر أجمعين.

ولما كان الملك في الفكر المصري القديم عند وفاته يرجع إلى إلهه " رع " الذي يرمز له بقرص الشمس لذلك وجب دفن الملك في بناء يماثل تل الخليقة

---

(١) كان للفراعنة إله واحد هو «رع» وهو رب الأرباب، وخالق الكون، ورمزوا إليه بالشمس ذات الأجنحة وأسفل منها ثمانية تحمل عرش الإله رع وهو حملة العرش وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم فيقول أجل شانه ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ (الحاقة:١٧) انظر تفاصيل عقيدة التوحيد عند الفراعنة كتاب، «هذه استراتيجيتهم، فماذا نحن فاعلون؟» للمؤلف الفصل الرابع الحضارة المصرية القديمة، مرجع سابق.

الأزلي الأول. وتأكيدا لارتباط البناء الهرمي الشكل لمقبرة الملك بعقيدة إله الشمس يعتقد علماء المصريات أن المصري القديم قد لاحظ سقوط أشعة الشمس على شكل هرم يربط بين السماء والأرض، لذلك اتخذ المصري القديم الشكل الهرمي لدفن الملك أسفله، فَوِفْقاً لما هو مدون في نصوص الأهرام إن الملك سوف يرتقي على درجات الشكل الهرمي ليصعد إلى السماء. فالشكل الهرمي إذن مرتبط بمصر والمصريين دينيا منذ أقدم العصور(١).

ثانيا: الأدلة التاريخية

إن أول خطوه في البحث عن الحقيقة تبدأ بعلاقة نزول بني إسرائيل بأرض مصر وتاريخ بناء الأهرام وارتفاعها علي أرض مصر.

والثابت تاريخيا أن دخول بني إسرائيل مصر كان في عصر الهكسوس، ومن المؤرخين من يرى أن بني إسرائيل هم الهكسوس أنفسهم، فكلاهما من البدو الرعاة النازحين من قفار آسيا إلى جنات مصر، ولكن الرأي الراجح أن بني إسرائيل غير الهكسوس وإن كانوا قد عاونوا الهكسوس على احتلال مصر والبطش بأهلها بالتجسس لصالحهم والعمل إلى جانبهم مما أغضب المصريين عليهم لذا قاموا باستعبادهم واضطهادهم بعد طرد الهكسوس من مصر انتقاما منهم لمعاونتهم للهكسوس(٢).

" لا جدال بين العلماء أن الهكسوس أتوا من الشرق وأنهم جاءوا من آسيا ولكن إذا أردنا أن نقترب أكثر من ذلك لنعرف من أي جنس كانوا فإننا نصل إلى النتيجة الآتية: وهي أنهم ليسوا من جنس واحد وإنما من أجناس متعددة وأنه وإن غلبت في أسمائهم الأسماء السامية فإننا نجد أيضا أن فيهم عناصر غير سامية.

وكلمة هكسوس ليست اسما ساميا أو آريا بل كلمة مصرية وهي تحريف للقب معروف منذ الأسرة الثانية عشرة وهو " حقا خلسوت " أي حاكم البلاد الأجنبية،

---

(١) الآثار زاهي حواس جريدة الأهرام ٢٠٠١/١/٦ .

(٢) انظر «حقيقة اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية» الفصل الخامس: بنو إسرائيل في التاريخ الإنساني العام للمؤلف. دار الإبداع.

وكان لقبا يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التي كانت تعيش في شرق مصر، ونراه مكتوبا فوق منظر البدو الساميين في إحدى مقابر بني حسن.

وتجمع المصادر المصرية على أن الهكسوس كانوا قوما مخربين وأنهم أذلوا مصر وخربوا معابدها، وإذا رجعنا إلى الآثار نفسها لوجدنا أن مدة احتلال الهكسوس مصر لم تدخل أي تطور ملحوظ على الفن أو الحياة المصرية فكل شيء سار في مجراه الطبيعي[1].

وسواء أكان بنو إسرائيل جنسا من الأجناس المتعددة التي يتكون منها الهكسوس الذين غزوا مصر أم أنهم نزحوا إلى مصر في عصر الهكسوس فمن الثابت أن بناء الأهرام قد تم في الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ - ٢٥٦٠)ق.م[2]. وأن الرأي المتفق عليه نهائيا بين العلماء أن بدء حكم الهكسوس لابد أن يقع بين عامي ١٧٣٠ و ١٧٢٥ ق.م[3]. وعليه فإن بني إسرائيل عندما سكنوا مصر كان قد مضى على بناء الأهرام أكثر من ٨٠٠ عام.

ويرى د. زاهي حواس أمين عام المجلس الأعلى للآثار " أن العبرانيين قد دخلوا مصر مع دخول الهكسوس في حوالي عام١٦٥٠ ق.م ومكثوا في مصر مائة عام وقد حاول المؤرخ اليهودي يوسفوس الذي حرَّف لنا ما كتبه المؤرخ المصري السمنودي مانيتون فقال إن اليهود هم أنفسهم الهكسوس، وأن سلمنا جدلا بهذا فان اليهود قد جاءوا إلى مصر أفرادا مهاجرين بعد أكثر من ٧٠٠ عام بعد بناء أهرامات الأسرة الرابعة, وقد عملوا ضمن الخدم في المنازل المصرية قد ظهر خلال الدولة الحديثة أسماء تحمل الصفة العبرية إذ كشف أخيرا بسقارة مقبرة لرئيس وزراء مصر في عصر الأسرة الثامنة عشرة ويحمل اسم عبريا وقد حاول المكتشف أن يربط بين هذا الاسم وبين العبرانيين.

وما أبغيه الآن هو أن نضع في الاعتبار أن اليهود لم يكن لهم وجود في مصر

---

(١) د. أحمد فخري «مصر الفرعونية» مكتبة الأنجلو المصرية ص٢٠٢-٢٠٥.

(٢) نفسه ص٦٨.

(٣) نفسه ص ٢٠٦.

إطلاقا خلال الدولة القديمة حيث تتوافر لدينا دلائل علمية قاطعة تنفي وجودهم في مصر خلال هذه الفترة"(١).

ويقول د. سيد كريم : "بنو إسرائيل جاءوا إلي مصر مع يعقوب عليه السلام المسمى بإسرائيل والذي نسب اليهود أنفسهم إلى اسمه.

دخل اليهود إلى مصر بصحبة النبي يوسف وفي صحبة أبويه عام ١٦٥٦ وكان عددهم سبعون شخصا وقال لهم: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

وتصف التوراة أنهم عاشوا منفردين بأنفسهم غير متحابين مع المصريين ويؤكد ذلك قيام موسى عليه السلام بقتل أحد المصريين مما أدى إلى هروبه من مصر إلى مدين في الشام خوفا من المصريين الذين يناصبون الإسرائيليين العداء"(٢).

وسواء أكان الهكسوس هم بنو إسرائيل أم غيرهم فمن الثابت تاريخيا أن أهرام مصر العظيمة كانت قد بنيت من عهد بعيد ولا فضل لهم في المشاركة في بنائها ولو بحمل حجر كما أن فترة وجود بني إسرائيل في مصر لم يتم فيها أي إنجاز فني أو معماري يذكر بالقياس لبقية عصر مصر الفرعونية.

ولم يذكر التاريخ المصري القديم شيئا عن بني إسرائيل إلا مرة واحدة في اللوحة التي كُتِبَت في عصر مرنبتاح وهي المسماة " لوحة إسرائيل " والتي جاء فيها أن من أعمال مرنبتاح العظيمة هي انتصاره على الليبيين وقضائه على بني إسرائيل وتطهير مصر منهم.

"وإسرائيل خُربت وليس بها بذر"(٣).

ويعلق سليم حسن على العبارة الأخيرة الخاصة ببني إسرائيل فيقول " هذا هو أوَّل عهدنا باسم إسرائيل، بل هي المرة الأولى التي ذكر فيها الاسم في نص

---

(١) زاهي حواس جريدة الأهرام ٢٠٠١/١/٦ .

(٢) د. سيد كريم «اليهود والهرم الأكبر» جريدة الأهرام بتاريخ ٢٠٠١/٥/١ .

(٣) نقلاً عن سليم حسن «موسوعة مصر القديمة» الجزء السابع مرجع سابق ص١٠٠، ١٠١.

مصري، وبموازنته بأسماء أخرى نجد أن كلمة إسرائيل كتبت لتدل على شعب لا على بلد [1]. و"يقول في موضع آخر " هذه اللوحة قد ذكرت لنا إسرائيل للمرة الأولى والأخيرة أيضا وعلى ذلك تكون الإشارة إلى هؤلاء القوم هنا تشير إلى حادثة الخروج وعدم وجودهم في مصر، " إني لا أزال مُسلّماً بوجهة النظر التي أدلى بها " لبسيوس " عن موضوع خروج بني إسرائيل – وهي التي يقتفيها معظم الأثريين – أن مضطهد اليهود هو " رعمسيس الثاني " الذي كان حكمه الطويل بداية انحلال الإمبراطورية المصرية، وأن الفرعون الذي ينسب إليه خروج بني إسرائيل ابنه " مرنبتاح"[2].

ويؤكد علماء الآثار عدم وجود أي أثر لبني إسرائيل في سيناء بعد خروجهم من مصر رغم أنهم مكثوا فيها أكثر من أربعين سنة، فلو كان لهم مثقال من حضارة أو درهم من علم لخلفوا لنا شيئا يدل على ذلك في سيناء .

وفيما يتعلق بقصة خروج بني إسرائيل من مصر والتوهان في الصحراء وجبل سيناء، فقد حاول عدة باحثين تحديد موقع جبل سيناء، ومحطات وقوف أسباط إسرائيل في هذه الصحراء، إلا أنهم لم يتمكنوا من اكتشاف أثر واحد يتطابق مع الصورة التي ترسمها التوراة. وبهذا الخصوص كتب عالم الآثار البروفسور يسرائيل فنكلشتاين من جامعة تل أبيب يقول " خلال عشر سنوات من البحث الأثري العلمي لم يتم اكتشاف أية براهين أثرية لحكاية الخروج من مصر. ورغم حراثة سيناء كلها ودلتا النيل طولاً وعرضاً وعمقاً، ليس هنالك أية براهين على أن الإسرائيليين القدامى قد مروا من هناك. فهنالك أدلة مكتوبة حول عبور جماعات من المتسللين الرحل من سيناء إلى مصر، وقد نقل موظفو الحكم المصري التقارير عن ذلك، وليس هناك من أدلة على وجود تجمع سكاني عبري أيّاً كان استوطن فيه يعقوب أو أبناؤه أو غيرهم من الإسرائيليين الآخرين في مصر نفسها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد والذي يعتبر فترة حدوث المجريات المفترضة في الحكاية ".

---

(١) سليم حسن «موسوعة مصر القديمة» الجزء السابع مرجع سابق ص١٠١.

(٢) نفسه ص١٠٩.

ويعتقد أغلبية المؤرخين اليوم أن مكوث الإسرائيليين القدامى في مصر وخروجهم منها كانا في أقصى الأحوال تصرفا لبعض العائلات " وتم توسيع حكاية هذه العائلات وتأميمها من أجل خدمة الأيدلوجية اللاهوتية الدينية لتشمل الشعب كله"[(١)].

ثالثا: الأدلة اللغوية

يمكن حصر الأدلة اللغوية التي تهدم ادعاءات اليهود في بناء الهرم في الآتي

١- أن لغة بني إسرائيل كانت العبرية وكانوا يحتاجون إلى مترجمين عندما يتحدثون مع المصريين، وقد استخدم يوسف مترجما في حديثه مع إخوته وتوراة اليهود تنص على هذا: " وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُوسُفَ كَانَ فَاهِماً حَدِيثَهُمْ، لأَنَّهُ كَانَ يُخَاطِبُهُمْ عَنْ طَرِيقِ مُتَرْجِمٍ " (التكوين: ٤٢)

ولا توجد أية كتابات عبرية علي أي أثر من آثار مصر فما كتب عليها كان بالخط المصري القديم "الهيروغليفي"[(٢)].

٢- عند دراسة أسماء المصريين خلال الدولة القديمة لم يعثر من بينها على اسم واحد له صلة بالعبرانيين خاصة أن لدينا دراسة علمية دقيقة وموثقة على جميع أسماء المصريين القدماء خلال الدولة القديمة قام بها العالم الألماني هرمان رانكه ونشرها في كتابه عام ١٩٣٢ م[(٣)].

٣- ليس من بين الأسماء التي ظهرت في مقابر عمال بناة الأهرام في الجبانة السفلية الخاصة بالعمال الذين نقلوا الأحجار أو الجبانة العلوية الخاصة بالفنانين والصناع والنحاتين اسم واحد له صلة من قريب أو بعيد بالعبرانيين بل جميعها أسماء مصرية خالصة للعمال والفلاحين الذين شاركوا في بناء الأهرام.

وإن صحيفة " ها ارتس " الإسرائيلية قد نشرت مقالا ترجمه الأستاذ أحمد غريب بجريدة الميدان بتاريخ ١٠ / ٥ / ٢٠٠٠ م، وفيه تقول الصحيفة بالحرف

---

(١) محمد فياض صلاحات «الرواية التوراتية لتاريخ بني إسرائيل على ضوء المكتشفات الأثرية الحديثة» نقلاً عن المركز الفلسطيني للإعلام.

(٢) بعض الآثار المصرية القديمة كان مكتوبًا عليها بخطوط هيراطيقية أو ديموطيقية.

(٣) زاهي حواس جريدة الأهرام ٢٠٠١/١/٦ .

الواحد: " إننا نعترف ونقر بأن المصريين القدماء هم بناه الأهرام خاصة بعد الكشف الأخير الذي حدث بمنطقه الهرم عن مقابر بناة الأهرام ".

٤- إن كلمه هرم في العبرية التي تشبه في صورتها الكلمة العربية هرم تختلف في المعني عن معنى كلمة هرم في اللغة العربية، فبينما كلمة هرم في العبرية تعني الصرح أو البناء المرتفع نعرف جميعا أنها في اللغة العربية تعني ذلك الشكل الهرمي[١].

رابعا: الأدلة المنطقية

لو كان اليهود هم الذين بنوا الأهرام التي كانت تمثل عقيدة المصريين القدماء فإما أن اليهود قد اعتنقوا هذه العقيدة وبالتالي فإنهم سيقومون ببناء أهرام في كل مكان حلوا به وهذا لم يحدث قط، وإما أنهم كانوا يدينون بدين آخر غير الديانة المصرية -وهذا هو الرأي الثابت- فكيف يشاركون في بناء مقدس لآلهة أخرى ؟ وإن قيل قد سُخِّرُوا لهذا العمل فإما أنهم كانوا هم المهندسون والمبدعون للبناء، وإما أنهم كانوا مجرد عمال ينفذون الأوامر فقط فإن كانوا هم المهندسون والمبدعون لهذا البناء المعجز فإنهم حتما كانوا على درجة علمية خارقة، وبالتالي فإنه من المنطقي بعد خروجهم من مصر أن يحملوا معهم هذه العلوم ويصنعوا بها حضارة كالحضارة المصرية القديمة أو على الأقل تدانيها وهذا ما لم يحدث قط فليس لليهود حضارة تقارن بالحضارات الكبرى كالحضارة المصرية القديمة واليونانية والإسلامية وليس لهم أي إسهام يذكر في تطور الحضارات الإنسانية.

كما أنه من غير المنطقي أن هؤلاء المسخرين يصنعون بناء عجز البشر حتى اليوم عن فهم أسرار بنائه فضلا عن بناء مثله، فالقهر يشل التفكير ويقتل الإبداع ويئد المواهب. إذن من غير المنطقي أن يكونوا هم المصممين والمخططين وبناء على ذلك لا يبقى احتمال إلا أن يكونوا عمالا ينفذون ما يؤمرون به يستوون في ذلك بأي عمال آخرين وحتى هذا الاحتمال تكذبه الوثائق والحقائق التاريخية.

---

(١) كوثر بنت عبد الحليم جريدة الأهرام ٢٠٠١/٢/١ .

بناء الأهرام والسُّخْرَة

الحقيقة أن بناء الأهرامات كان مشروعا قوميا شارك فيه المصريون القدماء وخاصة لأن الملك المصري القديم كان يعتبر أمام الشعب شخصية عظيمة ومحاطا بلون من ألوان القداسة لذلك كان المصري يعمل بحب في هذا المشروع وكانت العائلات الكبيرة المنتشرة في صعيد ودلتا مصر ترسل العمال علي حسابهم الشخصي للعمل بالتناوب في بناء الأهرام وترسل أيضا الحبوب من قمح وشعير وسمك مجفف وثوم وبصل وخبز وجعة لإعاشة العمال وعثر داخل ثكنات العمال بالجيزة على أطباق ذات طراز يدل علي إنها خاصة بأهالي الوجه القبلي كانوا يرسلون فيها المؤن للمساعدة في المشروع القومي، وهو بناء الهرم.

وفي عصرنا هذا جسدت السينما العالمية بعض المشاهد التي تشير إلى أن الأهرامات قد بنيت بالسخرة وباستخدام السياط ومن أشهر من قدموا تلك الروايات المخرج سيسل دي ميل في فيلم الوصايا العشر الذي يحاول فيه إظهار السخرة التي عانى منها اليهود وقد قام بالتمثيل في هذا الفيلم الممثل تشارلتون هيستون الذي ارتبط في أذهان اليهود بصلته بالأفلام الروائية والتسجيلية التي تشرح خروج اليهود من مصر.

لكن حقيقة الأمر أن بناة الأهرامات لم يكونوا مطلقا عبيدا وإنما كانوا أحرارا فكان فيهم العمال العاديون والفلاحون الذين يعملون في البناء أثناء وقت فيضان النيل الذي يغمر الأراضي الزراعية تماما مما يجعل الفلاحين والعمال في حالة بطالة لذلك كانوا يعملون بالتناوب في الحقول طوال السنة وفي البناء وقت الفيضان وكانوا بذلك تحت إشراف الفنانين المهرة الذين يضعون التصميمات الفنية والمعمارية.

إن كشف مقابر عمال بناة الأهرام يعد دليلا قاطعا على تخرصات اليهود بأنهم هم الذين بنوا الأهرام. فقد أثبت كشف المقابر أن بناة الأهرام عمال مصريون لحما ودما متوسط أعمارهم كان بين(٣٠، ٣٥) سنة وأطوالهم بين (١٧٥، ١٨٥) سم فهم ليسوا عماليق وهم ليسوا حراسا للأهرامات فالألقاب

واضحة ومكتوبة باللغة المصرية القديمة، وكل يوم يظهر لقب جديد بالجبانة يؤكد أنها مقابر للعمال والفنانين بناه الأهرام[1].

أما بناء الهيكل والمحاريب والتماثيل العظيمة التي بنيت وشيدت في عصر سليمان عليه السلام فالقرآن الكريم يذكر أن الجن هم الذين قاموا بعملها وليس اليهود.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، (سبأ: ١٢، ١٣).

وتوراة اليهود تنسب هذه الأعمال التي بنيت في عصر سليمان للمُسخَّرين من أبناء الأمم الأخرى الذين استرقهم سليمان وسخرهم في بناء الهيكل.

سخَّر الملك سليمان مائة وثلاثة وثمانين ألفا وثلاثمائة رجلا (١٨٣٣٠٠) من أرجاء إسرائيل لبناء الهيكل وهم على النحو التالي: ثلاثون ألف رجل لإحضار الخشب من لبنان، و "سبعون ألفا من حمَّالي الخشب وثمانون ألفا من قاطعي الحجارة في الجبل، ما عدا ثلاثة آلف وثلاث مئة من المشرفين على هؤلاء العمال"، (ملوك الأول: ٥).

وبعد أن أتمَّ سليمان بناء " كل ما رغب فيه في أورشليم وفي لبنان وفي جميع أرجاء سلطنته. أما من تبقى من الأموريين والحثّيِّين والفَرزِّيِّين و الحِوِّيِّين واليَبُوسيين الذين لا ينتمون إلى بني إسرائيل، من ذَرَاري الأمم التي عجز الإسرائيليون عن إفنائهم، فقد فرض عليهم سليمان خدمة التسخير كالعبيد إلى هذا اليوم. أما أبناء إسرائيل فلم يُسخِّر سليمان منهم أحداً، لأن منهم كان يتألف جنوده ورجال حاشيته وأمراؤه وضباطه وقادة مركباته وفرسانه، وكان عدد المُوكَّلين على الإشراف على خدمة العُمال المُسخَّرين لتنفيذ أعمال سليمان خمس مئة وخمسين رجلا "، (ملوك الأول: ٩).

(١) زاهي حواس جريدة الأهرام ٢٠٠١/٤/٦ .

وبناء على ذلك فليس هناك دليل منطقي على أن اليهود كان لهم أي إسهام في بناء أي حضارة إنسانية حتى الهيكل الذي بني في عهد سليمان، فضلا عن قيامهم ببناء أهرام مصر!!

لكنه الحقد الأعمى الذي حدا بالمنظمات الصهيونية محاربة كل إنجاز مصري والوقوف له بالمرصاد حتى ولو كان عمره خمسة آلاف عام.

وعندما فشلوا في إثبات شيءً مما يدعون عادوا إلى اختلاق أكذوبة جديدة هي إن المصريين الحاليين ليس لهم صله بالمصريين القدماء، ويسمي علماء النفس هذا بالإسقاط وهو إسقاط الشخص صفاته على غيره أو بمعنى آخر اتهام الشخص غيره بعيوب نفسه. فاليهود يحسون في قرارة أنفسهم أنهم لا نسب بينهم وبين العبرانيين القدامى، وبدلا من الاعتراف بهذه الحقيقة يحاولون اتهام المصريين بها!!

ويبدو أن ادعاءاتهم لن تنتهي فكلما أغلقنا أمامهم بابا فتحوا غيره وهنا أقول لهم انظروا إلى شكل المصري القديم المصور على جدران المقابر وقارنوه بشكل المصريين الذين يعيشون في صعيد مصر وريفها وحاولوا أن تعيشوا داخل قرية مصريه وعندها سوف تجدون أن حياتهم تتشابه تماما مع حياة المصريين القدماء من حيث بعض العادات والتقاليد من المأكل والمسكن والنشاط اليومي بل و حتى طرق علاج بعض الأمراض كالصداع وبعض أمراض النساء .

وأعتقد أن هناك إجراءات عديدة يمكن من خلالها الرد على اتخاذ اليهود للأهرامات رمزا لهذه القناة الفضائية الإسرائيلية كاللجوء إلى تحكيم القانون الدولي لأنه ليس من حقهم قانونا الحصول علي الرمز كما ليس من حق أحد تقليد الآثار(١).



(١) زاهي حواس جريدة الأهرام ٦/٤/٢٠٠١ .

كتب للمؤلف

(أ) كتب مطبوعة

١- ميزان الحق بين العلمانية اللا دينية والسلفية اللا أصولية	مكتبة مدبولي
٢- الدين والسياسة والنبوءة	دار الكتاب العربي
٣- اليهود والصليبيون الجدد ، الدجل الديني والسياسي	دار الإبداع للصحافة والنشر
٤- اليهود والصليبيون الجدد (الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة)	دار الإبداع للصحافة والنشر
٥- هذه استراتيجيتهم ، فماذا نحن فاعلون؟	دار الإبداع للصحافة والنشر
٥- إسرائيل وحزب الله ولبنان ، الفائز والخاسر ومن دفع الثمن	دار الإبداع للصحافة والنشر
٧- فتح وحماس ، من مقاومة الاحتلال إلى الصراع على السلطة	دار الإبداع للصحافة والنشر
٨- اليهود والصهيونية وأوهام الأمة العربية	دار الإبداع للصحافة والنشر
٩- من أحلام الشباب (قصص قصيرة)	دار الإبداع للصحافة والنشر
١٠- زمن الطغيان (قصص قصيرة)	دار الإبداع للصحافة والنشر
١١- ابن السلطان يبحث عن سمير (قصص قصيرة)	دار الإبداع للصحافة والنشر

(ب) كتب تحت الطبع

- **سلسلة نحو فهم صحيح لحقيقة الصراع العربي الصهيوني**

١- دروس سياسية من التجربة الناصرية .

٢- الطبيعة العربية والصهيونية، الزعامات المزعومة والسياسات المدروسة.

٣- معجزة إسرائيلية أم خيبة عربية .

٤- الخلاص الإلهي في آخر الزمان في اليهودية والمسيحية والإسلام.

• رؤية إسلامية للحضارة المصرية القديمة

- يؤمن المؤلف بأنه لن يُجدِّد شباب الأمة العربية والإسلامية إلا الإيمان الصادق ، والفكر المستنير، والعمل المخلص، وفقه الواقع، وأنه ليس أضر عليها من النفاق، وجمود الفكر، والتواكل، والجهل بالواقع .

البريد الالكتروني

yuness112@hotmail.com:

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الفصل الثاني
أسطورة شعب الله المختار

الفصل الثالث
أسطورة النقاء العرقي لليهود

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع
أسطورة الخلاص الإلهي لبني إسرائيل في آخر الزمان

الموضوع الصفحة

الباب الثاني

الفصل الأول

أسطورة عداء الأغيار الأزلي لليهود

الموضوع الصفحة

الفصل الثاني

أسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض

الفصل الثالث

أسطورة عداء الصهيونية لأعداء السامية

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع
أسطورة الملايين الستة (الهولوكوست)